بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(١)

المهمة غير المستحيلة

الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم

المهمة غير المستحيلة: الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨.- ١٤٤ ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ١)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري



2011=1432

دار الفكر - دمشق – برامكة
٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

١

المهمة غير المستحيلة

الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٤,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-66-5

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٤٤ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

إهداء ...

أهدي هذه السلسلة إلى لميس الدفتري،

والدتي..

محاولة لسداد دين، لا يمكن سداده...

مقدمة أولى

"نولد، إحدى ولاداتنا"

(١)

كنت في الثامنة من عمري تقريباً يوم ولدت ذات مرة..

حدث ذلك - ويا للعجب - في قاعة للسينما.. يوم اصطحبني والدي، قبل عقود تبدو الآن كما لو أنها ثلاثة قرون، لنشاهد فيلم (الرسالة)، صبيحة عيد غير منسي..

هناك، في تلك القاعة المظلمة، شاهدت سيمفونية الصوت والضوء على الشاشة، وفهمت كيف يمكن للعتمة أن تكون مضيئة..

أقول: إني ولدت هناك، لأن تفاعلي مع الضوء في تلك العتمة أدى إلى قراري الذي أسررت به إلى جدي لاحقاً ذلك المساء..

قلت له: إني سأبدأ بالصلاة..

ولم يكن جدي يصلي، بالمناسبة، ولا أدري لم اخترته لأقول له ذلك السر همساً في أذنيه، ربما كان الأمر

كطريقة احتجاج طفولية غير واعية على عدم صلاته هو..

لا أدري.. لكني أعرف أني اختزنت كل ذلك في داخلي، كبرت، و تذبذب خطي البياني في الالتزام صعوداً وهبوطاً..

لكن سيمفونية الصوت والضوء، وتلك العتمة المضيئة، وتلك (الرسالة)، وذلك العيد اللامنسي، كله اختلط في داخلي، بالصلاة..

بطريقة أو بأخرى..

(٢)

كنت دوماً أجد أنه من المؤلم أن الناس لا يصلون..

خصوصاً عندما كنت أجدهم أشخاصاً طيبين.. أشخاصاً ذوي معدن أصيل.. يتصرفون بنبل وشهامة، ومع ذلك لا يصلون..

كان ألمي يتجاوز المجاز المألوف في حالات كهذه - ليصل إلى حدود الألم الجسدي الحقيقي.. كنت أستغرب من قدرتهم على (عدم الصلاة)! مجرد قدرتهم على ذلك كانت تثير استغرابي: كيف يستطيعون أن يفعلوا ذلك؟.. يفعلوا (عدم) أداء الصلاة؟..

كان (عدم الصلاة) هو الفعل الشاق الذي يتطلب أداؤه جهداً استثنائياً مقارنة بما أتصور أنه الطبيعي؛ أداء الصلاة..

كنت أستغرب - تحديداً - قدرتهم على الاستيقاظ من

النوم، وغسل وجوههم، وتنظيف أسنانهم، وتناول طعامهم، ومن ثم التوجه إلى عملهم أو مدارسهم أو جامعاتهم دون أن يصلوا..

كيف يواجهون يومهم، دون صلاة؟..

بل كيف يواجهون حياتهم بلا صلاة؟..

كنت أتخيل أن العالم بلا صلاة يشبه صحراء الربع الخالي ليس إلاّ، وكنت أستغرب كيف يمكن لأي شخص أن يعيش في الربع الخالي..

كان ذلك كله أمراً غير مفهوم..

وفوق هذا: كان مؤلماً بشكل استثنائي..

(٣)

لكل فعل رد فعل، مساو في القوة ومعاكس في الاتجاه..

قانون الفيزياء هذا، عندما يتمثل في فعل هو (الألم) - فإنه سيعبر عن نفسه في محاولة دفع الألم، أو تهدئته..

أعلم أن لذلك أشكالاً مختلفة، لكن الأمر كان معي أني صرت أحاول رفع الألم عبر محاولتي جعل الناس يصلّون.

لم يكن ذلك ممكناً مع كل الناس بالتأكيد. ولكنه كان ممكناً مع بعضهم. ولم يكن (الأمر) يخلو من المطبات، والنزق، والعناد خاصة وأن انتقاء الأشخاص كان يخضع لمعايير شخصية لم تكن تخلو من مزاجية..

وبكل الأحوال، كان الأمر يشبه أحياناً ركوب (سكة

الموت) صعوداً إلى الذروة وهبوطاً إلى القاع، في التعامل مع تعقيدات النفس البشرية، بكل ما في ذلك من نشوة أحياناً.. ومن إحباطات، في أحيانٍ كثيرة..

وكان هناك أحياناً، الضوء، من قلب العتمة..

(٤)

مع الوقت، اكتشفت أن ما هو أسوأ من الألم الحاد، حالة (اللاألم) التي يمكن أن تتقدم بها بعض أخبث الأمراض وأشدها فتكاً.. دون أن تقدم (إشارة) أو (علامة) على تقدمها..

اكتشفت أن مجيء الناس إلى الصلاة قد يخفف الألم، لكن ما يجب أن يكون أشد إيلاماً أن الصلاة لا تغيرهم حقاً.. أو، أنها لا تغيرهم على الأقل كما ينبغي لها أن تفعل..

كنت ألاحظ ذلك في نفسي أولاً، وفي معظم من حولي، الصلاة هذّبت هذا السلوك أو ذاك، نهت عن هذا الفعل - حسنت مثلاً من انتقاء الأصحاب والرفاق.. وهذا كله في أحسن الأحوال - وأحياناً لم تفعل.. ولكن ذلك كله كان دون المتوقع من (عماد الدين).. كان من الصعب، على بقايا الطفل في داخلي أن يقتنع أن "هذا هو كل شيء".. وأن ملحمة الضوء التي قابلها ذات يوم، لم تتمخض سوى عن ضوء (نيون) باهت..

كان مجرد القبول بذلك مساومةً مؤلمة، وكان قبول

الناس بها واعتبارها أمراً مسلماً به، في حد ذاته أمراً مؤلماً..

كان من المؤلم جداً أن الناس لا يصلون..

ولكنه كان من المؤلم أكثر، أنهم إذا صلوا، ربما لا يتغيرون..

(٥)

هذه محاولة (مختلفة) تنطلق من الإيمان بأن "هذا ليس كل شيء" بخصوص الصلاة..

إنها محاولة لإثبات أن ما هو عماد للدين، يمكن أن يكون عماداً للشخصية.. وللفرد.. للمجتمع.. وللحضارة..

إنها محاولة لاسترداد الضوء من قلب العتمة.. ولبعث "الرسالة" في حياة كل منا..

إنها محاولة، لكي نولد من جديد، إحدى ولاداتنا..

لكني آمل، هذه المرّة، أن تكون هي (الولادة الأهم)؛ الولادة التي تحدث فرقاً في حياتنا، أفراداً، ومجتمعاً أيضاً..

أو على الأقل: شيء كهذا..



مقدمة ثانية

رؤوس أقلام

لما يجب أن يكتب بغير القلم

١- أنصح أي قارئ أوحى له عنوان السلسلة أن فيه (وصفة ما) للخشوع، أن يوفر ثمنه لأي شيء آخر. فليس في الكتاب ما يفيده في الخشوع بهذا المعنى المباشر. هذا إن كان هناك على الإطلاق، وصفة جاهزة يمكن أن تخدم هذا الغرض أصلاً.

الأمور الحقيقية العميقة في الحياة، ومن ضمنها الخشوع - لا يمكن أن تأتي أبداً بوصفة جاهزة كما هي وصفات الأطعمة وكتب الطبخ. ربما الإرشادات والنصائح العامة تساعد بطريقة ما، لكن تلك الوصفات التي تضع نقاطاً وترقّمها، لا تؤدي حقاً إلى النتائج المرجوة منها، على الرغم من أنها مغرية لسهولتها.

٢- على العكس من الوصفات الجاهزة، فإن السلسلة تحاول أن تنقب بعيداً عن كل ما هو جاهز وسائد، بحثاً عن المعاني العملاقة المطمورة تحت مفاهيم تكونت مع

الوقت ونسبت إلى الدين والنصوص الدينية دون أن يكون لذلك النسب حقيقة. بعض هذه المفاهيم ليس سلبياً بحد ذاته، لكنها تعرضت مع الوقت لعملية جردتها من كل إيجابياتها.

٣- أؤمن، بشكل مطلق، "بثبات الشكل وتمدد المعنى"، بمعنى أن الصلاة التي أتحدث عنها هي (الصلاة) التي يعرفها ويطبقها المسلمون منذ قرون إلى اليوم، دون أي انحراف أو تحريف في شكلها ولفظها، ولكني أتحدث عن (تمدد المعاني) المرتبط بهذه الأشكال والألفاظ، وهو (تمدد) لا يلغي التراكم بالضرورة، كما أنه لا يعارضه بالضرورة أيضاً، إنه إقلاع إلى أفق أعلى، لذا فأنا هنا أتحدث عن أفق جديد لمعاني الصلاة، وهو أفق لا يلغي الآفاق الأخرى، بل ربما يزيدها سطوعاً ووضوحاً..

٤- لا أزال أؤمن بأن الأفكار عندما (تتغير) فإنها (قد) تؤدي إلى تغيير السلوك. التقليل هنا لأن ذلك، للأسف، ليس حتمياً. وأحياناً يحدث تغيير في الأفكار، دون أن يرافقه تغيير موافق في السلوك على الإطلاق، الأمر الذي ينتج تلك الهوة المعروفة بين الفكر والسلوك، التي قد تصل إلى حد النفاق أحياناً..

والحقيقة أن عملية تغيير السلوك أمر أصعب من عملية تغيير الأفكار، فهي لا تشمل الإيمان بفكرة جديدة فحسب، بل استئصال الفكرة السلبية أيضاً، وهو أمر سيكون - سلوكياً - أصعب وأعقد من مجرد الاقتناع، لأن الفكرة السلبية قد تكون لها رواسبها وجذورها المتأصلة في

اللاوعي. بينما الفكرة الجديدة ماتزال في سطح الوعي وغير مؤصلة ولا مرسخة بمفاهيم ونمط سلوك اجتماعي، كما هو الأمر مع الفكرة السلبية. مثال نموذجي على هذا، وعي المدخنين بمضار التدخين، والأخطار الصحية التي قد تنتج عنه، ولكن هذا الوعي لا ينتج بالضرورة تغييراً في سلوكهم، رغم قوة الحملات الإعلانية التي تدعوهم لذلك. و مثل ذلك يصحُّ على الكثير من العادات الغذائية الضارة صحياً؛ الناس تعلم، ولكنها مع ذلك تواصل. عملية الإقلاع والامتناع والتغيير تتطلب آليات معقدة أكثر بكثير من مجرد المعرفة والعلم، أكثر من مجرد الوعي.

٥- التدخين والعادات الغذائية الضارة هي مجرد مثال تبسيطي لما أريد الحديث عنه، الذي هو أمر أخطر وأكثر فتكاً بكثير من الدخان. فإذا كانت السجائر تسبب السرطان في هذا العضو أو ذاك، فإن الأمر الآخر هو السرطان بعينه؛ إنه ذلك الموات التاريخي والسلبية التي نعيش في حضنها كما تعيش الخفافيش في الظلمة الحالكة .إنه فقدان الإرادة وفقدان المناعة، والإدمان على حالة (اللافعل). كل ما هو سلبي مما يتجلى أحياناً، من أبسط السلوكيات الفردية (رمي القمامة مثلاً) إلى السلوكيات الجماهيرية المعقدة التي تحترف اللامبالاة تجاه كل ما يحيق بها، أو تنفس عن قلقها بطريقة عاطفية، وكل هذا ينتج إحصاءات وأرقاماً مخيفة عن تدني كل المستويات الحضارية، وهي أرقام سيئة بالمطلق أيضاً، وليس (نسبياً) فقط، أي ليس بمقارنتها مع أرقام الآخرين.

٦- تغيير هذا السلوك الاجتماعي المتردي هو عمل صعب جداً (نأمل ألاّ يكون مستحيلاً) وهو لا يقارن طبعاً بعملية الامتناع عن التدخين، وأي اقتراح بتتبع طرق الامتناع عن التدخين نفسها، لا يمكن أن يكون جاداً. فالسلوكيات التي نتحدث عنها تملك من الحصانة والرسوخ ما يجعلها تتغلب على أي محاولة من هذا النوع، وبهذا الأسلوب. لا يعني هذا طبعاً النكوص عن عملية نشر الوعي ومحاربة الفكرة أو المنظومة السلبية. لكن مجرد التصور أن ذلك كاف سيكون كافياً لقتل الأمر.

٧- بعض أسباب رسوخ وحصانة السلبية تعود إلى ارتكازها على مفاهيم تنسب زوراً وظلماً إلى الدين، أو إلى نصوص دينية مجتزأة من سياقها، أو إلى مواقف لعلماء دين كانت مجرد ردود أفعال في سياقها التاريخي. وهكذا فإن ذلك كله يتداخل مع أمثال شعبية وأقوال مأثورة وأنماط سلوك شائعة قديمة تجعل من كل ما سبق يمتلك حصانة وقداسة لا مبرر لها دينياً، بل وكل ما في الإسلام هو ضد كل هذه السلبية.

٨- جزء من القوة الحقيقية للسلبية يكمن أحياناً في السلبية نفسها؛ في كونها أسهل، في كون البشر يميلون أحياناً إلى عدم تحمل المسؤولية ويستسهلون السلب. الإيجابية فعل (مواجهة) وهو فعل يتطلب المخاطرة وقد يحتمل الخسارة كما الربح. بينما السلبية تراهن على الاستقرار، ولو في بناء آيل إلى السقوط. وهكذا تضاف

إلى القوة الكامنة للسلبية، حصانة الارتباط الزائف بالدين الحنيف.

٩- منذ أن أدرك مفكرو النهضة الأوائل عمق الهوة بين ما يريده الإسلام منا، وما نحن عليه، وهم يحاولون، بشتى الوسائل جسر تلك الهوة، بين ما يجب، وما هو حاصل، ولا يمكن الادعاء أن النتائج كانت جيدة أو حتى مشجعة. هذا إن كانت هناك نتائج على الإطلاق على مستوى النهضة الحقيقية (التي هي شيء آخر أعمق وأبعد من مجرد تنمية اقتصادية على النمط الغربي). وسيكون من قبيل الادعاء أن نقول: إننا خرجنا من القرن العشرين بشكل أفضل مما دخلناه، بل والحقيقة هي أننا خرجنا من الألفية الثانية كلها، بشكل أسوأ بكثير من دخولنا إليها أي قبل ألف سنة من الآن.

١٠- لكن هل النهضة مرتبطة بالدين بالضرورة؟ ألم يدشن الغرب نهضته عبر طلاق الدين؟.. في الحقيقة السؤال مطروح، ولكنه مغلوط، يستند إلى فرضية غير صحيحة أصلاً: فرضية طلاق الدين في الغرب. وهو ما روجته عندنا وعندهم أطراف متعددة لأسباب لا مجال للخوض فيها. لكن الحقيقة أن (النهضة) في الغرب ما كانت لتنجز أو تنطلق لولا حركة التجديد التي قام بها لوثر[1]، وتداعياتها الإيجابية على مختلف المفاهيم - حتى

(١) لوثر: مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) مصلح ديني ألماني ثار على السلطة الكنسية البابوية وتعليماتها، وأدت ثورته هذه إلى ما عرف لاحقاً بالإصلاح البروتستانتي - وأثرت على مجمل رؤية الحضارة الغربية للعالم.

عند الطوائف المسيحية الأخرى من غير البروتستانتية - الأمر الذي سهل الخروج من القرون الوسطى ومفاهيمها، ولولا هذا التجديد اللوثري لربما كان تغير وجه التنوير الأوربي. ربما تفاعلت الأحداث لاحقاً بشكل أدى إلى حدوث طلاق من الدين في بعض جوانب الحياة؛ لكن هناك أمران مؤكدان: الأول أن الطلاق لم يكن بائناً، والثاني أن (التجديد) في المفاهيم الدينية لعب دوراً أساسياً (إن لم يكن دور البطولة الرئيسي) في قدح شرارة النهضة الأولى..

١١- لا أحاول هنا الإيحاء أن علينا تتبع خطا النهضة الغربية، إنما هو لتصحيح ما هو سائد من فصل وانفصال بينهما. وأحب أن أؤكد أن الواقع الكارثي الذي نعيش فيه يجب ألاّ يعمي أبصارنا عن سلبيات الحداثة الغربية التي هي المحطة الأخيرة في التفاعل المتسلسل الذي بعثته النهضة الأوربية. واقعنا الكارثي يجب ألاّ يدفعنا إلى تقليد خطاهم (على الرغم من كارثيتنا)؛ بل يجب أن نبحث عن نهضتنا وعن خيارنا نحن، لأن طريق الحضارة الغربية ليس بالضرورة هو الطريق الوحيد الممكن، (ولا البقاء في وضعنا الراهن بالتأكيد).

١٢- أكثر من هذا، أزعم هنا أن الدين لا يمكن أن يقدح زناد النهضة فحسب؛ بل أنه لا نهضة بلا دين أصلاً. يمكن أن يكون هناك (تنمية) بلا دين، هذا وارد وحاصل. أن يحدث نمو في الاقتصاد والإنتاج ومستويات الدخل والرفاهية.. إلخ بلا دين، لكن هذا ليس (نهضة)،

والخلط بين المفهومين حاصل للأسف. النهضة أمر أعقد وأوسع بكثير، وهي قد تتضمن التنمية الاقتصادية كتحصيل حاصل، لكن لا يمكن اختزالهما معاً بعملية التساوي تلك. التنمية الاقتصادية يمكن التخطيط لها عبر (خطط خمسية) وقد تؤدي إلى تحقيق التنمية إذا تمَّ الالتزام الجدي بها. أما النهضة، فهي روح تسري في مجتمع ما، أو تبعث أمة من العدم، من الموات، السبات، روح تجعل أفراد الأمة ينصهرون معاً، ويتوقون لتحقيق أهداف ومُثُل وقيم هي أعلى بكثير من مجرد ارتفاع الدخل ومستوى الرفاهية. إنها المثل التي تجد فيها الأمة كينونتها وما تتصور أنه الهدف من وجودها.

وإذا كان الاقتصادي والسياسي يلعبان الدور الأهم في التنمية، فإن المفكر - خاصة المفكر الديني - هو من سيقوم بالدور الأهم في التحضير لشرارة النهضة؛ في منحها الطاقة الأولية اللازمة لقدح الزناد، عندما تكون سائر الأسباب والشروط الأخرى - بضمنها الفرصة التاريخية - قد توافرت.

١٣- ليس هذا فقط، ليسَ فقط، إن كل نهضة تعتمد حتماً على القيم الدينية، ولكن حتى لو لم يصح ذلك في نهضات الأمم الأخرى، فإنه لابد أن يصح معنا - لابد أن تكون نهضتنا معتمدة على الدين. ذلك أن جزءاً من أسباب ركودنا تحصن خلف مفاهيم نسبت نفسها إلى الدين، وعملية التصحيح هذه لا يمكن أن تقبل إن كانت من خارج المنظومة الدينية، لابد أن يكون التصحيح ذاتياً

ومنبعثاً من داخل المنظومة الدينية. لابد أن تطهر الأفكار الدينية الحقيقية الإيجابية كل ما علق من سلبيات في الفكر الديني السائد.. ووحده المفكر الديني سيستطيع أن يستأصل السلبي من الأفكار المتنكرة بالدين، عبر مقارعتها بسلطة النص ومقاصده.

ليس الأمر بالتجربة والخطأ.. وتكرار التجربة من أجل تكرار خطأ.. إنه جزء من طبيعة الأشياء وسننها، إنه ليس وجهة نظر: إنه ما يجب أن يحدث.

١٤- ما الذي حدث إذن مع النهضة؟ لماذا لم تحدث؟ لِمَ تمَّ اختصارها أحياناً إلى (الصحوة)، وأحياناً أخرى إلى (التنمية)؟ وقد حصلت الصحوة فعلاً، وحدثت تجارب تنموية ناجحة إلى حد بعيد في بلدان معدودة، ولكن (النهضة) لم تحدث مع أن فرصاً تاريخية، وتحديات كانت نظرياً يجب أن تحفز الاستجابة، لكن ذلك لم يحدث. ومرّت التحديات، والفرص، وكأن شيئاً لم يحدث. مفكرو النهضة، (الذين لا داعي هنا لذكر أسمائهم، على الرغم من أن تعدادها لن يستغرق زمناً طويلاً!) أنتجوا ما أنتجوه، ونزفوا فكرهم حبراً ومداداً على الورق. ولكن للأسف، وحتى الآن على الأقل - وبعد عقود طويلة من صرخاتهم الأولى، لم تثمر زراعتهم وحراثتهم في نفوسنا، كما كان يجب أن يحدث.. ليس في هذا دعوة لليأس أو لترك ما أنتجه رواد النهضة الأوائل؛ لكن التقويم المرحلي قد يساهم في تفعيل ما أنتجه هؤلاء وإعادته إلى الحياة.

١٥- ثلاثة أسباب رئيسية - في رأيي - ساهمت في

إجهاض فكر النهضة (عدا الأسباب الخارجية، التي لا يمكن تحييدها تماماً لكننا لسنا بصددها الآن)..

السبب الأول: إن فكر النهضة ركز - غالباً - على محاولة زرع ما هو إيجابي وإحيائه من النصوص الدينية، ولكن تجنب رواد هذا الفكر استئصال العوامل السلبية الموجودة، فكانوا كمن يضع بذوره الثمينة دون أن يمزق الأعشاب الضارة. أسباب هذا الموقف واضحة طبعاً، لكن كان الثمن باهظاً جداً؛ فللعامل السلبي قوة أكبر عندما يترك دون مواجهة، ولقد كان ما كان.

السبب الثاني: وجود تلك الهوة المزدوجة التي عانى منها فكر النهضة.

الهوة الأولى هي تلك الهوة بين (متعاطي هذا الفكر) أي النخب المثقفة، وبين الناس خارج هذه النخب، وأنا لا أقصد هنا مفهوم عامة الناس، بل حتى الطبقة الوسطى، والحائزة على تعليم جامعي عالٍ، لم يستطع فكر النهضة التغلغل أو حتى الوجود هناك، على أهمية هذه الطبقة وإمكاناتها الافتراضية الكامنة في أمر النهضة. قد يكون لغموض خطاب فكر النهضة واستخدام لغة فوقية يعجز عن التواصل معها أي أحد خارج تلك النخب، سبب في ذلك. وقد يكون الأمر أعقد من ذلك.

الهوة الثانية هي تلك الهوة بين الفكر والسلوك، إذ لم يحاول النتاج الفكري للنهضة - في غالبه - التوجه إلى تفعيل السلوك بما يتناسب مع هذا الفكر، أي أن يكف

الفكر عن كونه مجرد كلام، وربما حتى شعارات، ويتحول إلى سلوك تطبيقي يكون جزءاً من منظومة النهضة جميعها.

السبب الثالث: وربما كان ناتجاً عن (الهوتين) السابقتين، وهي أن فكر النهضة لم يحاول الدخول إلى مشاكل الناس وهمومها، لم يدخل في رغيف خبزها وعَرق مرقها وحليب ودواء أطفالها، بل بقي مكتفياً بالتجريدات النخبوية... والناس في البداية والنهاية تريد أن تعيش، ولا يمكن لومها على ذلك طبعاً، لذلك كان لابد للنهضة - كي تكون - أن تلتحم بمعاناة الناس وتطلعاتها؛ أن ترتبط بنبضهم وهمومهم وأرقهم وقلقهم؛ أن تفهم أن حلّ مشاكلهم لن يكون حقاً إلا عبر تلك النهضة الشاملة التي تعيد رسم الأمور من جديد. وقتها فقط، لن تصير النهضة (كلام نخب) و (صالونات أدبية) بل تخرج إلى الناس لتكونهم ويكونوها، وتصير قضيتهم الملتحمة بهمومهم اليومية.

١٦- ما دخل الصلاة، وكيمياء الصلاة، بكل هذا؟..
أؤمن الآن إيماناً جازماً، أن الصلاة هي الحلقة المفقودة التي يمكن لها، لو وظفت في سياقها الأصلي - أن تجسر تلك الهوة المزدوجة، وأن تقدح زناد شرارة تفاعل متسلسل (لا بد أنه يحتاج لعناصر أخرى لإتمام التفاعل).

الصلاة، من حيث الشكل والمضمون، تحتوي على تلك الخاصية التي تجعلها (وسطاً) بين الفكر والسلوك من جهة، ووسطاً من بين النخب المثقفة والطبقة الوسطى

(على الأقل). الناس عموماً لن يهتموا بالنهضة ومفكريها إلا في حالات نادرة واستثنائية، لكنهم يهتمون عموماً بالشعائر، خصوصاً بالصلاة، حتى لو أدّوها كيفما كان؛ بتقصير في أدائها وأركانها ووقتها، لكن الصلاة عموماً موجودة في حياتهم ربما أكثر من أي شيء آخر، وأكثر بالتأكيد من أي فكرة من أفكار النهضة، لذلك لو تمكنا من أن نبعث (شحنة) النهضة ومعانيها وقيمها في الصلاة، لو استطعنا، ولو بنسبة ما، أن نجعل من الصلاة بأشكالها وقوالبها تجسيداً لتلك النهضة، لاستطعنا أن ننزلها من برجها العاجي، والرف العالي الذي يعلوه التراب، وجعلناها أقرب إلى الفعل؛ إلى الإنسان العادي في حياته اليومية.

١٧- بعث قيم النهضة في الصلاة ليس توظيفاً نفعياً للصلاة من أجل هدف مسبق هو النهضة، وإن كان الأمر سيبدو كذلك للوهلة الأولى. أستطيع أن أجد، أو بالأحرى أن أتصنع، معنى نهضوياً هنا أو هناك. لكن البحث، كما سنرى، تمخض عن (منظومة نهضة) متكاملة ومترابطة في كل جزء من أجزاء الصلاة، بل في كل لفظ من ألفاظها، وهو أمر يفوق قدرتي الشخصية على التصنع ، بل على قدرة أي أحد على الإطلاق، ويدخل في نطاق إعجاز هذا الدين الذي بذلنا كل ما وفي وسعنا لخنق طاقاته وتقزيم آفاقه.

١٨- وبعبارة أخرى، فإني أرى أن قيم النهضة، ومنظوماتها كانت دوماً موجودة، وكانت فاعلة على الأقل في

الفترة التي شهدت نهوض الأمة وانطلاقها. لماذا إذن لا نجد تنظيراً بهذا المعنى؟.. لِمَ لم نجد آثاراً بهذا المعنى في أعمال السلف؟.. ربما لأن الأمر كان بديهةً، وكان أثر الصلاة عليهم محسوساً بلا تنظير، وربما لأنهم عبروا عن ذلك بطريقة و لغة مختلفة عن التي نتحدث بها اليوم، المهم أن الصلاة كانت دوماً تشكل (البنية الفوقية) للقيم، ومصدراً للحوافز ولرؤية العالم.. وكان ذلك يجعلها دوماً منصبةً نحو النهضة (حتى لو سميت النهضة باسم آخر).

١٩- كاتب هذه الكلمات لا يملك أوهاماً تبسيطية حول صعوبة كل ما سبق. إنني أعي تماماً أن التغيير عملية أعقد بكثير من استحضار معاني النهضة في الصلاة. لكني أؤمن أن ذلك يمكن أن يكون عنصراً في معادلة التغيير، على الأقل، لأن الصلاة يمكنها أن تجعلنا فاعلين، تغير رؤيتنا للعالم، تجعلنا ندخل معادلة التغيير التي تم إقصاؤنا عنها.. كما أني أعي تماماً أن انتشار هذه الأفكار يتطلب دعماً مؤسسياً وإعلامياً، إنها كي تنتشر يجب أن تأخذ أشكالاً مختلفة، ومنابر مختلفة، وليس عندي أدنى فكرة عن (الكيف) هنا، لكني أؤمن تماماً أن الله يسخر سننه بطريقة نجهلها أحياناً، وأن كلاً ميسر لما خلق له. إنَّ دوري هنا أن أكتب، وإنَّ آخرين - ربما لا أعرفهم وربما يعيشون في قارات أخرى - سيكون لهم أدوار أخرى، فسيمفونية النهضة تنتقي نغماتها بشكل غامض، تأخذ نغمة من هنا، وإيقاعاً من هناك، حركة من هنا، لحناً من هناك، وتصبها معاً في مصبٍّ واحد وملحمة واحدة.

٢٠- بدأ الأمر كله من ذلك السؤال الذي كنت أسمعه أينما حللت من مختلف الفئات العمرية، والاجتماعية: ما العمل؟ من أين نبدأ؟.. ذلك التساؤل الذي يعكس التوق للعمل والحاجة إلى جَسْر الهوة بين الفكر والسلوك. قادنا الحوار، ذات مرة، إلى البدء بما بدأ به الرسول عليه الصلاة والسلام، يوم أنشأ الحضارة الأولى.. وكان الحديث عن "إقامة الصلاة" الذي سبق.. ومهد لإقامة المجتمع.. ثم كان ما كان، من سبعة أشهر مليئة بالضوء والزخم استغرقتها السلسلة في الإنجاز، آملاً أن ينتقل الضوء والزخم، إلى حياة الآخرين.. عبر تلك السنن الإلهية التي لا نفهمها أحياناً..

أضع نتاج تلك الأشهر المضيئة، في قُنَيْنة زجاجية، وأرمي بها في بحر الظلمات.. وكلي ثقة، أنها ستعين بطريقة ما في الوصول إلى بر النور..

الفصل الأول

"نصلي" ولكن...!

لماذا نصلي؟..سؤال غير مطروح، على الأقل ليس بصوت عال، فقد تعودنا أن نعدَّ ما هو بدهيّ لا يناقش، ولو لغرض ترسيخه وهكذا، ولأن الصلاة فرض مكتوب، ولأنها عماد الدين، ولأنها الخط الفاصل بين الكفر والإيمان، ولأن من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين"، فإننا نستبعد السؤال، ونحاول تكريس الأمر وترسيخه في نفوسنا ونفوس أولادنا، ونفوس من حولنا.. دونما محاولة البحث عن أسئلة لذلك ..فالصلاة (فرض) وهذا يكفي..

وعموماً، فإن الناس صارت تعد "الصلاة" بمنزلة هوية؛ لكون الشخص المصلي ملتزماً بأداء بعض ما افترضه إسلامه عليه، كدائرة أخص من دائرة الإسلام العام الذي يدخله المرء بمجرد أداء الشهادة.. وأداء الصلاة، هو ذلك الباب العالي الذي يجتازه المرء ليحظى بفرصة في الفوز والنجاة الأخروي..

* * *

يختلف الناس حتماً في أدائهم صلاتهم.. وأيضاً في تقويمهم لها.. وفي توقعاتهم منها، هناك فئة، ليست غالبة حتماً بمقاييس الكثرة، تحرص على أدائها في وقتها، وربما على أدائها جماعة، وربما على محاولة استحضار الخشوع في أثناء أدائها، وهناك فئة أوسع قليلاً من سابقتها، تحاول على الأقل واحدةً من هذه الأمور (الوقت - الجماعة - الخشوع)، فتنجح مرة وتخفق مرات، وهناك فئة أوسع حتماً من الفئتين السابقتين، وهي التي يكون أداؤها للصلاة سيئاً، حتى حسب تقويمها لنفسها، فالصلاة قد تؤخر إلى وقت الصلاة التالية، وقد تؤدى كنقرات سريعة، وقد يختفي التركيز تماماً، فلا يعرف ما الذي قرأه في صلاته..

وهناك فئة أوسع من كل هذه، تؤدي الصلاة (أحياناً) - وتتركها لفترات مختلفة، ثم تعود إلى الصلاة، وربما تود لو أنها تستمر، لكنها تنقطع مجدداً.. وهكذا..

وهناك طبعاً، فئة لا تصلي البتة.. ليس بسبب موقف مسبق ينكر الصلاة أو ينكر كونها فريضة، وقد يكون الكسل واحداً من الأسباب، وليس كلها.. هناك الإهمال.. هناك عدم الاكتراث.. هناك (اللا شيء) الذي يجعل بعضهم لا يلتفتون للصلاة..

كل هذه الفئات موجودة، وربما تكون موجودة بأكثر مما يطيب لنا أن نعرف، ربما يمر بها الواحد منا في مراحل حياته المختلفة، وحقيقتها الإحصائية - اجتماعياً - تمثل أن الكثيرين، مثلنا، قد يمرون بذلك في حياتهم أيضاً..

للصلاة مقاصد عديدة، وقد كتب فيها المصنفون ما لا يمكن تجاوزه، خاصةً ما صنفه سلطان العلماء (العز بن عبد السلام)..

وهذه المقاصد، ترتبط فيها الدنيا بالآخرة، في زواج لا فكاك منه، ولا طلاق فيه ..فالفصل بين الدنيا والآخرة لا وجود حقيقياً له في شريعة ترى أن "الدنيا هي مزرعة الآخرة"، وهي موضع الامتحان الذي ستعرف نتائجه في الآخرة، أي إنهما مرتبطان مثل ارتباط أداء الطلاب في قاعة الامتحان، بإعلان النتائج لاحقاً.. ولا مجال لأي نوع من الفصل بينهما.. وهكذا فإن أي حديث عن (مقاصد)، هو حديث مقاصد دنيوية أولاً، تؤدي إلى مقاصد أخروية كتحصيل حاصل وكنتيجة مرتبطة بالدنيا.. ولا يمكن الحديث عن هدف أخروي دون ارتباطه بعمل دنيوي، بإنجاز يحصل في الدنيا.. ويؤدي إلى هذا الهدف الأخروي..

* * *

على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أن الحديث عن مقاصد الصلاة ليسَ جديداً البتة، إلا أن معظم ما ننشأ عليه، يجرد صلاتنا من جانبها الدنيوي، ويركز على الجزاء الأخروي لها، فيجعل الثمرة بمعزل عن الجذر، ويجتزئ نصوصاً من سياقها الكبير، فيجعل من أداء (الصلاة) بمعزل عن دورها الاجتماعي (أي الدنيوي)، كما لو كنا نؤديها لمجرد الأداء - كما لو أن الهدف

المطلوب من الصلاة، هو أن نؤديها فقط، أي أن نقف في تلك الأوقات المحددة، ونقول ما نقول، ونؤدي تلك الحركات.. وينتهي الأمر هنا..

نتائج الصلاة خارج أوقاتها الخمسة

دوماً الحديث عن الصلاة، مرتبط بوقتها (المباشر)؛ أي بمجموع الأشياء والكيفيات التي تحدث في أثناء أدائها، وخصوصاً الخشوع الذي يجتاح القلب والمشاعر فيها..

لكن من الواضح، أن المقاصد الاجتماعية للصلاة، ستظهر ليس في أثناء ذلك؛ بل بعده بالتأكيد؛ أي في الأوقات الأخرى، بين الأوقات الخمسة..

ومراقبة أدائنا للصلاة ربما يتطلب مراقبة أحوالنا ليس في أثناء أداء الصلاة فقط، ولكن خارجها أيضاً..

فهذان يفترض أنهما مرتبطان معاً ارتباط السبب والنتيجة.. وعزل الواحد عن الآخر عملية عبثية تماماً، مثل تحضير عناصر معادلة كيميائية دون الاهتمام بمراقبة نتائجها..

بالضبط يحدث الأمر عندنا مثل هذا؛ نقضي وقتاً كبيراً في إعداد عناصر (تفاعل كيميائي) دون أن نحاول مراقبة نتائجه.. مراقبة النتائج واكتشاف أنها خاطئة أحياناً سيجعلنا نعيد النظر في المعادلة برمتها.. في أدائنا لها.. في كميات العناصر.. في سياق التفاعل.. في خطأ ما يحدث دون أن نتنبّه له..

أما إهمال النتائج وعدم تقويمها، فسيجعل المعادلة كلها تسير في سياق خاطئ، دون أن ندري..

وهكذا قد ننتج سماً زعافاً بدلاً من البلسم والترياق..

وهذا ما يحدث مع الصلاة. إننا نهتم (على ما يبدو) بما نتصور أنه عناصرها.. ولكن ليس نتائجها.. ليس المقاصد منها..

ولو أننا بحثنا عن نتائج تفاعل معادلة الصلاة، لأعدنا النظر فيما نفعل..

* * *

سنتحدث عن المستوى الجماعي للصلاة، فهذا أهون كبداية، فنحن نرى دوماً أن مسؤولية الجميع هي "مسؤولية شخص آخر" أو أشخاص آخرين، لكن هذا الشخص ليس أياً منا..

الكم والكيف: والإعجاب بالكثرة

هناك أداء جماعي للصلاة لا بأس به، يختلف ذلك من قطر لآخر، ومن مدينة لأخرى، لكن المساجد عموماً فيها (صلاة جماعة)، وبشكل متزايد، ولو قارنّا الإقبال عما كان عليه منذ عقود، لوجدنا أن عدد المساجد وعدد المصلين فيها قد تزايد بنسب تفوق تزايد عدد السكان في هذه الفترة، صحيح أن بعض أوقات الصلاة تشهد انكماشاً في عدد مصليها (الفجر خاصة)، وصحيح أن الفكرة السائدة تركز على أن (الأمور) ستتحسن عندما يصير عدد

(مصلي الفجر) مساوياً عدد مصلي الجمعة، إلا أن هذه الفكرة (كمية) جداً، وتركز على (الكم) باعتباره الحل.. وهي فكرة غير مرتكزة، في تصوري، على أي نص شرعي.. فالنص القرآني لا يقيم للكثرة وزناً مهماً على حساب النوع، و (الإعجاب بالكثرة) في يوم حنين على حساب النوع كان سبباً من الأسباب التي كادت تؤدي إلى الإخفاق..

إذن، على الرغم من سيادة فكرة (الكم) - فالكم الموجود عند الصلاة ليس سيئاً جداً، ربما هو ليس كما نريد، ولكنه ليس سيئاً، فالمساجد عامرة في أغلب البلدان، اللهم إلا تلك التي تعد الصلاة فيها عملاً إرهابياً، عندها تكون المساجد فارغة إلا من مخبري الأمن.

إذن عدد المصلين، أمر لا يمكن التشكي منه.. و (أداء الصلاة) - إحصائياً - أمر لا يمكن إنكار زيادته وزيادة وجوده..

في ثمارها تعرفونها

هذا عن الجزء من المعادلة - المتعلق بما هو في أثناء الصلاة - فماذا عن نتائجها؟ ماذا عما هو خارج وقت الصلاة، بين الأوقات؟.. ماذا عن مقاصد الصلاة الدنيوية التي ستؤدي إلى نتائجها الأخروية؟..

حسناً.. الوضع يسر العدو ولا يسعد الحبيب. فبينما المساجد عامرة بالمصلين، فإن المجتمعات لا يبدو عليها أنها عامرة إلا بالخراب، مجتمعاتنا منخورة بحيث إنها

صارت (عامل طرد) لكل الخبرات التي تشعر أنها مهدورة في مجتمعات تضيّع كل من هو أهل لأن يخدم مجتمعه.. في المجتمعات ذات المساجد العامرة بالمصلين: هناك التأخر في كل شيء، من قمامة الشوارع، إلى وضع عام هو كالقمامة في حقيقته.. هناك كل ما هو مرفوض في ديننا، بل كل ما يراه ديننا كبيرة من الكبائر.. مجتمعاتنا تزخر بكل الآثام والفواحش؛ ما ظهر منها وما بطن.. بالإضافة إلى عدد كبير من المصلين..

* * *

للوهلة الأولى، قد يقول فريق إن هؤلاء المصلين ليسوا هم أنفسهم من يفعل هذه الفواحش، وإن هناك خطأً (اجتماعياً) يفصل بين هؤلاء، وأولئك.

ربما كان هذا صحيحاً عندما يكون ما نقصده بالفواحش هو (الزنى)، ومقدماته ونتائجه.. .. لكن أسواقنا وشوارعنا وبيوتنا ومدارسنا مليئة بأنواع مختلفة من الآثام التي يقترفها أيضاً بعض المصلين، هناك الكذب، هناك الغش، هناك الوقت المهدور، هناك الكسل، هناك البطالة.. هناك أمور كثيرة تنتمي لنوع أو لآخر من الفواحش، ومع ذلك فإن من يقترفها، هم أناس يصلون، ونحن نعرف ذلك، وهم يعرفون ذلك، وربما نكون منهم أيضاً بالمناسبة..

فهل الإنسان (المصلي) ملاك لا يمكن أن يقترف فاحشة ما؟..

لا طبعاً. هذا ظلم كبير، وانتزاع لأهم صفة تركز وتعزز إنسانية هذا الإنسان، إمكانية وقوعه في الخطأ، وقابليته للتوبة..

لكن الذي يحدث للأسف، مع المصلين، ومع الواقع الاجتماعي السيئ، شيء آخر غير هذا، غير الوقوع المتعمد في الخطأ، والعودة إلى جادة الصواب. إنه - بتكراره واعتياده - يمثل نمطاً رتيباً من السلوك، ولا علاقة له بالخطأ والتوبة..

كبيرة ألاّ تفعل شيئاً على الإطلاق

ولكي نكون صريحين أكثر، فإننا نعي على الصعيد الشخصي، أن ليس كل المصلين بمنأى عن هذه الفواحش، وأن هناك أنواعاً مختلفة من مقدمات الزنى والمؤديات إليه، وربما الزنى نفسه يقترف من قبل المصلين..

الوضع عام، وهو لا يخص شخصاً معيناً أو فرداً.. إنه يخص المجتمع المثقل بالذنوب والفواحش، مع أن نسبة المصلين فيه ليست قليلة.

وسيكون من التسطيح للأمر أن نصف هؤلاء بأنهم (منافقون)، فالأمر أعقد، والنفاق ليس متوافراً في غالبيتهم. فالنفاق يتطلب صراحة في مواجهة الذات، أي إنهم يكذبون عند الصلاة، وهؤلاء ليسوا كذلك. إنهم هنا وهناك في الوقت نفسه.. كأنهم قد خلقوا حاجزاً وهمياً بين الأمرين.. كأنهم يعيشون في عالمين منفصلين؛ يؤدون الفاحشة في واحد، ويقومون بالصلاة في آخر..

وأعوذ فأذكر، أن إلقاء القمامة كبيرة أيضاً، والخشونة والكذب في التعامل كبيرة أيضاً، وعدم فعل أي شيء في حياتك كبيرة أيضاً.. وكثيرٌ من المصلين، يقومون بكل ذلك..

العادة والعبادة : حرف واحد فقط

فما الذي يحدث بالضبط عندنا؟..

سيكون هناك جواب رائج وجاهز.. إن صلاتهم صارت (عادة)، وليست (عبادة)..

حسناً، عدم التعود على (شيء) تقوم به خمس مرات يومياً في حياتك منذ أن تبلغ سن الحلم، شيء صعب جداً، حتى لو افترضنا أن هذا هو السبب، فهو - كما يبدو لي - أمر لا يمكن تفاديه.. والسؤال لا يخص تحول العبادة إلى عادة، فهذا أمر مفروغ منه، بل يخص كيف يمكن أن نرجع العادة إلى أن تكون عبادة؟.. كيف نستطيع أن نجلو عنها الصدأ لتتوهج؟..

مرة أخرى، ما الذي حدث بالضبط عندنا؟ كيف تجاور المنكر والصلاة (التي من المفروض أن تنهى عنه) في شخص واحد يمثل مجتمعاتنا بأسرها..

هناك خمسة أسباب (شائعة) لتأدية الصلاة.. وربما كانت هناك أسباب أخرى أقل شيوعاً تندرج بدرجة أو بأخرى تحت واحد من هذه الأسباب..

كل سبب من هذه الأسباب، يخفي وراءه (فكرة)

مضمرة، عن الصلاة، وفهماً معيناً للصلاة، ولدورها في المجتمع (أو لعدم وجود هذا الدور على الإطلاق!).. ويؤدي هذا الفهم، إلى أداء هذه الصلاة.. بهذا الشكل، وهي تحمل معها هذا السبب..

فكرة (الصلاة ككفارة..)

أولها، فكرة أن الصلاة تكفر الذنوب التي تحصل بين أوقات الصلاة، وهي الفكرة التي تستمد من حديث «والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن من الخطايا ما لم تغش الكبائر»[1].

ولا جدال طبعاً في صحة الحديث، وفي ارتباطه الموضوعي أيضاً بآية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/١١٤] لكن هناك طبعاً نقطتان: أولاهما أن لفظة الكبيرة المستثناة من التكفير قد رسخت في أذهان الناس بطريقة معينة ترتكز حول عدد محصور من الكبائر (معروفة طبعاً وتدور حول الزنى والخمر وربما الربا..).. لكن هذا الفهم على الرغم من رواجه ليس صحيحاً تماماً، فالصلاة إلى الصلاة لن تكفر عنك أن حياتك كلها تضيع عبثاً، سدىً، دونما هدف.. حتى دونما محاولة إيجاد هدف.. دوماً نعتقد أن الكبائر هي بالضرورة "فعل" فاحش.. بينما هي أحياناً (لا فعل) على الإطلاق.. ربما أكبر الكبائر (أكبر حتى من الزنى!!) **ألا تفعل شيئاً على الإطلاق في حياتك.. أن تأتي إلى هذه الأرض وتمضي**

(١) رواه مسلم.

أثراً إيجابياً واحداً يدل على أنك مررت من هنا.. دون أن تجعل العالم أفضل مما كان يوم جئت إليه.. أو على الأقل حاولت ذلك.. شيء كهذا، لا يمكن مسحه بمجرد أداء الصلاة.. لأنه لا يندرج ضمن صغائر الذنوب..

ثانيتهما - أن الصلاة التى تكفر ما يحدث بين الصلاتين، تكفر ما يحدث سهواً، أي كأي حدث عابر، لا تخلو منه تجربة إنسانية، أما أن يكون هذا نمطاً معتاداً للسلوك، وأن نتوقع أن الصلاة ستقوم بهذا الدور، فهذا يعني أننا نخدع أنفسنا قبل أي أحد آخر.

والشيء ذاته يخص مفهوم الحسنات والسيئات: من قال: إن الاية الكريمة تتحدث عن الاستمرار في أداء السيئات من أجل أن حسنات الصلاة ستمحوها؟ من حدد هذه السيئات وحجمها التي يمكن أن تمحوها الصلاة؟

وللأسف، فإن هذا الفهم، الذي يستخدم الصلاة من أجل الاستمرار في الذنوب، هو فهم سائد جداً.. وينتشر للأسف، عن غير قصد، عن طريق بعض الوعاظ على المنابر، عندما يريدون ، عن حسن نية ، أن يروجوا لأداء الصلاة. فيقومون بالترويج دون شعور منهم، للذنوب التي من المفروض أن الصلاة ستكفر عنها.. وهكذا فإن الحديث عندما يوظف من أجل عدم التوقف كثيراً عند أخطاء السهو، يختلف تماماً عندما يتحول إلى عكازة للاستمرار في الذنوب..

فكرة (إسقاط الفرض)

ثاني هذه الاحتمالات هو فكرة (إسقاط الفرض) الرائجة جداً دونما سند من نص شرعي.. وهي الفكرة التي يقوم على أساسها بعض الناس بأداء الصلاة - على أي حال - من أجل (الفرار) من عقوبة عدم أدائها، وهم يعلمون ضمناً أنهم سيحاسبون على أمور أخرى تخص الصلاة، وقتها، خشوعها، تمام أركانها، لكنهم، على الأقل يؤدونها، ويسقطون بذلك (عقوبة تركها)..

يؤكد هذه الفكرة قراءة (تجزيئية) لنصوص عديدة، من الأحاديث الصحيحة بلا شك، ولكنها تعامل مرة أخرى بمعزل عن الصورة الأكبر التي تضم كل النصوص وتجمعها بعضها ببعض.. فحديث «أول ما يحاسب عنه المرء الصلاة» يعامل كما لو أن الصلاة التي سنحاسب عليها تؤدَّى بمعزل عن حياتنا وعن المجتمع الذي نعيش فيه ودورنا فيه..

وهكذا فالنظرة التجزيئية الضيقة لهذا الحديث، ولسواه من الأحاديث ستنتج نظرة ضيقة للصلاة وأدائها، تحث على أدائها (الفيزيائي) بمعزل عن نتائجها اللاحقة..

وللأسف، فإسقاط (الفرض)، الذي يتم بهذا الأداء المجرد - المروج له دون قصد - يكاد يكون الهدف الأغلب للمصلين: **إنهم على الأقل يسقطون عقوبة ترك الصلاة**؛ لقد اجتازوا الخط الفاصل بين المصلين وغير المصلين، حسب تصورهم، وهذا بحد ذاته هدف بالنسبة

إليهم، لأنه سيخفف عنهم عذاب القبر وأهوال جهنم التي يتوعد بها غير المصلين..

وهم قد أسقطوا هذا.. حسب ما يتصورون..

فكرة (إسقاط الفرض) أيضاً تستند إلى فهم معين للفرائض والعبادات، وكون أدائها (الجسماني - الحرفي) هو المطلب النهائي منها، أي إن العبادات تؤدَّى من أجل أدائها فحسب. وينتهي الأمر عند انتهاء الأداء منها.. ولا يفترض أن يكون هناك شيء آخر وراء ذلك.. وعلى حسب هذا الفهم للعبادات، يتم فهم عشرات الأحاديث والنصوص، فينظر إليها من خلال هذا المنظار ذي البعد الواحد: الذي لا يرى غير السطح من كل شيء.. فأحاديث نبوية شريفة مثل: «خير الأعمال الصلاة على وقتها» - أو: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة».. إلخ، سَتُحال فوراً وفق هذه النظرة الفيزيائية الجسمانية إلى أداء الصلاة - دون محاولة النظر إلى بقية أجزاء الصورة التي ترسمها النصوص بمجموعها..

وعندما تقتصر النظرة على هذا (الأداء المباشر) فإن (الأداء المباشر) سيكون هدفاً نهائياً في رؤوس كثيرين، وإن عرفوا ضمناً أن هناك (أموراً) يجب أن تتضمن في هذا الأداء (مثل التركيز، أو الخشوع)، لكنهم مقتنعون أن مجرد (الأداء) سيسقط الحساب العسير عن عدم الأداء..

وهكذا فإنهم سيجتازون السؤال الرهيب عن الأداء ويواجهون بقية الأسئلة.. وسيحلها يومها حلال.. متجاهلين

أن "سؤال الصلاة" قد يحتوي على تفاصيل غير متوقعة.. وتخص "ما وراء الصلاة".. "أو عمقها"..

فكرة "الصلاة من أجل الراحة النفسية"

ومما لا شك فيه أيضاً، أن الصلاة، كهدف ثالث، يمكن أن تبعث على الراحة النفسية..

أناس كثيرون، سيشعرون بشيء مقلق، يخِزُّ ضمائرهم أو يدق على رؤوسهم، إذا ما فاتتهم صلاة ما، أو إذا ما استيقظوا متأخرين وهرولوا ليلحقوا بعملهم دون أن يؤدوا الصلاة، وسيكون ذلك مزعجاً مثل خشبة صغيرة عالقة بين أسنانك، ليست مؤلمة حقاً؛ ولكنها مزعجة ولن تتخلص من إزعاجها إلا بالتخلص منها..

كذلك عدم أداء الصلاة، بالنسبة إلى بعضهم على الأقل، إنه مزعج لدرجة تجعلهم غير قادرين على مواصلة أعمالهم.. أو المضي إلى النوم..

لذلك فهم يتركون أسرّتهم، أو ما كانوا يفعلون.. ويصلون..

ثم يعودون.. وقد زالت تلك الخشبة العالقة..

لكن، مقصد الصلاة أكبر بكثير من ذلك، ألن تكون كل (عادة) - مهما كانت - صعبة عند تركها؟.. ألن يكون ترك عادة تنظيف الأسنان الصباحي صعباً ولو لمرة واحدة؟ وسيظل من أرغم على ذلك منزعجاً يحرك لسانه على أسنانه ذات اليمين وذات الشمال ليتخلص من شعوره ذاك؟..

كل عادة، خاصة إذا كانت قد نقشت على حجر

الطفولة، ستؤمن نوعاً من الراحة النفسية عند أدائها، إنها تصير جزءاً من الذات، وسيكون مؤلماً حتماً تركها.. كما أي عادة..

لا أقصد هنا تشبيه الصلاة - ذلك الركن العظيم من أركان الدين - بمحض العادة، ولكني أريد أن أجرد أفكارنا من أوهامها حول الصلاة، فالراحة النفسية التي سيختارها بعض الناس سبباً من أسباب الصلاة، قد تكون (نتيجة) وليست سبباً، نتيجة لتعودنا عليها، ولنشأتنا على ضرورة الصلاة..

فكرة "التواصل معه - عز وجل - "

ومما لا يمكن نكرانه، أن هناك فئة من المصلين، تستطيع فعلاً، أن تحقق عبر صلاتها تواصلاً ما، معه سبحانه وتعالى، وتلتذ بمناجاته، وتجد في الصلاة (كوة) تنسحب إليها من معركة الحياة، وفي هذه الكوة نوعٌ من الأمان والراحة النفسية والتوازن..

هذا لا يمكن إنكاره، لكنها فئة تكاد تكون مهملة إحصائياً..

وحتى لو لم تكن مهملة إحصائياً، فإنه من غير المؤكد، أن الهدف من الصلاة - هو هذا التلذذ الفردي جداً، الشخصي جداً.. هناك حتماً ما هو أهم من ذلك.. لكي تكون الصلاة "عماداً" للدين..

وحدّاً فاصلاً بين "الإيمان" و "الكفر"..

لا، ليست (كوة) ننسحب إليها.. لننعم بقليل من السكينة، لا بد أن يكون هناك "شيء" آخر..

يفترض أن تكون "ركناً".. وليست كوة...

* * *

لا يمكن إنكار أن (الصلاة) تبعث على الراحة النفسية والتوازن الداخلي؛ لكن يمكن - بالتأكيد - مجادلة أن ذلك هو الهدف الأصلي منها.. والأمر هنا يتعلق بما هو أكثر من العبادات، بل بالنظرة إلى الدين "ككل"، فهناك فعلاً نظرة تاريخية، تجعل من الدين وسيلة من وسائل (الراحة) و (السكينة) و (الطمأنينة)، وعلى الأخص وسيلة تسهل التعايش مع واقع صعب.. ومع كل الاحترام لبعض الأديان التي (وظفت) تاريخياً داخل هذا السياق، فإن هذه الوظيفة لا تنطبق على الدور التاريخي الذي قام به الإسلام عند ظهوره؛ فقد كان أي شيء باستثناء "تسهيل التعايش مع الواقع الصعب"، ولو أنه كان كذلك، لبقي المسلمون الأوائل مجرد فئة "صابئة" في مكة، ولما كان أحد سمع بهم، ولما كنت أكتب الآن ما أكتب: أي إن التاريخ كله كان سيسير باتجاه مختلف تماماً..

لا ريب أن (الصلاة) تمد براحة معينة. لكنها راحة تمتزج مع القوة؛ إنها راحة الشخص القوي الذي أخذ وجبة من الطعام الطبيعي المليء بالفيتامينات والحديد.. وشعر بالراحة المنبعثة من ثقته بنفسه وبقدراته، وليس

بالراحة المزيفة التي سيشعرها شخص تناول مخدراً ما أنساه آلامه وأوجاعه وهموم واقعه..

إذا كانت الصلاة تبعث على الراحة، فهي مثل راحة ابن حنبل بمواجهة جلاديه، وابن تيمية ضد سجانيه، وابن رشد بمواجهة خفافيش عصره، وليس مثل راحة شاب عاطل عن العمل يشخر في انتظار الصلاة لكي تساعده الصلاة على تحمل واقع البطالة الذي يعيشه..

فرض وكفى !

وهناك طبعاً الرد الأكثر شيوعاً والأكثر بساطة عندما نسأل عن السبب في الصلاة..

"إنها فرض، وكفى".. سيكون هذا شائعاً جداً..

وهي فرض بالتأكيد. وليس التشكيك في "فرضية" الصلاة بوارد هنا.. والبحث عن سبب لكون هذه الفريضة بهذه الدرجة من الأهمية، سيكرس أهميتها ويفعلها.. أما عندما تصطدم بهذا الرد: "إنها فرض وكفى".. فأنت تعلم قطعاً أنها صلاة تؤدى من أجل "إسقاط هذا الفرض"، وكفى..

كون الصلاة "فرض، وكفى" يعكس فهماً معيناً يجعل أوامر الشريعة "بلا أسباب"، وإنما هي أوامر وكفى، دونما مقاصد، دونما أهداف.. فقط أوامر علينا أن ننفذها بحرفية "مفرغة" من الفهم..

والنتيجة هي ما نرى.. النتيجة هي كل ما حولنا..

الصلاة عامل طرد بدلاً من أن تكون عنصر جذب

سيقولون: لا يعجبك شيء إذن.. وتصعّبها من كل الجهات. يا أخي كثير من الناس لا يصلون أصلاً، فإذا صلّوا جئت أنت لتتفلسف عليهم بكلام يكاد يجعل صلاتهم مشكوكاً بها؟..

يا أخي ساعدهم على أداء ركعتين قد تنقذهم من جهنم، بدلاً من هذه "الفلسفة"..

* * *

قد لا يكون من التفلسف في شيء، أن أقول: إن صلاتنا نحن المصلين وبهذا الشكل الذي نؤديه في القالب، أي شكل إسقاط الفرض بطريقة أو بأخرى، هو أكبر "عامل طرد" نبعد به "غير المصلين" عن الصلاة..

لا أقصد هنا طبعاً تلك الفئة من الناس التي ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣/٨]، وهي الفئة التي ستظل تكابر وتعاند وترفض حتى لو رأت كل معجزات الأنبياء، وأمام عينيها رأي العين ..

ولكني أقصد فئة أخرى، ربما تحتاج أن ترى أقل من معجزات الأنبياء، تحتاج أن ترى "صلاتنا" مجسمة في "خارج أوقات الصلاة"، في جعلنا أشخاصاً أفضل منهم، أفضل مما نحن عليه، أشخاصاً تجعلهم صلاتهم "نموذجاً" يغري بالاقتداء..

لكن تعرفون كيف تجري الأمور، فصلاة تؤدى لغرض "إسقاط الفرض"، أو فقط "لأنها فرض".. لا يمكن أن تجعل منا نموذجاً لأي شيء..

على العكس، بعض هؤلاء، يتخذ من "ذلك" "حجة" لعدم الصلاة، إنه يدعي أن سلوك بعض "غير المصلين" أفضل من سلوك "بعض المصلين".. وهذا يجعل الصلاة في رأي هؤلاء.. غير ضرورية..

وهذا ليس عذراً، لكنه حجة..

وأخشى أنها حجة، نتحمل "نحن" جزءاً منها..

* * *

ومرة أخرى، وقبل أن يتبادر إلى الذهن أن السلوك الذي يجب أن يصاحب "الصلاة" هو سلوك "حمامة المسجد" فقط، أنبه إلى أن حمامة المسجد أحياناً يجب أن تكون نسراً يحلق في الأعالي، أو نورساً يدل على اليابسة، أو هدهداً يبحث عن الحقيقة..

بعبارة أخرى: إن صورة المؤمن "الهين اللين" الذي "لولا التشهد لكانت لاؤه نعم" هي ليست الصورة النموذجية دوماً، فأحياناً على المؤمن أن يقول: لا، تجاه كل ما يحاول سلب عبوديته منه له عز وجل..

* * *

إذن الأمور سيئة لهذا الحد؟..

لدرجة أن صلاتنا صارت حجة لعدم الصلاة..

ماذا فعلت صلاتنا بنا؟.. بل ماذا فعلنا نحن بها؟

كيف استطعنا أن نجعل منها "العكس" و "الضد" تماماً مما يجب أن تكون..

كيف جعلنا من صلاتنا مجدافين مكسورين يثبطان همة كل من يراهما، بدلاً من أن يكونا جناحين يخوضان في الأعالي.. ويطيران في القمم؟..

أي شيء سكن في رؤوسنا وجعل من فكرتنا عن "الصلاة" بهذا التدني؟..

أي شيء جعل من "عماد الدين".. مجدافاً مكسوراً؟..



الفصل الثاني

الأعرابي المجهول

عبر تاريخ طويل، مررنا بهزائم وانكسارات، تركت آثارها فينا، بل حفرت في داخلنا أخاديد جعلتنا نقنع بأقل القليل.. بل لا نطمع إلا بأقل القليل..

وهكذا، فهمنا كل شيء من زاويته الأضيق.. والأدنى.. ولم نعد نتوقع من أنفسنا إلا ما هو متدنٍ ورديء..

فقدنا احترامنا لأنفسنا، وتدنى تقويمنا لها ولإمكانياتنا.. لم نعد نتوقع من أنفسنا أي شيء إيجابي، كما سيفعل شخص أدمن الهزيمة وصارت هويته اللصيقة به..

لم نعد نرضى بأوساط الحلول فحسب.. بل صرنا نرضى بالفتات.. بل نطالب بالفتات.. نفاوض من أجل الفتات.. بل ما هو دون الفتات..

في كل شيء..

حتى فيما نتوقعه من الصلاة..

حديث الأعرابي

جاء في الصحيح، أن أعرابياً جاء إلى النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام - يسأله عن الإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان» قال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلح إن صدق»..

* * *

هذا الحديث، الذي يروي هذه الواقعة، وسؤال الأعرابي وجواب النبي عليه الصلاة والسلام، صار يحتل موقعاً مركزياً، في فكرتنا، ليس عن الصلاة، وعن العبادات عموماً فحسب، ولكن عن أنفسنا، وعن رؤيتنا للعالم ودورنا فيه.

كانت واقعة واحدة (وهناك حادثتان أخريان تشبهانها سنأتي عليهما أيضاً) ولكنها أخذت حيزاً أكبر مما يجب في فهمنا ورؤيتنا..

* * *

سيقولون: قف عندك !، الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال: «أفلح إن صدق».. وهذا بحد ذاته إنجاز

كبير كل واحد منا يستحق أن يدفع حياته ثمناً له.. من أجل آخرة فيها الفلاح..

«أفلح إن صدق» ليست قليلة أبداً، وارتباط الفلاح هنا بالصدق قد يتجاوز عبارة الأعرابي الأخيرة: لا أزيد عن هذا ولا أنقص - إلى الصدق في جوهر الأداء.. الصلاة.. والصيام.. والزكاة..

على الرغم من هذا، فإن علينا أن نتفحص الواقعة بمجملها، قبل أن نجعل منها رؤية ثابتة للعبادات، ولأنفسنا، ولعلاقتنا بالعالم كله..

موقع الأعرابي من الإعراب

في غمرة احتفالنا بأننا سنفلح لو لم نزد على هذا ولم ننقص.. ننسى أن الرجل الذي سأل، والذي كان رد الرسول الكريم موجهاً له، كان له "وضع معين" ربما لا يناسب التعميم الذي تعرض له جواب الرسول الكريم صلوات ربي و سلامه عليه..

بعبارة أخرى، كانت عبارته - عليه أفضل الصلاة والسلام - تخص الرجل، ولم يصعد الرسول على المنبر ليقول ما قاله للرجل على الملأ..

وعندما نقل رواة الواقعة الحديث، فإنهم نقلوا لنا أيضاً خصوصية وضع الرجل.. التي ربما ارتبطت بها خصوصية الجواب..

أي خصوصية؟ لم نعرف عن الرجل أكثر من كونه

أعرابياً!.. بالضبط.. هذا هو.. إنه أعرابي.. وإننا لم نعرف منه أكثر من هذا، هذه هي خصوصية الرجل..

* * *

كان الأعراب، أعداءً أساسيين للدعوة الإسلامية، ليس لأنها دعوة جديدة قد يرفضها أي قديم ومكرس فحسب، ولكن لأن جوهر الإسلام يتنافى ويتصادم بشكل مباشر مع حياة البداوة والأعراب.. حياة التنقل في الصحراء دون وجود تنظيم اجتماعي واسع غير رابطة العشيرة التي جاء الإسلام ليفك أواصرها و يعيد صهرها.. كان الإسلام في جوهره "تمدناً" وتكريساً لقيم المدينة بكل ما تعني من استقرار وبناء وازدهار.. وكانت البداوة عيشاً على الهامش، على هامش الهامش، ضد أي قيم مدنية.. ضد أي تمدن..

ولأن هذا "العيش على الهامش" كان يأخذ شكل قطع الطريق على القوافل التجارية، وغير التجارية، وكان يرفض الانصياع لسلطة القانون، وبالذات لقانون الدولة المركزية الآخذة ببسط سيطرتها بالتدريج، فقد كانت البداوة بمنزلة عدو رئيسي، على التمدن الديني أن يزيحه.

ولهذا، فإن المعايير التي كانت ستوجه نحو الأعراب، هي مختلفة بطبيعة الحال عن المعايير التي توجه لغيرهم، من سكان المدينة أو مكة أو الحواضر الرئيسية وما حولها..

فالمعيار الأساسي مع الأعراب هو "كف أذاهم"، هو تحييدهم عن كونهم عقبة بوجه المسيرة، ولذلك جاءت

الآيات الكريمة منددة بالأعراب عموماً ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩/٩٧]، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٤]، وكذلك الأحاديث الشريفة التي كانت تعد العودة إلى البدو، بمنزلة العودة إلى الكفر..

ضمن هذا السياق كله، وعندما يأتي (أعرابي ما) ليسأل الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - عن الإسلام، فيتحدث الرسول عن العبادات المفروضة، بطريقة يفهمها هذا الأعرابي، ويتعلم من خلالها انضباطاً ما كان قد خطر في باله أن يتعلمه.. ويفاوض على أنه "لن يزيد على هذا ولن ينقص"؛ فإن هذا بحد ذاته إنجاز مهم لو وضعناه في سياقه الاجتماعي.. إنه أعرابي!.. ينتمي إلى تلك الفئة التي هي أشد كفراً ونفاقاً، المتمردة على أي انضباط، التي تعيش على السلب وقطع الطريق.. وعندما يأتي ليسأل عن الإسلام، ويعلن أنه سيلتزم ببنود الطاعة المفروضة "بلا زيادة ولا نقصان"، فإن هذا كله سيفسر ما قاله الرسول الكريم، الذي هو أصدق من قال: "أفلح إن صدق".. فمجرد انتقال الرجل من طور البداوة إلى طور آخر.. عبر إعلانه الالتزام بالفروض المكتوبة: يستحق أن يكون فلاحاً مثمراً.. إن صدق..

* * *

فلنتذكر هنا كيف وصف الحديث الرجل: (أعرابيٌّ).. لقد بقي مجهولاً، ربما كان صدق، وربما لا، لا نعرف،

وسيبقى علم ذلك عند الذي يعلم ما في الصدور، لكن المؤكد أن الرجل ظل مجهولاً، لم نسمع عنه شيئاً بعدها، ولو كان قد فعل شيئاً لكان ذلك "علم" عند الصحابة ورواة الحديث وذكروا اسمه..

لكنه لم يحدث..

ولن نتوقع من شخص قال إنه "لن يزيد على هذا ولن ينقص" أن يترك أثراً ما لاحقاً..

لكننا لا نعرف شيئاً عن هذا..

صار الأعرابي قدوتنا

الذي حصل معنا، أننا تعاملنا مع الحديث، لاسيما مع شرح الرسول الكريم للأعرابي، و مع جملة الأعرابي الختامية وتعليقه - عليه الصلاة والسلام - عليها، بمعزل تام عن كل السياق.. سياق أن الرجل أعرابي، وأن المعايير التي ستوجه له ستكون أدنى وأقل، لأن تحييده من دوره التقليدي كأعرابي هو بحد ذاته منجز مهم..

الذي حصل معنا، أننا ضربنا السياق عرض الحائط، وجعلنا من هذا الأعرابي المجهول قدوة لنا، عبارته التي لا تخلو من خشونة في حضرة النبي الكريم: "والله لا أزيد على هذا ولا أنقص" صارت بمنزلة هدف أعلى لنا وإن كان غير معلن.. لكننا ضمناً نمارسها، نتصور أن الفلاح ماكث بانتظارنا عند عدم الزيادة وعدم النقصان، كما لو أن معيار الأعرابي يصلح لكل زمان ومكان، كما لو أن الصحابة كلهم - وهم الذين بنوا العالم الجديد على

أنقاض العالم القديم المتهاوي - قد طبقوا معيار (اللازيادة واللانقصان) وفهموا الإسلام على أنه أداء جسماني للشعائر فقط..

لو أن ذلك الجيل - الذي قاد العالم - قد فهم ما فهمه الأعرابي.. وقرر ما قرره الأعرابي.. لما كان قاد العالم أصلاً، لأنه كان رضي، منذ البداية، بأقل القليل.. بالحد الأدنى من الأمور.. بالحد الذي بالكاد يجعلك تنجح بصعوبة..

لو أن هذا الجيل كان كله مثل ذاك الأعرابي، لما كان صار ذلك الجيل بالأساس.. ولما كان قاد العالم.. وربما - مرة أخرى - لكان التاريخ تغير.. وسار في طريق آخر..

لكن ذلك الجيل، لم يفهم الأمور، ولم يأخذها كما فعل ذلك الأعرابي..

* * *

أما نحن، فقد فعلنا.. وانتهى بنا الأمر، كما انتهى بالأعرابي، بأن نكون (مجاهيل) - (نكرات).. لم نفعل شيئاً يدخلنا التاريخ، بل بقينا على هامش الهامش، كما ذلك الأعرابي - الذي هو أفضل منا ضمن سياقه، لأن المطلوب منه كأعرابي كان هذا لا غير - أما نحن، فقد (اخترنا) أن نعكس السياق وندخل ضمن طور هو أشبه بطور البداوة..

لقد اخترنا فهم (أعرابي ما).. وجعلنا جملته الفظة شعاراً لنا..

وانتهينا كأمة من الأعراب.. على هامش الهامش.. صرنا أنصاباً تذكارية لذلك الأعرابي المجهول..

أحاديث أخرى...

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري، رضي الله عنهما، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أأدخل الجنة؟ قال: «نعم». رواه مسلم.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة.. فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم» رواه البخاري.

* * *

لا نعرف إن كان الرجل الذي سأل النبي الكريم "أرأيت إذا صليت المكتوبات" كان أعرابياً هذهِ المرّة.. لكننا نعرف أنه كان مجرد (رجل ما) لم يذكر له اسم ،لم يكن له دور ما يجعل من روى الحديث يذكر اسمه.. لقد كان رجلاً جعل من هدفه أن يصلي المكتوبات فحسب، ويصوم رمضان.. ولم يتصور أن في إمكانه أن يقوم بما هو أكثر من ذلك، ليس في عدد (صلوات) أكثر، أو صيام أيام غير رمضان.. بل في (فعل) يتجاوز الأداء المجرد إلى آفاق أكبر وأوسع وأعلى..

كان رجلاً ما، متوسط الإمكانات متواضعها، ولم يتصور أن بإمكانه اختراق (العقبة) في أعماقه، ربما كان بإمكانه ذلك لو أنه حاول، لكن فكرته عن نفسه، رؤيته عن إمكاناته وحدوده جعلته لا يتصور ذلك.. لا يحاول.. ويظل مجرد أحدهم.. رجل ما.. مرَّ في ذلك التاريخ.. لكنه مرَّ دون أن يترك أثراً يدل عليه.. دونما بصمة، دونما اسم حتى..

* * *

لا يتوقع أبداً، أن يكون كل فرد في جيل النهضة، يمتلك المواصفات النهضوية القائدة نفسها.. هناك أشخاص سيكونون حتماً في قعر السباق، كجزء من آلية تنافس تحتم أن يكون هناك من يتخلف عن الركب.

وقد جاءت تلك الأحاديث، لتنقل لنا نماذجَ من فئة، اختارت، بوعي أو من دون وعي، أن تكون في آخر الركب.. أن تكون (لا أحد) - ألا تترك أثراً.. ألا تسجل أسماؤها في التاريخ..

* * *

ومن سخريات الأمور، أننا اخترنا هذه النماذج تحديداً، لتكون القدوة الحقيقية لنا، حتى لو لم نعلن ذلك.. لكننا، تفاوضنا مع متطلبات الشريعة الغراء، كما تفاوض ذلك الأعرابي، وأخذنا ما قاله عليه الصلاة و السلام سنداً لكي "لا نزيد ولا ننقص"..

ما كان آخر الركب، في جيل النهضة.. صار القدوة!..

هل عجيب بعد ذلك أن نبقى ننتظر نهضةً.. لا تأتي أبداً؟..

* * *

عندما تعيش طوال عمرك تحت سقف واطئ لدرجة أنك تضطر لحني ظهرك حتى تسير فإن هذا السقف الواطئ سيصير مع الوقت هو حدود طولك، سيتكيف ظهرك مع هذا السقف، سيحدودب، ستنحني (كلك).. وستصير، مع الوقت، على مقاس ذلك السقف الواطئ.. حتى لو أزيح السقف، حتى لو تفجر، وصارت السماء هي الحدود المفترضة.. فإنك ستظل محني الظهر، على مقاس ذلك السقف الواطئ.. لقد تشكلت على أساسه، تقولبت بحدوده.. ولن يكون من السهل أن تتطاول لتتجاوزه..

هذا ما فعلناه بالضبط، عندما اخترنا فهم ذلك الأعرابي المجهول لنجعله حدود قامتنا.. لنجعل اختزاله ومفاوضاته هي كل ما نساوم من أجله.. لقد اخترنا سقف خيمة واطئة جداً، لتكون حدوداً لرؤيتنا عن الصلاة..

هل يكون عجيباً بعد ذلك كله.. أننا صرنا أمة أعراب؟..

نبحث عن خيط النور، لعله يقودنا إلى الفهم الآخر الذي يقودنا إلى الغد الآخر..

نبحث عنه، في ذلك الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل..

ونعلم، عندما نبحث، أننا سنجد هناك: النور، وأكثر..

الفصل الثالث

علم اجتماع "الصلاة"

ما إن نتحدث عن الصلاة، أو عن أداء الشعائر بوجه عام، حتى نواجه بنظرة استصغار من بعض الناس، واستهزاء من بعضهم الآخر..

والاستصغار أحياناً يأتي من أشخاص مسلمين، وملتزمين أيضاً، لكنهم ينتمون لتلك الفئة المثقفة، التي تتحدث عن إسلام خاص بها ، إسلام النخب التي اتخذت من البرج العاجي مسكناً ومستقراً لها، حيث الإسلام هو حوار عن صراع الحضارات والحداثة واستيعاب الإسلام لها، أو عدم استيعابه لها.. إلخ.

أما الصلاة والأمور الأخرى المماثلة، فهي أمور ثانوية من وجهة نظرهم ، وتخص عامة الناس وبسطاءهم، حتى كأن ثقافتهم أسقطت عنهم "الفرض"، كما أسقط الشطط والغلو في التصوف (الفرض) عن قدامى غلاة المتصوفة.

وأحياناً يأتي الاستهزاء من طرف آخر ومختلف تماماً، ذلك الطرف الذي لا يؤمن بالدين من الأساس، أو الذي يقول: إنه يؤمن بروح الدين، وليس بتفاصيله (مهما كان

ذلك يعني!).. ولذلك فهؤلاء سيقولون لنا: إن الصلاة مكانها القلب، وليس أي مكان آخر، وسيؤكد بعضٌ منهم أنهم يناجون الله - عز وجل - طوال الوقت، وأنهم يصلون أكثر من أي شخص آخر، لكنها صلاة (بطريقتهم هم..)، إن كانوا يصدقون، فلربما يعدّون حديثهم مع أنفسهم حديثاً معه، عز وجل، كل شيء ممكن مع انعدام تعريف واضح لأي شيء عند هؤلاء..

وغير هؤلاء، وفي الفئة المستهزئة نفسها، هناك فئة (ستفترض) أن الهدف من الشعائر هو الأخلاق القويمة العامة، حسن التعامل مع الآخرين، وبما أنهم (يفترضون) أنهم قد حازوا هذه الأخلاق الحسنة، فإنهم يبنون على الارتباط بين الافتراضين: على سقوط فرض الصلاة.. أو الشعائر ككل.. ويشبه هذا من يفترض أن الأرض مسطحة، ويبني على افتراضه هنا أنه يمكن له أن يصل إلى نهايتها ليطل على الفراغ المطلق!..

والحق، أن الفئتين، على اختلاف منطلقاتهما، تسكنان معاً في الفراغ المطلق الذي لن يؤدي إلى أي مكان..

فالتصور أن الشعائر بأركانها وهيئاتها مقصودة ليس لذاتها وإنما لمقاصد أخلاقية، مساو بالضبط، في سطحيته وتسطيحه، للتصور أن الشعائر مقصودة لذاتها فقط، دونما وجود أبعاد اجتماعية وثقافية وحضارية لها.. فالفصل بين الأمرين فصل لتوءمين سياميين يمتلك أحدهما دماغاً والآخر قلباً، سيكون فصلهما حكماً بالإعدام عليهما معاً..

(فرسان العقل) مروا .. ولكنهم لم يتركوا أي أثر..

في الوقت نفسه، فإن أولئك المثقفين، الذين يجيدون الكلام والتنظير في القضايا الكبرى في الندوات والقاعات المغلقة، يتجاهلون الدور الحقيقي للشعائر في تطور ومسيرة المجتمعات، بل إنهم يتجاهلون ، أن عجزهم عن تضمين الشعائر للمعاني العميقة التي يتحدثون عنها في جلساتهم، هو سبب رئيسي من أسباب اضمحلال دورهم وكونهم محصورين في البرج العالي لا أكثر ولا أقل..

فعبر التاريخ الإسلامي، ظهرت فرق كثيرة مثلت اتجاهات مختلفة، وبعضها (مثل المعتزلة) كانت تعد (نخبة مثقفة) (وكانت تمثل اتجاهاً عقلانياً لا يمكن إنكاره وإن اختلفنا معه في بعض الأمور)، واستطاعت هذه النخبة أن تصل إلى السلطة لفترة ما في العصر العباسي، وفي واحدة من أكثر فترات هذا العصر ازدهاراً وقوة، ولكنها عندما أطيح بها عن السلطة، أزيحت من التاريخ كله، ولم يبق لها اليوم أي أثر في الفكر الإسلامي بامتداداته الشعبية الذي لا يزال يمارس فعالية.. لقد كانت بعيدة عن الجماهير يومها، وظلت كذلك، وكان لابد لهذا البعد عن الناس العاديين، أن ينتهي إلى هذه النهاية..

و(البعد عن الناس) هي عبارة عن وجه آخر للبعد عن الشعائر التي تهم بسطاء الناس ويمارسون تدينهم من خلالها، وقد عجز المعتزلة، في خضم اهتمامهم بالقضايا

الكبرى المعقدة و (الافتراضية أحياناً) ،عن التفاعل مع الشعائر الدينية، أو حتى في ضخ معاني عقائدهم في الشعائر، وبذلك ظلت هذه المعاني بعيدة عن الناس حبيسة الكتب والمجلدات على الرفوف..

وكان ذلك يعني موتها الأكيد..

وعلى العكس من المعتزلة، فقد كانت هناك فرق تمثل الضد من التيار العقلاني بكل المقاييس، فرق كانت عقائدها تمثل الخرافة والانحراف عن كل ما جاء به الإسلام.. و لكن هذه الفرق تمكنت من تضمين (عقائدها) تلك في شعائر.. ونزلت الشعائر إلى الناس وحياتهم اليومية فكانت بمنزلة (حصن) لهذه العقائد عبر القرون على الرغم من خرافية هذه العقائد وسلبيتها وتجاوز الزمن لها...

الشعائر : ثابت في تاريخ متغير

كانت الشعائر، عبر تاريخ الإنسانية، ثابتاً في كل المجتمعات البشرية، أقصد هنا بالشعائر، بغض النظر عن نوعية (المعبود) سواء كان حجراً أو طوطماً أو شجرة أو برقاً، او حيواناً ما، أو فكرة هلامية تضم ذلك كله.. أو المعبود الحق.. الإله الواحد الأحد الفرد الصمد.. على الرغم من اختلاف المعبود الذي توجه إليه الشعائر، إلا أن الشعائر بحد ذاتها، وباختلاف طبيعتها ظلت موجودة، تتغير أشكالها وتتضاد، كما يتغير المعبود؛ تكون رقصاً حول النار مرة، أو تأملاً خاشعاً، أو طقساً يختلط فيه

الفحش بالعبادة، أو غناء رتيباً أمام شروق الشمس، لكن الشعائر ظلت موجودة في عمق التجربة الإنسانية.. طوال مسيرتها، من أقاصي جبال التبت، إلى مجاهل إفريقية، مروراً بمراكز الحضارة الكبرى،كانت الشعائر موجودة، ربما كان هناك، في كل وقت، شرذمة مثل هؤلاء، يستصغرون الشعائر، ويستهزئون بها، ويقولون: "المهم هو ما في القلب".. وكانوا ينتهون ويندثرون، وكانت بعض الديانات تتغير و تذبل، ويتبدل شكل المعبود، موضوع العبادة..

لكن الشعائر، ظلت موجودة..

* * *

الشعائر التي ظلت قائمة، لم تقتصر يوماً على الدين والتعبد لمعبود ما (أو لمجموعة معبودات) لكنها اشتملت أيضاً على شعائر، أو طقوس، في صميم الممارسات الاجتماعية.. مثل الزواج والولادة والموت والبلوغ وتنصيب الملك أو شيخ القبيلة والحرب.. وكانت هذه الطقوس - مع طابعها الاجتماعي - لا تخلو أحياناً من توجه للمعبود، حسب درجة تدين المجتمع.. لكن الأساس في هذه الممارسات الطقوسية - الشعائرية كان اجتماعياً..

وهذا يعني، أن ممارسة الشعائر ليست مرتبطة بالضرورة بالتدين، وبالحاجة العميقة إلى الدين، أو إلى دينٍ ما، التي لا نشك في وجودها في أعماق النفس الإنسانية..

تعرف الشعائر والطقوس بوصفها "حركات ضمن نسق معين متكرر ومرتكزة حول رمز ما" موجودة دوماً في

التجربة البشرية، ترتبط بالدين أحياناً، وتنفصل عنه في أحيان أخرى: لكن هذه الطقوس، - أو المراسيم - أو الشعائر، بمعنى أدائها المتكرر المرتبط برمز ما - كانت مصاحبة للإنسان، ما دام هذا الإنسان يسكن في مجتمع ما..

أي إنها موجودة - ما دام الإنسان فارق بدائيته.. وتطورا..

الميل إلى الشعائر كتعبير عن هوية المجتمع

ما سر هذا الميل الإنساني إلى تكوين الطقوس والشعائر؟.. ما حقيقة دوافعه وجذوره.؟.

لعقود طويلة، كان الباحثون في علم الاجتماع، يركزون على (الوظيفة الاجتماعية) لهذه الطقوس، باعتبارها تلعب دوراً في تماسك المجتمع، وفي إظهار (الهوية المستقلة) لهذا المجتمع ولأفراده الذين يمارسون هذه الطقوس.. ولعله من نافلة القول أن هذا الدور الاجتماعي للطقوس هو أمر لا يمكن إنكاره.. وهو أمر لا داعي لإنكاره، إنه مهم فعلاً، ولأنه لا يمكن لمجتمع أن يستمر دونه..

لكن، العلوم عندما تنفتح بعضها على بعض تتجه نحو آفاق أبعد، ربما لا تلغي الآفاق الأدنى، لكنها تتوهج أكثر، بأعماق أبعد، عندما يلقى فهم جديد، على الحكاية القديمة..

وهكذا، فإن فصلاً جديداً، في قصة الشعائر والطقوس، قد يشرح لنا ما نتوق لفهمه..

المهمة المستحيلة : إلغاء الشعائر

يبدو أن محاولة إلغاء الشعائر من الحياة الإنسانية، سيكون أمراً أصعب مما تخيله رواد الإلحاد والعلمانية الأوائل، الذين كانوا دعاة لنسف الشعائر بدعوى تتراوح بين: "القلب هو المهم"، و "الأمر كله محض وهم"..

كانوا يراهنون على العقل، في حربهم ضد الشعائر، وضد الدين، منذ أن أعلنوها صريحة قبل قرنين أو ثلاثة، فيما تصوروا أنه سيكون "عصر العقل"..

مرت الشعائر (على الأقل في شكلها المباشر) بفترة انحسار، لكن المحصلة النهائية للأمر أنها زادت، وامتدت.. وتنوعت، وبينما كانوا (هم) يفسرون الأمر أنه مرتبط بإحباطات الحياة المعاصرة وشدة وطأتها.. وأن الشعائر تلعب دوراً مهدئاً وملطفاً، يأتي العلم الحديث، لاسيما علم البيولوجيا الحديث، الذي طالما راهنوا على أنه سيلغي هذه الشعائر، ليقول لنا: إن الشعائر لا يمكن أن تلغى، لأنها ببساطة، موجودة في رؤوسنا، نحملها معنا أينما ذهبنا..

بعبارة أخرى: إنها في أدمغتنا.. في الدماغ الإنساني!..

الطقوس عامل مشترك بين المخلوقات

من زاوية أبعد، ورؤية أكثر شمولية، سنرى أن هذه (الطقوس) بمعناها الأكثر سعة، لا تقتصر على النوع الإنساني فحسب، بل تشمل أغلب المخلوقات، إن لم يكن

كلها جميعاً، وما أقصده بالطقوس هنا، لا علاقة له بالمفهوم الديني منها، بل بالمفهوم العام الواسع لها، أي بكونها (حركات، ذات طابع متكرر، وتؤدّى بشكل جماعي)..

معظم مخلوقات الله، تؤدي نوعاً ما من الطقوس، من النحل، إلى الحيتان، مروراً بالقردة ومختلف أنواع الطيور، بعض أنواع الذئاب، والكلاب البرية والشمبانزي، لديها طقوس معقدة جداً، وتؤدى بشكل جماعي، وتتضمن أصواتاً معينة، وتغيراً في ملامح الوجه.. بعض العناكب، والسمندل، وأنواع معينة من الذباب، تقوم بأداء جماعي معقد تصاحبه أصوات معينة، بعض الحيوانات المفترسة تقوم بأداء (طقوس) معينة قبل افتراس الضحية، أو قبل أن تبدأ بالصيد والهجوم..

حتى الحيوانات (المنزلية) لديها طقوس خاصة بها، قد تكون ترحيبية مثل هز الذيل للكلب، أو تقليم الأظافر (على الأثاث) للقطط.. ويلاحظ أن هذه الحيوانات، مهما صارت أليفة، فإنها في موسم (التكاثر) تلبي نداء الطبيعة بالطريقة نفسها التي قامت بها أسلافها قبل قرون، و (المواء الشباطي) الذي تمارسه القطط، قبل تزاوجها، يندرج ضمن الطقوس في تكرار الإيقاعات ووجود الأصوات المصاحبة لها..

وهكذا، فإن كل المخلوقات، لديها هذا الحس (الطقوسي)، وممارستها له، أمر طبيعي جداً، جزءٌ من غريزتها، ومن فطرتها، لا أحد يعلمها إياه.. ولا تكتسبه

من أحد.. إنما هو في داخلها.. وفي شبكتها العصبية تحديداً، التي تسمى، عند بعضها على الأقل، دماغاً!..

وحده الإنسان في أفق أعلى

وحده الإنسان، من دون كل هذه المخلوقات، من السحلية والنملة إلى الحوت.. وحده الإنسان يتميز من كل المخلوقات، بأنه ينقل شعائره إلى أفق آخر.. إنه يمارس (حركات إيقاعية متكررة ونمطية) كما تفعل هذه المخلوقات، لكن، شيء آخر يمسها، و (يمسه).. فيجعل من هذه الحركات النمطية المتكررة شيئاً آخرَ، ويجعله أيضاً شيئاً آخرَ..

شيء ما، يدخل تلك الحركات، فيجعلها، أحياناً، على الأقل، تبعث الضوء..

وتجعل منه، مخلوقاً ضوئياً..

أحياناً، على الأقل!..

"ما فوق الطبيعة"!

ما يميز هذه الشعائر الإنسانية، عن طقوس الحيوانات والمخلوقات الأخرى ..هو الإيمان بشيء ما، شيء ما فوق الحواس والغرائز، شيء ما فوق المحسوس المادي والمباشر، فوق هذا الواقع بأبعاده الثلاثة الجاثمة على الصدور..

الإيمان، بشيء ما، فوق هذا الواقع، (فوق الطبيعة).. ينفخ في هذه الحركات الحياة، ويحولها إلى شعائر..

شعائر تملك (الصلة) بما هو فوق ذلك الواقع.. بما وراء تلك الطبيعة..

سنسميه نحن (الغيب) طبعاً.. وقد يسميه آخرون أشياء أخرى، لا مشكلة كبيرة في ذلك..

* * *

لكن، السؤال هنا، في الخطوة التي سبقت نفخ ذلك الإيمان بالغيب في الحركات، لتصير شعائر وتصير صلة بما هو فوق..

السؤال هو: كيف استطاع الإنسان، أصلاً، أن يتفرد بهذا؟.. لا أقصد هنا، التفرد بالإيمان به، عز وجل، بل بالإيمان بشكل عام، سواء كان الإيمان بحجر، أو بالقمر، أو بالبرق.. أو بروح شريرة تسكن كهفاً في الغابة المجاورة..

ما الذي امتلكه الإنسان، وميزه من بقية المخلوقات، على قمة سلم التمايز.. ما الذي جعل الإنسان قادراً على الإيمان بالغيب، أو بشيء مما فوق هذا الواقع المادي...؟

آدم ودماغه الأعلى!

يمتلك الإنسان دماغاً هو الأكثر تعقيداً بين كل الأعضاء الحية، وكذلك الأجهزة غير الحية أيضاً.. بل إنه الأعقد - بلا أي منازع - من أي شيء نعرف بوجوده في عالمنا.

يتألف الدماغ من حوالي ١٠٠ مليار خلية عصبية، كل واحدة منها ترتبط بـ ١٠ آلاف خلية عصبية أخرى، ولكل

خلية منها كدريليون، أي مليون مليار، (أي واحد وأمامها خمسة عشر صفراً)، نقطة اشتباك عصبية..

وتفوق الدماغ البشري ليس مسألة إحصائية نباهي بها وهي بقية مخلوقات الله، فهذا التفوق الإحصائي استوجب تفوقاً وظيفياً: هناك وظائف عليا، صار بإمكان الدماغ البشري أن يؤديها، بينما بقية المخلوقات، ذات الأدمغة الأقل شأناً وتعقيداً.. لا تستطيع أن تفكر بأدائها، لأنها لا تستطيع أن تفكر أصلاً!..

بعبارة أخرى، يمتلك الدماغ البشري في تركيبه الداخلي مشتركات حتى مع الزواحف.. ولا يزال هذا المشترك قابعاً في رأس كل منا، ولا يزال باسمه العلمي، يحمل ذلك المشترك مع الزواحف reptilian ، إنه الطبقة الأدنى من طبقات الدماغ (brain stem) جذع الدماغ، وهي الطبقة المسؤولة عن الأيض، التنفس، والهضم، أما الطبقة التي تليها فهي تسمى الدماغ المتوسط midbrain ، فهي مسؤولة عن العواطف بالدرجة الأولى، أما الطبقة الثالثة وجزؤها الأهم الذي هو neocortex القشرة الحديثة - فإنها تختص باللبائن من المخلوقات، وهي الأكبر عند الإنسان تحديداً، حيث تشكل حوالي ٧٦٪ من دماغ الإنسان.. وهي التي تمنحه - تحديداً - ما يمتلكه من ملكات ينفرد بها عن بقية المخلوقات..

مثل التفكير.. المنطق.. والقدرة على (التجريد)..

ومن بين كل هذه، فإن الأخيرة بالذات هي التي تخص موضوعنا : الشعائر..

القدرة على إنتاج أفكار (مجردة)

القدرة على التجريد، أو على الفكر التجريدي، هي صفة حصرية بالإنسان، لا يوجد أي مخلوق آخر على وجه الأرض، مهما درب وأتقن تدريبه، له هذه القدرة.. التفكير التجريدي..

والتفكير التجريدي، بالتعريف، يعتمد على القدرة على تجريد أمرٍ ما، من تفاصيله الكثيرة التي قد لا تكون مهمة رغم وجودها المادي المباشر، للوصول إلى لب هذا الأمر، أو صفته الأساسية الجوهرية، التي ربما لا تمتلك وجوداً مادياً مباشراً..

إنه بعبارة أخرى، القدرة على الوصول إلى، أو التفاعل مع، معان معينة ليس لها وجود داخل النطاق المادي؛ بل تقع خارج أسوار هذا النطاق..

فالفيضان مثلاً، أو البركان، أو العاصفة الشديدة، ستنتج أموراً ذات طابع سلبي، كل المخلوقات التي ستتعرض لهذه الظاهرة ستتأثر حياتها بسلبياتها، لكن الإنسان وحده، سيستطيع أن يخترق هذه الظاهرة، إلى ما وراءها، يتجاوز تفاصيلها، "يجردها من تفاصيلها" ليسميها: شراً، أو يسمي غيرها: "خيراً"..

كل المخلوقات، بما فيها الحيوانات، يمكن أن تشعر بالسعادة، أو بالحزن، أو بالرضا، أو بالغضب.. لكن الإنسان وحده يمكنه أن يسمي ذلك، أن يطلق الاسم على

مجرد شعور، أي أن يكون "المسمى" لا يتعلق بحيز مادي أو مكاني، بل في بعد آخر غير منظور..

الإنسان وحده، بقابليته على التجريد، يمكن له أن يتصور هذا البعد غير المنظور، أن يؤمن بوجود بعد كهذا، حتى يؤمن به بعدها.. أو يرفضه.. ويمكن له أن يتعامل مع "رموز" ليس لها وجود مادي لكنها محملة بمعانٍ خارج هذا الوجود، واستعمال هذا الرمز يحمله فوراً إلى هذا البعد الآخر..

هذا التجريد، هو ما ميز الإنسان عن كل المخلوقات الأخرى، وكان دماغه المميز، بالذات دماغه الأعلى "القشرة الحديثة" هو الآلة التي جعلته قادراً على ذلك.. قادراً على التجريد.. وعلى ابتكار الرموز اللغوية.. التي تحمله وتصله بالمعاني المجردة: أي الأسماء..

الإنسان الأول والأسماء: القدرة على التجريد

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[البقرة: ٢/٣١-٣٣].

سيكون ظلماً كبيراً، بحق القرآن الكريم، وبحق أبينا آدم، وبحق فهمنا للقرآن، وبحق أنفسنا، وبحق الأدمغة التي نحملها في رؤوسنا بالتحديد، أن نشيح بوجوهنا عن هذه

الآية، عندما نأتي على فهم ما تميز به الإنسان من قابلية للفهم التجريدي..

سيكون ظلماً أن نفهم أن الأسماء هي محض أسماء، لقّنها الله - عز وجل - لآدم وانتهى الأمر..

إنما الأمر أكبر بكثير.. إنما هي قابليته "الأصيلة" التي أودعها الله فيه على اقتحام حجب اللامرئي؛ المعاني التي لا تسكن الواقع الفيزيائي بل تستقر في بعد آخر..

(الأسماء) هنا، هي قابلية الإنسان، على الإمساك بالمعاني، ووضعها في قوالب اللغة، وجعل هذه القوالب رموزاً تعني أكثر بكثير من الأصوات التي تعنيها، معانٍ عميقة، لكنها (مجردة)، خارج نطاق الزمان والمكان الذي سقطت في أسره الكائنات الأدنى..

الأسماء هنا، هي كناية عن قدرة الإنسان على تعامله مع الرموز، مع المجرد، مع أبعاد ما وراء الطبيعة، مع البنية الفوقية..

وهذه كلها، بمجموعها، هي ما ميزت الإنسان، وجعلته على قمة السلم..

* * *

ليست هذه القابلية، خيراً محضاً بالضرورة، إنما هي آلة، ومثل أي آلة، يمكن استخدامها باتجاهين..

إنها آلة متطورة حتماً، وأكثر تطوراً من أي آلة أخرى في رأس أي مخلوق آخر.. أو أي جهاز حاسوب حديث..

ولكن هذا يجب ألا يبهرنا، ويجعلنا نتصور أن أي نتيجة تصل إليها هذه الآلة هي صحيحة ومطابقة للصحة..

إنها، مثل أي حاسوب حديث ومتطور، نتائجها تعتمد على "المدخلات" - - input فإن كانت المدخلات متحيزة، أو انتقائية، فإن الناتج النهائي لأعظم آلة على الإطلاق لن تكون عظيمة أبداً..

لذلك تأتي الآيات الكريمة لمجادلة هذه القابلية الإنسانية الفذة.. عندما وضعت في المسار الخطأ..

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ [الأعراف: ٧/٧١].

الانتقال بالطقوس إلى أفق الشعائر

ما علاقة هذا كله بالموضوع الأصلي: الشعائر؟..

علاقته، أن الإنسان، وحده، بقابليته التي جعلته على قمة سلم الخليقة، يمكنه أن يحول تلك "الغريزة الطقوسية"؛ أي الميل إلى أداء حركات بإيقاع متكرر وجماعي يشترك فيه مع الزواحف والسحالي والقردة والحيتان.. - وحده، ينفرد، أنه يمكنه أن يحول هذه الطقوس والإيقاعات إلى شعائر، وحده يمكنه أن يخرج هذه الطقوس عن إطار الأبعاد الفيزيائية، ليحلق بها نحو عالم المجرد، نحو غيب لا يمكن التعامل معه بالحواس المادية، بل لا يمكن تحسسه إلا بذلك الدماغ الأعلى.. الذي ينفرد به الإنسان عن المخلوقات.. بل حتى عن الملائكة..

وحده الإنسان، يمكنه أن يضخ الرمز والمعنى، في تلك الإيقاعات، فإذا بها تضج حيوية وتفاعلاً، وإذا بالرمز هو بمنزلة الروح لها..

وحده الإنسان، من بين كل المخلوقات، يمكنه أن يحوّل تلك الحركات، من مجرد حركات فيزيائية، إلى (صلة)، تربطها ببعد آخر، غير منظور، لا تستطيع الزواحف حتى أن تتصور وجوده..

لأنها لا تستطيع أن تتصورا..

* * *

لنرتب الآن الموضوع من جديد..

أولاً - تشترك معظم المخلوقات غريزياً في أداء حركات إيقاعية نمطية متكررة، تؤدَّى غالباً بشكل جماعي، وتوظف أيضاً لأداء دور اجتماعي بطريقة أو بأخرى..

ثانياً - يشترك الإنسان معها في ذلك أيضاً، حيث لا يخلو مجتمع إنساني معروف - بدائي أو متطور أو (بين - بين) من أداء الشعائر أو الطقوس، وبعض القبائل البدائية في أسترالية تؤدي طقوساً شديدة التعقيد، احتفالاً ببلوغ ذكورها، لكن هذه الطقوس تكاد تكون مطابقة لما تفعله بعض أنواع الطيور..

ثالثاً - هذا (المشترك) بين الإنسان وسواه، يتحكم به جهاز عصبي ما، يختلف باختلاف الكائن ورتبته في سلم التمايز، وهو الدماغ الأدنى، "جذع الدماغ"، بالنسبة إلى

الإنسان وفصائل أخرى متنوعة.. وهذه الطبقة يبدو أنها السبب في الميل لخلق الطقوس والشعائر..

وهذا يعني أن هذه المخلوقات، ومن ضمنها الإنسان، مبرمجة على صنع (الطقوس)، إنها تحوي في داخلها، برنامجاً عصبياً يجعلها تصنع ذلك..

رابعاً - الإنسان، ينفرد وحده، بأنه يستطيع أن ينقل هذه الإيقاعات الحركية (التي يبرمج على تكوينها) باتجاه أعلى، أكثر تجريداً، نحو أفق أكثر رقياً وتعقيداً.. إنه يتعامل من خلالها مع معانٍ مجردة، بشكل يجعل هذه الحركات أكثر من مجرد حركات، بل كل حركة تصير "رمزاً" يرتبط بالمعنى الفوق ما وراء الطبيعي..

خامساً - تفرد الإنسان بهذه القابلية، يعود أصلاً إلى تفرد دماغه وامتلاكه الطبقة العليا المتفوقة، التي تجعله قادراً على أداء ملكات التفكير والمنطق، والفكر التجريدي..

إنه تفرده الذي جعله قادراً على أن يتعامل مع (تسميات) - ويطلق عليها (الأسماء) - كناية عن قدرته على وضع المعاني العميقة داخل قوالب لغوية.. في عملية لعلها الأعقد منذ بدء الخليقة..

* * *

البرمجة على الشعائر : الدماغ الخاشع

وهكذا، وكما ترون، فإننا مبرمجون على أداء (شعائر) ما بطريقة ما.. نحن والزواحف والحيتان والكلاب البرية..

بفارق أننا وحدنا قادرون على فكّ شيفرة البرنامج نفسه بطريقة مختلفة، بطريقة تنقله، وتنقلنا، إلى أفق أعلى..

* * *

لعل الأمر كله مخيب للآمال.. مخيب لآمال فريق على الأقل.. فقد تعودنا، عندما نتحدث عن الصلاة، أن نتحدث عن القلب الخاشع، لا عن الدماغ، ولا عن طبقات الدماغ المشتركة مع السحالي والكلاب!..

هناك المزيد من الخيبة إذن!..

* * *

بين طبقتي الدماغ اللتين تحدثنا عنهما؛ السفلى المشتركة مع معظم المخلوقات والتي تحوي البرنامج الأساسي لأداء الشعائر، والعليا التي ينفرد بها الإنسان والتي تمكنه من فك شفرة البرنامج نحو أفق أعلى، هناك طبقة وسطى.. إنها الطبقة القلب، midbrain، وهي مركز العواطف في الدماغ.. بعبارة أخرى: عندما تمر بنا تلك القشعريرة في لحظات الصلاة، عندما نستحيل ريشاً ملوناً في خضم إعصار من الخشوع..، عندما نشعر أن الكون كله قد انكمش حتى صرنا مركزه، أو أننا تمددنا لنكون

الكون كله، كل هذا، وربما أكثر، مركزه تلك الطبقة الوسطى من الدماغ..

القلب منه!..

* * *

يا للخيبة.. سيقولون..!

* * *

لا يجب أن تخيب آمالنا إذن.. فكوننا مبرمجين، منذ أن بدأ الخلق، على أداء شعائر ما، وأن الدماغ، كله، بطبقاته الثلاث، مشترك في عملية (الصلاة) هو أمر يجب أن يجعل أفواهنا تسقط من الإعجاب والانبهار.. لا أن تظهر علامات الخيبة والاشمئزاز على وجوهنا..

"لكن الدماغ؟!.." سيقولون..

نعم. ربما هي صورة لم نألفها.. في الحديث عن موضوع كهذا..

لكن ربما أيضاً هي الصورة الأفضل.. ربما هي الصورة الأكثر وضوحاً..

ربما هي الصورة التي تستطيع أن تكون مرآة لنا.. ولما نريد أن نكون..

أو بالأحرى: لما يجب أن نكون..

الفصل الرابع

مخلوق شعائري، رغماً عن أنفه....

إذن نحن مخلوقات (شعائرية) ليس بقلوبها فحسب بل بفطرتها.. بأدمغتها.. رضيت أم لم ترض.. شاءت أم أبت..

لكن.. كيف نفسر إذن، ترك الناس لأداء الشعائر؟.. كيف نفسر أن الحياة الحديثة، على الأقل عند قطاع كبير من الناس تبدو أحيانا خاليةً من الشعائر؟.. كيف ينسجم كوننا مبرمجين على أداء شعائر ما مع حقيقة أن ملايين الناس، في عصرنا الحالي، هم إما ملحدون علنيون، يقولون عن أنفسهم: إنهم ملاحدة دون أن يرمش لهم جفن، أو أنهم يعتقدون بوجود الإله، لكن اعتقادهم هذا "مع وقف التنفيذ" أي إنه لا يتحول إلى أي عمل شعائري موجه نحو هذا الإله..؟؟

كيف نفسر ما نقول: إننا محكومون بذلك البرنامج القديم المغروس فينا، مع نمط الحياة العلمانية الحديثة، التي غزت العالم كله، والتي غزتنا أيضاً، والتي نرى كيف أنها تكاد تكون خالية من الشعائر؟..

ربما سيقولون: إن تلك الشعائر وأداءها، كان مرحلة ما، في درب التطور المزعوم، وإن الإنسان احتاج إلى الشعائر في مرحلةٍ ما، كما احتاجت إليها بقية المخلوقات، وإنه حول حركاته وإيقاعاته إلى شعائر دينية لكي تساعده على مواجهة إحباطات الحياة، ثم إنه، عندما استمر في التطور، ترك هذه الشعائر، كما ترك المعتقد الذي يقع خلف الشعائر.. بالضبط كما ترك السكن في الكهوف والصيد في الغابات.

لا يوجد مجتمع إنساني، مهما كان علمانياً ومتطوراً، استطاع أن يطلِّق الشعائر، كما يُتَوهَّم.. أو سيستطيع أن يفعل ذلك لاحقاً، أو في وقت قادم.

لا يمكن، ببساطة، أن تتوافق الكلمتان (مجتمع) و (لا شعائر).. لا يمكن أن يحدث ذلك، مهما ادعى أي شخص غير ذلك، ممن يهاجمون الشعائر، وما يقولون إنه جمودها.. من أجل الهجوم على الدين برمته..

لا يوجد مجتمع إنساني، بلا شعائر.. لأن هذا مناقض لحقيقة ثابتة من حقائق الإنسان: وهي أنه مخلوق شعائري..!

وجه آخر من الطقوس

لا أقصد هنا الإشارة إلى عدد المترددين على دور العبادة في الغرب، وزيادتهم عموماً مقارنة بالعقود الماضية، خاصة في أمريكة، فهذا موضوع آخر، وربما لا يرتبط - بموضوع الشعائر؛ بل بموضوع الدين والحاجة

الإنسانية إليه بشكل أعم وأكبر.. خاصة أن أمريكة ذاتها، على الرغم من وجود كثير من النواحي العلمانية في الحياة فيها، إلا أن أصل نشأتها مختلطاً برؤية دينية معينة، جعل من بعض المظاهر الدينية راسخة فيها، على الرغم من كل مظاهر الانحلال الأخرى..

لا أتحدث إذن عن الشعائر في مجتمع مزدوج، مثل المجتمع الأمريكي.. بل حتى عن الشعائر، في مجتمع علماني صرف، ملحد تماماً، قام على أسس نسفت الدين من أساسه.. عن تجربة بناء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفييتي السابق. حيث حورب الدين ، وأغلقت دور العبادة، وشرد رجال الدين، وأعدم المئات منهم، تحولت بعض الكنائس إلى اصطبلات ومستودعات ومؤسسات حزبية، وتم حذف كل ما يتعلق بالدين من الدولة وضع العكس منه في رؤوس التلاميذ..، لكن الشعائر ما لبثت أن دخلت من باب آخر ، ذلك أن الإنسان مخلوق شعائري بطبعه، إنه مخترع شعائر، وهو مخترع ممتاز، ولذلك فإن الحاجة الشعائرية تلك، التي أزيح منها الدين، ما لبثت أن عوضت نفسها بتمازجها مع الإيديولوجية الشيوعية.. وصارت هناك، بدلاً من عيد الفصح وعيد الميلاد التقليديين، أعياد جديدة تعكس العقيدة البلشفية، وتؤدى خلالها طقوس جماعية تحتفل بالذكرى، وتصاحبها أناشيد بكلمات معينة تؤدى بحماسة.. وسنة بعد أخرى، تحولت هذه الحركات الإيقاعية، مع الأغاني المصاحبة لها، إلى نمط يتكرر، ويربى على أدائه الأجيال، ويعتبر جزءاً من

اللحمة الاجتماعية، ومن الهوية الجماعية للفرد داخل المجتمع..

ومع الوقت، زادت هذه الطقوس تعقيداً، وتماهت تماماً في بعض الأحيان لتصير بمثابة عبادة للفرد؛ للزعيم الذي يمثل قمة تلك الإيديولوجية ويكون المجسد لها.. والمزار الذي أقيم لقبري ستالين ولينين، والطقوس التي تؤدى عندهما في مناسبات معينة، تذكر جداً بطقوس مشابهة لقبور أشخاص لا يشبهونهم في شيء..!

والذي حصل مع الشيوعية، في نسخها المتعددة: السوفييتية والصينية، حصل قبلها مع النازية ومع الفاشية: حركات إيقاعية جماعية، مصاحبة بنشيد تعبر كلماته عن العقيدة السائدة.. ومن ثم يتطور الأمر ليصير عبادة للفرد، حيث تؤدى لفرد ما يمثل قمة الهرم العقدي - حياً كان أم ميتاً - طقوس خاصة له، في عيد ميلاده، أو عيد انتصاره (أو عيد موته!..)

* * *

حسناً، كان ذلك، العصر الغبي للإيديولوجيات الشمولية الغبية. وقد انتهينا من ذلك.. وانتهى التاريخ لمصلحة الليبرالية الديمقراطية الغربية، أو هكذا يزعمون..

كانت تلك الإيديولوجيات تنتج شعائرَ كهذه، أما الآن، فقد تخلصنا من ذلك، وتحررنا من قيود كل تلك الإيديولوجيات وإفرازاتها الشعائرية.. نحن الآن في عصر الحرية! (لا تنسوا أن تسبحوا لمجدها القادم على جثث أطفالنا)..

نمط الحياة الحديثة، شعائر بلا حصر

بما أن الإنسان مخلوق شعائري.. وهو مخترع شعائر ممتاز، فإن "نمط الحياة الحديثة" (الأمريكية - الغربية) يعبر عن نفسه حتماً عبر شعائر أيضاً، لكنها تتسلل دون أن نشعر أنها شعائر.. ليس فيها النمط القسري الذي كان موجوداً في الإيديولوجيات الشمولية.. بل إنها تؤدَّى باستمالة وسائل الإعلام وبغريزة القطيع، الذي يجعل من عدم أدائك لهذه الطقوس تخلفاً عن ركب القطيع السائر إلى الأمام.. لا إقسار مباشر، ولكن هناك أساليب أشد قسراً، وأقل مباشرة..

ماذا لدينا..؟

* * *

إنها أمور صغيرة، ربما! مجرد تفاصيل، ربما أيضاً! لكنَّ حقائقَ كبرى ربما تسكن فيها، تسكن في تلك التفاصيل الصغيرة التي تتسلل ببطء ودون أن نلقي لها بالاً كبيراً..

عيد الميلاد مثلاً، كان البشر يولدون منذ أن كان هناك بشر .. لكنهم لم يكونوا يحتفلون بميلادهم كما نفعل اليوم.. بالضبط كما استوردنا ذلك من هناك ..

"ماذا في الأمر؟ إنه ليس "عيداً" فلا تعظموا الأمر، إنه ذكرى الولادة فحسب.. لا تعقدوا كل شيء.. دعونا نقض بعض الوقت الممتع.."

لا بأس.. لكن تذكروا أيضاً، في أثناء قضاء الوقت الممتع، أن تحلقكم حول المائدة، وإنشادكم للنشيد ذاك، ووجود الكعكة والشموع على المائدة التي تتحلقون حولها؛ كل ذلك يقع، حتماً، حسب ذلك التصنيف نمط متكرر من الحركات، مصاحب بنشيد..

وهو يعبر، حتماً، عن واحدة من أهم القيم التي ارتكزت إليها الحضارة الغربية: الفردية ..

إنها شعيرة تعبر عن ذلك.. تعبر عن نمط الحياة الذي مركزه الفرد.. ويعزز ذلك بالهدايا المغلفة، والتي تعبر أيضاً، ضمناً، عن قيمة أخرى من قيم تلك الحضارة: الاستهلاك..

الأمر إذن أكبر بكثير من مجرد قضاء الوقت الممتع..

* * *

حفلات التخرج في المدارس الثانوية، والتي تتسرب إلينا بالتدريج عبر وسائل الإعلام، تحوي أيضاً ذلك النمط الإيقاعي المتكرر، وتشبه، في نواحٍ كثيرة، طقوس البلوغ التي تؤديها القبائل البدائية في مجاهل إفريقية.. في بعض الولايات في أمريكة، يقومون باحتفال للشبان والشابات الذين حصلوا على رخصة السياقة في تلك السنة، ربما لأنهم لم يتخرجوا في الثانوية، ولا بد من تقديم شعائر من نوع ما لبلوغهم ،حفلات التخرج في الجامعات، لها أيضاً طقوسٌ ومراسيم، وملابس معينة، استوردناها كما استوردنا كل شيء، جاهلين أن جذورها ضاربة في عمق

الحضارة الغربية، بل في عصورها الوسطى المظلمة، حيث إن هذا الرداء والقبعة، كان الزي المميز لطلاب واحدة من الجامعات الدينية في شبه الجزيرة البريطانية، وكانوا يرتدون هذا الزي طوال الوقت، ليتميزوا عن العوام والجهال..

مواسم الدوري الرياضي أيضاً فرصة لأداء بعض الشعائر.. لا أقصد الرياضة بحد ذاتها، لكن مظاهر التشجيع تتخذ أحياناً شكلاً طقوسياً شديد الوضوح، خاصة مع اللعبة الأكثر رواجاً في أمريكة، كرة السلة، حيث تقوم الفتيات بأداء حركات تشجيعية إيقاعية متقنة وصعبة، في نسخة طقوسية معاصرة من أداء فتيات القبيلة البدائية لطقوس معينة احتفالاً بشبان القبيلة الأقوياء وهم يبرزون مهاراتهم..

طقوس الزفاف - الديني أو المدني أو المزيج منهما - تحمل أيضاً نمطاً متكرراً من الحركات، وهي تتسرب إلى طريقتنا في الزواج نحن أيضاً كما كل شيء..

طقوس (عيد الشكر) (والتي أستغرب لم تأخر تسللها إلينا، عسى أن يكون المانع خيراً) تعكس تاريخ إبادة الهنود الحمر والاحتفال بهذه الإبادة، حيث إن الديك الرومي التقليدي هو تذكار لضيافة السكان الأصليين لمجموعة ضالة من البيض في ليلة شتوية ممطرة، تم لاحقاً الغدر بسكان القرية وإبادتهم.. والاحتفال بهذا الانتصار دون نسيان الديك الرومي..

وعدا هذا وذاك، فإن طقوس "حمى ليلة السبت" التي تجري بشكل جماعي في المقاصف والمراقص وتحت الأضواء الراقصة وعلى إيقاع موسيقي صاخب، هي طقوس تشبه في خطوطها العامة، طقوس الحيوانات في مواسم جماعها، بفارقين: الأول أنها أكثر ابتذالاً، والثاني أن الحيوانات تناور أكثر قبل أن تصل إلى ما تريد..

* * *

حتى "عبادة الفرد" وجدت لها نوعاً من الطقوس في الغرب ، تختلف عن طقوس عبادة الزعماء في عالم الاستبداد الشيوعي المندثر، لكنها "عبادة فرد" بكل الأحوال.. وتتمظهر في ذلك الهوس الذي يصيب الجماهير بأفراد معينين تسوقهم شركات الإنتاج على أنهم "المثل" و القدوة".. أنهم "النجوم" في شتى مجالات الفن والغناء والرياضة.. والواحد منهم يسمى أحياناً "معبود الجماهير"..

* * *

وهناك نوع آخر من الطقوس، لا تختص بالغرب، ولا بنمط الحياة الغربية، لكنها موجودة فيه، بالذات في أمريكة، ويؤكد وجودها وتكريسها هناك، كما في كل مكان في العالم، تلك النزعة الشعائرية عند الإنسان، وصفته بأنه مخلوق شعائري: هذه الطقوس هي تلك التي تتعلق بمجرد قطعة قماش؛ قطعة قماش لا أكثر ولا أقل، لكن الإنسان، بقدرته على الترميز، وتحميل المعاني، يحول

قطعة القماش هذه إلى رمز للوطن، ويقيم لها الشعائر والطقوس، ويتمسك بها ويضعها في واجهة داره، أو في صدره عندما يمر وطنه بأزمة.. وما هي إلا قطعة قماش لو أننا ألغينا المعاني الفوقية..

* * *

عدا هذه الطقوس الدورية، التي تعج بها الحياة الحديثة، هناك طقوس شبه يومية، صار الإنسان الحديث "بنسخته الأمريكية" خصوصاً يمارسها، وتمارسها شعوب خلفه، حذو القذة بالقذة، تعدّ هذه الطقوس محض عادات، وقد تكون عادات غذائية أو صحية أو رياضية، أو "تسوقية"، لكنها، بالطريقة النمطية التي تمارس بها.. ولأنها تكاد تصير، بالنسبة لمؤديها، هدفاً للحياة، ومحوراً من أهم محاورها، بل إنها تصير: المعنى الكامن للحياة بالنسبة إلى مؤدّيها.. ولذلك، فإنها أكثر من مجرد (عادات).. إنها شعائر بمعنى من المعاني..

* * *

شعائر الحياة الحديثة، ليست محل بحثنا هنا، وما وردت إلا من باب التدليل على أن الشعائر ستظل موجودة، حتى في المجتمعات، التي نتصور أنها أنجزت طلاقها من الدين وشكلياته.. تخرج الشعائر من الباب، ولكنها تتسلل من النوافذ، من تحت الأبواب.. من بين المسامات.. ربما بأسماء أخرى، ربما دون أن تصرح عن نفسها أنها شعائر.. لكنها ستسد تلك الحاجة الموجودة في دماغ النوع

الإنساني.. وهي الحاجة الموجودة أيضاً في المخلوقات (الأدنى)..

شعائر الحاجات البيولوجية (الدنيا)

وهذا ما يجرنا جراً إلى موضوع آخر.. له صلة بكل ما نتحدث عنه..

فهذه الشعائر الحديثة، مهما أطلقنا عليها من تسميات، لو حللناها، لو وضعناها تحت المجهر الأركيولوجي والسوسيولوجي والسايكولوجي، لوجدنا أنها تسد فعلاً حاجة الدماغ الأدنى، إلى الأداء الإيقاعي النمطي، تؤدي بذلك وظائفَ لصالح اللحمة الاجتماعية.. كما تفعل الزواحف والكلاب البرية والطواويس؛ أي إنها تلبي وتسد نداء الجزء الأدنى من أدمغتها المشترك مع كل المخلوقات الأدنى..

لكن لا شيء هناك في هذه الشعائر الحديثة، يجعلها تستغل تلك الطبقة العليا من أدمغتها، التي ميزت الفصيلة الإنسانية برمتها..

لا شيء هنا، في هذه الشعائر، يجعلها تتصل بذلك الشيء الذي لا يسكن الأبعاد الفيزيائية، الذي لا يحتاج إلى حيز مكاني أو فيزيائي ليتموضع فيه..

إنها محض شعائر تخص " الآن وهنا" بلا أبعاد فوق ذلك، بلا أبعاد تسبر أغوار الغيب، بلا شيء يصلها بالغيب..

إنها شعائر المادة، والأكل، والجنس، والصحة..

لكن لا شيء، ولو بالرمز، يصلها بذلك البعد الآخر، الذي لن تفهمه الزواحف ولا القطط..

والذي وحده الإنسان، بملكة التجريد عنده، يستطيع أن يحوزه.. لا شيء، يرتبط بـ (آدم)..

الإنسان يتنازل عن استحقاقاته

وهذا يعني، بطريقة أو بأخرى، ومن زاوية شمولية، أن هذه "الشعائر الحديثة" تمثل تنازلاً من قبل الإنسان، عن استحقاقاته التي جعلته على قمة سلم المخلوقات.. باتجاه استحقاق المخلوقات الأدنى ومتطلباتها..

إنه تنازل من هذا الإنسان، عن تلك الصلة التي لن يفهمها إلا هو.. وقبول منه، بما تكتفي به الطحالب والدواب..

إنه بمعنى آخر، "ارتداد"..

ارتداد عن النوع الإنساني كله..

باتجاه الزواحف والسلاحف..

* * *

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٩٥/٤]..

نعم.. ولقد رأينا ذلك - وبرهان ذلك لا يزال قائماً في جمجمته.. في ذلك الجهاز الأعقد والأكثر كفاءة من بين كل الأجهزة والآلات في الكون..

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٩٥/٥]..

ولقد رأينا ذلك أيضاً، آسفين، رأيناه يتنازل عن قمته العالية. يهبط إلى القعر.. وبدلاً من أن يحلق في عوالم اللازمان واللامكان، رأيناه يهبط درجة، تلو أخرى.. ليحبس نفسه، في قفص ضيق من أبعاد ثلاثة..

عبر شعائر لا تصله بالله، بل محض شعائر لا تتصل إلا بالواقع الأدنى..

إنها الردة!

الآن أفهم الردة حقاً!..

لا أريد أن أدخل حقل الألغام الفقهي، فهو بالتأكيد ليس مناسباً هنا..

لكني الآن أفهم "الردة" بمعنى أوسع وأكثر تجريداً: إنها ارتداد عن القمة العالية التي وصلها الإنسان بصفته الأرقى بين المخلوقات. إنها ارتداد عما جعل آدم يستحق سجود الملائكة، إنها ارتداد عن تلك القمة العالية التي حزناها .. وهبوط إلى القعر..

الكسل؟ الجحود؟.. لا أعرف. لا أعرف كيف أصف الأمر هنا، فهذه تفاصيل.

لكن من حيث أرى الأمر، من بعيد، أراه بوضوح: ترك الصلاة؛ ترك ذلك البعد الآخر في الفهم - في الشعائر - هو هبوط من مرتبة الإنسان.. باتجاه درجة الزواحف..

ولو دققنا، لوجدنا كثيرين، ممن لا يصلون، يشبهون الزواحف.. على الأقل، لو رأينا من داخلهم..

الفصل الخامس

شعائر الدين الخاتم : شعائر خاتمة؟

نؤمن طبعاً أن ديننا هو الدين الخاتم، وأنه الدين الأفضل والأكمل، وأن شعائره، تحتوي على ما هو أكثر من شعائر الأديان الأخرى، وأن ديننا، بما أنه الأفضل، لا بد أن يحتوي، في شعائره، على أكثرمما تحويه الأديان الأخرى من البعد الروحي.. على أهمية هذا البعد ، التي تميزنا بوصفنا نوعاً إنسانياً.. لكن، شعائر الدين "الأفضل"، لا بد إذن أن تكون مختلفة ومتميزة عن شعائر غيره من الأديان..

لا يقلل هذا من أهمية الدور الاجتماعي، وإبراز الهوية، التي تقوم بها كل الشعائر بعمومها، سواء مورست من قبل مؤمني الأديان الأخرى، أو كانت مجرد طقوس علمانية..

لكن الدين الخاتم، لا بد أن يكون لشعائره.. وظيفة أخرى..

وظيفة خاتمة..

* * *

بعبارة أخرى، إذا كانت الصلاة، كشعيرة بشكل عام، **تحافظ على مكانتنا بوصفنا نوعاً إنسانياً.. فإن الصلاة** التي هي ركن من أركان الدين الخاتم، لا بد أن تتجاوز المكانة.. إلى المساعدة في تحقيق الهدف من وجود النوع الإنساني على قمته العالية..

* * *

بينما نتثاءب..

الهدف؟.. هل هناك هدف أصلاً من وجودنا على هذه الأرض؟.. حتى تساعدنا الصلاة عليه!؟

* * *

سيقول آخرون، بينما يحكُّون رؤوسهم متفكّرين: ألم تكن الصلاة هي الهدف الذي خلقنا من أجله؟ هكذا فهمنا الأمر.

لا، لقد فهمناه للأسف خطأً..

فـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] تتحدث عن العبادة، وهي معنى أوسع وأشمل.. وقد تشمل الحياة بأسرها..

أما الصلاة، فهي حتماً، أخص، وأدق.. ومتضمنة في العبادة، لكنها لا تساويها..

* * *

ماذا كان الهدف إذن؟ غير الصلاة؟!..

لماذا نحن على هذا الكوكب البائس؟!..

* * *

إذا كان هناك أحد، قد نسي ذلك (أو إذا كان أحد قد تذكره أصلاً!) فقد تصادف أنك موجود هنا: من أجل أنك الخليفة على الأرض..

وهذه الصلاة، المفترض أنها تقوم بتحسين أدائنا لما وجدنا من أجله..

لكننا طبعاً نفترض في الصلاة أي شيء، وكل شيء، باستثناء هذا الأمر: الخلافة.

سيقول بعض الناس: ما الذي ذكرك بهذا أصلاً؟!..

* * *

نهر الخير : المنبع من الداخل

سورة قصيرة جداً، عشر كلمات فقط، في ثلاث آيات فقط، هي حتماً أقصر سورة في القرآن الكريم..

إنها سورة الكوثر طبعاً، التي يحفظها أصغر الصغار، فيها فعل الأمر الوحيد، لذلك الحد الفاصل بين الكفر والإيمان..

الصلاة..[1]

(١) لم يرد فعل الأمر بالصلاة بهذا الشكل المباشر إلا مرة واحدة (صل) في سورة الكوثر - أما سائر الآيات فكانت تأمر بإقامة الصلاة.

السورة مكية مبكرة، وتحتل الرقم الخامس عشر في ترتيب النزول.. وتليها فوراً سورة التكاثر مباشرة في تلاحم ملفت.

لننظر.. فالتكاثر والكوثر مشتقتان معاً من الفعل (كثر)، ولكن (التكاثر) شيء، و (الكوثر) شيء آخر.. تماماً..

والتكاثر، الذي ورد في معرض الذم، ينتهي، في خاتمة السورة بالمقابر، في إشارة واضحة إلى الهباء الذي تنتهي إليه معظم عناصر فعل المكاثرة..

أولئك المكاثرون، الذين يقضون حياتهم في التكاثر، في مراكمة الأموال والبنين والأشياء من حولهم، ويتصورون أن هذه المراكمة هي المقياس الوحيد للنجاح.. هي المقياس الوحيد للاستمرار.. إنهم يعتقدون أن هذه الأشياء (سواء كانت محض ثروة مادية، أو ممثلة في بنين يحملون أسماء آبائهم) ستضمن لهم الاستمرار.. أو الخلود بطريقة أو بأخرى..

وتقع المواجهة بين التكاثر والكوثر، عندما يعير واحد من المكاثرين، الرسول الكريم، بكونه بلا أولاد ذكور، وهذا حسب مفهوم (التكاثر) - ومجتمعات التكاثر - يعني أنه سيكون أبتر: بلا نسل..

لكن (للكوثر) منطقاً آخر، فالاستمرار فيه لا يقاس بما يتراكم من أموال وأشياء وبنين أو بنات.. والمقياس فيه ليس للكثرة الكمية التي قد تحوي ضمن ما تحوي السم

الزعاف والأمراض والفساد، بل القياس فيه للنوع.. وليس للكم..

ولذلك فإن ذلك الشخص المكاثر، الذي قال ما قال، انتهى كنكرة، انتهى بلا ذكر، حتى لو كان قد أنجب عشرة من الذكور..

أما ذاك الرجل الذي عير بعدم الإنجاب، الذي لم يكن قد راكم ما يتكاثرون به، عليه الصلاة والسلام، الذي لم يخلف ذكوراً يحملون اسمه (!) فإن ذكْره اليوم، بعد قرون طويلة، غطى حرفياً، كل أرجاء المعمورة..

شخص ما، لا نعرف اسمه اليوم، كان قد عيره بأنه مقطوع النسل!.. شخص ما، بدا آنذاك، حسب مقاييس التكاثر، أنه أكثر نجاحاً منه عليه الصلاة والسلام..

لكن للكوثر، مقاييس أخرى..

معيار آخر للكوثر..

بينما التكاثر يعتمد على مراكمة أشياء وزيادتها دون حساب "للقيم" المحتواة فيها..

فإن للكوثر مقياساً آخر يجعله زيادة في الخير فقط.. إنه "الخير الكثير" كما فسّرها ابن عباس وغيره..

بعبارة أخرى: التكاثر، هو الكثرة فقط، مراكمتها كيف كانت، أرقام بيانية تصعد، ولو كان صعودها سيؤدي إلى الهاوية..

أما مع الكوثر، فليس "الصعود" محسوباً إلا إذا كان سيؤدي إلى تحقيق رقي في القيم الإنسانية..

وبعبارة أخرى: التكاثر، وقيم التكاثر، تهتم (كمثال) فقط لزيادة الدخل القومي والاستهلاك ومعدلات الفائدة في البنوك، وتعد ذلك مؤشراً على "التنمية"..

أما مع الكوثر: فالمهم هو الإنسان، علاقته مع نفسه، مع ما حوله من مجتمع، مع الثوابت من قيمه، مع الله كمصدر أعلى ونهائي لهذه القيم..

مع التكاثر: زيادة الدخل الكلي هو هدف بحد ذاته، حتى لو كان توزيع هذا الدخل يزيد من الهوة بين أغنى الأغنياء، وأفقر الفقراء، ويزيد من التوتر الاجتماعي..

مع الكوثر - الزيادة هي زيادة الخير فقط.. هي تكثير الخير..

إنه الفرق بين التنمية؛ كخطوط بيانية تتحدث عن أرقام مجردة..

وبين النماء الإنساني الذي همه الإنسان وقيمه.. أي النهضة بعبارة أخرى.

* * *

ولقد استقرت كلمة الكوثر، في تفسيرات السلف، وفي أذهان المسلمين، على أنها نهر عظيم في الجنة، أعطاه الله عز وجل، وهو أعز من أعطى، لمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي هو أعز من أخذ..

ولا فرق حقيقة بين المعنى اللفظي المباشر للكوثر؛ الخير الكثير، وبين كونه نهراً عظيماً في الجنة.. وقد جمعت السيدة عائشة بين الأمرين في فقهها العقلاني

المميز، فقالت: إن الكوثر نهر في الجنة من الخير العظيم الذي أعطاه الله عز وجل لرسوله الكريم.

إذن نحن هنا، أمام مفردة قرآنية كريمة، لها مقابلان واحد دنيوي، والآخر أخروي.. الدنيوي هو الخير الكثير بجميع معانيه.. والأخروي، هو ذلك النهر العظيم في الجنة..

إذن نحن أمام رمز هائل يجسم معنى الكوثر: النهر العظيم.. والنهر هو دوماً رمز للحياة.. وللخصب.. وللعطاء ..إنه الذي تبني عليه الأمم أعظم مراكزها الحضارية.. كل الحضارات العريقة بنت مواطنها على أحواض الأنهار، وبالنهر أيضاً يمكن للصحراء اليابسة أن تتفجر حياةً، به أيضاً يمكنك أن تولد الطاقة.. أن تنير الظلام..

النهر رمز متجدد للحياة.. واسمه هنا الكوثر.. ويقابل هذا الرمز، مرة أخرى، على الضفة الأخرى من المعاني، رمز آخر، يرمز للتكاثر المادي الفارغ من المعنى الذي يتلهى به بعض البشر.. إنه المقابر ..﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١٠٢/١-٢]..

فمقابل ذلك النهر العظيم الذي يرتبط بمعاني كثرة الخير والنماء الإنساني، هناك "المقبرة" : رمز رهيب لتكاثر هو في حقيقته - وعلى مقياس القيم - هباء محض ..

* * *

ما علاقة كل هذا بما كنا نقوله، الصلاة؟..

ليست مصادفة أبداً، أن ترتبط المرة الوحيدة التي فيها لفظ (صلّ) بذلك النهر العظيم، رمز الحياة الحقيقية وتدفقها..

ذلك أن هذه (الصلاة) هي وسيلتنا للوصول إلى ذلك النهر العظيم، نهر الحياة..

الآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ١٠٨/١-٢] العطاء تم فعلاً، لكن الصلاة وحدها، هي وسيلتنا للوصول إلى ذلك "الخير الكثير"، لا شيء يجلينا عما نحن فيه، عن أنفسنا، للوصول إلى نهر الحيوية الدافقة، غير "الصلاة" - الصلاة بمعناها الأعلى، بمعناها الذي أمر بها - كتاباً موقوتاً - من أجله.. وليس بمعنى الحد الأدنى، معنى السقف الواطئ، معنى "لا أزيد ولا أنقص"..

لا شيء يأخذنا، إلى ذلك النهر، الذي يمكنه أن يحول صحراء حياتنا حقولاً زاهرة، ويحول الظلام من حولنا إلى نور مشع.. غير تلك الصلاة..

الصلاة بوصفها عملية مستمرة..

ولا يمكن أن يكون ارتباط نهر الحياة الذي تأخذنا إليه الصلاة، مجرد افتراض..

ذلك أن الذي لا يكذب أبداً، عليه الصلاة والسلام، قد قال: «مثل الصلوات الخمس في اليوم والليلة، مثل نهر جارٍ عذبٍ بباب أحدكم، يغتسل منه خمس مرات في اليوم، فهل

يبقى من درنه من شيء؟».. إنه النهر مجدداً.. والصلاة أيضاً..

(الحديث) لو قرأناه بعين تعودت على اعتبار الصلاة مجرد غسالة للذنوب التي نرتكبها بين أوقات الصلاة.. لوجدنا فيه تأكيداً لذلك.. لكن لو حاولنا النظر إليه من زاوية أبعد، لوجدنا أن الرسول الكريم لا يتحدث عن (أدران) ما بين الصلوات التي تزيلها الصلاة كلما أديت، بل عن عملية مستمرة - عن (الصلوات الخمس) ككل؛ عن المداومة عليها، باعتبارها ستزيل الأدران، وتجلوك، درناً تلو الآخر، إلى أن يظهر معدنك الأصيل.. وقد زالت عنه أقنعة الأدران.. الحديث هنا، ليس عن عملية تكفير ذنوب، يتم فيها تصفير الذنوب مع كل صلاة، وبعدها نعود للذنوب، ومن ثم نعود للصلاة، ويعاد التصفير.. وهكذا دواليك..

الحديث عن عملية تفاعل مستمرة، مع ذلك النهر - الصلاة، يجلي فيها أعماقك، وصولاً إلى أفضل ما عندك، أفضل ما يمكن لك أن تفعله..

الحديث عن "هل يبقى من درنه شيء؟" لا يتحدث عن ذنوب هنا وهناك، بل عن جذور تلك الأدران.. عن اقتلاع تلك الجذور.. عن الصلاة باعتبارها وسيلة تجعلك تتكوثر: بمعنى أن تزيد الخير في داخلك.. تنمي الخير في داخلك..

عن الصلاة بوصفها وسيلة للنماء الإنساني..

"ساهون" !

بعد سورتي التكاثر والكوثر بالضبط، تنزلت سورة أخرى، بإيقاع وسياق مضادين لسياق وإيقاع الكوثر، كأنما لترينا الصورة المضادة للصلاة بمعناها الإيجابي، ربما لأن الإيجابية لا تكتمل إلا بمعرفتنا وتمييزنا للسلبية..

السورة إذن نزلت بعد التكاثر مباشرة. وهي سورة الماعون.. وينبغي أن ننبه إلى أنهما نزلتا معاً في فترة مكية، غير معروفة تحديداً، لكنهما حتماً في السنوات الثلاث أو الخمس الأولى على أبعد تقدير..

وهذه "المعلومة" مهمة هنا، لأن ما ترسخه السورتان عن الصلاة، هو مبكر جداً، وهو قبل فرض الصلاة بفترة طويلة، بما أن الأوقات الخمسة للصلاة لم تفرض إلا بعد المعراج (في السنوات الثلاث الأخيرة في مكة) أي بعد ثماني سنوات إلى عشر من نزول الماعون والكوثر.

طبعاً كانت هناك "صلاة"، قبل أن تفرض بشكلها الحالي، لا نعرف إن كانت تملك نفس الهيئات والأركان، لكنها كانت ما يتعبد به المسلمون لربهم..

التبكير في توضيح الإيجابي والسلبي، قبل أن تتخذ الصلاة شكلها النهائي، كان ضرورياً من أجل الدخول إلى ما سيتحقق لاحقاً من "إقامة" للصلاة.. بمعناها الشمولي..

* * *

فلنتنبّه هنا إلى أن السورة على قصرها أو كونها نزلت مبكراً، ترسم لنا صورة متقدمة جداً وصالحة لكل وقت، عن أولئك الذين يكذبون بالدين، والتكذيب بالدين قد يتخذ أشكالاً متعددة ، شكلها الأوضح والأسهل هو ذلك التكذيب الصريح المباشر، أي ذلك الإنسان الذي يجاهر بالتكذيب والجدل ويعلن عدم تصديقه وإيمانه..

وهذا النموذج متوافرٌ دوماً، وهو كان متوافراً بالتأكيد في بدايات الدعوة، لكن السورة تنبهنا هنا إلى أن هذا النموذج قد لا يكون هو النموذج الوحيد - لكن هناك نموذج آخر، لا يقل خطراً، وربما يزيد، وهو لا يعلن عن نفسه بصراحة ، لكنه يتصرف ويسلك سلوكاً يكذب بالدين..

ربما يحتمل الأمر أن يكون "مكذباً صريحاً ومجاهراً" بالإضافة إلى أنه يسلك سلوكاً مضاداً للقيم الدينية، لكن هذا سيجعل من "التنبيه" غير ذي معنى، ذلك أن المكذب العلني بالدين واضح، وكانت الدعوة الإسلامية فعلاً في حالة صراع مباشر مع نماذج كهذه، ولكن التنبيه - يتوجه حتماً إلى نموذج خفي من التكذيب، نموذج لا يتخذ موقف المجاهرة، وربما لا يضمر التكذيب؛ لكنه يمارسه عملياً عبر اتخاذه نمطاً سلوكياً هو - بحد ذاته - تكذيب....

هل هذا هو النفاق؟

هل هذا هو ما اصطلحنا على تسميته، وما وضحته آيات كثيرة لاحقة، بالنفاق؟.. في الحقيقة إن هذا مجرد

احتمال، لكن كل ما نزل من القرآن في مكة كان خالياً تماماً من أي إشارة إلى النفاق، لسبب بسيط وهو أن المرحلة المكية كانت خالية من ظاهرة النفاق، التي هي ظاهرة نشأت في المدينة، مع نشوء الدولة التي أفرزت نماذج متسلقة تبطن غير ما تظهر.. (هو أمر طبيعي تماماً ويحدث في كل التجارب بعد انتصارها وعبورها من مرحلة النضال إلى تسلم الإدارة) أما في مكة فقد كان للانتماء إلى فئة المؤمنين ثمن باهظ لا تتحمله الطبيعة الانتهازية للمنافقين.. إذن ما ماهيّة هذا التكذيب الذي ترسخ الآيات أنه ليس نمطاً جهرياً من التكذيب؟..

إنه ببساطة خلل في الفهم قد يؤدي إلى التكذيب ، إنه فصل للإيمان عن العمل، للعقيدة عن السلوك، إنه أن "تصدق" بفكرة يطرحها الدين، ربما لأنها "راقت" لك، وربما لأنها "مقنعة"، أو ربما لأنك وجدتها أكثر تماسكاً ومنطقية مما هو مطروح من أفكار؛ لكن ذلك كله لن يتحول إلى أي سلوك عملي؛ لن يتفعل ليخرج من إطار الفكرة إلى التطبيق.. وذلك يكون أحياناً له مفعول "التكذيب" نفسه عندما يصاحب الفكرة الإيجابية سلوك سلبي مضاد.. وهي (الهوة) الممتادة بين الفكر والسلوك التي تسيء للفكرة وتنفر الناس منها.. وهي (هوة) تجعل من المبادئ تتحول إلى شعارات تثير سخرية الناس وضحكهم بدلاً من أن تجعلهم يؤمنون بها ويسعون إلى تطبيقها. وهو أمر معادل موضوعياً للتكذيب..

إذن نحن هنا أمام (فصام) مبكر بين الفكر والسلوك،

مساوٍ تماماً للتكذيب، حتى لو يأخذ شكل التكذيب اللفظي..

ما المثل الذي جاء في الخطاب القرآني ليجسد "حالة هذا التكذيب بالدين؟" ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١٠٧/٢-٣]..

تهميش المظلوم ...

عملية دَعّ اليتيم هنا ليس عملية "زجر" و "نهر" شخصية فحسب، بل هي مرتبطة بنظام اجتماعي ظالم كان يهمش بعض الفئات العاجزة، فقد كان عرب الجاهلية، لا يورثون النساء ولا الصغار بحجة أن لا إرث إلا لمن يحمل السيف، أي كانوا يدفعونهم عن حقهم، وهو قول القرطبي وغيره في تفسير الآية. فالدعُّ هو الدفع، والدفع هنا هو تهميش اليتامى والنساء وتعريضهم للظلم لمجرد أنهم الأضعف.. المثل الأول إذن كان عملية (ظلم) يشارك فيها هذا المكذب الخفي ولو بالرضوخ لعرف اجتماعي سائد..

لكن المثل الثاني ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١٠٧/٣] يتجاوز هذا. فالمثل الأول كان مشاركة في "فعل ظالم"، أما المثل الثاني فالسلب والتكذيب يكمنان في عدم الحث على فعل إيجابي، أي إن الأمر ليس في "إطعام المسكين"؛ بل في الحض عليه، ولن يكفي هنا أن يطعم المسكين ليخرج من دائرة التكذيب بالدين؛ بل مطلوب منه أن يحض عليه.. والصوت في الحض يوحي بقوة أكبر من مجرد الحث كما هو واضح؛ الحض أقوى

وأشد كما لو أنه يستحق أن يكون قضية للحياة لا مجرد نصيحة عابرة!

ما علاقة كل هذا بالصلاة؟

.. كل سورة - مهما قصرت - تمتلك وحدة موضوعية تتجلى في كل أركانها، والتهديد الشديد للمصلين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ١٠٧/٤]، يندرج ضمن إطار التكذيب بالدين نفسه المتمثل في الفصام بين الفكر والسلوك. فالغفلة عن معاني الصلاة وآثارها على صعيد الفرد والمجتمع هي (سهو) أيضاً، بل هي السهو بعينه، دون أن يتعارض ذلك بالضرورة مع كونها "تأخيرها عن وقتها" وهو التأويل السائد للآية، مع أن ذلك لم يكن له معنى وقت نزول الآية، لأن "مواقيت الصلاة" لم تكن قد فرضت آنذاك، إضافة إلى أن السياق العام للسورة ككل ينحو نحو هذه العلاقة الجوهرية بين الفكر والتطبيق، والإيمان والعمل، وجسر تلك الهوة والفصام الذي قد يحصل بينهما..

فالتهديد هنا للمصلين الذي يغفلون عن تفعيل صلاتهم ويختزلونها إلى مجرد حركات دونما أثر وامتداد على حياتهم ومجتمعهم، وهو تهديد من باب أولى لغير المصلين. وحتى لأولئك الذين يفعلون الخير دون أن يرتبط ذلك بالمنظومة الدينية، ذلك أنهم يدخلون أيضاً في باب آخر ووجه آخر من أوجه التكذيب بالدين..

الرياء وأنواعه

يتوضح ذلك أكثر في ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ١٠٧/٦-٧]..

ومرة أخرى يجب أن نتذكر أن للنص القرآني المطلق والصالح لكل زمان ومكان عدة قراءات وامتدادات لا تلغي واحدة الأخرى ولا تناقضها، بل تتراكب بعضها مع بعض في آفاق متصاعدة..

وإذا كانت قراءة لاحقة للنص يمكن أن تفهم من الرياء هنا بأنها شكل من أشكال النفاق، وهي قراءة صائبة تماماً، فإن ذلك لم يكن ممكناً على الأقل وقت نزول الآية، لأن النفاق نفسه لم يكن قد ولد أصلاً..

الارتباط بين النفاق والرياء ثابت قرآنياً.. ومن المرتين اللتين ورد فيهما لفظ المراءاة كانت هناك واحدة مرتبطة بالنفاق ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢﴾ [النساء: ٤/١٤٢]..

ولنتنبه أن "الرياء" هنا جاء مع الصلاة أيضاً - لكن فلننتبه أيضاً أن الآية وضحت أنهم "يراؤون" الناس.. أي إنهم يصلون من أجل أن يراهم الناس وهم يصلون. وهذا بالضبط مثل نموذجي من أمثلة النفاق..

لكن يبدو أن هناك نوعاً آخرَ من الرياء، فالآية التي نحن بصددها في سورة "الماعون" لا تحدد أنهم يراؤون

"الناس"، كما في سورة النساء. يراؤون من إذن؟.. أليس هذا هو الرياء؟..

ربما كان هناك رياء آخر ..يرائي فيه فريقٌ أنفسَهم.. يختزلون فيه الصلاة إلى حركات "مرئية" ويقنعون أنفسهم بأنهم يؤدونها، مجرد شيء يرى من الأداء مقطوع الصلة بأي شيء آخر غير مرئي (في أعماق النفس) أو بتأثيرات غير مرئية في المجتمع (حتى لو صارت مرئية لاحقاً)..

يحدث هذا كثيراً.. نرى أنفسنا نصلي.. ونقتنع، أو نقنع أنفسنا، بأننا قد أديناها لمجرد أننا "نرى" أننا نصلي..

الماعون : أكثر من مجرد صحن طعام

تنتهي السورة، بالمثل الثاني الذي وصف أولئك "الساهين" عن الصلاة، وهو المثل الذي يلملم جوانب السورة ووحدتها الموضوعية، وهو المثل الذي سيتوج السياق كله، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ١٠٧/٧]..

للوهلة الأولى سيبدو أن "منع الماعون" مشابه لإطعام المسكين الذي مر قبل قليل، لكن هذه النظرة تجعل من "الماعون" مجرد الصحن أو القدر الذي نتناول فيه الطعام..

هذه النظرة جزئية جداً، فالماعون كان يعني عند العرب - بالإضافة إلى القدر والآنية اللتين استقر عليهما معنى الماعون في أذهاننا - الفأس والدلو، باتفاق جميع التفاسير.. وقد قيل، كذلك، إن الماعون يعني المنفعة

العامة.. فهل يعني هذا أنهم كانوا إذا طلب منهم إعطاء الفأس أو الدلو، امتنعوا؟..

الأمر طبعاً أعقد وأعمق من ذلك - وإن كان لا شيء يعارض أنه يعني ذلك في مستوى معين من مستوياته..

لكن، فلنتنبه هنا إلى أن الماعون هو لفظ يشمل جميع أدوات إنتاج في مجتمع ما، فهذا ما كانه الفأس والدلو على الأقل في مجتمع فقير في تلك الفترة، بل إن العلاقة بين الفأس والدلو والآنية، وبهذا الترتيب بالذات، يرسم دورة إنتاجية كاملة ممثلة في أدوات الإنتاج: فالفأس يمكن أن يحرث الأرض، والدلو يمكن أن يسقي الأرض، ويمكن للآنية أن تحتوي ناتج ذلك كله..

و "المنع" هنا كان أكثر من مجرد "امتناع عن المنح"؛ لقد كان محاولة لكسر هذه الدورة الإنتاجية، إما عبر تقييد "اليد" ومنعها من العمل واستخدام تلك الأدوات؛ عبر مفاهيم تكرس البطالة وتروج للكسل والاستسلام وتعطل الفعالية، أو عبر احتكار حقيقي لهذه الأدوات بجعلها في أيدي فئة محدودة من ملأ كل زمان ومكان..

الأمر في هذا السياق، يقول لنا بوضوح، إن "السهو" عن المعاني الحقيقية للصلاة: سيمنع هذه الدورة الإنتاجية.. سيقطعها..

بل إن السهو (بمعنى الغفلة عن مواقيت الصلاة) وهو المعنى السائد، يدخل أيضاً في هذا المنع من الإنتاج.. وتقديس مواقيت الصلاة يورث احترام الوقت الذي هو

عنصر أساسي من أي "دورة إنتاجية" حقيقية.. الصلاة هنا، على الأقل، في جزء منها، هي مفهوم شامل للإنتاج..

بل إنها "أداة" إنتاج بحد ذاتها: تنتج فرداً جديداً، ومجتمعاً جديداً.. فرداً ومجتمعاً يجيدان استخدام "الأدوات" لبناء عالم آخر أكثر عدالة وتوازناً..

الصلاة نفسها، هي أداة هنا..

المهم، ألا نكون من "الساهين"..عن معانيها..

* * *

قد يكون ذلك كله، بعيداً جداً عن كل ما تعودنا فهمه عن دور الشعائر عموماً، والصلاة خصوصاً..

الصلاة من أجل أن تكون شخصاً أفضل؟.. الصلاة من أجل أن تتغير؟.. الصلاة عنصراً يدخل تفاعلك مع نفسك ومع العالم من حولك؟..

الصلاة، من أجلك؟!..

ذلك كله غريب.. ربما.. لكن ربما هو ما يجب أن يكون.

فلنبحث الآن في معنى "الصلاة"..

الفصل السادس

الصلاة عبر المجهر، الصلاة عبر التلسكوب

ينتشر القول بأن الصلاة، تعني من جملة ما تعني، الصلة بالله عز وجل.. على الرغم من تشابه اللفظين، وعلى الرغم من أن معنى الصلة متضمن حتماً في أي صلاة، إلا أني أشير هنا أن معنى "الصلة" لم يرد في أي من كتب اللغة العربية في الجذر اللغوي للصلاة..

(صلّى)، بكافة معانيها، ومشتقاتها، لم ترد بمعنى اتصل، أو وصل، وإنما ورد فيها معانٍ مختلفة، بعضها التصق بمعنى الصلاة، وبعضها لم يلتصق، وإن كان هذا لا يعني عدم وجود رابط بالمعنى..

عبر المجهر اللغوي، نرى ماذا كان الفعل (صلى) يعني عند العرب عندما نزل فيهم القرآن الكريم، ثم عبر التلسكوب، نرى ماذا يمكن أن يجسد ذلك من معانٍ على أرض الواقع؛ الذي يجب أن يكون، وليس ما هو كائن الآن..

المسافة بين ما تحت المجهر، وما هو في التلسكوب قد تكون بعيدة..

لكن مقاييس البعد.. نسبية جداً..

وما تقطعه أنت في سنة.. يقطعه الضوء في أجزاء من الثانية.. وعندما يستحيل الفهم ضوءاً ساطعاً، فإن المسافة بين المجهر والتلسكوب ستتلاشى.. على الأقل هناك هذه الاحتمالية..

وسيصير البعيد قريباً..

على الأقل لن يكون مستحيلاً..

* * *

مجهرياً، الصلاة تعني الدعاء. وهذا معروف وسائد. ويربط عادة بحديثه عليه الصلاة والسلام، "الدعاء مخ العبادة" ..

لكن المعنى، بين المجهر والتلسكوب، قد يكون أكثر من هذا..على أهميته ..

ولو أننا تابعنا معنى الدعاء هنا، لوجدناه مختصاً بالدعاء بالخير.. أي إن الصلاة، في لسان العرب ولغتهم، لم تكن تعني أي نوع من الدعاء، بل تعني حصرياً "الدعاء بالخير.." وهذا يجعل من الصلاة مرتبطة فوراً بالخير، أي إنها منحازة تماماً في هذا العالم الذي يتنازعه الخير والشر، إلى جانب محدد سلفاً: الخير..

يقول لك المعنى هنا :ليس من حياد في هذا العالم، الحياد زيف ووهم. الحياد هباء.. في هذا العالم هناك الخير، وهناك الشر، هناك الأبيض، وهناك الأسود. ليس

هناك من لون ثالث. ليس هناك من خيار ثالث. والصلاة تحدد بالضبط الجانب الذي ينبغي أن تكون فيه، جانب الخير، جانب الأبيض..

* * *

والدعاء، في جوهره، هو أكبر وأعمق من مجرد أن يكون عندك طلب ما، منه عز وجل..

الدعاء في جوهره، هو أن عندك قضية. لديك دعوة ما. لديك هدف. لديك ما يملأ عليك حياتك لدرجة أنك تطلب منه عز وجل أن يعينك فيها..

وهي ليست أي قضية.. إنها ليست قضية فحسب..

بل هي قضية خير حصراً..

إنها الانحياز إلى جانب محدد في الصراع الدائر في هذا العالم.. بل إن الأمر حتى أكبر من ذلك..

إنه أن تكون أنت حامل هذه الدعوة، حامل هذه القضية، أنت المنادي بها..

وهي قضية خير دائم، لا انفكاك عن الخير فيها..

تعبر عنها من خلال "الصلاة"..

* * *

لعله من نافلة القول هنا، أن إقامة الصلاة، بهذا المعنى، ستعني إقامة الخير، إنجازه وتحقيقه على هذه الأرض..

والإقامة هنا، تعني تحقيق تلك الدعوة، تحويلها من "دعاء" إلى واقع..

لزوم ما يلزم

المعنى المجهري الثاني هو "اللزوم" - وهو معنى مستخدم في الأدبيات الدينية وفي كتب الفقه أيضاً. ذلك أن معنى "اللزوم" يوحي فوراً بالدوام والاستمرار، وهو معنى وارد في الصلاة، التي يتطلب أداؤها مثابرة وصبراً والتزاماً ..

لكن، المعنى التلسكوبي، سيفتح آفاقاً أخرى، فاللزوم يعني أنك لن تكون حقاً، لن "تكتمل"، إلا عندما تحوز هذا الذي "يلزمك"، يعني ذلك أنك ستكون ناقصاً أبداً ما لم تقم بالصلاة .. لأنها ستكون دوماً لازمة ..

الصلاة، بالمعنى التلسكوبي لهذا المعنى المجهري، هي ما تكتمل به أنت.. ما يقودك إلى أن تكتمل.. (حتى لو لم تكتمل، عملياً)، فهي ما يلزمك دوماً لكي تكون أفضل، تغادر موقعك نحو موقع أفضل.. الصلاة - اللزوم، هي لزوم ما يلزم، لزومك أنت لكي تكون ما خلقت من أجله..

مكان واحد دوماً

واللزوم أيضاً، يعني البقاء في مكان واحد.. وقد جاء اللفظ القرآني خاصة في آيات الوعيد بالمكوث في جهنم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٩]، ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ [الانفطار: ٨٢/١٤-١٥] ..﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٠-٣١]..

والربط هنا، باللزوم في جهنم، يوحي بالمكوث هناك، بالبقاء هناك، فلفظ (صلى) يصور في سياق عدم المغادرة، في سياق "لزوم" مكان ما..

ما الذي يعني هذا تلسكوبياً، على الجهة الأخرى، من المعاني؟.. ما المكان الذي توحي به الصلاة؟.. يعني ذلك كله، أن صلاتك، هي بطريقة ما، لزوم وضع معين، وعدم تركه حتى بعد انتهاء "وقت الصلاة".. إنه ألا تترك قيامك وركوعك وسجودك بعد أن تنتهي منها، بل أن تجسد حياتك هذه الأوضاع كلها، أن تكون قائماً وراكعاً وساجداً في سائر أفعالك، بكل ما يعنيه ذلك..

إنه ليس أن تصير حياتك مكاناً محدوداً تلجأ إليه، خمس مرات في اليوم، بل أن تصير حياتك كلها.. مكاناً تلزمه، وتأخذه معك أينما ذهبت..إنها تستمر، وذلك من أسس معانيها، ذلك أصلاً من معنى الصلاة بالتعريف: اللزوم.. أن تلزمك دوماً، تصير جزءاً منك، كما أن تكون جزءاً منها.. كما لو أنك عبر هذا اللزوم ، تتماهى معها لتكون مكاناً جديداً..

النضوج المضيء..

ومن المعاني المجهرية الأخرى للفظ «صَلَّى»، الاحتراق، وهي على وجهين، الوجه الأول بمعنى التسوية، مثل صلى اللحم... يعني سواه، والوجه الثاني بمعنى الفساد والإحراق، ويقال: "أصلى" بدلاً من "صلى" هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٤/٣٠] ..﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/١٢].. إلخ...

بين التسوية والشيّ، يقع هذا المعنى المجهري للصلاة، فهل هناك من معنى عندما ننظر من خلال التلسكوب؟..

بالتأكيد.. مع ما يبدو عند الوهلة الأولى من بعد شاسع، بين الصلاة، والحرق أو الاحتراق، إلا أن الوهلة الثانية، التي ستجرد المعنى من تفاصيله، ستوحي لنا بمعنى "النضوج"، فصلى اللحم بمعنى تسويته، يعني إنضاجه، إيصاله إلى نقطة الكمال، إلى النقطة التي أعد من أجلها، حتى التي خلق من أجلها..

وهذه هي الصلاة أيضاً، (عندما تكون الصلاة فعلاً)، إنها تساعدك على النضوج، على التحول، على إنجاز ما خلقت من أجله، على "حرق" المراحل باتجاه الاستواء..إنها تأخذك إلى حيث التدرج بالخلق وصولاً إلى ما خلقت من أجله.. إنها، في جوهرها، عملية تغيير الذات ، الصلاة بهذا المعنى هي عملية تغيير داخلية تشبه الاحتراق في شدتها...

لا تكون رحلة النضوج هذه سهلة أبداً، بل إنها تشبه أحياناً احتراقاً داخلياً، ألم عظيم ومشقة ليست أقل من ألم ومشقة ومعاناة الولادة، وليست أقل قداسة في الوقت نفسه، فتغيير الذات مخاض عسير، وصامت، الصراخ معه لا يجدي كما قد يفعل مع آلام المخاض الاعتيادي، بل هو يحتاج إلى صبر دؤوب، واصطبار حقيقي، ومتابعة لهذا الصبر وذلك الاصطبار.. وينتج عن ذلك كله معاناة حقيقية، هي في جوهرها احتراق حقيقي، وصولاً إلى النضوج.. إلى التغير..

نعم، عبر التلسكوب يبدو معنى الاحتراق في الداخل، قريباً من الصلاة في جوهرها.. بفارق أنه الاحتراق المضيء، الذي يضيء لنا الدرب نحو ما يجب أن نكون..

إنه الضوء، سنحترق قليلاً عندما نمسكه، لكن لا بد من ذلك.. لا بد من الاصطبار على ذلك.. من أجل أن "نكون" حقاً..

عمودك الفقري

ومن المعاني المجهرية أيضاً، أن العرب كانوا يطلقون اسم "الصلاة" على (ما يكتنف) أي ما يحيط، بعظم العصعص ..

مجدداً، سيبدو هذا بعيداً عن (الصلاة) التي نعرفها.. لكن عبر قراءة النظرة الثانية، سنرى في المعاني ما لا يبرز إلا رويداً رويداً، فالعصعص، الذي يعتبره (التطوريون) عظماً زائداً عن الحاجة، يمثل بقايا ذنب (يفترض أننا كنا نملكه قبل أن نصير بشراً!) هو في حقيقته قاعدة العمود الفقري، وركيزته الأساسية، هل هو بداية العمود الفقري؟.. أم هل هو نهايته؟.. يعتمد الأمر على المكان الذي ننظر منه إليه - يعتمد الأمر على زاوية الرؤية، لكن العصعص هو النقطة التي يتسلق منها العمود الفقري، فقرة تلو أخرى، إلى أن يصل إلى القمة العالية، الدماغ..

كذلك الصلاة، لو أنها كانت فعلاً صلاة، فهي ما يجب أن يرتكز عليه العمود الفقري الآخر لنا؛ العمود الفقري

النفسي لا العظمي، العمود الفقري الذي يلم أطرافنا ويكون مركز الثقل في تكويننا الشخصي، وصولاً إلى "القمة العالية"، النموذج الذي يجب أن نكونه، والذي ستكون الصلاة، نقطة انطلاقنا إليه..

نعم، إنها فعلاً ذلك العظم، لكنه ليس زائداً عن الحاجة، بل إنه مركز الثقل كله.. وهو فعلاً برهان من براهين التطور والارتقاء.. لكن ليس النمط الداروينـي منهما الذي هو محض حتمية بيولوجية، بل التطور والارتقاء المرتهنين بإرادة الإنسان، بإرادته ووعيه في التمايز، الارتقاء عن كل مخلوقات الله..

والصلاة، هي بالتأكيد، كما مرّ سلفاً، نقطة التمايز التي تمثل التطور والارتقاء الحقيقيين..

ليس "بقايا ذنب" إذن، بل دليل على التمايز عن بقية المخلوقات..

نبتة قوية الجذور

ومن مشتقات (صلى) أيضاً - تحت المجهر - (الصِّلِّيان)، وهو نبت له سَنَمَةٌ عظيمة كأنها رأس القصبة، إذا خرجت أذنابها تجذبها الإبل، والعرب تسميها خبزة الإبل، و كان إذا جاء الرجل ليقتطعها، مال، من شدة قوة جذورها، أما الإبل، فتقتطعها مع جذورها، لهذا قيل في الأمثال: «جُذَّها جَذَّ العَيْر الصِّلِّيانة» أي اقطع شيئاً من جذوره كما تفعل الإبل مع "الصِّلِّيانة"..

هذا مجهرياً، فما الذي يوحي به هذا المعنى بعد

تجريده من تفاصيله..؟ ما الذي نراه من خلال التلسكوب..؟

الصلاة في حياتنا، هي تلك النبتة التي يمكن لها أن تتحدى الجدب في حياتنا؛ أن تنبت برأس كبير وجذور قوية، رغماً عن القحط والصحراء..

يمكن للصلاة، عندما تكون حقاً صلاة، أن تكون خبزنا، لأنها ستعلمنا كيف نكون ناضجين بما فيه الكفاية لنصنع خبزنا بأنفسنا، الصلاة هي خبزنا الحقيقي لأنها ستجعلنا راشدين بما فيه الكفاية لنزرع قمحنا ونسقيه ونرعاه ومن ثم نحصده لنطحنه ونأكل خبزنا صنع أيدينا..

يمكن للصلاة أن تجعلنا أقوياء، بجذور صلبة، بأصل ثابت، وفرع في السماء، فرع لا تقتلعه الرياح وإن هزته، يمكن للصلاة أن تجعلنا هكذا: بالأصل الثابت والفرع (المثمر) الثابت..

تثمرنا الصلاة، تقودنا في ذلك الدرب (الوعر أحياناً)، نحو الإثمار.. نحو أن نطرح ثماراً، أو أن نكون أنفسنا شجرة تؤتي أكلها كل حين..

* * *

كل هذه المعاني المجهرية - لغوياً، المترادفة تلسكوبياً تكون جوهر الصلاة، توضح وظيفة الصلاة الحقيقية في حياة كل منا، بل وظيفة الصلاة في الحياة جملةً..

فدعوة الخير، الاستواء نضوجاً، والركيزة التي تشكل

عتبة العمود الفقري النفسي، والإنبات والإثمار في أقسى الظروف، بأقوى الجذور.. ولزوم كل هذا والتوحُّد معه هو جوهر الصلاة.. وهو الهدف الذي يتحقق منها عندما تترك لتؤدي دورها دون أن تتدخل في ذلك مفاهيم "إسقاط الفرض" أو "غسالة الذنوب" السائدة التي تشوش على المهمة الأصلية، أو يمكن أن يتحقق عندما نكون واعين بذلك كله.. مستعدين له.. مقدرين لقيمته ولحاجتنا الماسة إليه..

فالوعي بكل ذلك هو المفتاح الأول للتغيير، الذي تقدمه لنا الصلاة.. في أعمق وظائفها ومعانيها..

الآفاق الممتدة لمعاني الإقامة

سبق أن ذكرنا، ونحن نبحث في أمر الصلاة، أنها لم تأت أبداً، بصيغة الأمر المنفرد - إلا مرة واحدة، مبكرة جداً، مرّ ذكرها.. في سورة الكوثر..

عدا هذا، فلفظة الصلاة، لا تأتي إلا ومعها لفظ آخر هو: "الإقامة"..

وترتبط اللفظتان، في علاقة متلاحمة، مثل زواج لا طلاق فيه، لتشكل مفهوماً آخرَ؛ لا علاقة له طبعاً بمفهومنا الحالي للصلاة وممارستنا لها..

إقامة الصلاة.. أبداً ليست "الصلاة" وحدها..

لا يوجد أصلاً شيء كهذا: صلاة بلا إقامة، في الإسلام..

وهذا يعني أنها ستكون حتماً صلاة مختلفة.. بوظيفة مختلفة..

* * *

والتفسير السائد، لمعنى إقامة الصلاة، يعني إدامتها والاستمرار عليها.. وبالتأكيد لا شيء سيغير من هذا التفسير ومن هذا المعنى، لكن ربما سيكون هناك آفاق أخرى، لا تلغي الآفاق الموجودة في معنى الاستمرار.. لكن تضيف أبعاداً أخرى..

* * *

إنه شيء يشبه تشييد شيء ما.. كما لو أنك "تقيم" مبنى كبيراً: مدرسة، أو مشفى، أو مصحاً، أو مسجداً، أو شيئاً أكبر من هذا كله.. الكلمة تشير ليس إلى "أداء" فعل ما.. بل إلى بنائه.. إلى تشييده.. إلى جعله منتصباً شامخاً..

فهمنا العادي لأداء الصلاة - ولو كان مع الخشوع المتعارف عليه - لا يقدم صورة تشييد شيء ما.. أو بنائه..

لكن فهماً آخر، للصلاة، ولوظيفتها، وللمقصد منها، سيقدم لنا الصورة الأقرب.. خاصة عندما نضعها في إطارها الجماعي، ستظهر لنا صورة أفراد "مجتمعين" على بناء شيء ما..

يقيمون شيئاً ما..

ومفردة "إقامة" التي التحمت بالصلاة في الخطاب القرآني.. وردت أيضاً - في مواضع أخرى منفردة عن الصلاة.. ولو أننا بحثنا في هذه المواضع، لرأينا فيها روافدَ تضيف إلى معنى إقامة الصلاة.. وإلى فهمنا لإقامة الصلاة..

* * *

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧/١٨]

فالإقامة هنا، هي بمثابة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، من مجتمع على وشك الانهيار.. مجتمع على وشك السقوط في القعر..

الإقامة هنا هي إصلاح ما يمكن إصلاحه، ربما بوضع أسس جديدة، أو ركائز جديدة، أو مؤونة جديدة..

المهم أنها تحافظ على مجتمع، تضم جدرانه المنهارة، كنزاً ما..

* * *

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٥/٦٦].

الإقامة هنا، تعني نقل "التوراة والإنجيل" - ومعانيها ووصاياها تحديداً - من عالم القيم المجردة، عالم الألواح الحجرية واللفائف الورقية، إلى ملكوت الواقع، ملكوت التجربة الإنسانية، وبوتقة تفاعلها وتوازنها..

إنه "الفعل" في أوضح صوره: أن تتحول القيم إلى واقع معاش..

* * *

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

[الرحمن: ٥٥/٩]..

الإقامة هنا، تحقيق العدل، ومراقبته، والميزان - الذي ورد في الآية - ليس آلة الوزن والعقل فحسب.. إنه مفهوم عام وشامل، وهو مرتبط بالكون القائم على التوازن، كما تشير إلى ذلك الآيات السابقة، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٥٥/٧] فالإقامة هنا تعني تحقيق عدالة أرضية متوازنة ومتسقة بمثل اتساق البناء الكوني..

* * *

من الخيال إلى الواقع

كل معاني الإقامة، واستخداماتها، توظف من أجل سياق فاعل، من أجل رسم معنى أكبر وأعمق وأكثر متانة من الإدامة المجردة أو الأداء المجرد..

إقامة الصلاة إذن، هي تشييد لأسس من الأساسات التي يقوم عليها المجتمع، حفرٌ في العمق لتكوين القواعد، تشييد للبنية التحتية التي لا يمكن لأي بناء أن يقوم فوق الأرض من دونها..

إقامة الصلاة إذن، هي تنزيل القيم المجردة إلى أرض الواقع، أو جعل الواقع مؤهلاً لاستلام القيم والتفاعل معها من أجل واقع أكثر توازناً، وقيم أكثر فاعلية..

إقامة الصلاة، هي أن تكون الصلاة (تقوم) بدورها الذي فرضت من أجله، دورها (القيادي) في البناء، في الإصلاح إن كان الإصلاح ممكناً، وفي التخطيط لبناء قادم من عالم التجريد، وفي تنفيذ هذا البناء على أرض الواقع..

بين "الصلاة" و "إقامة الصلاة"..

والفرق بين (الكوثر) الخير الكثير المرتبط بلفظة (صلِّ) منفردة، وبين الالتحام في (إقامة الصلاة).. أن الأولى مرتبطة بنماء نفسي وشخصي لفرد بعينه..

أما إقامة الصلاة، فالمعنى لابد أن يرتبط بجماعة ما، بمجتمع قيد التكوين والبناء، بفكرة تمهد لقيام حضارة ما، وبذرة تحتضنها أرض مجتمع..

لذلك كانت مرحلة "الكوثر" مبكرة، لأنها ارتبطت بشخص الرسول الكريم، ونمائه النفسي، وكانت الصلاة - كما أمرته السورة الكريمة - هي الوسيلة الأنجع لتحقيق هذا النماء، فكانت كافية لجعله يتحمل تلك المسؤولية الكبيرة لاحقاً: مسؤولية تغيير العالم..

أما إقامة الصلاة، فجاءت في مرحلة لاحقة، عندما صارت الخميرة جاهزة للتفاعل، مرحلة ما بعد الإسراء، وما قبل الهجرة.. وصارت القيم مشرئبة ومتحفزة للتحقق.. وبدأ التنور بالفوران، بدأ جبل القيم المجردة بالتمخض.. وقد كان..

إقامة الصلاة : النهوض عبر الصلاة

والمعنى الأكثر فاعلية، بين كل المعاني الفعالة التي ارتبطت بإقامة الصلاة، هي أن الفعل أقام، مشتق من الفعل: قامَ، بكل معنى هو ضد السكون.. ضد القعود.. ضد السبات.. ضد اللافعل.. ضد العدم..

إنه معنى النهوض.. معنى النهضة.. معنى أن حضارة ما، ربما مجرد حلم مستحيل في البداية، تحوي بذرة نهوضها، من واقع مليء بالخمول والسبات..

وإن شرارة ذلك النهوض، قد تقدح من القيام للصلاة.. بمعنى مختلف عن الأداء المجرد طبعاً..

* * *

إقامة الصلاة، بهذا المعنى، هي إقامة دورة تدريبية تستغرق عمرك بأكمله، منذ أن تبلغ سن الحلم؛ إنها دورة تدريبية تلتزم بحضورها خمس مرات كل يوم، تقصيرك في الحضور، سيؤثر حتماً في أدائك خارجها، حضورك فقط لمجرد الحضور، ليشطب اسمك من سجلات الغائبين، سيؤثر أيضاً في أدائك خارجها، حضورك دونما تركيز، دونما اهتمام لقيمة التدريب، أو لأهميته فيما تفعله بعدها، سيؤثر حتماً في أدائك.. وعلى دورك..

إقامة الصلاة، هي فعلاً من أجل ذلك.. من أجل أن تكون مؤهلاً لما كان السبب في خلقك، إنها من أجل أن تشحذ قدراتك، وتوجه مهاراتك، وتعدل من مسارك،

وتنظف ما تراكم فيك، ترمي بعضه إلى حيث يجب أن يمحى، وتعيد تدوير بعضه الآخر، وتهضمه وتوظفه من جديد ربما في مسار آخر..

إقامة الصلاة، هي دورة تدريبية تعيد فيها شحن بطاريتك التي ستستهلك طاقتها في أوقات ما بين الصلوات، ضخ المعاني، في كل ركن من أركان الصلاة، بل في كل حركة منها هو بمنزلة ضخ الطاقة فيها، فيك..

إقامة الصلاة، هي بمثابة دورة تدريبية على "تسديد" الهدف في المرمى، هل يتنازل "هدّاف" محترف عن تدريبه؛ إلا إذا كان يودّ تضييع الفرص.. الصلاة هي التي تجعلنا كيف نحدد الهدف أولاً ثم نسدده..

الصلاة من أجل تغيير العالم

تقدم لنا سورة "المؤمنون"، صورة عن ذلك كله، عن الصلاة التي تغير المصلين، والمصلين الذين يغيرون العالم..

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ
۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ
فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ
ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-١١].

الرؤية السائدة ربما تعاملت مع بعد واحد في هذه الآيات، لكن الآيات القرآنية لها من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع، وربما أكثر، البعد الواحد لا يجعلنا نرتفع عن الأرض، أما الأجنحة بعضها مع بعض، فهي تجعلنا نحلق نحو أعالي المعاني..

"أفلح" هنا تعامل تقليدياً بأنها الفوز والنجاح، وهذا صحيح لا جدال فيه، لكنها تحتوي أيضاً على معنى، العمل في الأرض، الفلاحة، قطع الأرض وشقها وإعدادها للبذار ومن ثم للإثمار.. للحصاد..

والمعنى هنا، لا يقتصر على الزراعة (مع أنها كانت نقلة نوعية في نظرة عرب الجاهلية الذين كانوا يحتقرون العمل اليدوي برمته) لكنه يتجاوز الأمر إلى المعنى الواسع للعمل في الأرض.. للاستخلاف في الأرض..

ولا يمكن هنا أن نفارق المعنى التقليدي للفلاح، بالفوز والنجاة، فالتقابل بين الاستخلاف في الأرض وبين الفوز والنجاة (دنيوياً وأخروياً) أمر محتم وأكيد..

أول صفة لهؤلاء الذين حققوا الفلاح الاستخلاف، ليست مجرد صفة أولى، إنها نقطة الانطلاق العملية الأولى، كان "الإيمان" هو منصة وعيهم الفكرية، لكن الرؤية الفكرية، مهما كانت متماسكة وثاقبة، لا تغير العالم دون بشر يجعلون هذه الرؤية عدسة لاصقة على عيونهم، يتغيرون من خلالها، ويغيرون العالم من خلالها وبها..

الخشوع : تفاعل التغيير

وهكذا، فإن أول ما يذكر عنهم "أنهم في صلاتهم خاشعون"، وللأسف فقد سيطرت على أذهاننا صورة أحادية عن "الخشوع في الصلاة"، وهي صورة تتلخص في بكاء خاشع، أو الوقوف على حافة البكاء على الأقل..

الخشوع في جوهره أكبر من ذلك، وقد لا يتطلب بالضرورة وجود دمع هاطل، كما أنه لا ينفيه بالضرورة ، إنه، بلسان العرب، الهبوط إلى الأرض(١)، ولو بالنظر، برمي البصر إلى الأرض، ويعد ذلك إشارة على الخضوع والذلة - كما في ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ٢٠/١٠٨] ولكنها أيضاً مرتبطة بالأرض، فالأرض الخاشعة، في لسان العرب هي الأرض الهامدة غير الخضراء التي تثيرها الرياح فتغيرها، يوضح ذلك في الآية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٤١/٣٩].. ويعني ذلك أنها مستعدة للتغير، جاهزة للتفاعل مع المعطيات الجديدة، سواء كان ماءً، أو ريحاً؛ الماء لتجعلها خضراء، والرياح لتعيد تشكيلها.. وفي الحالتين، فإن التغير هو صفة ملازمة للخشوع، وكذلك فإن الخشوع في الصلاة، الذي هو أول ما ذكرته الآيات.. هو في حقيقته تغير عبر الصلاة، تغيراً داخلياً عميقاً، يكون

(١) لا بد من التذكير هنا بأن هذا المعنى يزداد توهجاً عندما نتذكر الارتباط بالأرض في "أفلح" و التي ذكرت في الآية قبلها..كما أن المعنى المشترك للفلاحة والخشوع سيتوهج أكثر عندما نتذكر أن اللفظ "صلى" كان يشير إلى نبتة قوية الجذور

أحياناً مؤلماً لدرجة البكاء، ويكون أحياناً أعمق وأكثر إيلاماً مثل مخاض لا تجدي معه الدموع ولا الصراخ..

المعاني في أعاليها ...

وما الذي يحدث بعد هذا التغير..؟ تأتي الآيات في سياقها لتسرد لنا، الرؤية ذات البعد الواحد لن تجد أكثر من الخلق الحسن والسلوك القويم، لكن تعدد الرؤى سيكسب ذلك السياق أعماقاً أبعد ..**فالإعراض عن اللغو**، واللغو هو أي سقط من الكلام والفعل، أي كل ما هو تافه مسطح بلا غرض ولا اعتماد من الأفعال والأقوال؛ هو ليس إعراضاً لمجرد الإعراض، بل لأنك مشغول بقضايا أهم - لأن لديك في حياتك ما هو أهم، وأغنى، وأجدر، لأن وقتك المحدود على هذه الأرض أثمن من أن يضيع فيما هو "لغو"..

"فعل الزكاة" في ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٤] يوحي بصورة أكثر عمقاً من مجرد إنفاق المال بالطريقة التقليدية، فهم للزكاة فاعلون، وليس مجرد مؤدين، والزكاة هي ذلك النماء الإنساني قبل كل شيء، قد تتغير التسميات من عصر لآخر، بآليات وأساليب وربما أهداف مختلفة، أما "الزكاة" فهي ذلك النماء الإنساني متعدد الآليات والأساليب ولكن لذات الهدف الواحد، إنماء الإنسان الفرد من خلال إنماء الجماعة، وليس إنماءه على حساب المجتمع، ولا إنماء المجتمع على حسابه، بل أولاً بتحقيق عدالة اجتماعية متوازنة تعطي للجميع فرصاً

متقاربة، ونقاط انطلاق متشابهة، تتيح لهم العطاء وتحقيق الذات دون حجب الفرصة أو حرمانها من أحد..

لديهم شهوات، لكنها مقوننة..

وهل هو مجتمع ملائكة، هذا المجتمع الذي يكونه أولئك المؤمنون الذين (أفلحوا)، والذين هم خاشعون في صلاتهم..؟ هل هم بلا شهوات..؟

لا.. أبداً.. ذلك لم يكن ولن يكون.. ولو أنه كان لكان معناه أنه غير قابل للعيش والتطبيق.. إنه مجتمع متكون من إنسان متماسك.. لكن التماسك لا يعني عدم وجود "فروج" محفوظة بضوابط معينة.. فروج مقوننة ومتوازنة، ولذلك فهي لا تتسبب في تسريب لهذا التماسك، أو إخلال بتوازنه..

الأمانة الأولى

وكل هذا من أجل ماذا..؟ من أجل رعاية الأمانة والعهد.. والأمانة والعهد هنا يرعيان لا يحفظان فقط، والرعاية تعني الإنماء والازدهار والزيادة، وليس الحماية فقط. عن أي أمانة وأي عهد يتحدث النص المقدس؟ ربما أي أمانة وأي عهد بالمطلق.. وبأكثر المعاني مباشرة. ولكن هناك تلك الأمانة الأولى، وذلك العهد السابق، اللذين هما أولى بالرعاية والحفظ، واللذين سينضم تحتهما أي أمانة وأي عهد..

الأمانة الأولى هي التي حملها الإنسان، بينما أشفق من

حملها سائر الكون ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢/٣٣]، ويكون "جهولاً" عندما ينفصل من رعاية هذه الأمانة ويتركها.. إنها أمانة كونية تخص النوع الإنساني برمته، إنها "الإرادة" و "حق الاختيار" الذي يميز الإنسان عن كل ما هو مسير في هذا الكون، أي الكون كله، ما دام محكوماً بالسير وفق السنن والقوانين دون خيار..

ومحك الاختبار في هذه الإرادة هو إما وضعها في المسار الصحيح، مسار الاستخلاف في الأرض، أو في أي شيء آخر غير هذا المسار، في اللا شيء أحياناً، في العبث، أو في اللغو، أو في مراكمة الأموال، أو الفروج.. إلخ.

العهد الأول

أما العهد الأول فهو ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥/٢٠] وإذا كان الإنسان الأول قد نسي، وفقد العزم، فإن الامتحان والاختبار الذي يواجهه الجنس الإنساني ككل هو أن يثبت أنه يتعلم من أخطائه.. وأنه - على الأقل - قد تعلم من خطئه الأول..

رعاية هذه الأمانة، وهذا العهد، هو ما يفعله أولئك الذين أفلحوا.. الذين تغيرهم صلاتهم.. ليغيروا العالم..

الصلاة مرة أخرى وأخرى

ولأن التغير عملية معقدة وصعبة، وتشبه - كما أسلفنا - مخاضاً مريراً عميقاً، فإننا لا نتوقع أن "الصلاة"- التي ارتبط السياق كله بها- ستقوم بذلك كالسحر، أو كمعجزة. لا، لا نتوقع هذا من الصلاة كما لا نتوقع من شخص بلياقة عادية أن يصير بطلاً رياضياً محترفاً من الجولة التدريبية الأولى، كما لا نتوقع منه أن يحافظ على لياقته إن لم يحافظ على تدريبه بشكل دائم..

كذلك فإن الصلاة - لكي تصل إلى آثارها النهائية - تتطلب صبراً دؤوباً وجهداً شاقاً، وعندما تصل إلى معادلتها النهائية، تحتاج المواصلة والمزيد منها للمحافظة على هذه النتيجة.. وسيحتوي ذلك المخاض كله على "تراجعات" يجب أن نتقبل حدوثها، وأن تعوض بالتدريب مجدداً والعودة إلى ذات اللياقة.. لذلك كله، فإن السياق، ينتهي، بعد كل هذا الوصف، بالقول مجدداً ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩/٢٣].. ذلك أن المحافظة (رغم ما يبدو أنها تكرار ورتابة) ضرورية لجودة النتائج، ولتقويمها المستمر، وللتعويض عن تراجعات هي الأخرى ملازمة للإنسان..

الإرث المستحق : الفردوس

وكتحصيل حاصل لكل هذا، ودون أي مفاجأة، فإن أولئك ﴿يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ [المؤمنون: ١١/٢٣]، فالإرث هنا هو استحقاق، لقد صنعوا عالماً آخر، غير الذي ولدوا فيه، أعادوا تشكيل العالم بصيغة أفضل، ولذلك كان الفردوس

الأخروي، إرثاً مستحقاً لفردوس أرضي كانوا هم المستخلفين فيه..

غاية الصلاة : الخلق الآخر

لا يمكن الفرار هنا من أن السياق الذي ينتهي بالإرث الفردوسي، ما يلبث أن يدخل في سياق قد يبدو مختلفاً للوهلة الأولى، وهو سياق مراحل الخلق والتخلق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٢-١٤]..

فسلالة الطين هذه، ومرورها بكل مراحل الخلق، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى المضغة مكسوة بعظام ثم بلحم، كلها مراحل يمر بها الطين كقدر محتم يمر به الجميع دون خيار من أي منهم..

لكن من قال: إن هذا هو آخر الخلق؛ أن تكون من لحم وعظام..؟

لعل هناك، "خلقاً آخرَ" - وتبارك الله أحسن الخالقين- تمر به وتكونه هذه المرة بملء إرادتك وملء خيارك وملء قرارك الشخصي.. إنه تطورك وارتقاؤك الحقيقيان لحقيقة لا مناص من الإقرار بها، إنه الخلق الآخر الذي تكمله بإرادتك.. أو تنكس عنه بوعيك..

وسيستمد هذا الخلق "الآخر" قوته، رغم ارتباطه بإرادة

الفرد ووعيه، من الخالق نفسه، من إنشائه لذلك.. ذلك أنه هو الذي كلف الإنسان ابتداءً بأن يرتقي ذلك السلم - نحو القمة العالية - خروجاً من سلالة الطين..

الخلق الآخر هو مسؤوليتك أنت. مسؤولية كل فرد على حدة.. مسؤولية أن تغير ذاتك دوماً وترتقي بها.. على درب تغيير العالم..

واستراتيجية الصلاة - في جوهرها - تهدف إلى ذلك الخلق الآخر.. إلى ذلك الارتقاء المستمر الذي لا يعرف حدوداً له ..غير السماء وحدها..

و لذلك كان الحديث عن "الخلق الآخر" كسياق متمم لآيـــة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-٢]...

هل يمكن للصلاة حقاً أن تغيرنا..؟

أم أن السؤال المطروح: هل يمكن لأي شيء - على الإطلاق - أن يغيرنا..؟

والسؤال مطروح على الأصعدة كافة: الشخصية؛ التي تهم كل فرد على حدة، والعامة التي تخص تغييراً منشوداً. أم أن كل ما يحدث من تغيرات هو محض واقع مفروض..؟

عبر العقود، كان سؤال التغيير يأخذ أشكالاً متعددة وأساليب مختلفة، وكانت أجوبته كذلك مختلفة بين دعوات النهضة، ولكن مع كل البهرجة الموجودة أحياناً، فإن الواقع

كان دوماً يرسب حقيقة واحدة، وهي التردي المزمن، وهي حقيقة لا يمكن فصل شقها الجماعي، عن شقها الشخصي/ الفردي، وسؤال الفرد والجماعة هنا هو سؤال ملتبس بشبه سؤال البيضة والدجاجة، فهل المجتمع المستلب هو الذي ينتج أفراداً مستلبين، أم أن الأمر مشترك في علاقة جدلية متبادلة يتبادل فيها المجتمع والفرد - والإرث الثقافي الذي يكونهما معاً - الأدوار بشكل متداخل..

خلاصة القول: إن التغيير (ومنذ قرون!) هو حاجة ملحة.. وإن دعاواه كثيرة، وأساليبه ومناهجه أكثر. لكن المهم في التغيير، ليس التنظير له ولا لشعاراته البراقة.. المهم في التغيير، هو التغيير حقاً.

وهكذا، فإن حصيلة المحصلة (للتغيير العام على الأقل، أي على الصعيد الاجتماعي) لم تكن صفراً، بل أسوأ.. كانت محصلة سالبة، لأن التغيير كان إلى الأسوأ، ومعظم الدول العربية (مع استثناءات محدودة) حققت تراجعات كبيرة عن مراتبها بين الدول قبل أربعة عقود أو ثلاثة..

المحصلة على الصعيد الفردي أكثر تعقيداً.. ولا يمكن الجزم إن كان الفرد اليوم يشعر أن حاجته إلى التغيير أقل أو أكثر مما كان الفرد يشعر به قبل بضعة عقود.. كما لا يمكن الجزم إن كان وجود شعور كهذا، أو عدم وجوده، دلالة على تبلد بالإحساس، أو على الرضا بالواقع..

المهم هنا أن التغيير، هو ما يطلبه الجميع.. قد يكون

مطلب التغيير أحياناً محدوداً جداً - وضيقاً جداً -تحسين لظروف معيشية فقط، لا يمكن التقليل من أهمية ضغوطها، وقد يكون مطلباً كبيراً يشمل تغييراً في بنية الواقع..

ولأن محاولات التغيير الكثيرة، لازمها دوماً الإخفاق كتوءم لصيق، فإن الإحباط لم يكن زائراً عابراً قط، بل كان يحمل صفة إقامة شبه دائمة حتى صار من أهل البيت دون أن ننتبه لذلك..

وعندما يصير الإحباط مزمناً، فإنه يقوي نزعة "لا جدوى من فعل أي شيء" ونزعة "لا تفكر لها مدبر". وهما نزعتان تتقويان أصلاً بقوة السلب وسهولة اللا فعل.. مقارنة بصعوبة الفعل والمجازفات المتضمنة فيه..

لذلك كله، هناك فعلاً، كما الحاجة الملحة للتغيير، شعور سائد، بعدم جدواه، بعدم إمكانيته، وهو شعور يعمل كمعول ضد أي محاولة جادة وحقيقية للتغيير.. ويزيد من صعوبة المهمة الصعبة أصلاً..

الفرصة الأخيرة في الصلاة

ليس بالرغم من كل ما سبق، بل بسببه، هناك "فرصة" لنا لكي يتحول التنظير للتغيير (المستمر منذ قرابة قرن وأكثر) إلى تغيير حقيقي.. إلى نهوض فعلي يتجاوز التأرجح المزمن بين السبات والتثاؤب، الذي أدمناه عبر عقود..

بالرغم من كل ما سبق، بل بسببه، لا يزال هناك فرصة للتغيير، للخروج من مسلسل الفشل والإحباط..

وأزعم أن ذلك لم يعد ممكناً إلا عبر "الصلاة"..

ليس لأنها الحل الأخير.. ليس لأننا جربنا كل شيء ولم يبق سواها.. ليس الأمر تجربة وخطأ، إلى أن نجد ما هو صواب..

بل لأنها بالأساس، صممت من أجل ذلك، لقد فرضت من أجل أن تغيرنا، كتبت علينا من أجل أن نعيد كتابة التاريخ، ونعيد صياغة العالم.. بعد أن تساعدنا هي، الصلاة، على إعادة صياغة أنفسنا..

ليس التغيير عبر الصلاة دورة تدريبية باهظة الثمن، لشهر أو اثنين، قد تحفزك على التغيير.. وقد لا تغيرك على الإطلاق، بل هو دورة تدريبية عبر دورة حياتك كلها، منذ أن تصير مطالباً بالصلاة..

الصلاة يمكن لها أن تحدث تغيراً مستمراً فيك، في سلوكك، **وفي جعلك إنساناً كنت تريد، دوماً، سراً أو علناً، أن تكونه..**

لا "فكر" - مهما كان متماسكاً، مهما كان ثاقباً - قادرٌ على أن يحدث التغيير وحده، ربما فكر كهذا سيحدث "صدمة"، لكن أسر العادة سيتغلب على هذه الصدمة ويجعلها عابرة، وتبقى الهوة بين الفكر والسلوك قائمة..

لا فكر قادرٌ على جسر تلك الهوة، ما لم يقترن بتطبيق عملي يجسده ويحوله إلى عمل حقيقي..

ولا يوجد تطبيق عملي، دؤوب ومستمر، يمكن له أن يكون ذلك الجسر بين الفكر والسلوك: مثل الصلاة..

ليس لأن ذلك يمكن أن يكون، بل لأنه الأساس فيها، لأنها فرضت من أجل هذا..

أن تكون ذلك الجسر الذي ينقلنا من ضفة الفكر والتنظير..، إلى ضفة الواقع والفعل..

إنها الصلاة.. الحلقة المفقودة التي بحثنا عنها في كل مكان..

باستثناء المكان الوحيد، الموجودة فيه..

لم يقم المجتمع إلا بها ..

وسيقولون، ويستغربون، إن هذا مجرد مبالغة لغوية وتصعيد لفظي..

فالصلاة، كانت، (ولا تزال!) حتى بالنسبة إلى كثير من المصلين والمتمسكين بها، مجرد "فرض"؛ علينا أن نؤديه لأننا مأمورون بذلك، وهي دليل طاعتنا له عز وجل، كما لو أنه جل وعلا سيأمرنا بشيء لمجرد أن يرى امتثالنا له - دون أن يكون لذلك الأمر معنى، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، هو العليم الحكيم..

سيطالبون بعدها، بنص محدد، يفصل ذلك.. لسبب بسيط جداً، هو أن رؤيتهم التجزيئية، لكل نص، سواء كان قرآنياً أو نبوياً، تجعلهم عاجزين عن الرؤية الكلية للنصوص مع بعضها بعضاً، والتي لا يمكن فهمها حقاً، وفهم لماذا الصلاة على وقتها هي "أفضل الأعمال"، أو أنها أول ما يحاسب المرء عليه من عمله، أو أنها عماد

الدين.. وغير ذلك .. من فضائل الصلاة، إلا ضمن إطارها الوظيفي دنيوياً، والذي سينتج عنه جزاء أخروي بالتأكيد..

لماذا إذن لا يوجد نص كاف ووافٍ يشفي غليل أصحابنا..؟

ربما لأن هذه الرؤية التجزيئية - أصلاً - ليست من الإسلام في شيء، ولأن الإسلام يولد نمطاً (شمولياً) (كلياً) في التفكير بحيث إنه لا يقف عند الأجزاء والتفاصيل دون ربطها بالكل، ولكن هذا ليس موضوعنا الآن.

وربما لأن الأمور التي يجب أن تحدث (تلقائياً) وتفهم (تلقائياً) لا يجب أن تربط بنص واحد.. لأنها يجب أن تحدث بكل الأحوال.. وتكون أعمق وأكثر فاعلية لو أنها ارتبطت بالمعنى الضمني لمجموع النصوص.. وليس بمعنى علينا أن نفهمه تلقيناً وتكراراً ويقدم لنا بالملعقة والسكين.. فالمعنى الذي ننقب عنه ونحفر لنستخرجه يكون أثبت وأعمق من المعنى الجاهز الذي لا نحرك عضلة في أدمغتنا في تلقيه..

ومع ذلك كله، فإن الصلاة، بالذات ارتباطها الدائم بمفهوم الإقامة، كانت موجودة هنا في عملية التغيير الشاملة التي أطلقها الإسلام والقرآن ..فقد كان نزول الأمر بالصلاة، خلال السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة المكية، بمثابة تمهيد أساسي لحركة التغيير اللاحقة التي تمثلت في قيام مجتمع المدينة، بالضبط كما

كانت "إقامة الصلاة" أساساً في قيام المجتمع المكي الأول، عندما أرسى إبراهيم دعائمه الأولى، عبر البيت، وعبر ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧/١٤] و ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠/١٤]..

كل هذا، وربما أكثر، يجعل من استراتيجية الصلاة الحقيقية، موجهة نحو ذلك الهدف..

التغيير..

* * *

وإذا لم تنجح الصلاة - الأقرب منك حتى من أولادك وأفراد عائلتك - في تغييرك ..فهل هناك شيء آخر في العالم سيفعل..؟...

أقزام وعماليق..

كل المعاني المعبأة في حركات وسكنات الصلاة، وكل ما ينبغي أن تعنيه إقامة الصلاة، هو أمر لا يمكن لذلك الأعرابي، الذي تحدثنا عنه في بداية الكتاب، الذي دخل المسجد ليفاوض ويساوم، أن يفهمه..

وهو أمر مفهوم، ألاّ يفهم الأعرابي هذا الكلام أو يستوعبه، في النهاية لم يكن من المطلوب منه أن يتمثل كل ذلك. لم يكن مطلوباً منه سوى أن يبعد نفسه عن تعطيل عملية النهوض التي كانت قد بدأت بالفعل.. لكن، كما تعلمون، لأسباب كثيرة، ليس هنا مجال سبرها، فقد تمثلنا هذا الأعرابي - المجهول، الذي لا اسم له.. وبدلاً من أن يكون مجرد نكرة، فإنه دخل عقولنا واستلبنا - لم يكن ذلك خطأه طبعاً - وربما ليس خطأ شخص بعينه..

لكن أجيال السبات والانحطاط، كان لا يمكن إلا أن تختار ذلك الأعرابي نمطاً تتلبسه لكي تبرر - عبره - فشلها، وتتصور أن مجرد أدائها لبعض الحركات المجردة (كيفما كان، إسقاطاً للفرض) سيورثها نجاحاً في الآخرة، يكون بمثابة مواساة مفترضة عن الفشل المزمن دنيوياً..

لنحاول أن نمسح صورة الأعرابي من رؤوسنا.. إننا لا نعرف ملامحه طبعاً، لكنها صارت على الأكثر ملامحنا..

فلنمسح ملامحنا إذن.. ربما لن يبقى شيء منها إذا حاولنا النظر في المرآة..

ربما ذلك أفضل لنا (وللمرآة)!..

ربما هناك ملامح لرجل آخر يمكن لنا أن نزرعها في وجوهنا، ربما هناك (فهم آخر) يجب أن يسكن رؤوسنا..

* * *

عن رجل آخر..

لم يكن أعرابياً قط.. لكنه بدأ بداية متواضعة جداً.. من عشيرة صغيرة في قريش.. من واحدة من البطون الأقل شأناً.. لم يكن هناك ما يوحي أنه سيتميز، أو أنه سيكون له شأن على الإطلاق.. كل المقدمات، كانت توحي أنه سيكون.. "نكرة" أيضاً، وأن مروره على هذه الأرض لن يكون مهماً، حاله حال ذلك الأعرابي الذي لم نعرف اسمه قط..

لكن، هذا الرجل، تفاعل مع القرآن، ومع رسالة الإسلام، بشكل مختلف تماماً، فكان جزءاً من ذلك النهوض الشامل، ومن ثم صار جزءاً من "الإقامة" الشاملة، ومن ثم صار جزءاً أساسياً من حركة التاريخ..

وترك أثره في التاريخ بأسره..

وقبلها، كان يمكن أن يكون مجرد نكرة، بلا اسم..

* * *

إنه عمر بن الخطاب، ذلك الرجل الذي كان يمكن أن يكون نكرة، لكنه، بدلاً من قدر النكرات، اختار "قدر النهضة".. كان يمكن أن يكون في المحاق التام.. في العدم، لكنه اختار البدر التام.. اختار الفعالية والتأثير..

وترك بصمته على العالم بأسره..

تستطيع أن تقول، بيقين تام، إنه غادر هذا العالم، والعالم أفضل بكثير مما كان عندما جاءه..

لقد أحدث فرقًا!..

* * *

كان ينبغي لنا، أن نأخذ عمرَ بن الخطاب، نموذجاً لما يجب أن تفعله الصلاة بنا..

ولكن، تعلمون كيف سارت الأمور بنا، وإذا بالسبات يرشح لنا فهماً آخر، نموذجاً نكرة، يريد الحد الأدنى من كل شيء، ويتصور أن ذلك هو أقصى ما يستطيع..

ونفهم الآن، كيف أن لفظ "الإقامة"، لم يرد في حواره عليه أفضل الصلاة والسلام مع الأعرابي..

كما لو أن "الإقامة" تحتاج إلى قامة أكبر من شخص جاء ليسأل عن أدنى الأمور..

كما لو أن الإقامة، تحتاج إلى سياق (آخر)، وإلى فهم آخر، أعلى وأرقى..

لذلك، كان شخص "الحد الأدنى" مستبعداً تماماً من موضوع الإقامة.. من أمر "النهوض" والنهضة برمته..

* * *

أما عمر، فقد استطاع أن يجعل من "إقامة الصلاة" وسيلة لتغيير العالم..

لقد وعاها - وفهمها حقاً - كما يجب أن تكون..

لذلك فقد كانت إقامته للصلاة مختلفة تماماً عن كل تصوراتنا للصلاة، لكل ما فهمناه منها، ارتقى عن مفهوم "الفرض المجرد" وعن مفهوم السكينة والراحة ومفهوم الخشوع المعزول عن الواقع..

انتقل بصلاته، إلى أن تطابقت كشعيرة، مع رؤيته القرآنية للحياة، مع دوره في هذه الأرض..

دور الخليفة..

النموذج الأعلى من الخشوع

ومن هذا التطابق، جملة قالها عمر، نقلت لنا عنه، من داخل صلاته..

ليس عن الدموع المنهمرة، وإن كان هناك شيء منها.. وليس عن الانقطاع عن العالم الخارجي.. بحيث تفصل نفسك عن التفاعل معه..

قال عمر عن صلاته شيئاً هائلاً، قال: "إني لأجهز الجيوش في صلاتي".. ومعنى هذه الجملة الآن: إني لأغير العالم في صلاتي...

* * *

كانت صلاته تمده بتلك الطاقة - تشحن بطاريته - تجعله يرتقي..

لكن ارتقاءه لم يكن ليأخذه بعيداً عن الواقع.. بل كان يمده بقوة يجعله قادراً على الارتقاء بالواقع..

لذلك، كان خشوعه تفاعلاً مع آيات القرآن، مع حركات

وأركان الصلاة، ليس بالبكاء فحسب، بل بعرضها على الواقع، ويعرض الواقع عليها..

بإرادة تغيير العالم، ليكون متوافقاً معها..

* * *

سيقول بعضهم: إنها الدولة الناشئة.. وحروب توسيع حدودها.. والغنائم المغرية..

من أجل ذلك كان يفكر بتجهيز الجيوش في الصلاة..

هذا كل ما يفهمه بعضهم من ظاهر الأمور..

* * *

تجهيز الجيوش، كان هو الوسيلة الوحيدة آنذاك لتغيير العالم..

وهاجس العدالة العمرية، المعروفة عن عمر، (المستقاة من تشربه بالقرآن) كان الدافع أساساً وراء تجهيزه الجيوش في صلاته..

كان العالم مليئاً بالظلم (.. ولا يزال ..)..

وكان عمر، وهو يقيم الصلاة، يعرف أن مهمته على هذا الكوكب تتطلب منه تغييره ..تتطلب أن يحول (القيم) في صلاته، من مجرد رؤى وأفكار في الرؤوس إلى واقع معاش..

كانت صلاته تدريباً له على ذلك..

وكان يجهز جيوشه من خلالها..

..وهل حدثتك نفسك بأن تغير العالم، وأنت في صلاتك؟..

هل خطر في بالك ذلك أصلاً.. هل قالوا لك إن ذلك سيفسدها؟..

أم أن، الأمر كله ليس وارداً، لأنك إنسان الحد الأدنى، الذي لا يتصور أن بإمكانه فعل شيء لنفسه أو للمجتمع من حوله، فضلاً عن أن يفعل شيئاً للعالم بأسره..

أم أنها محض "صلاة"، تؤديها لتنجو من عقاب تركها، ولا تعرف سبباً لأدائها غير ذاك.. غير أدائها نفسه.. ولا شيء غير ذاك..

* * *

تغيير العالم -صلاته كانت تأمره أن يغير العالم..

تغيير العالم، وليس أبداً أن تكون جزءاً بارزاً من عالم ظالم.. كما هي أقصى طموحات بعض الإيجابيين اليوم..

"أصلاتك تؤمرك أن تغير العالم؟"..

بالنسبة لعمر، بالنسبة للجيل الأول الذي غير العالم فعلاً.. كان الجواب.. نعم ..

* * *

بين ذاك الأعرابي الذي دخل وخرج، وبين عمر الذي دخل ولم يخرج من التاريخ، مسافة كبيرة.. إنها مسافة بقدر ما نحتاجه للنهوض من سبات التاريخ..

نحتاج أن نقتلع صورة ذلك الأعرابي الذي سكن

واختلط مع عقولنا ورؤانا وملامحنا.. وجعل من أفقنا واطئاً مثل سقف خيمة، وصلاته محض محاولة.. ونحتاج، بعد ذلك، أن نحدد هدفنا: قامة عملاقة، مثل قامة عمر، أفقه غير محدود.. وطموحاته لا أسوار لها.. وصلاته وسيلة لتغيير العالم..

قامة مثل قامة عمر، لو سكنت رؤوسنا.. وفهم للصلاة مثل فهم عمر، لو تجذر في أفكارنا، وأفق مثل أفق عمر، لو كسر أقفاصنا.. فإن شيئاً في حياتنا لن يبقى كما هو..

ستكون المقارنة بين ما هو كائن الآن، وما سيكون عندها، كالمقارنة بين ذاك النكرة، الذي سقط اسمه من التاريخ، وبين عمر، الذي لا يمكن حذفه من التاريخ..

لعلها مهمة صعبة..؟

بالتأكيد، إنها مهمة صعبة جداً.. من قال: إن النهضة أمر يسير، وإنها عملية يسيرة مثل الذهاب إلى رحلة كشفية وإنشاد بعض الأناشيد وصيد الفراشات؟! المسافة بين ذلك الأعرابي، وبين عمر.. شاسعة.. والوصل بين النقطتين مهمة صعبة..

المهم، ألاّ تكون مستحيلة..

وبين الصعوبة، والاستحالة خيط رفيع جداً ..يقطعه وعينا.. وإرادتنا.. ورغبتنا بالخروج مما لم يعد ممكناً البقاء فيه..

دمشق ١٥ رمضان

٢٨ / ٩ / ٢٠٠٧م

مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني – عبر الصلاة – فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

في الحلقة الأولى من السلسلة، التي تتكون من مقدمتين وستة فصول وخاتمة، يسلط الضوء على مفهوم الصلاة عموماً، وعلى علاقتها بمفهوم الشعائر عموماً، وعلى كون (الإنسان مخلوقاً شعائرياً) في كل أحواله، ثم ينتقل الحديث إلى مفهوم إقامة الصلاة كما حددها القرآن الكريم، المفهوم الذي لا علاقة له بما يمارس حالياً من أداء للصلاة منفصل عن كل قيم النهضة التي تتمثل فيها.

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Episode One of this series, which consists of two introductions, six chapters and a conclusion, highlights the concept of prayer in general, its relation with the concept of rituals in general and "the human's being a ritual creature" in all his conditions. Then it discusses the concept of performing prayer according to the teachings of the Holy Qur'an that have nothing to do with the way we perform prayer at present, which is completely separated from all the values of revival that prayer represents.

بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظراً لسرعته وفعاليته وقلة كلفته .

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقماً تدخله من خلال موقع الدار ، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات، ويصبح لك رصيدك من النقاط، وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية، و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب.

هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم .

بتواصلك معنا، نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع .

e-mail:fikr@fikr.net

www.fikr.com

Mission possible
Al-Muhimmah Ghayr al-Mustaḥīlah
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

كيمياء الصلاة ١
المهمة غير المستحيلة

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

الحلقة الأولى تتحدث عن كون الصلاة دورة تدريبية تُعدّك لإعادة بناء العالم. تتحدث هذه الحلقة عن الإطار النظري للأمر، وعما هو سائد من مفهوم مختلف لأدائنا للصلاة الذي يركز على الأداء المجرد المنفصل عن الواقع، من أجل التكفير عن الذنب، أو من أجل ما يسمى بإسقاط الفرض. (إقامة الصلاة) ستمتلك معنى إيجابياً نهضوياً عندما تُقرأ من خلال مجموع النصوص القرآنية وقراءة آثارها في الفرد والمجتمع. ستكون **إقامة** الصلاة هنا أساساً في (**إقامة**) الفرد، الذي **يقيم** المجتمع، والحضارة.

الصلاة إذن يجب ألا تكون نقرات عابرة على الأرض، بل هي نقرات على بوابة العالم، من أجل إعادة بنائه. هل ذلك صعب؟ بالتأكيد – إنها مهمة صعبة جداً – لكنها (غير مستحيلة).

ISBN -9953-511-66-7
9 789953 511665

تصميم الغلاف: يمان بطيخة



ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق

د.أحمد خيري العمري



بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٢)

ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق

ملكوت الواقع: ممهدات وحوافز قبل الانطلاق / أحمد خيري العمري .- دمشـق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٣٢ ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٢)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري

مكتبة الأسد

الدكتور
أحمد خيري العمري

(٢)

ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق





2011=1432

دار الفكر - دمشق - برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/

e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٢

ملكوت الواقع

ممهدات وحوافز قبل الانطلاق

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٥,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-67-2

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٣٢ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الخامسة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

× قوة الكلمات ×

في عالم لم يعد يؤمن بشيء، لا أزال أؤمن بقوة الكلمات...

في عالم لم يعد يؤمن إلا بقوة المادة، لا أزال أؤمن بقوة الكلمات، بقدرتها، بامتلاكها شفرة تفتح مغارات وعوالم..

في عالم فقد رشده منذ زمن طويل، لا أزال أؤمن برشد الكلمات..

أحياناً بمنتهى الشغف، وأحياناً أخرى بمنتهى البؤس، لكني لا أزال أؤمن بالكلمات..

* * *

وفي عالم رفع راية الاستسلام منذ زمن بعيد، لا أزال أؤمن أنا بالتغيير..

في عالم فقد الأمل في أن بالإمكان شيئاً ما، لا أزال أؤمن أنا بالإمكان..

في عالم صار يؤمن بالعبث..لا أزال أتمسك أنا بالهدف..

في عالم لم يعد يؤمن إلا بالمصادفة، لا أزال أؤمن

بأننا خلقنا من أجل هدف.. وأن الهدف هو أن نغير هذا العالم.. أن نعيد بناءه على أسس أكثر عدالة وتوازناً..

* * *

في عالم لم يعد يؤمن إلا بصورة مبهرجة ثلاثية الأبعاد (حتى لو كانت مزيفة ومعدلة بالحاسوب) أؤمن بالبعد الرابع، بالكلمات تنقلنا إليه.. وتنقلنا عبره لتحدث شرخاً في جدار الواقع.. في ذلك البرزخ بين الواقع كما هو، وبين الواقع كما يجب أن يكون..

أحياناً يبدأ الشرخ مجرد ثقب صغير، لكن كلمات أخرى - و لو بعد عقود - أو ظروف ما، تفاعل ما، يمكن أن توسعه بالتدريج، **لتهدم ذلك السور العظيم الذي يفصلنا عما يجب أن نكون..**

* * *

في عالم لم يعد يؤمن إلا بالأمر الواقع، لا أزال أؤمن بالحقيقة وأؤمن أيضاً أن الحقيقة ليست بالضرورة هي الأمر الواقع.. وأؤمن أيضاً أن الأمر الواقع يمكن أن يتشكل كما تريد الحقيقة..

في عالم صار يتشدق أن التغير هو الثابت الوحيد، لا أزال أؤمن أن الحق ثابت، وأن الحقيقة - لأنها بنت الحق - ثابتة..

* * *

في عالم ترك الحقيقة وسكن الأمر الواقع، لا أزال

أؤمن أن الجمع بين الاثنين ليس مستحيلاً.. وأنه ليس خيالاً أدبياً ولا حروباً وهمية لطواحين هواء لا وجود لها.. وإن بدا كذلك للبعض..

وفي عالم يبدو جاثماً كالكابوس، أؤمن أن محاولة التغيير، مهما بدت صعبة، فإنها تستحق المحاولة..

* * *

في عالم لم يعد يؤمن بالمعجزات، لا أزال اؤمن بقدرة الكلمة على صنع المعجزات.. بل إني أؤمن أن اختياره - عز وجل - للكلمة لتكون وعاء المعجزة الأخيرة للرسالة الخاتمة، يحوي دلالة عميقة على ما أؤمن به من قوة الكلمات..

* * *

تمتلك الكلمات تلك القدرة على التقاط المعاني واقتناصها داخل مركبة الأبجدية وأصواتها، ومن ثم تملك تلك القدرة على ضخ هذه المعاني داخل الرؤوس..

لن أدعي أبداً أن ذلك وحده كفيل بإحداث التغيير.. لكني أزعم أن الكلمات تقدح شرارة ما.. وأن هذه الشرارة يمكن لها أن تخمد.. ويمكن لها أن تصير ناراً تحرق ما يجب أن يحرق من عالم قديم متداع "يسمونه أحياناً عالم الأمر الواقع".. أو تصير الشرارة نوراً يضيء الدرب إلى عالم تتواءم فيه الحقيقة مع الواقع.. ليس بالكلمات وحدها بالتأكيد.. لكن الكلمات هي عنصر أكيد من معادلة معجزة هي معادلة التغيير..

أؤمن أيضاً أن كل كلمة من كلمات الصلاة، في أركانها وهيئاتها، تحوي من المعاني أكثر مما نظن.. بل إنها يمكن أن تحدث ذلك الشرح في البرزخ.. نحو ملكوت الحقيقة.. ملكوت الواقع...

كل كلمة.. كل حرف.. أقصد ذلك حرفياً.. من الأذان إلى التسليم..

* * *

بسبب كل ذلك، فإني أؤمن بقوة الكلمات..

أحياناً بمنتهى الشغف.. أحياناً بمنتهى البؤس .. لكني، أؤمن بالكلمات...



الفصل الأول

الأذان: صوت صارخ في البرية...

"الله أكبر"..

يصرخ الصوت منذ قرون، منادياً للصلاة عبر القارات.. تارة حنون وقوي، وتارة جميل ومؤثر. تارة يأتي من حنجرةٍ كأنها قلب خاشع، وتارة من أوتار اهترأت ولم يجددها الإيمان..

"الله أكبر".. يصرخ الصوت منذ قرون.. أحياناً تدخل الكلمة إلى القلوب، وأحياناً إلى العقول. أحياناً تدخل من أذن لتخرج من الأخرى فوراً ودون تأخير. أحياناً تخرج بعد تأخير، وأحياناً تستقر في القلب..

أحياناً تنزلق على الرؤوس دون أن تترك أثراً، كما تسقط قطرة مطر على صخرة ملساء، وأحياناً "تعلق" بشيء ما، تتفاعل، ينتج التفاعل ثمرة ما..

أحياناً بمعنى، وأحياناً تقال بلا أي معنى مقصود في رأس من قالها.. فقط حنجرته هي التي "حكت" و حبالها هي التي تحركت..

"الله أكبر"..

منذ قرون، عبر القارات، وعلى الأكثر لقرون قادمة، عبر القارات أيضاً..

ولأن "الله أكبر"؛ فإنها جملة ستكون صحيحة في كل سياق محتمل، لا يوجد سياق للحديث، أو للتعليق على حديث، أو على حدث، دون أن تكون هذه الجملة مناسبة له..

إذا كان الحديث عظيماً في إيجابيته، فالله أكبر.. وإن كان هناك ثمة شيء مفزع في سلبيته، فالله أكبر..

دخلت الجملة، في مفرداتنا اليومية، صرنا نقولها، أحياناً بلا هدف، فقط للتعبير عن الإثارة أو الإعجاب، أو الحزن..

جردها استعمالنا من أعمق أبعادها.. كأنما الأحرف لا تعبر إلا عن أصوات، كأنها غير مرتبطة بذلك الضوء القادم من بعيد..

من بعيد جداً.. منذ قرون..

* * *

رغم أنها تستخدم في مواضع عديدة وغير مترابطة إلا أن استخدامها الأساسي، وربما للمرّة الأولى، كان من أجل الأذان..

النداء إلى الصلاة..

* * *

الله أكبر: للمرة الأولى

من أين جاءت هذه الجملة، التي تحولت لتصير شعار الأمة عبر القرون.. (وكأي شعار، أسيء استخدامه في كثير من الأحيان..)؟..

ليس في النص القرآني، مبنى هذا التركيب اللفظي، رغم وجود معناه، وبكثافة، في عموم الآيات القرآنية..

لكن اللفظة بحد ذاتها: الله أكبر.. غير موجودة في أي من الآيات الكريمة..

* * *

ليس في هذا أي إشكال، فوجود المعنى كفيل بنحت المبنى..

كما أن اللفظ، ما دام قد ورد، وثبت عنه عليه أفضل الصلاة والسلام، وثبت أنه قد استخدم للنداء من أجل الصلاة، في الحادثة المعروفة، فلا داعي هناك لافتعال المشاكل..

* * *

مع ذلك، يظل للنص القرآني سلطته على ما عداه.. وتظل له الهيمنة والأولوية.. دون أن ينقص ذلك من أهمية ما صح وتواتر عنه عليه أفضل الصلاة والسلام..

ولذلك، كنت أشعر دوماً، أن ثمة شيئاً ما، ينقص فهمنا الحرفي لهذا الأمر.. لا مشكلة في النص، المشكلة

دوماً في الأفهام البشرية العابرة.. التي لا تحاول أن تسبر الأغوار، أن تحفر في النص.. بحثاً عن أفق جديد..

شعار مثل هذا، اختير ليكون أول كلمة تنطق في النداء إلى أهم ركن من أركان الشعائر، لا يمكن أن يكون غير موصول بنص قرآني محدد.. نص قرآني بعينه..

الانطلاق من هذه الحتمية، يوصل طبعاً إلى نتيجة..

عندما أعلن "الإنسان" أن الله أكبر..

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[الأنعام: ٦/٧٦-٧٨]..

إنها تلك الليلة مجدداً.. ليلة التساؤلات، وليلة الأجوبة، ليلة البحث عن اليقين، ليلة انهيار المكرسات، بالضبط: ليلة تحطيم المكرسات عبر الأسئلة: تعريتها عبر تلك التساؤلات، وضعها على المحك.. ونسفها.. بل كشف أنها غير موجودة أصلاً..

إنها تلك الليلة مجدداً، يوم كان الليل يغطي وجه الكرة الأرضية كلها، يوم كان الليل مخيماً على العقول.. يوم لم يكن هناك عقول، حيث كان الليل..

تلك الليلة، يوم وقف "إبراهيم" أمام معبودات قومه؛

النجم، القمر، الشمس.. وكل منها كان يمثل أكثر من مجرد معبود، كل منها يمثل ما وراءه من أنماط للعيش وعلاقات للإنتاج ومصالح اقتصادية، وطريقة في التفكير توصلت إلى عبادة هذا الشيء دون سواه، أو إضافته إلى صف المعبودات..

هل كان إبراهيم يتساءل حقاً كما يشير السياق القرآني و كما قال غير واحد من المفسرين مثل الطبري؟.. أم إنه كان يمثل ذلك التساؤل أمام قومه - كما أوّل بعض المتأخرين- ليستدرجهم إلى الحقيقة في النهاية؟..

أيّاً كان، لقد كان إبراهيم يمثل "النوع البشري" وهو يتساءل، كان يسأل بالنيابة عنا جميعاً بالتأكيد. وربما كان يسأل بالأصالة عن نفسه.

لكنه، على الأقل، كان يسأل بالنيابة عنا جميعاً، ليثبت لنا، أن التساؤل يمكن أن ينسف كل ما هو ركيك.. وأن الوصول إلى الجواب لابد أن يمر بالسؤال، وأن الطريق إلى اليقين لا بد أن يمر بالتساؤل.. هناك، في عمق الليل، جاء التساؤل الإبراهيمي معولاً يحطم أركان الليل..

* * *

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [الأنعام: ٧٨/٦]..

لقد قال: هذا أكبر..

القمر، كان يبدو أولاً، من حيث يقف إبراهيم، أكبر من النجم، الكوكب الذي رآه إبراهيم أولاً.... ومن خلال

منظومة القيم السائدة عند قوم إبراهيم كان "الأكبر" هو بالضرورة الأقوى، وهو بالضرورة "المنتصر".. وهو بالضرورة "المهيمن"..

بعد القمر، الذي بدا أنه أكبر من النجم، جاءت الشمس.. وكانت أكبر "الجميع".. وقال عنها إبراهيم "هذا ربي هذا أكبر".. لكنها أفلت لاحقاً.. وكان أفولها إيذاناً بسقوط مفهوم "الأكبر" بالمعنى المادي المباشر..

بدا مفهوم الأكبر "هشاً" من حيث وقف إبراهيم على حافة الحقيقة.. كان الأفول هو الحقيقة الوحيدة التي قهرت كل تلك المكرسات.. كلها أفلت.. كل ما هو "كبير" فيها، جاء الأفول ليصغره.. ليجعله أصغر..

* * *

وعندما تلمس إبراهيم دربه في الظلمة، رغم الشمس التي كانت قد أشرقت، أعلن على الملأ، بالنيابة عنا، وبالأصالة عن نفسه، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩/٦].

هناك فقط، انتهت الظلمة، وهزم الليل.. ذلك الدماغ الإنساني المبتكر والمميز عن كل أدمغة المخلوقات أنجز قفزته الهائلة، نحو الإيمان بما هو غير مرئي ولا محسوس.. الأمر الذي هو مستحيل - تقنياً - بالنسبة إلى أدمغة بقية المخلوقات..

كانت قفزة هائلة، من حافة الليل، إلى أفق النور.. ولم تكن في الفراغ..

ما سكت عنه إبراهيم

ما سكت عنه إبراهيم في تلك الليلة وقد انقضت، صرنا نردده.. صار صداه يتردد عبر القرون والقارات.. ما لم يرو على لسان إبراهيم في القرآن، صار شعاراً للحنيفية الحقة..

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٦/٧٧]..

وكانت الشمس أكبر..!

لكن الله هو الأكبر!، وذلك ما لم يقله إبراهيم بالحرف، لكننا نحن الموصولون بالتجربة الإبراهيمية، بوصفه المسلم الأول، نقولها ونرددها، وصارت الشعار، والنداء للصلاة..

كانت تلك هي العبارة المتضمنة "بين سطور" الآيات الكريمة.. كانت تلك هي العبارة التي علينا أن نكملها نحن، كان مبناها مفقوداً، لكنها مثل قانون رياضي، تستطيع أن تستنتجها، بل أن تنقطها بالحرف، من مقدمات المعنى والمبنى..

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٦/٧٨] كانت عن الشمس..

لكنه الله، الله أكبر..

خارج التصنيف

وهو أكبر بالذات لأنه خارج هذا التصنيف برمته.

خارج هذا التقييم. خارج حتى كلمة "خارج". إنه، ببساطة، غير خاضع لأي نوع من المقاييس، ولذلك بالذات هو أكبر.. لأنه يتعدى كل الموازين ولا يخضع للمقارنة مع أي شيء سواه.. سواء كان هذا الشيء معبوداً مادياً مباشراً ومجسماً، أم كان فرداً تجاوز الحدود بقوته وطغيانه.. أم كان إيديولوجية براقة، أم نمطاً للحياة، يسوق عبر وسائل الإعلام.. أم دولة عظمى تفترض أنها الرقم واحد.. وتفترض أنها ستبقى كذلك..

لكن، كما تعلمون، ما وصل إليه إبراهيم، وما قاله دون أن يقوله.. في أول نهار حقيقي عرفه البشر..

الله أكبر..

* * *

صوتٌ صارخٌ في البرية، ربما كان صوت إبراهيم، ربما كان رجع صداه، ربما كان صوتاً من أصواتنا..

صوتٌ صارخ في البرية، يؤذن لنا بالصلاة..

يقول: الله أكبر..

* * *

لن يكون ذلك مصادفةً بتاتاً..

ليس مصادفة أن تكون الكلمة الأولى، في النداء لإقامة الصلاة، مرتبطة بسيدنا إبراهيم..

أليس هو أول من أقام الصلاة؟..

أليس هو أول من استعمل لفظة إقامة الصلاة؟.. أليس

هو من أقام أول مجتمع (أقيم) على بذرة (إقامة الصلاة)؟..

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧/١٤]

القامة "العمرية" العملاقة

ولن يكون مصادفةً أبداً، أن يرتبط الأذان، بنصه وحرفه، مع القامة العملاقة لعمر بن الخطاب، الذي كان قد رأى في المنام ما رأى، ووافقه عليها النبي عليه الصلاة والسلام.. ليست مصادفة، ذلك أن ابن الخطاب كان قد وعى التجربة الإبراهيمية، و فهم مغزى وعمق "المقام الإبراهيمي"، وارتباطه بإقامة الصلاة.. فاقترح أن يتخذ مصلى.. ووافقه الوحي في الحادثة المعروفة..

كانت رؤيا عمر، أكبر بكثير من مجرد "منام"؛ كانت "رؤية" متكاملة، انبثقت من فهمه العميق للقرآن ولخطوطه العامة، وظهرت بين الوعي واللا وعي فيما نسميه اليوم: مناماً ..

* * *

صوت صارخ في البرية، استمعوا له، ربما يكون صوت سيدنا إبراهيم، أو صوت بلال، أو صوت عمر، أو مزيجاً مثمراً من تلك الأصوات كلها..

صوت صارخ في البرية، التفتوا إليه، من كل صوب يأتي، عبر القرون والقارات..

إنه يقول: الله أكبر..

الشهادتان: قانون الأولويات

بعد الله أكبر، تأتي الشهادتان..

الله أكبر هي المدخل لهما.. لكنها لا تختصرهما، إنها تمهد لهما فقط.. فالشهادتان غير قابلتين للاختصار، وغير خاضعتين للتجريد، إنهما محصنتان من ذلك..

"الله أكبر".. لا توضح المعنى العالي للتوحيد.. لكنها تفتح الباب له حتماً..

الله أكبر من تلك الدولة أو من ذلك الطاغوت.. الله أكبر من شهواتنا كأفراد، ومن شهوات الآخرين.. إنه أكبر من قوة الشّر.. ومن أشياء أخرى كثيرة.. لكن كونه "أكبر" - عز وجل وتعالى عن أي تشبيه ومقارنة - لا ينفي حقيقة وجود أشياء أخرى في هذا الكون، علينا أن نتعامل معها، مع وضع حقيقة أن "الله أكبر" نصب أعيننا..

* * *

هذا التعامل مع حقائق الأشياء، ينظم بقانون، هو تلك الشهادة الأولى.. شهادة أن "لا إله إلا الله".. التي هي صلب التوحيد، وصلب التجربة الإبراهيمية..

"لا إله إلا الله" كانت هناك في تلك الليلة، يوم وجه إبراهيم وجه الإنسانية للذي فطرها..

"لا إله إلا الله" كانت هناك يوم حطم الأوثان، مرة بالمعول الحقيقي، وأخرى بمعول التساؤل.. وتركها، في الحالتين جذاذاً..

لا إله إلا الله كانت هناك يوم أعلن براءته مما يعبده قومه.. ومن ثم يوم أعلن براءته من مجتمعه وقومه..

في البراءة الأولى أسس العبادة الجديدة: عبادة لا إله إلا الله، وفي البراءة الثانية، أسس المجتمع الجديد.. مجتمعاً قوامه العبودية والتوحيد الخالص..

كانت لا إله إلا الله هناك في كل خطوة في الرحلة الإبراهيمية، وكانت بالتأكيد يوم وضع ذلك الحجر الأساس للحضارة "المختلفة".. حضارة لا إله إلا الله..

* * *

والعلاقة بين الشهادتين هي مثل العلاقة بين السبب والنتيجة وبين الجذر والثمرة.. لكن الشهادة الأولى، لم تحقق ذاتها تماماً على يد إبراهيم، وإنما لم تكتمل إلا على يد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان اكتمالها، في التوحيد الخالص الذي لم يتحقق إلا مع مجيء رسول الإسلام، إيذاناً بختم النبوة والرسالة.... لذلك فإن الشهادة الأولى، صارت تحتاج أن تثبت ذلك وتسجله.. صارت لا تكتمل إلا بالشهادة الأخرى، وكلتاهما صارت تقدم رؤية واحدة متحدة، امتزجت الشهادتان لتقدم رؤية واحدة، بالضبط كما تقدم عينان في رأس واحد، رؤية واحدة، رغم أنهما عينان وليستا عيناً واحدة..

شهادتان، مثل معادلتين، نحتاجهما لفهم علاقتنا بالأشياء من حولنا.. ولتنظيمها..

* * *

صوت صارخ في البرية، يؤذن في الناس، أن "لا إله إلا الله" وأن محمداً رسوله..

عبر القرون والقارات.. الصوت صار أكثر وضوحاً، لم يعد "هائماً" يحذر الناس من أن الله "أكبر" مما يتصورون، أو مما يعتقدون، كما كان الصوت الصارخ الملتحم بـ "الله أكبر" أول مرة، الآن صار الصوت يمتلك رؤية.. الآن صار الصوت مجسماً بأبعاد متعددة، إنه لا يحذر الناس، بل يدلهم على طريق واضح..

صوت صارخ في البرية، يقول أهم ما يمكن أن يقوله صوت إنسان، يقول الحقيقة الوحيدة غير القابلة للأفول..

منطق التسلسل في الأذان

الجمل الثلاث الأولى في نص الأذان تمتلك تماسكاً وتسلسلاً منطقياً.. إنها تبدأ بأن الله أكبر.. ويعني ذلك، أن هناك أشياء كبيرة في حياتنا، ومهمة، وأخرى أصغر، وأقل أهمية، يعني ذلك أن هناك أولويات، وتراتباً بين الأمور التي تواجهنا ونواجهها في الحياة.. وأن قمة التسلسل، يجب أن تكون محسومة دوماً، مهما كان، ومهما حدث، فالله، سيظل، أكبر..

الشهادتان، لاحقاً، تنظم الأمر أكثر، فترتيب الأولويات سيكون في خلل إذا بدأنا بالخضوع لأمر من هذه الأمور الأخرى، التي يجب ألا يكون ترتيبها على القمة.. لأن القمة محجوزة سلفاً وحصرياً لمن هو خارج التقييم والقياس، سبحانه وتعالى عن أي تشبيه..

معيار خضوعنا، وعدم خضوعنا، يتحدد عبر الشهادة الثانية، التي هي الجملة الثالثة في الأذان، التي تربط حلقات المسبحة بعضها ببعض، وتجعل لها القوام والتماسك، تنقلها من عالم الأفكار المجردة، إلى أرض الواقع، إلى عالم التجربة الإنسانية..

إلى واقع الحياة الإنسانية..

* * *

لكن هذه الجمل الثلاث كلها، على أهميتها، ليست سوى مدخل افتتاحي، للمقصد من الأذان كله..

النداء لإقامة الصلاة..

دعوة إلى الحياة

"حي على الصلاة"..

على آذاننا تراكم الكلس والصدأ.. أم على عقولنا، أم على أبصارنا، أم تراه على قلوبنا؟ أم أن الكلس والصدأ قد تراكم على كل ذلك، دفعة واحدة، وجعلنا لا ننتبه لهذه الكلمة..

"حي على الصلاة"..

تمر على آذاننا - على كل ما نحن عليه - فلا نجد فيها غير دعوة لأداء الصلاة..

ولا ننتبه إلى أنها، أولاً، دعوة للحياة!..

* * *

"حَيّ" أخذناها دوماً على المعنى المباشر: الإقبال.. ولم ننتبه إلى أن هذا المعنى قد اشتق أصلاً من فعل الحياة.. الذي سينبثق منه الإقبال الذي وقفنا عنده..

إنها دعوة للحياة، ولكن ليس لما تعودناه من حياة؛ ليس لذلك النمط العادي العابر من محض حياة بيولوجية "دنيا" بل لحياة من نوعية أعلى، حياة حقيقية..

أو بعبارة أخرى: حياة، نؤمن نحن، أنها هي الحياة الحقيقية.. ونؤمن، أن محك ما هو حقيقي، وغير حقيقي، هو هذا القرآن الكريم الذي يحسم، وحده، الحقيقة والزيف..

* * *

والحياة، لغة، ضد الموت. فبعض الأشياء لا تفسر إلا بضدها.. لكن هل نعرف حقاً ما هو الموت وكنهه - لكي نعرّف الحياة أنها ضد الموت..

إنَّ هذا لا يوضح حقاً جوهر الحياة، إنه يصفها فقط.. يرسم صورة خارجية لها..

لكي نفهمها، ربما نحتاج إلى صورة "شعاعية"..

* * *

في خمسة مواضع، في القرآن الكريم، تأتي لفظة "الحياة" وبعض مشتقاتها، بشكل يتجاوز الوصف والتوصيف.. إلى الجوهر..

خمسة مواضع، نفهم منها ماذا تعني الحياة حقاً، وربما

نستطيع أن نعرف بعدها، إن كنا أحياءً حقاً، أم أننا نتظاهر فقط بذلك؟!..

* * *

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ١٦/٦٥].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢/١٦٤].

الحياة إذن ليست "حالة" تنتج من عدم الموت، إنها حالة نكونها، وتكوننا، كما الأرض مع الماء، عبر الإثمار، عبر الإنتاج.. عبر تقديم ما هو مفيد ومثمر.. لكل من يتعلق به الأمر..

الحياة، هي ألا تكون أرضاً بوراً؛ بل أن تتحدى الجدب لتقتنص الخصب ..**أن تثبت أن بإمكانك أن تستخرج من أعماقك ما يستحق أن يظهر على السطح**، أن تتفاعل لتنتج في نهاية التفاعل شيئاً يجعل الحياة أفضل..

الحياة بمعايير "قرآنية"

ليست الحياة، قرآنياً، أن تكون وظائفك البيولوجية على أتم وجه.. بل أن توظف نفسك فيما خلقت من أجله، أن تعمل على تشكيل العالم بشكل أفضل وأفضل دوماً، أن تثمر، أن تنتج، أن تكون جزءاً من "أرض أفضل"، ولو بأن تكون سماداً عضوياً لحصاد قادم..

* * *

هذه هي الحياة إذن ..الحياة "غير" الدنيا..

ولكن، ما علاقة هذا بالصلاة؟..

بالصلاة التي تعودناها، لا علاقة طبعاً، بصلاة إسقاط الفرض، والصلاة كيفما كان، صلاة الهرب من عقوبة ترك الصلاة..

لا علاقة لهذا النوع من الصلاة، بالحياة، بحي على الصلاة.. أما الصلاة الأخرى، الصلاة كما يجب أن تكون، تشييداً للإنسان والمجتمع، فهي ترتبط مباشرةً بمعنى الحياة..

بالذات بالإحياء..

* * *

تؤدي الصلاة، كما يجب أن تكون، مع الإنسان/ المجتمع، الدور ذاته الذي يقوم به الماء مع الأرض..

هذا الماء النازل من السماء يتفاعل مع الأرض ليحييها، يجعلها منتجة، مثمرة..

و "الصلاة".. بإمكانها أن تفعل الشيء ذاته، عندما تختزن في داخلها رؤية الحياة، عندما تتجسم في كلماتها وحركاتها، فإنها بإمكانها أن تتفاعل مع جثة هامدة - تتنفس نعم ولكنها ميتة عملياً - تنفخ فيها الحياة.. تبث فيها الحيوية.. لتحولها إلى إنسان فاعل يقوم بدوره على هذه الأرض..

الماء، الصلاة.. والحياة..

"حي على الصلاة"..

لست حياً بالصلاة، عبر الصلاة، بل إنك حيٌّ **"على" الصلاة**، لأنها سترتقي بك، خطوة تلو أخرى، إلى الأعلى، ستكون هي منصتك للارتقاء..

ستكون حياً على الصلاة..

* * *

صوت صارخ في البرية، يصرخ بك ألا تترك فرصة الحياة تفلت من يديك، يحذرك من الانغماس في موتك اليومي.. ينبهك إلى أن الحياة قد تتسلل، قد تهرب.. إذا أصررت على الاستمرار بتلك الحياة الدنيا، التي هي مجرد "موت" بقناع زائف للحياة..

الدعوة إلى الإثمار

لكن الأمر لا ينتهي هنا؛ عند الدعوة إلى الحياة من خلال الصلاة.. بل هناك خطوة أخرى، تؤكد ذلك المفهوم للحياة، وتؤكد ذلك الدور للصلاة..

إنها "حي على الفلاح"..

* * *

بطريقة شديدة الوضوح، استبدال كلمة الفلاح بالصلاة يعني أن العلاقة بين الصلاة والفلاح هي علاقة مساواة تامة..

تعودنا طبعاً أن الفلاح يعني الفوز. بالنسبة إلى الفهم

المباشر ذي البعد الواحد فإن ذلك سيفسر فوراً، بأن أداء الصلاة، سيؤدي إلى الفوز، بما أنه ينجي من النار ويدخل الجنة..

وهذا الفهم سيظل موجوداً، لكن تصور أنه البعد الوحيد هو تصور قاصر لمعنى الصلاة، ولمعنى الفلاح، ولعلاقة التساوي بينهما..

لفظة الفلاح، مشتقة أصلاً من الفعل "فلح"، والذي يعني شق الأرض وقطعها.. والذي تشتق منه أيضاً كلمة الفلاحة، والفلاح.. إلخ، كما هو واضح..

المعنى الذي يقف عند "الفوز"، يكون قد قطع شوط الفلاحة إلى آخره، وتجاوز شق الأرض، إلى الحصول على الثمرة.. إلى الحصاد.. لكنه يظل يحتوي الفعل الأصلي للمفردة.. يظل منضوياً تحت المعنى الأصلي لفلح.. ولتجلياته..

* * *

ما معنى هذا بالضبط؟.. وما معناه هنا تحديداً؟.. وما مغزى علاقته (علاقة التساوي) بالصلاة؟.. وما علاقته قبلها بالحياة؟..

المعاني متقابلة ومتوازية.. فإحياء الأرض - المثل القرآني عن معنى الحياة - ارتبط بشكل مباشر بالأرض وهي تقوم من مواتها وبورها.. وتتقدم إلى الخصب والعطاء.. والإثمار..

مع "حي على الفلاح".. الحياة تؤخذ إلى أفق جديد من المعنى نفسه: إحياء الأرض..

في الجملة الأولى: الماء ينزل ليحيي الأرض.. تتفاعل معه لتقدم ثمرتها..

في الجملة الثانية: هناك عامل آخر يدخل، فليس كل الثمار تخرج بمجرد تفاعل الأرض مع الماء؛ هناك ثمار تتطلب عملية شق للأرض، قطعها، تسميدها، تتطلب جهداً، ولا بد أن يكون إنسانياً.. ليصل إلى الثمرة..

فالفلاحة هي هنا بذل ذلك الجهد الإنساني للوصول إلى ثمرة أكثر تعقيداً ..**للوصول إلى حياة بمقاييس وقيم أعلى..**

وهذا هو أيضاً المفهوم الأعلى لإقامة الصلاة.. أن تبذل المزيد من الجهد للوصول إلى أداء دورك في هذه الحياة..

"الفلاح" هنا هو دورك الحقيقي في هذه الأرض، أن تقطعها وتحرثها وتضع البذرة فيها، تسقيها بشرايينك، من أجل أن تتركها بحال أفضل مما وجدتها عليه..

الصلاة = الفلاح

(الصلاة - الفلاح)، ثنائية الترادف والتكامل والتساوي والتفاعل، أكثر من مجرد كلمتين تستعملان لحثك على التوجه لأداء الصلاة.. إنهما كلمتان تعلمانك جوهر هذه الحياة، عبر الدعوة إلى الحياة الحقيقية، وإلى إنجازها.. إلى تشييدها.. إنهما كلمتان تذكرانك بأن الفوز الحقيقي في الآخرة لا يمكن أن يكون منفصلاً عن تشييد حياة ليست "دنيا" على هذه الأرض..

إنهما كلمتان تذكرانك أن الحياة هي شيء آخر غير مظاهرها العابرة؛ وأن عملية "الإحياء" عملية متواصلة ومستمرة، وأنها تحتاج إلى تدريب مستمر.. (خمس مرات في اليوم الواحد..).

* * *

صوت صارخ في البرية، يقول لك: إن "الإحياء" دربه يبدأ من تلك الصلاة الشامخة..

صوت صارخ في البرية، يقول لأمة دفنت نفسها في الأرض الموات، أن الإحياء ممكن..

وأنه يبدأ من الاستجابة لتلك الدعوة..

"الناس نيام.. فإذا ماتوا انتبهوا "

يحتوي الأذان، إضافة واحدة، تخص صلاة الفجر تحديداً.. وتستحق الوقوف، لأنها إضافة تضيف "معنى" إلى سائر الأذان..

إنها "الصلاة خيرٌ من النوم"..

للوهلة الأولى، سيبدو الأمر يخص النائمين فقط؛ النائمين بالمعنى المباشر: إنه يهزهم بشدة لينبههم من ذلك النوم البيولوجي.. لكن كل تلك المعاني متعددة الأبعاد، المنبثقة من كل لفظ من ألفاظ الأذان، سيقود إلى وجود معنى عميق أيضاً، كامن، في تلك العبارة التي تخص صلاة الفجر.. وأشدد على أن المعنى الكامن، لا يلغي المعنى المباشر، بل يقويه..

هل النوم هو نوم بيولوجي فقط؟.. أم إنه قد يكون غير ذلك؟..

وما هو "النوم" حقاً - في جوهره - غير إيقاف جميع العمليات الإرادية في الجسم ووظائف الأعضاء، والاستمرار في العمليات اللا إرادية: مثل التنفس، الهضم،.. الأيض.. إلخ؟ لكن، أليس هذا يحدث أيضاً، مع بعض الإضافات هنا وهناك، عند الكثيرين: أن تستلب إرادتهم، ويكفون عن أداء ما هو إرادي حقاً، على الأقل دون أن تكون له وظيفته الأصيلة حقاً.. حتى لو كانت عيونهم مفتوحة على اتساعها، حتى لو كانوا يروحون ويجيئون طوال الوقت.. لكنهم لا يفعلون شيئاً حقاً - إنهم نيام تقودهم غريزة القطيع الماضي إلى هاويته أو مقصلته، استلبت كل إرادتهم.. وصاروا كالمنومين.. كالنيام تماماً..

شعوب بأسرها، أمم بأكملها، تغط في نوم كهذا، نوم وسبات تاريخيين، دون أن تشعر بهذا.. كالنائم الذي لا يشعر بشخيره (يستيقظ في هدوء لا يعرف شيئاً عن الضجة التي كان يحدثها، ولن يصدق ما تقوله له زوجته وأولاده عن ذلك!)..

و "الصلاة خيرٌ من النوم".. لأنها رديف الحياة في هذه الحالة، رديف التفاعل، رديف النهوض من النوم، أو النهضة من السبات، أو كل ما هو ضد القعود، السكون، النوم، الموت..

* * *

صوت صارخ في البرية، فجراً، أن الصلاة خير من النوم، مهما تطاول النوم، مهما كان قديماً ومحصناً بقدمه..

صوت صارخ في البرية، لعل الفجر يقدح زناد شرارة "نهوض" ما..

* * *

لماذا هي إذن في أذان الفجر تحديداً، وليس في كل أوقات الصلاة ما دام "النوم" ليس بالضرورة نوم الليل بل هو الآخر بمعناه الواقع؟ ربما لأن الفجر برمزيته التي تشير إلى بداية الأشياء، وبَدْء انبثاقها وتفجرها، يمكن أن يكون الأنسب لكي تنفض الموت من حياتك، وتبدأ من جديد، ربما لأن الفجر، بكل ما يمثله من ولادة جديدة، فرصة لك لكي تولد من نومك، من موتك اليومي الذي ربما دام حياتك كلها..

في كل لحظة، في هذا العالم، هناك فجر (ما) يولد..

وفي كل لحظة تستطيع أن تبتكر (فجرك)، أن تولد من جديد من رحم نومك..

في كل لحظة من حياتك، هناك فجرٌ ما يولد في هذه الأرض..

وهناك:

"الصلاة خيرٌ من النوم"..



الفصل الثاني

الأوقات الخمسة: أن تصير جزءاً من هذا العالم...

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَـٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣/٤].

قراءة النظرة الأولى لهذه الآية، تفسر الأمر أنه "حض على الالتزام بأوقات الصلاة".. وهو تفسير لن تلغيه قراءة النظرة الثانية، أوالثانية بعد الألف، لكن القراءات التي تحفر في النص عمقاً وطولاً وعرضاً، قد تجد أبعاداً أخرى، لما هو ضروري ومهم أصلاً..

* * *

أهم ما في حياتنا، وربما موتنا، سيختار له الخطاب القرآني، منزلة الكتاب.. وسيكون في كتاب.. يوماً ما كل ما فعلناه، وأيضاً كل ما لم نفعل، وكان علينا أن نفعله، سيكون في كتاب.. سيكون يوماً ما منشوراً..

﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣/١٧].

* * *

حتى موتنا، الذي سيتوج رحلة حياتنا بالإنجاز، أو

ينكسها بعدم الإنجاز، ما هو إلا كتاب.. إلا أنه كتاب "مؤجل"..

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ٣/١٤٥].

* * *

وهكذا فإن كل "الكتب" التي وردت في الخطاب القرآني، هي كتب "مؤجلة" - محتمة، لكن موعدها مؤجل إلى وجه آخر وحافة أخرى من بعد الزمن..

كلها كتب، باستثناء كتب الوحي الإلهي، سيكون موعد نشرها، هناك.. في الآخرة..

إلا كتاباً واحداً فقط.. سيكون موعده دنيوياً..

كتاب الصلاة!..

وسيلة لقراءة العالم

الصلاة إذن ليست فقط "مكتوبة "علينا..كما كتب الصيام و القصاص في القتلى.. إلخ..

بل إنها هي "الكتاب"...

والفرق بين أن تكون (مكتوبة).. علينا، وأن تكون هي ذاتها كتاباً، فرق كبير..

والفرق أن ما كتب علينا، علينا أن نؤديه..

أما ما هو "كتاب" فإن الأمر يتجاوز الأداء المجرد إلى **اتخاذه وسيلة لقراءة العالم..**

إنه الفرق بين ما هو مكتوب علينا.. وما هو مكتوب لنا..

والصلاة، بصفتها الكتاب الموقوت، الكتاب الموجود فعلاً في الدنيا، هي مكتوبة لنا، وسيكون أداؤها - الحقيقي -قراءة في هذا الكتاب.. قراءة للعالم، من خلال هذا الكتاب..

* * *

لكن هذا الكتاب، القراءة فيه ليست حرة.. ليست بلا ضابط ولا رابط..

إنه كتاب "موقوت".. ويعني ذلك أن القراءة فيه، محكومة بالوقت، ومضبوطة فيه، ومربوطة فيه، كما ترتبط قنبلة موقوتة بعقارب الساعة..

مع فارق أن الكتاب الموقوت، قد يهيئ لك حياةً أخرى..

* * *

سيضيق بعضهم ذرعاً، لم يرتبط أي كتاب بالوقت؟.. قد نفضل قراءته عندما يكون الوقت مناسباً لنا، من قال إن ما هو مناسب لنا، سيكون مناسباً لغيرنا؟..

لا، هذا الكتاب "موقوت" تحديداً.. وصفته هذه، هي الصفة الأولى فيه، لقد ذكرت بشكل حاسم وقاطع وأولي، بطريقة لا يمكن أن تجعل الارتباط بالوقت مسألة ثانوية، أو مجرد وصف زائد..

"الوقت" في صميم هذا الكتاب، يكاد يكون جزءاً منه، من سطوره وأحرفه، ومن مبتدئه وخبره..

لا، ليس "يكاد"..

بل هو فعلاً.. الوقت جزء من جوهر هذا الكتاب.. الكتاب الموقوت..

* * *

لكن، لماذا؟..

سيكون هناك جواب مباشر عن الالتزام بالوقت، كدلالة للخضوع له وطاعته سبحانه وتعالى..

وهذا شيء أكيد، لكن ربما هناك كنوز "أكبر" في الأعماق من الأبعد للبحر..

عنصر الوقت في معادلة التفاعل الكوني

مع الصلاة، عامل الوقت، يكاد يكون أهم من أي شيء آخر..

وهو بالتأكيد أهم من عامل المكان.. فبينما الصلاة يمكن أن تُؤَدَّى في أي مكان، في الأرض الخلاء، على أرض المطار، في غرفة صغيرة تحت الأرض، في الزنزانة، في عنبر السرطان، في الطائرة، في غرفة فندق تعاقب عليها الغرباء، في القطار في رحلة لا تعرف أين محطتها الأخيرة، في بيت ولدت فيه وكبرت فيه وستموت فيه أيضاً، أو في بيت تعاقب عليه سكان قبلك وسيتعاقبون بعدك، في مسجد صليت فيه صلاتك الأولى، وسيصلون فيه عليك عندما ترحل، أو في مسجد عابر تماماً لا تذكر غير أن عقارب الساعة وضعتك فيه..

الأرض كلها، مسجدٌ، لك.. وطهور..

صلاتنا مربوطة بعقارب ساعة كونية عملاقة تسير العالم كله.. ما الذي يعنيه بالضبط هذا؟..

يعني أنك، عندها فقط، وعند الالتزام بوقتها، تصير جزءاً من هذا الكون العملاق.. لأنك، من خلال ثغرة الزمان، ستدخل هذا الكون فعلاً..

أما عندما تكون خارج "الزمان" فإن وجودك في المكان، لا معنى له على الإطلاق..

من ثقب صغير، هو ثقب الزمان، تدخل إلى حيز الوجود الحقيقي.. تدخل إلى معادلة الحضارة والفاعلية، قبل ذلك، أنت الهباء بعينه..

الساعة الكونية: من الشمس إلى نبتة الباقلاء

الدخول إلى ثقب الزمان، عبر الارتباط بالصلاة الموقوتة، يجعل منك مربوطاً بتلك الساعة الكونية..

ما هي الساعة الكونية ؟ إنها، باختصار شديد، ذلك الزمن الذي يعبر عن حركة الكون كله، بمقاييس مختلفة، بنسب متباينة، بأشكال ومظاهر متعددة، قياس اليوم هنا على كوكب الأرض قد يختلف عنه على المريخ أو على عطارد، أو في ركن قصي ومتباعد من أركان الكون، لكن الزمن، كمفهوم، يعبر عن الحركة، عن المسافات، عن العلاقة بين الأشياء، بتداخلها وتباعدها..

* * *

ما الرابط بين الساعة الكونية، وحركة الأجرام، والصلاة على وقتها؟..

خطوة خطوة، سنفهم ذلك..

* * *

كل الكون، مرتبط بعضه ببعض بشكل يكاد يكون في بعض أجزائه شديد الآلية.. وشديد التداخل..

ربما لأننا نسكن جزءاً من هذا الكون، وقد تعودنا على هذا الجزء حد البلادة، فإننا لا نستطيع فهم الارتباط والتداخل الذي ينعكس على هذا الجزء من العالم، بل الكون.. كلّه..

* * *

لكن شيئاً صغيراً، مثل نبتة خضراء صغيرة.. من تلك التي يُجْري عليها الأولاد في المدارس تجارب علمية بسيطة، قد تعيدنا إلى رشدنا.. إلى انتباهنا لتلك العلاقة، بين محض نبتة باقلاء (على سبيل المثال) صغيرة، وبين نجم هائل الحجم، هو مركز المجموعة الشمسية..

* * *

كلنا يعرف طبعاً عملية التركيب الضوئي التي تقوم بها النباتات من أجل أن تستمر بالحياة وبالوظائف الحيوية، إنها تقوم بطرح الأوكسجين وتتنفس ثاني أوكسيد الكربون من خلال عملية معقدة تستغرب كيف أن نبتة صغيرة تقوم بها..

عملية التركيب الضوئي تعتمد على الضوء.. كما هو واضح من اسمها ولقبها.. وهذا الضوء، ليس "أنبوبة نيون" عمرها لم يتجاوز القرن الواحد، بل هو، ضوء الشمس طبعاً..

ولأن الكون متداخل، والعلاقات بين أكبر أجزائه وأصغرها متشابكة، فإن نبتة صغيرة تحتاج إلى الشمس في نموها، وما كان لها أن تنمو، أو أن تكون، لولا ضوء الشمس، الذي يعني، ضمن ما يعني، تلك الحركة التي تجعل الضوء يأتي تارة وينحسر تارة أخرى..

أي حركة الليل والنهار..

* * *

وأوضح من هذا، النباتات التي تتفتح أوراقها باتجاه الشمس، وتنكفئ معها عند غروبها، وهي فصيلة نباتية معقدة تضم أنواعاً مختلفة تتفتح كل منها نحو الشمس، لكن في وقت مختلف، حسب موقع الشمس في السماء، مما جعل بعض العلماء يعمد إلى ابتكار ساعة نباتية، تتكون من أنواع مختلفة من النباتات، لكل منها موعد مختلف في التفتح، ويتم بذلك معرفة وقت بعينه من خلال تفتح الزهرة المعينة..

هذا الارتباط الذي يأخذ شكلاً واضحاً في بعض النباتات، قد يأخذ أشكالاً أعمق وأقل ظهوراً في كائنات أخرى، قد تشمل أحياء صغيرة مثل البكتريا، والطحالب.. وصولاً إلى الإنسان..

في داخلنا "ساعة"

في داخل كل منا، وداخل كائنات أقل شأناً منا، هناك "ساعة ما"، تعرف بالساعة البيولوجية، تعمل دونما انقطاع، لا تحتاج أن تملأ بطاريتها، ولا تحتاج لضبطها على غرينتش، أو تغييرها حسب التوقيت الصيفي أو الشتوي.. إنها تعمل تلقائياً، وتقوم بكل التعديلات دون أن تترك لك فاتورة التصليح..

لكن تغييرات مفاجئة وسريعة، قد تجعلك تشعر بهذه الساعة البيولوجية وبدقاتها المتسارعة.. بل قد تجعلك ممزقاً بين عقاربها الداخلية، وعقارب الساعة في الخارج، كما سيحدث عندما تنتقل من قارة إلى قارة أخرى بعيدة، تكون حركة النهار في القارة الجديدة في أوجها، بينما ساعتك الداخلية ترفض ذلك، وتقول إنه منتصف الليل.. الساعة البيولوجية هذه لم تعد مجرد ملاحظات شبحية.. ولا استنتاجات دونما دليل.. لقد صارت، وابتداءً من سبعينات القرن المنصرم فرعاً خاصاً من علم الأحياء (علم البيولوجية الزمني Chronobiology)، وصار قائماً على حقائق علمية وتشريحية وفسيولوجية تجاوزت الظن والافتراض..

يقع مركز هذه الساعة (master clock) في النواة فوق المتصالبة الوطائية (suprachaismatic nuclei) الموجودة في غدة تحت المهاد (hypothalmus) من الدماغ. هذا هو مركز الساعة أو قلبها. أما عقارب الساعة، إن شئنا، فهي

موجودة في كل جزئيات جسمنا حرفياً، لأنها ذات طبيعة جينية (موروثة) وتعمل على التحكم وتنظيم هذه الساعة، عبر إنتاج بروتينات عديدة يتم من خلالها تشغيل الساعة..

ما الذي تفعله هذه الساعة بالضبط: إنها، باختصار، تنظم عمل أجهزتنا الحيوية وفق إيقاع يومي circadian rhythm، تنظم النوم واليقظة، الأيض، إفراز الهرمونات، إعادة بناء الخلايا، وتوجيه النشاط الموجي للدماغ..

أي إنها باختصار، تضع يدها على حيوية الإنسان، وفعالياته المختلفة، وتضعها ضمن إيقاع يومي دوري..

وعندما نقول "يومي" فإن ذلك لم يكن مصادفة.. فهي مرتبطة فعلاً بالإيقاع اليومي.. أي إنه إيقاع مرتبط بتلك الفترة الزمنية التي تستغرقها الأرض في الدوران حول محورها الذي ينتج عنه: اليوم..

أي إننا مجدداً، أمام حركة الكون.. حتى في إفراز هرمون في جسمنا.. نحن، مجدداً، أمام تعاقب الضوء والظلمة.. التعاقب الذي يتحكم بالنباتات والطحالب.. كما يتحكم بأجزاء منا..

وحدة الخليقة ممثلة في الساعة البيولوجية

ويضعنا ذلك، مباشرة، مع الكون كله، في "وحدة خليقة"، في خليقة متوحدة مع ذلك النظام المتعاقب الذي يحكم الكون..

الساعة البيولوجية لأي فرد منا، بل لأي طحلب، تربطه،

دون وعي منا، أو من الطحلب! بالساعة الكونية الكبرى التي تضم العالم بأسره.. وهي الساعة التي يكون تعاقب الضوء والظلمة، أو الليل والنهار، فيها، بمثابة البندول الأساسي لاستمرار دورانها.. واستمرار دقاتها..

* * *

أدق عملياتنا الحيوية إذن، موقوتة..

إفراز الهرمونات التي تحفز على النمو.. عمليات بناء الخلايا، وأيضاً هدمها.. عمليات موقوتة.. بمعنى ارتباطها بتعاقب الليل والنهار.

تنظيف الجسم مما تراكم فيه، وإعادة تنظيمه.. عملية موقوتة..

نشاط الدماغ، وحيويته وفعاليته.. عملية موقوتة.. بنفس المعنى.

فإذا كان كل ذلك، بكل ما فيه من معان، إذا كان بناء الخلايا، عملية موقوتة، فكيف لا تكون الصلاة أيضاً كذلك.. الصلاة التي هي عملية نهوض وبناء وتشييد لإنسان ولمجتمع.. لا بد أن تكون أيضاً "موقوتة"..

وكما أن تعاقب الليل والنهار هو "بندول" تلك العمليات الحيوية في داخلنا..

فإن الصلاة، عملية الحياة التي نصنعها، تسير أيضاً خلف البندول ذاته: خلف تعاقب الضوء والظلمة..

فلسفة "الأوقات الخمسة"

ومواقيت الصلوات الخمسة[١]، هي باختصار شديد، علامات (موقوتة) على تتبع ذلك البندول.. وتفاعل مستمر مع حالتي الضوء والظلمة، والحالة التي هي بين الضوء وبين الظلمة: الظل..

قد نعتقد أحياناً أن الحد بين الظلمة والضوء حد فاصل وواضح، وأن صلواتنا تبدأ قبل الضوء بقليل (الفجر)، لتنتهي بعد هبوط الظلمة بقليل (العشاء)..

لا، الأمر أعقد بكثير، وفي تفاصيله توجد حكاية من حكايات النوع البشري في مطاردته للضوء.. وفي الإمساك به أحياناً، وتركه يفلت أحياناً أخرى..

الأوقات الخمسة أعمق بكثير مما نظن، وخلف كل وقت من هذه الأوقات، توجد ملحمة من ملاحم الإنسان، وهو يصنع حياته..

* * *

الفجر، فيزيائياً، هو الانتقال من منطقة الظل التام -

(١) لست ممن يتصورون أن الأوقات الخمسة للصلاة لا دليل عليها في القرآن الكريم وإنما فقط في السنة النبوية المطهرة. صحيح أن وجود ذلك في السنة الصحيحة المتواترة كاف عملياً، لكن وجود آيتين تخاطبان الجيل الأول بأقم الصلاة- و في الفترة المكية اللاحقة للإسراء - و هو الوقت الذي فرضت فيه الصلوات الخمس يعطينا معاني وآفاقاً جديدة عن الموضوع. الآيتان هما ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨]- و ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١/١١٤].

(الظلمة التامة) إلى منطقة شبه الظل.. وفيها نجد الشفق الأبيض، ونجد فيها خيطين: خيطاً أبيض وخيطاً أسود..

كم يشبه ذلك ما نقابله في حياتنا.. عندما تتشابك الأمور و تتشابه، يصير من الصعب التمييز بين ما هو أبيض وما هو أسود، إلا بصعوبة شديدة، كم يشبه ذلك ما نمر به من ظلمات، واحدة تلو أخرى، ويكون بينها أحياناً ظلمة أقل، شبه ظل، لكننا نعجز عن تصور أن تلك الظلمة الأقل، يمكن أن تفتح الباب نحو الضوء..

صلاة الفجر، قبل الضوء، بين الظلمة والظل، تمسكٌ ويقين بأن الضوء لابد طالع..

وأن الظلمة، ذلك الظل التام، الذي تتشابه فيه الأشياء، وتضيع فيه التفاصيل، لا بد زائلة..

الفجر، ترقب للضوء الذي لن يشرق فحسب.. بل سينبع من الداخل، ما دام الكون وحدة واحدة، متصلة مع بعضها بعضاً..

* * *

الظهر، فيزيائياً، هو منطقة الضوء التام.. إنه وقت الزوال، حيث لا ظل هناك.. حيث الشمس في أعلى نقطة لها في السماء.. ويذكرك ذلك بهدفك في الحياة، أن تكون في أعلى نقطة، وأن تتوحد أنت وظلك فيها..

ولن يكون مصادفة أن يحدث ذلك في الوقت الذي تكون فيه أنت (بيولوجياً) في ذروة نشاطك..

العصر، هو الطرف الآخر المقابل للفجر، فبينما كان الفجر انتقالاً من الظل التام إلى شبه الظل، فإن العصر هو الانتقال من (الضوء التام) إلى شبه الضوء.. وهذا يعني أن الضوء صار يخالطه شيء من شبه الضوء، وأنه لم يعد تاماً، وأن الوهج قلَّ، وأن القمة لم تعد قمة.. وإنما هبطت عن الذروة، خطوة، تلو خطوة..

ربما هذا يحدث، لكننا ربما كنا نحتاجه، ربما كنا نحتاج أن يخف الضوء قليلاً بعد وهج الشمس القائمة، ربما كنا نحتاج إلى الانسحاب إلى ضوء أقل للاستراحة، للتقييم..

ربما كان ذلك هبوطاً، ربما كان انحساراً للضوء، ربما هو الإنسان الذي لا يستطيع المحافظة على القمة، الإنسان الذي هو "في خسر"... وربما كان ذلك مجرد مرحلة انتقالية، يستطيع "الذين آمنوا" أن يمروا من خلالها إلى أفق أفضل..

أيّاً كان، إنه العصر، والضوء لم يعد ضوءاً تاماً، بل خالطه شيء.. وها أنت ذا تقيم صلاتك على هذه النقطة الانتقالية بالضبط.. لتحدث خرقاً في جدار الكون.. وتثبت أنك جزءٌ منه، وأن وعيك بما يدور سيجعلك قادراً على المضي قدماً..

* * *

.. ثم يأتي الأفول..

يأتي الانتقال ممّا هو شبيه بالضوء إلى ما هو شبيه

بالظل.. ذهب الضوء إذن، وما نراه لم يعد سوى بقايا ضوء منحسر، وبداية الظل.. إنه الغروب.

إنه القانون المحتم الأكيد الذي لا بد أن يسود.. قانون الأفول.. مهما علا شيء، مهما زها، مهما وصل إلى أعلى القمم، فهو لا بد زائل.. سواء كان فرداً أم فكرة.. أم حضارة.. لا بد أن يهبط.. لا بد أن يأتي عليه أوان الأفول..

عند تلك النقطة، والضوء قد أعلن هزيمته، ورفع رايته البيضاء، ستجد نفسك تترك علامة على هذه النقطة بالذات، وعند هذه النقطة، ستسجد لمن لا يأفل أبداً، لمن وضع قانون الأفول..

* * *

ثم جاء الليل..

إنه الظل التام هذه المرّة.. لا شبه ولا ضوء.. كما كانت الحقيقة ساطعة في الضوء التام، فالظلمة أيضاً صارخة في الظل التام الذي يلف عالمك ومحيطك..

وعلى الرغم من هذه الظلمة، وعلى الرغم من هذا الظل التام، فإن الرؤية قد تكون أفضل وأوضح، لقد انسحبت الآن من المشهد، نحو الظل، وهناك صار بإمكانك أن تراقب كل ما جرى، كل ما دار.. هناك، في ذلك الظل التام، ستستطيع أن تحتفظ بمسافة ما عن الأشياء، ومن خلال هذه المسافة ستعيد النظر.. وهناك، في الظل التام، ستعرف أن كل ما جرى كان محض جولة،

وأن فجراً آخر، سينبعث من عمق العتمة.. ويبدأ جولة جديدة..

من هذه الحقيقة، تحت جناح الظلام المخيم، وأنت تنتظر فجراً آخرَ يخرجك من العتمة، وتعبر به نحو الضوء.. ستصلي ..**وستكون صلاتك هنا "ضوءاً في الظلمة"..**

حكايتنا مع الضوء والظل..

حكاية الضوء والظل هذه، التي نصلي عند تبدلاتها، هي حكايتنا جميعاً، منذ أن نخرج من ظلمة الرحم، ونواجه الضوء، ونحن نتنقل بين الظلمة والضوء، ظلمة من بعد ظلمة، وضوءاً من بعد ضوء..

بعض الناس- كالخفافيش- يصرون على الظلمة.. يتقصونها.. هل يخافون الضوء؟.. هل يتصورون أنهم لن يتمكنوا من العيش فيه؟

بعض الناس يصرون على العيش في الظل.. ظل فكرة أخرى.. ظل شخص آخر.. ظل حائط آخر.. إنهم لا يتصورون إمكانية أن يكون لهم ظلهم الخاص بهم.. لذا هم دوماً مجرد ظل..

بعض الناس يتوهمون أن البريق اللامع هو الضوء.. لذا يتبعونه ويتابعونه ولو كان برقاً خاطفاً..

بعض الناس، يصرون على ألا يروا الضوء.. إنه "العمى" الاختياري الذي يجعلهم غير قادرين على الفرز، على تحسس الضوء..

وبعض الناس، تكون حياتهم كلها رحلة ضوء، يضيئون لمن حولهم، أحياناً بفكرة، أحياناً بجملة عابرة، أحياناً برغيف خبز.. وأحياناً بكتاب..

الضوء، والظلمة، والظل بينهما، ثلاث نقاط، نقضي حياتنا بينها..

* * *

ومن أهم ما نخرج به من ذلك الكتاب الموقوت، هو أن الضوء دوماً هناك، إنما موقعنا هو الذي يتغير، الظل والظلمة هما نتاج لابتعادنا عن مصدر الضوء..

الضوء الحقيقي، لا يأفل..

إنما نحن الذين نأفل عنه..

* * *

وفي ذلك الكتاب الموقوت، نستطيع أن نتوحد مع الكون بأسره، لكنه توحد يتم طوعاً وبإرادتنا، كل الأجرام والكواكب والنجوم تنتظم في حركتها ومواعيد حركتها دون أي قدرة على تغييرها، مثل مواعيد مسبقة لقطارات يتم تسييرها آلياً ودونما أي إمكانية للتغيير..

أما نحن، فننتظم، عبر الصلاة الموقوتة، في أوقات مرتبطة بحركة الكون، عبر تعاقب الضوء والظلمة، بملء إرادتنا.. بوعينا المسبق.. نسجل حضورنا اليومي - خمس مرات - في مهرجان التوحد مع الكون والخليقة..

الكورتيزون والأدرينالين في أجسامنا - وسواهما - يتأثران فعلاً بتعاقب الضوء والظلمة، وكذلك نشاط أدمغتنا.. لكن تلك الساعة البيولوجية تعمل بشكل لا إرادي، تتساوى فيها مع الزواحف وبقية الحيوانات.. أما الصلاة الموقوتة فهي تميز النوع الإنساني.. إنه وحده يستطيع أن يتحد بملكوت السماوات والأرض بملء إرادته..

* * *

الآن، أفهم حقاً، لِمَ الصلاة على وقتها، هي أفضل الأعمال..



الفصل الثالث

الوضوء: ومن الماء تتدفق الحياة..

ولأن الصلاة هي دعوة إلى الحياة، وإلى إعادة الحياة، إلى بعثها، فإن ذلك لا بد أن يبدأ بالماء، الماء الذي هو أكثر من جزيئتي هيدروجين وجزيئة أوكسجين..

الماء هو ذلك طبعاً، وهو وسيلة "تنظيف مباشرة"، لكنه أيضاً: الماء - رمز الحياة.. بكل ما يحتوي ذلك الرمز من عمق مرتبط بأقدم التجارب الإنسانية وأعرقها.. الماء الذي خلقنا منه، والذي أقيمت عليه أولى الحضارات الإنسانية، والذي يحيي الأرض بعد موتها، يمكنه أيضاً أن يساهم في إحيائنا من جديد، عندما نقوم إلى الصلاة، عندما نفهم من الصلاة أنها يجب أن تجعلنا نقوم، فإن الوضوء هنا سيكون أكثر من مجرد النظافة بمعناها الحرفي، أكثر من كونه تنشيطاً للدورة الدموية، بل سيأخذ معاني أعمق ولذلك فهي أكثر خفاء.. إنه هنا الماء الذي ينزل على أرض لهفى للإنتاج، هي أنت، أرض ملت بوارَها وقحطَها، وصارت تتشوق للماء كي تكسر حاجز الموت..

قبل قليل كان النداء: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، وها هو ذا الماء يأتي ليلبي، ليشارك - كما هو دوماً - في عملية صنع الحياة.. ها هو ذا الماء يأتي ليشارك في الفلاح.. يتفاعل مع أرض هي أنت، يفلحها ليشارك في عملية الفلاح.. التي لا بد أن تؤدي إلى الإثمار.. والحصاد.. لاحقاً..

* * *

ها هو ذا الماء يجلو عنك الصدأ، يجعلك مستعداً للمهمة التي أنت مقبل عليها، لا، ليس ملاقاته عز وجل فحسب، بل للمهمة التي وضعك عز وجل من أجلها هنا على هذه الأرض..

مهمة تغيير العالم..

* * *

وفي كل "تدريب" بدني تقوم فيه، فإنك تغتسل بعد أن تنهي تدريبك..

أما الآن، فأنت في دورة تدريبية خاصة جداً، والماء تحتاج إليه قبل أن تدخلها، وليس "بعد"، ربما لأنك تحتاج فيها إلى أكثر من بدنك، ربما لأن كل مسامة من مساماتك يجب أن تشارك في الأمر.. ربما لأن الماء - بصفته أساس كل حياة - سيقدح شرارة الحياة في أعماقك.. سيهز تلك النفخة الإلهية الملقبة بالروح، التي لا تزال تحملها معك حيث كنت..

"وجوهكم، أيديكم، رؤوسكم، أرجلكم".. هكذا تتحدد الأعضاء المشمولة بالوضوء.. ولكل عضو حكايته ورمزه ومعناه..

فالوجه ليس مجرد وجه، إنه الوجهة بأسرها، إنه ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٦/٧٩] - إنه الوجه الإبراهيمي الذي بحث عن الحقيقة، ورفض كل المكرسات، واستقر متوجهاً نحو ذاك الخالق المتعالي عن كل جهة..

والرأس ليس صندوقاً نحمله فوق أكتافنا؛ إنه أيضاً، الصندوق الذي نحمل فيه أفكارنا وتفاعلاتنا وتراثنا، وأحلامنا وآمالنا وطموحاتنا..

والأيدي هي بالتأكيد أعضاء ستحتاج إليها في مهمتك، مهمة بناء العالم.. ستشمر عن يديك إلى مرفقيك، وتساهم فيما جئت أصلاً من أجله..

والأرجل ستخوض أيضاً في المهمة، ستحفر في الأساس، ستكون قد هبطت لتشارك في رفع القواعد..

وضوء للحضارة الأولى

أب وابنه، شمرا عن سواعدهما، غاصت أيديهما وأرجلهما في الطين، الشمس ساطعة والحر لاهب، وهما وحيدان، دون مساعدة من أحد، العرق يتصبب من جبينهما ويختلط بالطين الذي فيه يبنيان..

ماذا يبنيان؟ إنهما يبنيان بيتاً، لكنه ليس بيتاً خاصاً

لهما، بل هو بيت بخصوصية كبيرة، إنه بيت للناس أجمعين.. لكنه بيت الله.. الذي بمكة..

إنه إبراهيم، وابنه.. وتلك الأيدي والأرجل الممتزجة بالطين وعرق البناء كانت تضع أسس تلك الحضارة الأخرى..

لعلهم التفتوا يومها إلى ذلك البئر، واغتسلوا فيه من عرق البناء وطين الفلاح.. وامتزج ذلك كله مع الماء في البئر..

ولعل ذلك كان السبب في القداسة التي صارت لزمزم..

لأن فيه توضأ إبراهيم وابنه، عندما كانا يضعان أسس وقواعد تلك الحضارة الأخرى..

حضارة لا إله إلا الله..



الفصل الرابع

القبلة: العودة إلى البيت..!

.. لو قيل لك أن تختار مكاناً واحداً فقط، يكون هو المكان الذي تروم الذهاب له، وكان سؤالك بهذا بطريقة غير مباشرة، دون إيحاء بجواب معين، فلربما فكرت في منتجع ما، على بحيرة هادئة وغابات شديدة الخضرة، ربما لم تزر المكان أصلاً، لكن راودتك دوماً أحلام زيارته.. فما بالك أن تسكن فيه؟..

* * *

هناك مكان واحد فعلاً، هو الذي "يجب" أن نتجه إليه عندما نقف على مفترقات الطرق..

ونحن نفعل ذلك فعلاً، دون أن نقصد هذا كله.. نفعله بميكانيكية دون أن نسكنه في معناه والمقصد منه.. نقف على سجادة الصلاة.. نحو موضع معين، هو موضع "القبلة" دون أن نفكر أنها المرفأ، البر، الطريق الذي يشق كل تفرعات الدهاليز، ويأخذك إلى حيث يجب أن تذهب..

* * *

القِبلة: هي ناحية الصلاة..

وليس غريباً أبداً، أن يكون الاتجاه عند الصلاة.. إلى هناك، إلى حيث الكعبة..

فهناك، بذر إبراهيم بذرة ذلك المجتمع الذي أقيم على إقامة الصلاة..

وهناك، أقيمت الصلاة للمرة الأولى..

وهناك، قام إبراهيم ينادي الناس إلى الصلاة، للمرة الأولى..

ليس غريباً إذن، أن نتجه إلى هناك..

الغريب جداً هو ألا نفهم من هذا المكان غير خطي الطول والعرض اللذين يحددانه.. ونترك ما هو أهم من الطول والعرض.. نترك "العمق" المتضمن فيه.. و "الارتفاع" الذي يمكن أن نطاله، فيما لو فهمنا أكثر من مجرد الطول والعرض..

القبلة: اتجاه الحضارة البديلة

بين خطي الطول والعرض، هناك حكاية تختصر سعي البشرية إلى البحث عن خيار آخر، يعوض إحباطاتها وفشلها المتكرر في كل حضاراتها..

بين خطي الطول والعرض، هناك عمق يضم حكاية خطوط طول وعرض أخرى، فيها مراكز حضارية مهمة، وعمران عظيم، وجنات وعيون، ولكن كل ذلك لم يسد الحاجة إلى "شيء ما" في نفس الإنسان في داخل تلك المراكز الحضارية..

نقطة الطول والعرض التي تحدد "اتجاه الصلاة"، تشير ضمناً إلى نقاط أخرى، جال فيها إبراهيم، واستكشف قوتها وضعفها، بالطول وبالعرض، واكتشف فيها تطاول البنيان، وتمزق الإنسان..

وقاده ذلك التجوال والاكتشاف والرفض، إلى أن يحط رحاله في نقطة أخرى، يلتقي فيها الطول والعرض، جغرافياً، ولكن يلتقي فيها ما هو أهم: تلتقي فيها متطلبات الإنسان وحاجاته، مع الأسس التي يقام عليها هذا المجتمع؛ مجتمع الطول والعرض، والعمق والارتفاع..

مكان في الغد

ذلك "المكان" الذي نتجه إليه عند الصلاة، هو أكثر من مجرد "مكان"، إنه يضم كل "ما كان"، منذ أن بدأ إبراهيم رحلته تلك، ليرفع قواعد حضارة لا إله إلا الله، إلى أن أرسيت تلك الحضارة وشمخت على يدي خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام..

وذلك المكان، ما دمنا نتجه إليه، يحتوي أيضاً على كل ما سيكون.. على كل ما يمكن أن يكون، عندما نحيي تلك المعاني، عندما نشعر بها، ونحن نقف بذلك الاتجاه..

إنه المكان الذي هو أكثر من مجرد مكان.. بل هو مكان محمل بالرموز والمعاني، كامن بالإمكانات المتاحة؛ التي كل فرد منا، ما دام يقف بذلك الاتجاه، هو جزء منها..

و "المكان"، لا يشبه مكاناً راودتك أحلامك عليه.. لا

جبال خضراء هناك، ولا بحيرة رائقة.. على العكس، هنا جبال جرداء، وواد غير ذي زرع.. لكن هذا ليس مجرد تفصيل غير مهم، بل هو في غاية الأهمية - إنك تتجه إلى مكان، لم يكن فيه، عملياً ونظرياً، أي شيء مما يمكن أن يجمع الناس عليه، وهم يشكلون تجمعاتهم ويبغون مراكز عمرانهم وحضاراتهم، ليس فيه حوض من أحواض الأنهار أو مرفأ بحري أو غاية كتلك التي قامت عليها الحضارات آنذاك..

كان ذلك مقصوداً حتماً، إنها الحضارة التي تبدأ من نقطة خالصة لما ترتكز عليه.. الحضارة التي حجرها الأساس ليس مورداً اقتصادياً، ليس تجمعاً من أجل ذلك المورد، بل حجرها الأساس "حجر أسود" لا يشبه ما سواه من أحجار بنيت عليها الحضارات الأخرى، لأنه "حجر أسود" يرمز لقيم السماء، وقد وضع ليكون ركيزة لحضارة أرضية متوازنة..

نفي كل ما لا ينتمي لقيم السماء لا يعني عداءً وإقصاءً للموارد الاقتصادية أو لمرتكزات الحضارات الأخرى بالذات.. فذلك يعني أن تلك الحضارة لن تتقدم صوب الواقع وملكوته، لكنه رفض لأن تكون تلك هي المرتكز، وهي الحجر الذي تقام عليه الحضارة؛ إنه إسكان لهذه الموارد في موضع الوسائل لا الغايات، وفي موضع المعايش لا القيم..

وهذا كله متضمن في معاني اتجاهنا إلى هناك..

مع أننا، ربما لا ننتبه لكل هذا..

ربما ؟..

* * *

ولم يكن ذلك "المكان" خياراً عبثياً، توصل إليه إبراهيم، بعدما يئس من الحضارات الأخرى وإمكانية إصلاحها.. لم يكن مجرد مكان آخر.. استقر فيه بعد أن تقطعت فيه السبل.. لقد كان مكاناً بوأه الله عز وجل لإبراهيم ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي﴾ [الحج: ٢٢/٢٦]..

مكان البيت، جعل الله إبراهيم (يتخذه) - قبل أن يكون البيت.. كان مكاناً للبيت، قبل أن يكون البيت وترتفع قواعده وأسسه..

لقد حدد الله عز وجل مكان البيت..

وبحث عنه إبراهيم.. ووجده..

الحجر الأسود: حجر أساس للحضارة البديلة

كل الحضارات الأخرى، (والأمر لا يزال ساري المفعول)، كانت لا بد قائمة على مكرسات وماديات لا بد أن تؤدي إلى الظلم؛ سواء كان هذا الظلم تظالماً داخلياً داخل بنية كل حضارة، حيث تظلم طبقة أخرى، أم كان ظلماً خارجياً من أمة إلى أمة أخرى، أم كان مزيجاً مركباً من الظلمين..

ما دام الحجر الأساس الذي تقوم عليه الحضارة حجراً

آخر غير الحجر الأسود القادم من قيم السماء، فإن الظلم سينتج عنه ولا بد، مهما كانت الشعارات المرفوعة إنسانية وتتغنى بالحرية للشعوب.. ولأن قانون الفعل ورد الفعل ساري المفعول أيضاً، فإن ذلك الظلم الذي قد يختلط بالدم لا بد أن ينتج رد فعل مختلطاً بالدم..

وهكذا، فإن كل الحضارات الأخرى، عبر التاريخ والحاضر وأيضاً عبر المستقبل، سيكون "الدم" ميزة ملازمة لها، كنتيجة لقانون لا يمكن الفكاك منه.. كمتتالية سببية لا يمكن النفاذ منها: عندما يكون التحكيم لقيم أخرى غير قيم السماء، يكون الظلم أو التظالم، ويسفك الدم كنتيجة تصدق قول الملائكة الذين اعترضوا على جعل الإنسان خليفة في الأرض..

والدم فيه حرام...

المكان الرمز للحضارة الأخرى، الحضارة البديلة، ينفي "الدم" كله..

فالدم فيه حرام، ولقد ارتبط ذلك منذ البداية قديماً حتى صار اسمه البيت الحرام..

إنه حرام، فالدم فيه "حرام" ليس لأنه ممنوع في أرجائه فقط، وليس لأنه نتاج لدعوة "لا عنف" تجافي الواقع ومعطياته، بل هو "البيت الحرام"، لأن أسسه قامت على تجفيف منابع الظلم والتظالم؛ فحرمة الدم فيه هي النتيجة النهائية المبنية على القواعد والأسس التي تقوم

عليها حضارة لا إله إلا الله، وليست قراراً (سلبياً) يتخذ لأي سبب.. بل إن الوصول إلى تلك الحضارة، حضارة لا إله إلا الله حيث إن الدم حرام لأن منابع الظلم قد جففت، قد يتطلب أن يهرق الدم، أحياناً يكون دم الظالم، وأحياناً يكون دم من يعبد الطريق لتلك الحضارة..

لكن الهدف النهائي، حيث المرفأ، حيث البر، هو ذلك المكان الذي بوأه الله لإبراهيم، حيث الدم حرام.. حيث يأمن الإنسان..

* * *

وكان ذلك هو السبب، في أن ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

فالمثابة هي المكان الذي يثاب إليه، المرجع، والبيت، ضمن هذا المفهوم الواسع، مفهوم الحضارة الأخرى، هو فعلاً المرجع، الذي يرجع إليه دوماً لتقييم الحضارات والتجارب الأخرى، وهو الذي يرجع إليه، بعد أن تثبت تلك الحضارات إفلاس شعاراتها، ويظهر ظلمها، الملطخ بالدم..

والأمن: هو ذلك الأمن الناتج عن **تجفيف منابع الظلم**، عن **إلغاء أسباب الجريمة والتظالم**، ليس الأمن الناتج عن زيادة عدد الحراس، وتشديد العقوبات، وتحديث أجهزة الإنذار، بل هو الأمن الناتج عن التوازن، عن العدل، عن سد الحاجات الأساسية..

الحنين إلى بيتك الأول..

ولأن الأصل في هذا العالم هو العدل والتوازن، فإن هذا البيت - الذي هو انعكاس لهذا العالم المتوازن والمبني على التوازن - سيبدو قديماً وموغلاً في القدم.. كما لو أنه أول بيت سكنه إنسان..

ليس "كما لو"؛ بل إنه فعلاً أول بيت..

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦]..

فلنتنبه، إنه وضع للناس، مع أنه بيته هو، عز وجل..

ليس بحاجة إلى بيت، هو، جل وعلا.. لكن بيته وضع للناس، من أجل أن يكون مرجعاً لهم.. وأمناً..

ولأنه "أول بيت"، فإن انشدادنا نحوه، يشبه انشدادنا نحو بيتنا الأول، نحو البيت الذي شهد طفولتنا الأولى، في ذكريات عائمة بين الوعي والخيال.. بكل ما يعني ذلك من حنين نحو ذلك البيت.. لعل ذلك هو المقصود بالبيت العتيق..

* * *

كل ذلك، متضمن، في اتجاهنا في الصلاة.. نحو هذه الجهة بالذات..

إننا نصلي لله، الذي لا يحده مكان ولا يمكن أن يفهم من خلال الجهات، ولكن تعبدنا له عز وجل لا بد أن يمر بهذا الاتجاه، بهذا الطريق، بطريق تكوين تلك الحضارة الأخرى..

كما لو أن صلاتنا هي تعبيد لذلك الطريق..

(كما لو)؟، بلى، بل إنها فعلاً تعبيد لذلك الطريق..

إنها فعلاً، من أجل تغيير العالم..

لو أننا فهمناها، كما فهمها أشخاص، مثل عمر بن الخطاب، مثلاً..

التكامل بين أبي الأنبياء وسيد الخلق

وفي هذا الاتجاه، الذي نتجه نحوه في أثناء الصلاة، تلتقي وتلتحم التجربتان الرائدتان، الإبراهيمية والمحمدية، بطريقة أهم من التقاء خط الطول مع خط العرض، والعمق مع الارتفاع..

فكما دارَ إبراهيم وبحث إلى أن وصل إلى ذلك المكان، فكذلك تقلب وجهه الشريف، عليه الصلاة والسلام، وهو يبحث عن القبلة..

تلتقي التجربتان، وتلتحمان، وتتكاملان،كما دوماً، عند هذه النقطة: ليس نقطة الجغرافية، بل نقطة التقلب ثم الوصول، نقطة البحث، نقطة التبوُّء، ونقطة التولي..

وبين الإقبال، والقبول..

ومن خلال ذلك كله، ومن أجل ذلك كله، كل ما يحتويه ويتضمنه "المكان" من معاني التوازن والعدل، فإن شعور "الرضا" سينبع من أعماق النفس.."قبلة ترضاها"

بعد القبول، يأتي الرضا..

القبلة بين النموذجين

وبين التبوُّؤ الإبراهيمي للبيت الحرام، وتولية وجه محمد عليه الصلاة والسلام صوب المسجد الحرام، فرق ومعنى لهذا الفرق..

فالتجربة الإبراهيمية اتخذت البيت الحرام "مسكناً" وتماهت معه، أما النسخة المحمدية، ولأنها الخاتمة، فهي تولي وجهها شطر الكعبة، ولا تسكن فيها، بعبارة أخرى، إن التجربة الإبراهيمية تماهت مع الكعبة في مركز الدائرة، أما التجربة المحمدية فقد رسمت دوائرَ أوسع حول مركز الدائرة، منذ لحظتها الأولى، لأن قدرها أن تنتشر في الأرض، دون أن تنسى أن لها وجهة محددة، لها ثابت يحدد موقعها، ومكانتها بقدر ما تكون ممتثلة لهذا الثابت.

نقطة في وسط دائرة، هي البيت الحرام.. أما حدود الدائرة، فهي غير محسومة.. تمد بقيام الحضارة، حضارة لا إله إلا الله، وتجزر بانحسارها، وتضمحل، لتبقى النقطة وحدها، عندما يكون الجيل أقل من أن يتحمل مسؤولية تلك الدائرة.. مسؤولية حضارة السجود.

لماذا "ثاني القبلتين"؟

لكن السؤال هنا، والآن كما آنذاك: لماذا أصلاً كانت هناك "قبلة أولى"، لماذا لم يحسم الأمر منذ البدء بالاتجاه إلى البيت الحرام..؟ لماذا كانت هناك بضع سنين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى؟.. وهو الأمر الذي

فتح باب الغمز واللمز ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ٢/١٤٢]

فبالنسبة إلى السفهاء الذين لا يستخدمون عقولهم أو لا يملكونها أصلاً، وهم ظاهرة تاريخية موجودة في كل العصور ولا يختصون بعصر النبي عليه الصلاة والسلام - هؤلاء يتصورون أن مجرد كونهم (كانوا عليها) سبب كافٍ للاستمرار في ذلك، لا تصور عندهم لإمكانية وجود شيء أفضل.. فكل شيء "مكرس" وكل أمر "مستقر" يحمل في نظرهم القاصر سبب استمراره واستقراره.

لذلك كان تحويل القبلة - وجعلها في المقام الأول نحو المسجد الأقصى - نسفاً لنمط الاستقرار في التفكير.. الذي لا ينتج غير "الجمود على الموجود"، ويطلق هذا النسف نمطاً بديلاً للتفكير يكون مستعداً لتحمل "أقصى البدائل" ما دامت قد أثبتت الأصح.. وأنها الأكمل.. وأنها الأكثر صلاحاً..

* * *

فهل يعني هذا، أن علينا أن نبدل "القبلة" - بين الحين والآخر - لكي ننسف نمط التفكير الذي ينتج الجمود على الموجود؟..

بالطبع لا، فمجرد الوعي بحكمة هذا الانتقال، وبأهميته على صعيد تكوين نمط التفكير الجديد، فإن ذلك يكون بديلاً عن الانتقال من قبلة إلى أخرى..

أما إن فُقِد ذلك الوعي، فلا فائدة من كل ذلك، سيكون انتقال القبلة مجرد تجربة تاريخية حصلت وانتهت ولا تفاعل جدلي لها مع حاضرنا المعاصر.. بل مع أي تجربة أخرى خارج النطاق التاريخي لحدوثها..

* * *

وتحويل القبلة، يتضمن أيضاً "فك ارتباط" مزدوجاً، وليس مفرداً.. فالاتجاه إلى المسجد الأقصى، كان يشمل فك ارتباط مع "البيت الحرام" حيث كان عرب الجاهلية يمجدون البيت الحرام ويعظمونه ويتجهون في صلاتهم إليه، بكل الأوثان التي حشدوها فيه..

لم يكن من الممكن فهم المعنى الحقيقي للبيت الحرام، للمسجد الحرام، إلا بعد "تجريده" من كل ما أحيط به من مفاهيم جاهلية وثنية، ولم يكن ممكناً إنجاز ذلك إلا عبر إحداث "قطيعة" مع المكان كله.. باتجاه المسجد الأقصى، الذي كان أقرب إلى المفهوم التوحيدي، إذا قارناه بالانحرافات الوثنية التي كانت تعج بها الكعبة..

* * *

من جهة أخرى، كان الارتباط بالمسجد الأقصى، يمثل انسلاخاً من المنظومة الجاهلية نحو منظومة كتابية كان العرب يرفضونها جملةً وتفصيلاً.. وكان الانضمام لها يلغي بقية الروابط العشائرية والقبلية التي يمكن أن تمارس تأثيراً على الفرد الجديد، لكن القبلة التي يتجه لها في صلاته تلغي ذلك، بل تنسفه نسفاً، وتجعله يرتبط بمفهوم

آخر من مفهومي القبيلة والعشيرة، مفهوم الأمة، الإيمان، العقيدة..

وكلها أمور (مجردة) ما كان للفرد الذي نشأ في قفص العشيرة أن يفهمها..

ليس البر أن تقزموا المعاني

لكن في سورة البقرة نفسها، التي نقلت لنا حكاية القبلة وتحديدها، هناك توضيح مهم جداً، لمفهوم القبلة والمقصود منها ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢/١٧٧].

الآن أفهم، إن قصر القبلة على جانبها الجغرافي هو الخطأ، هو الذي تنفيه وتنهى عنه الآية..

فالقبلة، ليست مشرقاً ومغرباً، إنها بالتأكيد ليست مجرد جهة جغرافية، وقصرها على ذلك، يشبه اختصار التجربة الإبراهيمية بتتبع المسار الجغرافي لرحلة إبراهيم معزولة عن المغزى في تنقله بين مركز الحضارات، ورفضه لأسسها ونتائجها، ووصوله إلى تلك النقطة التي يرسي فيها قواعد البيت المختلف، نواة الحضارة الأخرى.. إنها -بالإضافة إلى ذلك - القيم المرتبطة بتلك الرحلة، قيم الإيمان بكل أبعادها، النفسية والاجتماعية والحضارية..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]..أي تركيز على القبلة، دون الإحاطة والتعمق في

منظومة المفاهيم التي تعنيها، سيكون محض تقزيم جغرافي، لمعان عملاقة، كانت الجغرافية محض وعاء لها..

هل يمكن حقاً الإفادة من وعاء الدواء، إذا كان الدواء قد نفد؟..

هذا ما يحدث، عندما نفرغ المعنى من قوالب الأركان..

القبلة من أجل أن تنهض أنت

كل ذلك من أجل ماذا؟..

ما الذي يهدف له في النهاية؟.. ما المقصد منه..؟

إننا نصلي بهذا الاتجاه، وهو اتجاه الرحلة الإبراهيمية التي جعلت من الكعبة - البيت الحرام، أساساً وقاعدةً لبناء حضارة مختلفة..

لكن، وراء ذلك كله، وراء اختيار "المكان" - "الاتجاه" قبلة لصلاتنا، هناك ربما هدف، يوضح هذا كله أكثر.. ويعمقه..

وراء ذلك الرمز، الذي يضم كل تلك المعاني، هناك هدف، هو المقصد الأساسي من الأمر كله..

مقصد من القبلة؟.. (جديدة هذه.. سيقولون).

نعم، مقصد من القبلة..

ما هو ؟..

أن ننهض.. أن نقوم.. أن ننفض غبار السبات عن عقولنا ورؤوسنا وأفكارنا.. أن نتحرك صوب نهضةٍ ما.. أن نقوم

بفعل النهوض.. أن نستلهم من ذلك "المكان" كل المعاني من أجل أن نساهم في بناء حضارة على القواعد والأسس ذاتها التي رفع فيها البيت هناك..

أن نقوم مما نحن فيه.. نحو ما نستحق أن نكون..

(حسناً، كلام جميل، لكن من أين جئت بهذا؟..)

من القرآن.. ليس من مصدر آخر.. بل ليس هناك من مصدر آخر يمكنه أن يوضح لنا ذلك أو يشرح لنا ما يجب أن يكون..

من القرآن..

أين؟ ..﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٩٧].

من أجل هذا، من أجل أن يقوم الناس، جعل الله الكعبة، جعل البيت الحرام.. من أجل أن يقوم الناس..

يقومون مم؟.. وإلى أين؟..

يقومون من كل ما هو عكس القيام.. يقومون من الركود.. من السبات.. من الحضيض.. من إمكانية النزول إلى القاع..

إلى أين؟.. إلى النهوض.. إلى بناء تلك الحضارة، التي خلقنا أصلاً من أجل أن نضع ولو حجراً واحداً في بنيانها.

القيام هو النهوض، هو النهضة، وقد جعل الله البيت الحرام (قياماً) للناس، أي سبباً في نهوضهم، في جعلهم

يعون أنهم جزء من مسيرة تاريخية لم تبدأ منذ ولادتهم، ولن تنتهيَ عند موتهم، والمهم في الفترة ما بين الولادة والممات هو الإضافة التي ننجزها لتلك المسيرة..

البيت المعمور.. والسقف المرفوع

وينسجم ذلك، في إعجاز قرآني غير مستغرب، مع تسمية البيت بـ "البيت المعمور"..

فالبيت هنا معمور دوماً.. كما لو أنه في عملية إعمار وإعادة إعمار مستمرة.. أي بيت هذا الذي يكون هكذا.. إنه البيت الرمز لهذه الحضارة.. حضارة الإعمار الدائم..

ومن الذي يعمر البيت؟.. إنهم كما توضح آية أخرى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٩/١٨].

فالإعمار هو أولاً الامتلاء بالقيم واتخاذها منطلقاً للبناء.. لا أن يكون بناء مجرداً عن القيم..مجرد تطاول في البنيان..

ومن يفعل ذلك؟.. من يعمر البيت غير أصحاب ذلك السقف المرتفع في القيم والمبادئ والإيمان..

أصحاب "السقف المرفوع"...

اتجاهك للبيت، عند الصلاة، يفترض أن يحتوي على كل ذلك..

معنى البيت.. ومعنى السقف المرفوع.. حيث السماء

وحدها هي الحد لطموحك وإيمانك بذاتك... بقدرتك على أن تكون ما خلقت من أجله..

عدم الالتفات إلى معاني القبلة، يشبه تفريغها إلى محض "مشرق" أو "مغرب" وقتل فاعليتها الأساسية - وهدفها الأساسي منها: أن تكون "قياماً"..

كل ذلك، يجب أن يمر بسرعة البرق، وبفاعلية الكهرباء، وهما يمران وينيران ويغيران، في بالنا ونحن نتجه إلى القبلة.

شيء من هذا، عندما يمر، كل يوم، خمس مرات، فإنه يحدث تأثيراً ولو على المدى البعيد، ولو بالأثر المتراكم..

ويعود (للقبلة) المقصد الأصلي الذي من أجله نتجه إليها..

من أجل أن نقوم..

بعبارة أخرى: من أجل النهضة!..



الفصل الخامس

النية: الركن الذي لا يرى بالعين المجردة

.. يختلف هذا الركن عن سائر الأركان، فإذا كنا نستطيع أن نتحدث عن القبلة، باعتبارها اتجاهاً (على ما في ذلك من تقزيم)، وعن الركوع أو السجود باعتبارهما هيئة أو وضعاً حركياً نتخذه (.. ويحتوي أيضاً على معان عميقة..) إلا أن هذا الركن، لا يتقمص وضعاً جسمانياً، ولا يمكن التعبير عنه بوصفه المباشر..

لكن هذا لن يقلل من أهميته..

على العكس من ذلك، قد يزيدها..

* * *

فالروح أيضاً، لا يمكن أن (تعرَّف) تعريفاً واضحاً، يصفها بشكل مباشر، أو يضعها في قالب جسماني معين..

فهل ذلك يقلل من أهميتها؟..

إنها - رغم عدم خضوعها لتصنيف التعريفات والتوصيفات - الفرق والفيصل بين أن تكون حياً، وأن تكون مجرد جثة هامدة..

بعض الأشياء التي لا ترى، والتي لا تخضع لقالب وشكل مادي، هي الأخطر والأكثر أهمية..

ليس الروح فقط.. مهما كان تعريفها، هذا إن كان لها تعريف على الإطلاق، فهي ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥].. ولكن هناك أيضاً، مما لا يرى ولكن تكون له تأثيرات مهمة، سلباً وإيجاباً.. الكهرباء مثلاً، لا يمكن رؤية إلكتروناتها وهي تسري في السلك الكهربائي لكنها تضيء وتبث الحركة وتقتل أيضاً.

كذلك بعض أنواع الأشعة: تكون غير مرئية.. لكنها تقتل..

* * *

وطبعاً، الأمثال تضرب ولا يقاس عليها.. فالركن الذي نتحدث عنه لا يقتل، لكن اختفاءه - أو غيابه - سيهد الصلاة.. ويهد أي عبادة تخلو منه.. سيقتلها.. ويجعلها مثل هيكل ضخم لكن أساساته من رمل هش..

النية: روح العبادة

عن "النية" طبعاً، نتحدث.. فهي التي تحدد صلاحية العمل، وحيويته، أو موته وانتهاء تاريخ صلاحيته..

النية؛ الركن الأساسي الذي لا يرى بالعين المجردة، ولكن إذا غاب غاب العمل كله.. ولم يبق له وجود حقيقي..

* * *

توصف النية عادة أن مكانها في القلب.. وتحديد الموقع هذا لن يغير كثيراً من الأمر؛ فالقلب نفسه لا يخضع لتعريف مادي واضح، وهو بالتأكيد ليس القلب المضخة العضلية؛ بل ربما يكون القلب بمعنى جوهر المرء، أياً كان موضع هذا الجوهر..

والنية فعلاً مكانها في هذا الجوهر، إنها في أعماق الأعماق.. قد لا تظهر بشكل مادي أو بشكل هيئة؛ لكنها تتحكم في كل الأركان والهيئات الأخرى..

* * *

والخلاف التقليدي، بين المذاهب الفقهية، حول الحاجة إلى التلفظ بالنية "نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات.. إلخ" أو عدم الحاجة إلى ذلك، بل واعتبار الأمر من قبيل الابتداع المنهي عنه عند البعض، هذا الخلاف يعكس صعوبة تحديد النية؛ الأمر الذي جعل البعض يجسدها لغوياً بأحرف وأصوات، لكي يصبح لها "ماهية".

والحقيقة أن الأمر لن يكون باللفظ المجرد. وتحويله إلى أحرف وأصوات، لا يعدو أن يكون محاولة محكومة بالفشل لصيد الحيتان بسنارة السمك.. أو للوصول إلى القمر، عبر طائرة ورقية..

لماذا التركيز على النية؟

لكن السؤال هنا، الذي قد يتبادر إلى الذهن: هو لم التركيز على "النية" أصلاً؟.. لماذا تطلب النية أصلاً

لشخص وقف ليصلي؟.. ما الذي يمكن أن يكون في (نيته) غير الصلاة لله عز وجل؟..

الجواب عن هذا السؤال له مستويان: المستوى الأول، وهو الأقرب إلى ممارستنا اليومية للصلاة، حيث إن الصلاة بتكرارها اليومي، وحركاتها التي تعاد خمس مرات في اليوم، يمكن جداً أن تتحول إلى (عادة) رتيبة، تؤدى دونما إحساس بها، بآلية، كما تؤدي أي عادة، بشكل آلي أوتوماتيكي، كروبوت آلي في مصنع يقوم بأداء ما برمج على أدائه دون أي شعور مصاحب للأداء..

(النية) هي من أجل ذلك.. على الأقل مبدئياً..

النية، هي السور الافتراضي الذي يمكنه، (لو أحسنا استخدامه) أن يحمينا من انزلاق عبادتنا إلى أن تصبح عادة..

النية، تعطي شحنة من المعاني، تبث الحياة، (تخلصنا)، و (تخلص) عبادتنا من مصير العادة..

وهذا، ينقلنا إلى المستوى الثاني من الجواب عن السؤال.. إلى الإخلاص..

* * *

فلنتنبه هنا إلى أن كلمة النية لم ترد أبداً في القرآن الكريم، وإن ورد معناها طبعاً، ولا إشكال في هذا، فلا مشاحة في الاصطلاح، ولكن المصطلح ترسخ وتأصل عبر الحديث المعروف الذي رواه عمر بن الخطاب عن الرسول

عليه أفضل الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات..» الحديث.

أما لفظة الإخلاص ومشتقاتها فقد وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم..

بين التقابل بين اللفظتين، والمعنى المتولد من كل منهما.. سندلف إلى موضع النية، في الأعماق المجهولة التي نادراً ما نرحل إليها.. وإن كانت موجودة فينا..

النية: حالة التحول الدائمة، باتجاه ثابت

النية، في لسان العرب، من القصد والعزم في السفر، أي إنه المكان الذي نقصد السفر إليه - ننوي السفر إليه - وغالباً ما يكون بعيداً، ولذلك فالنوى هو (البعد)..

إنه القصد والمقصد إذن.. وهذا واضح وقريب من فهمنا لمصطلح (النية)؛ لكن فلنلاحظ هنا أنه مقصد الانتقال من حالة إلى أخرى، مقصد السفر، هل يذكر هذا بالحديث الذي حفظته العبقرية العمرية، حديث «إنما الأعمال بالنيات» الذي اختار الهجرة كمثال توضيحي للنية «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه..»..

إنه سفر إذن.. كما يشير اللفظ أصلاً؟..

لا، ليس بالضبط.. إنه ليس سفراً عادياً.. نرحل ونسافر كثيراً.. نقصد جهات متعددة.. وقد لا نقصد غير التجوال والترحال.. وقد نضمر العودة..

لكن المثال هنا مختلف.. إنه «الهجرة».. والهجرة ليست سفراً بالضبط؛ إنها سفر بلا نية للرجوع، إنها سفر مع نية القطيعة.. بالضبط؛ إنها أن ترحل بتذكرة ذهاب فقط.. وقد حرقت خلفك كل الجسور والسفن.. ولا شيء في بالك غير ما ترحل إليه..

إنه الارتحال، وقد بعت كل ما تملك، ليس من "خط للرجوع"، ليس من إمكانية للرجوع..

إنها الهجرة ..دونما التفات إلى الوراء..

* * *

هل كان الرسول عليه الصلاة والسلام، يقصد "بالهجرة" هجرته وأصحابه من مكة إلى المدينة فقط.. كمثال على العمل عموماً، أم أنه قصد أن كل "عمل" نعمله، هو هجرة بطريقة ما، باعتبار القطيعة مع كل ما سوى ما نقصده، على أن ما نقصده يحتاج إلى رحيل مستمر باتجاه واحد، مع إحداث قطيعة مع الاتجاهات الأخرى..

إنها نظرة جديدة للعمل، على أساس أنه خطوة في رحيل مستمر، حجر في بناء جديد، العمل الذي يضمر "دوماً" هدفاً بعيداً، تهاجر إليه باستمرار..

* * *

ومن الفعل نفسه، الفعل "نوى"؛ الذي يحتوي على جذور المفردة التي نتعامل معها، تبرز لنا مفردة توضح أكثر، ذلك الذي لا يُرى، ولكنه قد يكون سبباً للحياة كما يكون اختفاؤه سبباً للموت..

النية: نواة الإثمار

النواة، مشتقة أيضاً من نفس الفعل "نوى" الذي اشتقت منه "النية"؛ إنهما إذن.. "أبناء عم" لغوياً.. إن جاز التعبير..

لكن هذا التشابه في اللفظ ليس مجرد "تشابه بالأسماء"، بل هو تشابه يشي بوجود قرابة فعلية.. في المعنى، كما في المبنى.. النواة، والنية..

فلنتأمل في النواة، ربما نجد ما لا نعرفه عن النية..

* * *

النواة، هي نبات في مرحلته الجنينية.. إنها "بيضة مخصبة" تحتوي على كل صفات الجيل السابق الذي نتجت منه، وتكون مغلفة بغلاف صلب وسميك يوفر لها الحماية من المؤثرات والفروق الخارجية.. وتحتوي النواة أيضاً، في داخلها، على "غذاء" يكفي لحياة هذه البيضة المخصبة..

قد تبدو النواة، أو البذرة، كما لو كانت شيئاً؛ قد تبدو مثل خشبة، مثل أي شيء بلا عمق وراءه، لكنها في أعماقها تضم سر الحياة، في أعماقها تكون قد اقتنصت أهم ما في الجيل السابق، من حيوية، من فعالية، من شعلة النور تضيء بها الظلمة..

للوهلة الأولى، والثانية، والعاشرة، ستكون ساكنة "سكون الموتى"، لا أثر لعلامات الحياة عليها، وستظل تلك الإمكانيات الكامنة في داخلها لا تشي بوجودها.. إلا عندما

يحين الوقت والمكان المناسبان ..**ستظل الحياة في داخل النواة – البذرة، محض احتمال، محض إمكانية**، إلى أن تأتي شروط التفاعل الصحيح الذي يفجر الحياة ويحولها من مجرد احتمال، إلى ملكوت حقيقي هو ملكوت الواقع..

* * *

هذا عن "النواة – البذرة".. فماذا عن "النية"؟..

إنهما متناظرتان تماماً، مثل نقطتين متقابلتين على محور الأفق.. كل معنى في النواة، موجود أيضاً في النية.. والتشابه بينهما يتجاوز الفعل الثلاثي الجد، الذي تم اشتقاقهما منه.. إلى أن يكون ذلك الفعل "جذراً" مسؤولاً عن تغذية المعاني في كل منها..

كما النواة هي النبات في مرحلته الجنينية، فإن "النية" هي جنين نحمله في داخلنا، جنين يحمل كل إمكانياتنا وأحلامنا وطموحاتنا؛ جنين يمكن أن يكون كل ما يمكن أن نكونه، يحمل دوافعنا وحوافزنا، يحمل صفاتنا ومواهبنا وأيضاً أمراضنا وضعفنا..

النية هي تلك "النواة" – "البذرة" في أعماقنا.. تحمل معها سر الحياة، تحمل معها شعلة كامنة، تحمل معها الحيوية والفعالية – لكنها تظل ساكنة – كما تظل النواة ساكنة دون دليل على إمكانياتها الكامنة – وكما تكون النواة مغلفة بغلاف سميك وقوي يوفر لها الحماية، فإن النية تكون مغلفة أيضاً بغلاف مماثل، هو أجسامنا بكل تفاصيلها، التي هي بمنزلة الوعاء لتلك النية: (البذرة

والنواة)، الوعاء الذي يحتوي ويحمي كل تلك الإمكانات الكامنة..

(المدهش هو أننا نلهو عن النواة بغلافها، وبدلاً من أن ننتبه لمحتوى الغلاف، أي للنية، فإننا نقضي الوقت في الاعتناء بأجسامنا - الغلاف، ويشبه ذلك أن نستلم هدية ثمينة مغلفة بغلاف جميل، فنقضي الوقت في الاعتناء بالغلاف والزينة دون أن نحاول فتح الهدية واكتشاف محتواها..).

ومثل النواة، فإن كل ما في النية - يظل مجرد "أجنة" - مجرد احتمالات وإمكانيات لما يمكن أن يحدث لو توافرت شروط التفاعل المناسب.. وكما مع كل الأجنة، فإن الظروف غير المناسبة، ستجهضها وتمنعها حقها في فرصة الحياة..

النية هي كل ما يمكن أن نفعله فيما لو توافرت الظروف المناسبة، وقد تكون، في شروط أكثر تعقيداً ورقياً، في العمل على توفير هذه الظروف..

وكما أن أجود أنواع البذور لن تنجح في النمو في الظروف غير المناسبة، وقتاً ومكاناً، فإن "النيات الطيبة" ليست بالضرورة مثمرة، ما لم تجد البيئة التي تتفاعل معها وتمدها بشروط الحياة، بل إن "حسن النية" المفرط يؤدي غالباً إلى إجهاض مبكر.. وتلك "النية" إذا لم تتعامل أصلاً مع تغيير الشروط الموضوعية حولها لتكون شروطاً أنسب للنمو، أو على الأقل، انتقاء الشرط

الموضوعي الأنسب.. إذا لم تضع "النية" ذلك في "نيتها"، فإنها ستكون شبحاً هائماً بدلاً من أن تكون روحاً وثابة.. ستكون مجرد خاطر، أو احتمال.. أو كلمة "لو".. نقولها بين التحسر والتثاؤب.

* * *

بعض البذور، تسافر لكي تجد الظرف الأمثل.. إنها تركب الرياح، تستغلها، لكي تجد الظرف الأمثل، والشرط الأنسب للتفاعل، كما لو أنها تحمل قضية وهدفاً، تكون لها أجنحة، لكي تساعدها في التحليق نحو واقع أفضل لنموها وإثمارها..

كذلك "النية" في تناظرها الدائم مع النواة، إنها ترحل أحياناً لكي تجد الظروف الأنسب التي تحقق ذاتها فيها، وتخرجها من حيز "الإمكانات" إلى أرض الواقع وملكوته..

ويشبه ذلك، أن اللفظ في أصله اللغوي، كان يشير إلى ذلك السفر البعيد، والتحول من مكان إلى آخر، وهو المعنى الذي تجسد عملياً في "الهجرة" في أوسع وأعمق معانيها..

إنه ليس - بالضرورة - الرحيل إلى قارة أخرى في الطرف القصي من العالم، من أجل ظروف يفترض أنها أفضل، بل قد يكون أحياناً سلوك الطريق الأصعب (والأبعد) ولكن الأكثر إثماراً، ذلك الطريق الآخر الذي ربما لا يستلزم رحيلاً بالمعنى الجغرافي، ولكنه "انتقال" بالواقع برمته، إلى شروط أفضل، إنه المسافة الأكثر وعورة

والأكثر بعداً، ولكن الأكثر جدوى بين الخيال والمجرد والواقع المتحقق ..**إنه نقل الواقع، ليصير ما كنت تنويه، ليصير ملكوتاً لما يجب أن يكون..**

* * *

سيبدو ذلك بعيداً جداً، سحيق البعد عن "نويت أن أصلي فريضة الظهر أربع ركعات"..

نعم، إنه بعيد جداً، ولذلك فالنية ليست لفظاً، بل هي بمنزلة "برق" يضيء الأذهان، ولا يستغرق زمناً بالمعنى المعتاد - بل يكون موجوداً دوماً، في كل فعل، محفزاً، دافعاً، سبباً للأداء...

وهذا كله يقودنا، إلى اللفظ الآخر الذي يعبر عن الموضوع.. الإخلاص..

ثلاثة توائم يمكنهم أن يغيروا العالم..

ارتبط الإخلاص بلفظ العبادة في أكثر من عشرة مواضع في الخطاب القرآني.. وارتبطت المواضع الأخرى للفظ الإخلاص ومشتقاته بعمل ما.. أي إن الإخلاص ارتبط إما بالعبادة، أو بعمل ما قد يكون له مفهوم العبادة، وارتبط أكثر من هذا بلفظ الدين في أحد عشر موضعاً بالقرآن.. وهذا كله يجعلنا أمام متلازمة ثلاثية مرتبطة معاً في عقد واحد (العبادة - الإخلاص - الدين).. وهي متلازمة مرتبطة بالصلاة كما هو واضح، ومرتبطة بأشياء أخرى كثيرة من خلال ذلك أيضاً..

وينتج هذا مركباً فريداً من العلاقة بين المفاهيم، وهي علاقة تنتج بدورها مفهوماً آخر يأخذ شكل العدسة التي نرى من خلالها ملكوت السماوات والأرض..

ملكوت الواقع..

العبادة: تعبيد الطريق إلى الهدف

العبادة، تقليدياً، اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه..

لكن هذا شمول شديد الإيجاز، وقد تراكم على أفهامنا له صدأ وكلس يحتاج إلى أن نجلوه لنعيد تفاعلنا معه..

عَبَد في لغة العرب: هي أطاع وخضع وتذلل.. وهذا المعنى - الأصل، واضح في المعنى العام للعبادة؛ إذ تظهر الطاعة والخضوع والتذلل لمعبودك.

لكن قد يكون إظهار الطاعة شيء، والطاعة الحقيقية شيء مختلف أحياناً.. فلا بد إذن أن يكون هناك معنى أعمق من المظهر، جوهراً لمعنى هذا الفعل، لا بد أن يؤثر على كل مظاهره، وعلى فهمنا لمعنى "عبَد"، سواء كان الاشتقاق عبادة، أم عبودية..

المعاني تسكن أولاً الأشياء المادية، ذات المظهر المادي المباشر القريب من الواقع، وبعدها تحلق في عالم التجريد والأفكار، وتكون هذه الأشياء المادية صلة الوصل في أذهاننا، للمعنى الأعلى، المعنى الذي يجب أن يكون..

وإذا كان الجذر (عَبَد) قد تمظهر في ملكوت الواقع

بشيء مادي ومباشر، يمكن أن نفهم منه ما وراءه، فهو قد تمظهر في (الطريق المعبّد) في الطريق الذي وطئته الأقدام إلى أن صار (معبداً) خاضعاً..

هذا هو المعنى الأول للخضوع - للتذلل، أن تكون معبداً مثل طريق ذللته الأقدام، وكونته بالطريقة التي تجعله مهيأً وميسراً للسير.. لكن هذا المعنى، يضم، فيما يضمه، معنى التشكل، والتكوين.. فالطريق (شكل) و (كون) ليكون مهيأً لسير الناس عليه.. بالضبط، إن **عملية التَّعبيد هي عملية إعادة تكوين الطريق، وإعادة تشكيله، بحيث يكون ما شق أصلاً لأجله..**

بهذا المعنى، ومن ضمن هذا الجذر، فإن معنى العبادة، سيكون **بمنزلة عملية إعادة التكوين والتشكيل بالذات، إنها ستكون إعادة تكوين وتشكيل نفسك لتكون كما أراد منك معبودك أن تكون..**

إنه يشمل، بالتأكيد، وجودك هناك عندما يريدك أن تكون، (بالطريقة التي يريدك أن تكون فيها)، ولكن الأين والكيف. لن تقف أبداً عند حد مواقيت الصلاة وهيئاتها؛ بل ستتجاوز ذلك لتكون كل الوقت الذي منح لك ابتداءً على هذه الأرض، أي عمرك كله، على الأقل من سن التكليف، أي عندما تصير مهيأً لأداء "ما أرادك أن تكون"..

وما أرادك أن تكونه قد حدده منذ زمن بعيد، قبل أن يخلق النموذج الإنساني الأول، آدم، لقد أراد منا أن نكون خليفته، سبحانه وتعالى، على الأرض..

أن تعبد الله، هو أن تكون ما أرادك أن تكون، أن تكون ما وضعك من أجله..

وما خلقت الإنس والجن إلا....

وهنا نقطة الاتصال بين ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠] وبين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] أي ليكونوا كما أردتهم أن يكونوا.. ليعبّدوا الطريق نحو تلك القمة العالية التي خلقوا ليكونوا فيها..

أليست العبادة إذن اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه؟.. بالتأكيد، لكل ما يحبه لنا أن نكون، يرتضيه لنا أن نكونه..

إذن ما علاقة الشعائر بالموضوع، إذا كانت "العبادة" هي مفهوم شامل وجامع لأدائنا الوظيفي على هذه الأرض.. ؟

كما قلت، إنها دورة تدريبية لا غنى عنها، في تحسين هذا الأداء، وإتقانه.. وتحديد اتجاهاته..

الإخلاص: ثنائية الإثبات والنفي

فماذا عن الإخلاص إذن؟..

الإخلاص لغة هو النجاة، كان يقال عن الرجل أنه خلص إذا نشب، ثم نجا وسلم، ونشب أي أصيب بسهم قاتل، ثم انتزع منه، ونجا وسلم..

أي إنه النجاة، مما نسميه موتاً محققاً..

كيف يتوازن هذا مع مفاهيمنا ومع السياق الذي نحن فيه؟..

إنه يعني، أن "الإخلاص" هو عملية حركية، هو تفاعل مستمر، **لكنه تفاعل "طرد" لا تفاعل تراكم**، إنه عملية تفاعل مستمرة مع المحيط من أجل تحديد ذلك "السهم" الذي أطلقه المحيط ومتغيراته، ومن ثم انتزاعه.. والخروج من ذلك كله، النجاة منه.. كما يكون اللبن خالصاً من بين فرث ودم، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦/١٦].. لا يكون الماء خالصاً؛ لأنه يخرج ماءً فحسب، لكن اللبن هو الذي ينتج من عملية التفاعل هذه ليصل إلى أن يكون خالصاً..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤/١٢]، أي أن أنزع عنه كل ما يمكن أن يكون شريكاً فيه.. وفي سياق قصة يوسف.. كان ذلك معناه أن أجعله وزيراً عندي، ولا يعمل في أي عمل آخر، أو عند أي شخص آخر..

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩/٦].

عملية الطرد مرة أخرى، أن تكون الأنعام خالصة للذكور، معناه - ولا بد - أن تكون محرمة على غير الذكور..

﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠/٣٣].

هنا أيضاً تتوضح عملية الطرد؛ فأن تكون زوجة خالصة للنبي من دون المؤمنين، يعني أن ذلك سيكون دائماً، وأنها ستكون زوجة لرجل واحد خالصة له، "طاردة" كل احتمالات الزواج من رجال آخرين..

* * *

وهذا هو ما نقصده، عندما نستعمل كلمة الإخلاص في حياتنا اليومية بلا تكلف، عندما تكون زوجاً مخلصاً، أو زوجةً مخلصة، أو صديقاً مخلصاً، أو مخلصاً في عملك، فإن ذلك يكون بوجود طرفين في هذا الإخلاص: طرف أنت مخلص له، وطرف آخر، هو رمز لكل الأطراف الأخرى، التي (طردتها) - من إخلاصك، عندما أخلصت للطرف الأول، ولا يعني ذلك بالضرورة عداء مع هذا الطرف، إلا عندما يحاول أن ينتزع إخلاصك، ويرميك بسهم، عليك أن تنتزعه لتنجو.. عليك أن تنتزعه لتخلص..

* * *

الإخلاص إذن، (إثبات) لطرف واحد و (نفي) لبقية الأطراف كلها..

ثنائية الإثبات والنفي تتوضح وتتركز في سورة قصيرة جداً، وربما لذلك سميت سورة الإخلاص، رغم عدم وجود لفظ الإخلاص، أو أي من مشتقاتها في سياق السورة..

ثلث القرآن.. ولكن حياتك كلها...

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٤].

الإثبات هنا لم يكتمل إلا بالنفي. والنفي كان عاماً وشاملاً بحيث إنه لم يبق غيره هو، الأحد، الصمد..

فآلية النفي استثنت كل ما يمكن أن يخطر في البال، كل ما على هذه الأرض هو خاضع تماماً لهذا الوصف: إما أنه قد ولد أو أنه سيولد غيره، بالمعنى الأعم للولادة طبعاً، معنى احتياجه إلى غيره من أجل وجوده، استمراره، كونه شيئاً مذكوراً على سطح الأرض..

وهذا يشكل كل ما يمكن أن يخطر في البال قطعاً: الأصنام والأوثان بمعناها المادي والمباشر، أو بما ترمز له من مصالح اقتصادية أو مفاهيم عشائرية.. إلخ..

ويشمل أيضاً الأفكار والإيديولوجيات بمختلف أنواعها.. ويشمل أنماط الحياة وتجلياتها ورموزها، ويشمل من باب أولى، المعبودات البشرية، سواء تجسدوا قادة وزعماء أو مصلحين أو مفكرين أو "نجوم فن ورياضة" صاروا مثلاً أعلى للأجيال..

كل ذلك، خاضع لقانون "الولادة والتولد"، حتى الطبيعة الأم التي يزعمون أنها كانت المسؤولة عن الخلق، لا بد أنها نتجت عن شيء ما سبقها، وحتى لو كان غير ذلك،

فإنهم يزعمون أنها أنتجتنا، بدلالة اسمها: "الطبيعة الأم"، وهذا يضعها أيضاً في خانة "الذي يلد"..

وهذا يجعل كل شيء، عملياً، في حياتك كلها، خاضعاً لذلك النفي، باستثناء الله، عز وجل، سيكون صمداً حيث لن يصمد الآخرون ومفاهيمهم.. سيظل وحده، وسيكون وحده الذي يمكن أن نخلص إليه، بينما ننزع، بأيدينا، سهام الإيديولوجيات والأوثان وأنماط الحياة.. ونلتفت إليه، مخلصين له..

* * *

لذلك فإن عملية "الإخلاص" بالمعنى التام، لا يمكن أن تكون منفردة وحدها؛ وإلا فإنها ستكون بلا معنى..

لا معنى في أن تكون مخلصاً فقط؛ المعنى هو أن تكون مخلصاً لشيء ما، لا يتم الإخلاص إلا بالإضافة، بعلاقة تنفيه عن شيء وتربطه بشي آخر..

وبين كل الأشياء، فإن أرقى أنواع الإخلاص، قرآنياً، هو الإخلاص للدين.. الذي ورد في أحد عشر موضعاً، في القرآن الكريم..

الدين رؤية للعالم..

وهذا يقودنا إلى المفردة الثالثة، في المتلازمة الثلاثية: الدين..

كلمة دين صارت الآن تعبر عن مفهوم واسع، والتعريف السائد موسوعياً الآن ليس بالضرورة مترادفاً أو حتى

مقارباً مع المقصود القرآني للمفردة.. فكلمة "دين" في الموسوعات العلمية تتطرق إلى الدين بمعناه الشعائري والطقوسي سواء كان سماوياً أم وثنياً، والذي يتضمن على الدوام بعداً (غيبياً)..

التوظيف القرآني للمفردة "الدين" مختلف.. وهو توظيف لا يطرد الاستخدام السابق، ولكنه يوسعه ليكون بمعنى اجتماعي أكثر، هذه التوسعة لا تشمل ارتباط الدين بالغيب ومفاهيم ما يسمى ما وراء الطبيعة، بل إنها تجعل من مفهوم الدين أعم وأشمل ليدخل في كل معتقد، وكل "إيمان" بصورة عامة.. حتى لو كان إيماناً بالشيوعية.. أو بالإلحاد.. أو باللا شيء.. إلخ.

أصل هذا التوظيف، راجع إلى معنى جذر كلمة دين في لسان العرب..

* * *

أصل كلمة (دين)، يعود إلى دان، وأدان، وهي تعني القضاء والحكم، ومنها "الديّان" - عز وجل - و "ديّان العرب" وهو قاضيهم وحاكمهم.. وقد أطلق اللقب على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى سواه من بعد وفاته..

ومنها "يوم الدين" أي يوم القضاء والجزاء.. حيث سيصدر الحكم على الجميع..

إذن، كلمة (دين)، مشتقة من فعل يعني "الحكم" و "القضاء"، هل يعطي هذا صورة مسيسة للدين؟ ربما للوهلة

الأولى فقط، عندما يكون كل ما نفهمه من كلمة الحكم هو المعنى الظاهري المباشر للأمر، معنى السلطة وآلياتها وتنفيذ أوامرها..

لكن (الحكم) يعني أيضاً ما هو أعم وأشمل: إنه يعني "طريقة الحكم" على الأشياء، وطريقة قياسها، تقييسها، إنه "ميزان الأمور"؛ "العدسة" التي من خلالها ترى الأمور بحجم معين وقرب معين ولون معين، الأشياء في هذا العالم هي كما هي، لكن اختلاف العدسات يولد اختلاف الرؤى، واختلاف النظريات واختلاف الآراء والأحكام..

الدين هو هذه (العدسة) التي تضعها على عينيك لترى العالم من حولك، إنه رؤية للعالم، منظور لرؤية كل ما هناك من زاوية معينة، من خلال بعد بؤري معين.. يتم خلاله تقويم كل شيء من خلال هذا البعد البؤري..

* * *

إذن ليس الدين بالضرورة إيماناً بنبي معين وكتابه ورسالته السماوية، ليس بالضرورة إيماناً بغيب وما يتصل به، بل هو أي (رؤية للعالم) - أي منظور يتم من خلاله الحكم على الأشياء..

فالرؤية المادية، التي تصطدم مع الأديان السماوية وتتناقض معها، هي أيضاً (دين) بهذا المعنى، وكذلك أنماط الحياة التي ترتب أولويات الأمور وتحكم عليها من خلال مقياس وميزان معين، وهكذا، فإنك عندما تدين الأشياء، تحكم عليها، بطريقة معينة، وفق نسق معين، كما

يدين ويفعل نسق حضاري معين، وإن لم يكن يسمي نفسه أو يعلن انتماءه إلى دين، فإنك تدين بطريقة حكم هذه الحضارة، أي بدينها، حتى لو كنت تؤدي شعائر لدين آخر عزلت نفسك عن محتواه القيمي وطريقته في الحكم على الأمور..

* * *

لم يكن مشركو مكة يملكون ديناً له قوام واضح محدد المعالم، يمتلك المواصفات التي تجعله ديناً بالمعنى الموسوعي العلمي السائد؛ كانوا يمتلكون أوثاناً تعبر عن عشائرهم ومعتقداتهم، وكان لهم أيضاً معتقداتهم وخرافاتهم وقيمهم التي كانت بمثابة قانونهم الذي يسيرون عليه مع عدم تماسكه وتناقضه في كثير من الأحيان.

لكن مع ذلك، فإنهم كانوا يدينون بهذا، ويحتكمون له، وكان هذا كافياً لكي يسمى ديناً..

ما دام أي مجتمع يملك ما يحتكم إليه، وهذا ضروري ودائم ما دام قد تكون مجتمع وبني على أساس معين، فإن له ديناً...

ولهذا فإن أساس الفصل القرآني سيظل واضحاً: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦]..

ليس لكفار مكة فحسب، بل لكل من يمتلك مقياساً آخر للأمور، رؤية مختلفة للعالم، يُحتكم لها وعلى أساسها..

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦]..

الإسلام الرؤية الأشمل والأكمل للحياة

ومن هذا الفهم، يمكن أن نقرأ آية ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩]، فالدين هنا هو رؤية للأمور وتقييمها وترتيب أولوياتها، وكلما كانت الرؤية جزئية، منصبة على جانب معين أو زاوية معينة، كانت أبعد عن الحقيقة، وكلما اقتربت هذه الرؤية من الشمول، ومن الاحاطة بجميع الأركان والزوايا، وبحجمها الحقيقي، وبحجم كل منها مقارنة بالآخر؛ اقتربت هذه الرؤية من الحقيقة أكثر فأكثر..

ولأن الرؤية الإلهية هي رؤية مطلقة، متعالية عن المكان وعن الزمان فإن كل شيء يقيِّم فيها ضمن حجمه الطبيعي والحقيقي، وهذا هو الاسلام في جوهره، **الإسلام الذي هو رؤية شاملة متوازنة للحياة، لا تضخم شيئاً على حساب شيء آخر تصغره..**

* * *

وكيف يمكن لك، أو لأي أحد أن ينسلخ عن الرؤية المتوارثة لمجتمعه ويرفضها، ويبحث عن رؤية أخرى، أكثر توازناً وعدالة، ثم لا يصل إلى الإسلام؟ (أعني الإسلام - الإسلام حقاً - وليس أوضاع المسلمين وفهمهم)..

كيف يمكن لمن استطاع أن ينفصل عن رؤية مجتمعه وحضارته وكل ما يدين به من حوله، وأن يبحث عن حقيقة أخرى أكثر التصاقاً بالكون من حوله، ثم يسهو عن تلك

الحقيقة الكبرى التي تلف الكون، وأن يستسلم لها عبر الإسلام؟..

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/٨٥]

* * *

نحن أمام مركب من ثلاث مفردات إذن.. وقد تأملنا في كل مفردة من مفرداته..

فماذا يحدث عندما تتحد العناصر مع بعضها بعضاً؟.. وكيف تقدح شرارة مضيئة عندما يحتك كل عنصر مع آخر؟..

عدسة الدين الخالص

"مخلصين له الدين"، "الدين الخالص"..

هذا هو الوصف المتكرر للدين في القرآن الكريم، وقد عرفنا معنى "الخالص"، ومعنى "الدين"؛ فما معنى الدين الخالص؟..

إنه يعني الرؤية الخالصة للأمور، من دون وجود أثر لرؤى أخرى، إنه وسيلة التقييم التي لا تختلط بوسائل أخرى، وتقييمات أخرى، إنه ترتيب الأولويات وفق نسق خاص لا تؤثر عليه أنساق أخرى، ولا تعيد ترتيب أولوياته، ولا تغير ثوابته رؤى أخرى سواء كانت تابعة لمنظومات اجتماعية أم دينية أخرى.

إنه سلامة تلك العدسة بعد أن نزعت عنها سهام الرؤى الأخرى، لا يمكن أن تكون العدسة خالصة إلا إذا خلصتها من تلك الرؤى المختلفة، ولا يمكن أن تبقى العدسة خالصة لحالها، من دون أن تشوبها رؤى أخرى، لأن ذلك يعني أنها مغمضة، وأنها لا تتفاعل مع المحيط بها، التفاعل يحتم دخول الشوائب، لكن المهم هو أن تكون جهة التفاعل هي التنقية؛ وهي طرد الشوائب، التي تقوي العدسة، وتجعل "البصر حديداً"..

وأن يكون هناك "تفاعل" مع المحيط دوماً..

لكنه تفاعل يتجه إلى التنقية، لا إلى التراكم..

* * *

في داخلنا رجلان !

أفضل مثال لذلك الدين الخالص، يجسده الخطاب القرآني في إنسان هو النموذج، وهو الهدف.. فالحديث عن الدين، وعن الإخلاص، وعن الدين الخالص ليس حديثاً مجرداً بلا ارتباط واقعي وعملي، بل إن هذا الحديث يرتبط في النهاية بإنسان هو الذي يحول الأفكار المجردة، إلى الواقع، ويحول الأمر الواقع إلى ملكوت الواقع..

هذا الإنسان النموذج يتجسد في سورة الزمر، وهي من أكثر سور القرآن الكريم التي وردت فيها مشتقات لفظ الإخلاص..

وسيكون ذلك كله مجسداً في رجل، ويكون "الضد" منه مجسداً أيضاً في رجل آخر..

ويتقابل الرجلان - وجهاً لوجه، ليس في حلبة مصارعة أو ساحة قتال؛ بل في داخلنا شخصياً، في داخل كل منا، في أعماق الأعماق البعيدة عن السطح والقناع..

من هما هذان؟..

* * *

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٢٩].

ليس المثل فقط عن رجل من زمن الرق وملك اليمين، كما سيخيل للبعض وكما سيحلو للبعض أن يتصور وأن يؤكد، ليس المثل عن أمر لم يعد موجوداً في زمن الحرية المزعومة؛ بل هو عن حقيقة يومية تتجاوز الأقنعة والشعارات..

رجلٌ فيه رجال متشاكسون؟.. ليس عن أشخاص امتلكوا جسده بالضرورة واختلفوا فيما بينهم على امتلاكه، بل عن رموز وأفكار استلبت روحه وبصره وعقله وأسلوب تفكيره ونمط حياته.. عن "أشخاص" يمثلون حضارات أخرى، أو أدياناً أخرى، أو إيديولوجيات أخرى، يتشاكسون ويختلفون ويتصارعون فيما بينهم على امتلاك هذا الرجل، الذي هو ساحة صراع ومنافسة بينهم جميعاً.

والرجل الآخر، من هو؟..

إنه رجل سلم لرجل!.. ومرة أخرى لا يعني هذا إشارة إلى عقد "صحيح الملكية" في زمن الرق، بل هو يشير إلى وجود رؤية واحدة، إلى وجود رمز واحد في ذهن هذا الرجل، يهيمن على فكره وعقله وظاهره وباطنه..

ولا بد أن نذكر هنا أن "سلم" تعني عند العرب وفي لسانهم، أنه نجا وخلص بعد أن نشب سهم فيه. أي إنه انتزع السهم انتزاعاً بعدما أصابه..

إنه رجل واحد، هذا الذي "امتلك" الرجل الآخر، وكان هذا السبب في أنه "سُلِمَ" في أنه نجا وخلص من كل الشركاء المتشاكسين كما ينجو من انتزع من قلبه سهم مميت.. ليس فيه ما يتشاكس مع بعضه بعضاً؛ إنه منهج واحد هذا الذي يملي عليه فكره وسلوكه، العدسة التي يرى من خلالها العالم واحداً، ولذلك فهو يرى بشكل أوضح.. ليس ثمة رؤى متضاربة، ما من تشوش في الرؤية هنا، أو قصر في النظر هناك؛ لذلك فإنه يستطيع أن يعمل بشكل أفضل، أن ينتج بشكل أفضل، أن يبدع، أن يكون ما أراده الله أن يكون..

هل يستويان؟..

هل يستوي من في داخله صراع مستمر بين الرؤى والأفكار، من يكون ظاهره غير باطنه، من يكون سلوكه في واد، وأفكاره في واد آخر تماماً، من تكون أحلامه السرية ورغباته باتجاه، وما يعلن عنه في العلن في اتجاه آخر تماماً ..هل يستوي من يكون فيه شركاء متشاكسون، مع

من حسم أمره، انتزع تلك السهام التي أصابت رؤيته بمجرد التفاعل مع المحيط..

هل يستوي من تشتته الرؤى وتجعله (فرطاً) لا يعرف ماذا يريد وأين يريد وأين هو، مع من استطاع أن يحدد هدفه واتجاهه، وموقعه أصلاً؟..

هل يستوي من هو مصاب بالفصام، وذهنه متشظٍّ كأنه عدة أشخاص يتنافسون فيما بينهم؛ ومن هو واحد، كل على بعضه، سوي الذهن بمركز واحد وبؤرة واحدة؟..

الصراع وصولاً إلى الإخلاص..

ولننتبه هنا، أن الرجل الآخر، النموذج الأعلى للإخلاص، ليس شخصاً لم يمر بالصراع؛ إنه لم يولد وهو (سلم) لرجل واحد.. لأن اللفظ (سلم) يعني ضمناً انتصار شخص واحد بعد صراع.. بينما لفظ (المشاكسة) يوحي بمناكفة لا تنتهي، وصراعات لا تصل أبداً لحسم..

وهذا هو الإخلاص فعلاً؛ لا أحد يولد مخلصاً، بل هو التفاعل مع المحيط، وانتزاع الرؤى الأخرى، ولو بألم وجهد كبيرين.. كما سيحدث عندما يصيب سهم ما وسط قلبك، وتمد يدك - المرتجفة - وتنزعه رغم الألم..

* * *

وليس (الرجل الآخر) بليداً لم يمر بصراع أولئك المتشاكسين فيه، لكنه استطاع أن يحسم أمره، وأن يحدد موقعه، وأن يكون مع واحد منهم، الواحد الأحق بأن يمتلك أفكاره وعقله وعواطفه..

في داخل كل منا شيء كهذا.. وإن أنكرنا، وإن بالغنا في الإنكار، وإن أصررنا أن الأمر يخص مرحلة تاريخية ولت وانتهت..

في داخل كل منا بضعة أشخاص متشاكسون، ربما الأشعة لن تكشف وجودهم، ربما التخطيط الدماغي لن يستطيع أن يحدد عددهم.. لكنهم موجودون هناك، قد تلمحهم أحياناً وأنت تسير فإذا بك تملك عدة ظلال، وأحياناً قد تنتبه فإذا بهم قد سرقوا منك ظلك.. قد يخيل إليك أحياناً أنهم يظهرون ببعض وجوههم في المرآة بدلاً من وجهك.. قد تجد نفسك تنفذ ما يملونه عليك - وقد يسلبون منك إرادتك ويزورون توقيعك، فلا تعود تفرق بين ما هو "أنت" - وما هو "هم"..

في كل منا شيء كهذا، ذلك الصراع بين الرؤى، والأفكار، وأنماط الحياة، والإيديولوجيات، وصناديق الأحلام القادمة من حضارات أخرى لها منطلقات وثوابت مختلفة. كل من هذه تتمثل في "رجال متشاكسون" يسكنون الكثير منا، ويقضون وقتهم في مناكفة لا تنتهي، ولكنها تنهي فعالية هذا الرجل وإمكاناته الكامنة..

والأمر هو أن تحسم هذه المشاكسة، وعلى الأخص أن تحسم بالطريقة الصحيحة..

اختلاط الرؤى: التخطيط للفشل

في السورة ذاتها، سورة الزمر، هناك آية ترتبط بالموضوع، كما مع آيات أخرى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٦٥]

للوهلة الأولى، يبدو التحذير غريباً ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٥] هل يعقل أن يسقط من يوحى إليه (الأنبياء والرسل) في فخ الشرك؟.. وهو الأمر المنافي أصلاً لأهليتهم لاستقبال الوحي؟..

لكن الشرك هنا، انسجاماً مع سياق السورة الذي يتحدث عن الإخلاص، وعن الرجل السلم، والرجل الذي فيه شركاء متشاكسون؛ هو ليس الشرك بمعناه الجامد المباشر الذي سيتنزه عنه كل من له عقل، فضلاً عمن يوحى إليه، ولكنه أن تشترك رؤية أخرى، من منبع آخر، من مصدر حضاري أرضي، مع الرؤية الأصل - الرؤية الشمولية الإلهية المصدر..

عندما تختلط الرؤى، وتشترك رؤية مع أخرى، بكل التناقضات الداخلية في ذلك، ينتج الأمر فشلاً ولا بد.. كما سيفشل أي مشروع كان لمعدّيه (أو لمعدّه) رؤى متناقضة غير منسجمة، فبعض المشاريع تفشل لا لأن مشاريع أخرى هزمتها، بل لأن تناقضاتها الداخلية تحتم فشلها..

عندما تتعدد الرؤى، في تناقض، تشترك فيما لا ينبغي أن تشترك فيه، يحبط العمل..

﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

القمة: عبادة عبر الدين الخالص

وهذا ما يقودنا إلى المفردة الثالثة، في تلك المتلازمة (العبادة - الإخلاص - الدين) فإخلاص الدين، الذي هو الرؤية الخالصة المنقاة من خلال وشوائب الرؤى الأخرى، يستلزم عملاً معيناً هو العبادة تحديداً، والعبادة هنا ليست أي عمل بالمطلق، كما أنها ليست ما تعودنا أن نفهمه من "العبادات"، إنها - كما مر - أن نكون كما أمرنا معبودنا أن نكون، أن نتشكل، نتكون كما يريدنا أن نتشكل..

إذن هو عمل معين، مرتبط برؤية خالصة، معينة أيضاً..

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/٥].

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزمر: ٣٩/١١].

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ [الزمر: ٣٩/١٤].

العبادة، مع إخلاص الرؤية / الدين..

إذن هي ليست رؤية نظرية، في برج عال، ليست فكراً تنظيرياً يتلهى بالتجريد عن الواقع، إنها "عمل" أيضاً، عمل متوافق ومتطابق مع الرؤية..

إنها سلوك وفق مواصفات محددة، مواصفات تحددها الرؤية / الدين.. بالمختصر: تطابق الفكر مع السلوك..

المسافة الحتمية بين الفكر والسلوك

بين الفكر والسلوك، فلنعترف، مسافة حتمية.. لم يجسرها تماماً ولم يردم الهوة المزمنة سوى الأنبياء والرسل.. عدا ذلك فإن البشر عموماً، لا يستطيعون ردمها تماماً، وهناك مسافة تمد وتجزر، تقل وتزيد، عند الجميع.. قد تكون مجرد مسافة بسيطة يمكن عبورها - ويمكن حتى إهمالها.. وقد تكون هوة سحيقة، لا ترى عندما تكون في ضفتها الأولى، شاطئها الثاني.. تمثل عندئذ فصاماً نهائياً بين الفكر والسلوك لدرجة أن الفكر قد يكون محلقاً في الأعالي والمثاليات، والسلوك والغاً في الوحل..

أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وهي المتلازمة الثلاثية التي تفسر معنى الإخلاص ومن ثم معنى النية، لا في الصلاة فقط، ولكن في الحياة كلها، أن تعبده مخلصاً له الدين، يعني أن رؤيتك للحياة تتطابق- أو تحاول أن تتطابق- مع سلوكك وعملك فيهما، وأن الدين لا يسكن على رفوف الكتب أو في رأسك فقط، بل مكانه الحقيقي يجب أن يكون فيما تفعله، وما تنتجه.. في أن تؤدي ما خلقت من أجله، على هذه الأرض..

* * *

ويقودنا ذلك، إلى بعض المثقفين، الذين يقولون، إنهم يعتنقون الإسلام "كرؤية للحياة". ويعني ذلك، أنهم لا

يعتنقون الجزء العملي منه، فهذا الجزء هو لعوام الناس، أما هم، فقد تجشموا عناء اعتناق الرؤية الفكرية فقط!..

لكن ذلك لا يمكن أن يتسق مع طبيعة التركيبة القرآنية (العبادة - الإخلاص - الدين)، فهي مكونة من العناصر الثلاثة معاً، ولا يمكن فصل أي منها، بالضبط كما لا يمكن أن تفصل ذرة هيدروجين من جزيئة الماء، وتتصور أن الماء بقي ماءً..

لا يوجد شيء اسمه الإسلام كرؤية للحياة منفصل عن الأداء المتصل بهذه الرؤية..

الإسلام، بالتعريف، ينفي حتى إمكانية ذلك..

وعندما يكون هناك شيء كهذا، فإن الناتج واضح: أن يكون العمل قد أحبط.. وأن الأفكار ظلت مجرد أفكار، مثل شبح هائم في بيت مهجور..

الرجل الآخر يصير زمرة والزمرة ترث الأرض

وعندما لا يكون ذلك تتقلص الهوة بين الفكر والسلوك، ويحسم أمر أولئك المتشاكسين في الداخل، فإن الرجل الذي هو (سلم) لرجل، سيختلف، سيكون أكثر قدرة، وأكثر قوة، وأكثر بصيرة..

إنه الرجل نفسه، الذي تحكي لنا سورة الزمر ذاتها، ما الذي سيحل به، وكيف سيحلق بالأجنحة الثلاثة معاً (العبادة - الإخلاص - الدين)، لا يحلق بعيداً عن الأرض وعن الواقع؛ بل يحلق ليرفع معه الواقع.. ليبني ملكوت الواقع..

سورة الزمر تحكي لنا عن ذلك.. لم يعد ذلك الرجل واحداً - لقد تخلص من فرديته وحطم قفص الأنا.. صار جزءاً من النحن، صار جماعة.. صار زمرةً..

وما الذي فعلته هذه الزمرة؟..

لقد أدت ما خلقت من أجله.. لقد ورثت الأرض.. التي خلقت من أجل أن تكون "الخليفة" فيها..

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

[الزمر: ٣٩/٧٤].

مسيرة الإخلاص لم تقف عند الرؤية المجردة، بل توجت بالعمل (أجر العاملين)، وكان أن الأرض ورثت..

وصار أن الجنة - نفسها - ستكون جزاء وراثتهم للأرض..

جزاء ملكوت الواقع، الذي بنته تلك الزمرة..

* * *

النية إذن هي ذلك الركن الذي لن تراه بالعين المجردة، - ولن تؤديه بصوت عال، ولن تشمر عن ساعديك في أثناء القيام به، لكنه كفيل بأن يحبط عملك كله لو كان فيه خلل..

(النية) هي أوضح نقطة من ذلك الجبل الغاطس تحت الماء.. إنها النقطة التي تلتقي فيها الرؤى والأفكار النظرية مع العمل، إنها تلك المنطقة المتوهجة التي تلتقي فيها الدوائر وتتداخل، إنها أقرب منطقة تكون فيها الأفكار

على وشك النزول إلى الواقع، **إنها بالضبط الباب الذي يمكن أن تدخل منه الأفكار المثالية إلى حيز التطبيق..**

النية هي أن تفهم كل ذلك؛ أن صلاتك هذه ليست إسقاطاً لفرض، بل هي "إقامة" لفرض، وأنها تحتوي في داخلها على منظومة كاملة متكاملة من الأفكار، وأن مشروعك في الصلاة هو محاولة أولية يومية، متكررة دؤوبة، لتنزيل تلك الأفكار إلى الواقع..

هل يعني ذلك أن علينا استحضار ذلك كله عند كل صلاة؟..

الأمر لا يتعلق باستحضاره الحرفي أو اللفظي - فذلك أمر غير ممكن عملياً؛ وغير مفيد أصلاً.. لكنه أن تمر في بالك صورة ذهنية - كالبرق - عن ذلك كله.. وكما البرق يضيء الدرب المظلم، فإن تلك الصورة الذهنية، ستضيء الذهن..

لا، ليس كالبرق ! فالبرق يضيء لثوان فقط، **والنية مثل تيار كهربائي، تسري في أجهزة ستكون قبل السريان ميتة، فتبعث الحيوية والفعالية فيها..**

"كبسة زر" الكهرباء لا تستغرق إلا ثواني، كذلك النية، إنها مثل كبسة الزر، لا يكاد يأخذ وقتاً على الإطلاق، ومع ذلك فإنه يمكن أن يكون الفرق الحاد بين ظلمة دامسة ونور تام..



الفصل السادس

التكبير: إشارة الانطلاق..

ثم يأتي التكبير..

إنه الشعار نفسه الذي افتتح به الأذان، وها أنت ذا تردده الآن، الآن هو الوقت الذي تحاول فيه تنزيل الشعار إلى التطبيق، تحول "الله أكبر" من ألفاظ وأصوات إلى معان متجسدة على أرض الواقع.. ذلك أن الشعارات دوماً سهلة، ليس هناك ما هو أسهل منها، والمصداقية تمتحن لحظة النزول إلى الواقع، لحظة الشروع في التطبيق، هناك، وهناك فقط، يكون الامتحان والمحك الحقيقي، وهناك ستكون هزيمة الأفكار (أو نموها وازدهارها)، وهناك أيضاً سيحتج المحتجون بالمرونة والواقعية، ليبرروا، نظرياتهم التي ظلت مجرد حبر على ورق.. ولم تستطع النزول إلى الواقع..

(الله أكبر) عند بدء الصلاة، تذكرك بتلك الحقيقة، التي ربما صرنا نراها محض بديهة، لكننا قلما نلتفت إلى موضع امتحانها في موضع المحك؛ في نفسك، في

محيطك المحيط بك.. في قراراتك، في خياراتك واختياراتك..

(الله أكبر)؛ جملة اسمية، مكونة من مبتدأ وخبر، لكن **ما هو موقعها من الإعراب في حياتك؟.. ما هو موقعها الحقيقي من الإعراب فيما تبنيه وتنتجه في حياتك..؟؟**

الخبر المحذوف تقديره حياتك كلها..

لكن لا !..

(الله أكبر) جملة اسمية، كلها مبتدأ، أما الخبر فهو ليس فيها حقاً، إنه خبر محذوف، من واجبك أنت أن تحدد هذا الخبر، عبر حياتك كلها، عبر كل خطوة في الطريق، عبر كل مفترق طريق تمر به..

يمكن أن تكون حياتك كلها خبراً واحداً، يؤكد تلك الجملة الاسمية ويكون مصداقاً لها، أو أن تكون حياتك إثبات ما كنت تقوله من أن "الله أكبر" حقيقة؛ أو أنه كان مجرد كلام في الهواء.. مجرد شعار آخر لم تطبقه في حياتك..

* * *

ترفع يديك.. وتقول الله أكبر..

لكن، هل حياتك خارج أوقات الصلاة، تنسجم مع ذلك، هل الله وموازينه وحكمه وقيمه، أكبر، أم أنهم "هم" أكبر عملياً، حتى لو كنت تتجاهل ذلك على مستوى

الشعارات ومواجهة الذات، وتطبقه عملياً دون أن يرمش لك جفن؟..

هم؟.. من هم؟.. من هم أولئك الذين هم "أكبر" في نفسك وواقعك من الله الذي هو الأكبر حتماً وقطعاً؟..

إنهم بضعة أشخاص متشاكسين في داخلك، كل منهم يمثل جهة تجذبك، كل منهم يمثل رؤية أخرى، حضارة أخرى، أو نمط حياة آخر، أو سلم أولويات آخر، أو سياق ثوابت وقيم آخر..

واحد منهم يمثل بهرجاً براقاً لحضارة زائفة، مجرد قشرة زاهية الألوان لا تحوي عمقاً أكبر، وواحد منهم سيكون عمقها وقوامها وسبب قوتها، لكنه قد يكون قواماً مختلفاً عما يجب أن يكون قوامك..

واحد آخر سيأخذ أسوأ ما في تلك الحضارة؛ سلبياتها وسفاسفها ونواتج تفاعلاتها العرضية..

آخرون، من أولئك المتشاكسين، سيمثلون الشهوات والرغبات فحسب، أهواءك وغرائزك الإنسانية دونما أدلجة أو تصعيد فكري للموقف..

وكل واحد من هؤلاء، يكون، أحياناً على الأقل، وغالباً في كثير من الأحيان، "أكبر" من أي شيء آخر؛ بمعنى أنهم ينتصرون وأنك تضعف أمامهم، وتنقاد إليهم.. يكونون هم "الأكبر" على أرض واقعك.. بينما يقول شعارك شيئاً آخر تماماً..

* * *

في ابتداء الصلاة، وبين كل مفصل من مفاصلها، يتكرر ذلك الشعار ربما لتستعيده كل مرة، ربما ليذكرك أن مقياسك للأمور، في كل مفصل من مفاصل حياتك، يجب أن يكون هناك، عند الله..

(الله أكبر) لا تلغي حقائق الحياة وشروط الواقع وإشكالاته وإرهاصاته، لكنها فقط لا تجعل كل هذا "أكبر" منها..

إنما تكون هي الأكبر..

"يداك خلقتا لذلك"..

وترفع يديك في أثناء ذلك..

ليس الأمر "حركة" دونما معنى، لا شيء في الصلاة التي هي الحد الفاصل، بلا معنى، لا شيء متروك للمصادفة في هذا العالم المليء بالمعاني، المبني على السنن والقوانين والتداخلات بينها، كذلك في الصلاة: لا شيء بلا معنى، لا شيء بلا مغزى ولا حكمة عميقة يمنحها الفهم والوعي عمقها وفاعليتها..

مع "الله أكبر" ترفع يديك..

فالفكرة العميقة التي تسكن الرؤوس يجب أن ترتبط بالأيدي؛ بالعمل، بالجهد العضلي الذي ينقل تلك الفكرة إلى الواقع، من دون يديك، ستكون "الله أكبر" مجرد شعار، مجرد نظرية أخرى، مجرد كتاب على الرف، قد يكون ثميناً، بل هو بالتأكيد ثمين، لكنه لن يسمن ولن يغني من جوع ما لم ينزل من الرف إلى الواقع، حيث يواجه

امتحانه ومصداقيته، وحيث يمتلك هناك كل إمكانات الخصب والعطاء..

لكن لا، أنت لن تنزل الفكر إلى الواقع، بل سترفع الواقع ليكون بمستوى الفكر، **أنت ترفع يديك إلى مستوى رأسك؛ كأنما تشير بذلك إلى حتمية أن ترفع العالم ليكون بمستوى فكرة "الله أكبر" التي تسكن رأسك..** كما لو أن دورك أصلاً هو أن تفعل ذلك بين الأوقات الخمسة، أن ترفع العالم.. أن تجعله مكاناً أفضل، مكاناً يتحقق فيه أن "الله أكبر"..

ترفع يديك، ستحتاج إليهما حتماً عند تطبيق أي شعار، **ستحتاج إليهما عندما تبني ما يجب أن تبنيه، وعندما تهدم ما يجب أن يهدم، عندما تدافع عما يجب أن تدافع عنه..** وعندما تمد يدك لتأخذ بالأيدي الأخرى.. وعندما تتواصل معها، وتلتحم معها، لتشترك في جعل العالم مكاناً أفضل..

ترفع يديك، وتقول "الله أكبر"..

* * *

الاستفتاح: أن تفتح مغاليق الكون...!

قد لا يكون دعاء الاستفتاح ركناً كما بقية أركان الصلاة، ولا أود الدخول في مصطلحات الاستحباب وسواها، لكن الاستفتاح شيء فعله عليه أفضل الصلاة والسلام، ولا بد أن يكون فعله لسبب..

بعد كل ما تقدم؛ من الأذان، إلى الوضوء، إلى النية، يأتي "دعاء الاستفتاح" ليكون بمنزلة نقطة الشروع الأولى، كل ما سبق كان ممهدات، النية كانت بمنزلة العزم اللازم للشروع بالمهمة، لكن دعاء الاستفتاح يأتي ليكون بمنزلة إشارة على البدء بالأمر..

* * *

الاستفتاح..

قلما نتأمل في اللفظ.. هو الآخر تراكم عليه الصدأ والكلس. لا، ليس عليه؛ بل على أبصارنا وعلى عقولنا وعلى كل أساليب وآليات فهمنا ورؤيتنا للأمور..

الاستفتاح، ما تفتتح به الصلاة.. فلننتبه هنا إلى أنها ليست ما تبتدئ به الصلاة، لم يأتِ اللفظ ليتحدث عن ابتداء الصلاة، بل عن الاستفتاح.. الذي هو طلب الفتح.. كأنما المعنى هنا، أن الصلاة هي الخطوة الأولى في فتح هذا العالم، هذا الكون، كأنما المعنى هنا، أن الصلاة

تساعدك على فتح مغاليق هذا العالم، وأسراره، وأبوابه المغلقة بمزاليج ضخمة..

كأنما المعنى هنا، أن "الفتح" إنما يبدأ هنا ، من الصلاة، وكان الفتح يومها هو تغيير العالم، تغيير الناس، تغيير أسس البناء وإقامة حضارة على أسس جديدة..

عندما نتذكر أن رجلاً بقامة ابن الخطاب كان يجهز الجيوش في صلاته، نفهم أن ذلك كان من هذا..

من أن الفتح، يبدأ من الصلاة..

وكان الاستفتاح، نقطة شروع في طلب الفتح..

في البدء بصلاة، هي دورة تدريبية على تغيير العالم..

* * *

«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» رواه مسلم.

التجربة الرائدة مدخلاً للفتح..

مرة أخرى يضعنا دعاء الاستفتاح، الذي هو طلب الفتح عبر الصلاة، في عمق التجربة الإبراهيمية، ويصلها أيضاً مع الامتداد المحمدي المشرف، ويصهر التجربتين - معاً - في دعاء واحد، ليجعل منهما معاً نقطة انطلاق شخصية لكل واحد منا..

الحديث، الذي رواه مسلم عن علي بن أبي طالب،

مركب كما هو واضح من سياقين قرآنيين مختلفين، ولكنهما معاً من سورة الأنعام..

السياق الأول إبراهيمي صرف، وهو يضعنا في تلك الليلة التي اكتشف فيها العقل الإنساني طريقه إلى الإله الحق، إلى الإله الواحد الذي لا شريك له..

إنه بالذات يضعنا في الجملة التي توج بها إبراهيم النتيجة التي توصل إليها، سواء كانت تلك الجملة موجهة إلى قومه، أم في حوار داخلي تتحدث عبره الإنسانية جمعاء، على لسان إبراهيم..

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٧٩].

أما السياق الثاني فالمخاطب به هو الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وأمته من بعده، فالآية تبدأ بـ ﴿قُلْ﴾، وهذا يعني أنه عليه الصلاة والسلام هو المقصود ابتداءً..

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٦٢-١٦٣].

لكن حتى هذا السياق، له جذر إبراهيمي شديد الوضوح في الآية التي سبقته بالضبط ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٦١].

ما الذي جمع الآيتين معاً لتكونا دعاء الاستفتاح هذا؟..

إنه، على الأغلب، ارتباط التجربتين وتكاملهما

واستمراريتهما معاً، والجمع بينهما للدلالة على ذلك، وعلى الأخص للدلالة أن تكاملهما معاً على فترة آلاف السنين التي تفصل بينهما زمنياً، يدل أن إمكانية الاستمرار قائمة، وأن آلاف السنين التي تفصلك عن الأولى، البضعة عشر قرناً التي تفصلك عن الثانية، لا يجب أبداً أن تكون حاجزاً يمنعك من الاستمرار.. من المواصلة على الدرب نفسه..

كان هذا هو (جوهر) الجمع بين الآيتين، وفي التدقيق سنجد حتماً تفاصيل أخرى..

تحديد الاتجاه

وجهتُ وجهيَ..

تحمل هذه الجملة ذلك الإيحاء المزمن بأن حياتك هي رحلة مستمرة، ولو لم تغادر المكان الذي ولدت فيه قط، فإنك أيضاً في رحلة مستمرة، ما دام الزمن يعبرك، ما دامت كل لحظة منه تذهب ولن تعود مهما حصل، فأنت في رحلة؛ سواء أدركت ذلك أم لم تدرك، سواء اعترفت بذلك أم أنكرته.. لا فرق، ما دام الزمن يمضي..

الفرق هو أنك، عندما تدرك ذلك تستطيع أن تتحكم باتجاه الرحلة، تستطيع أن تتحكم في المحطة الأخيرة..

أما إذا لم تدرك، أو إذا رفضت أن تدرك، فإن الرحلة ستمضي بك بكل الأحوال، لكن باتجاه غير محدد بالنسبة إليك، وربما ستنتهي بك في هاوية لا تود حتى أن تتخيلها..

إذا لم تحدد توجهك فإنك، حتماً، تكون توجهت للهاوية..

كل ما هو أنت !

والوجه؟.. إنه هنا رمز مختصر لكل ما هو أنت، لكل ما هو مهم فيك، أنت ربما تكون بلا يد وبلا قدم، لكن (الوجه) فيك هو أنت باختصار، إنه يحتوي على كل ما (يشخص) منك من انفعالات ونتائج تفاعلات تجري تحت السطح..

وجهك يضم كل ما يشخص منك، إنه بالتعبير المعاصر، شخصيتك بأسرها، إنه يضم حواسك كلها، التي من دونها ستكون معزولاً عن العالم الخارجي والتفاعل معه، ومن ثم ستكون ممنوعاً من التفاعل والفاعلية، وعليه لن (تكون) أصلاً..

(وجهك) هو كل ما هو أنت.. كل ما هو مهم فيك، قد تغطي الأقنعة وجهك أحياناً، لكنها لن تصير وجهك أبداً، سيظل وجهك هناك، ربما تحت قناع مزيف، ربما تحت شعار اللياقة والمجاملة الاجتماعية، ربما تحت طبقات المساحيق والأصباغ - هناك وجهك - سيظل موجوداً، رمزاً لحقيقتك الداخلية.. رمزاً لكل ما هو آت حقاً، دونما إضافات أو أقنعة أو عمليات تجميل..

(وجهت وجهي) تعني أنك اتجهت بكل ما هو مهم فيك، بجوهرك، بشخصك نحوه هو..

إنها تعني أنك حزمت حقائبك، ولم تضع فيها سوى نفسك.. واتجهت إليه..

الفتح يتطلب تمايزك عن بقية الخلق

وصيغة الاستفتاح، المأخوذة من الآية الكريمة، تتخذ من الذي "فطر السموات والأرض" جهة للقصد والذهاب، وهو الخالق - عز وجل - الذي خلق السموات والأرض، كما خلقنا نحن أيضاً، لكن الآية الكريمة لا تحدد غير أنه خلق السموات والأرض، ولا تذكر أنه خلقنا، كما لو أن التركيز هنا يتم على (السموات والأرض) باعتبارها الموضوع أو الموضع الذي سيتم استخلافنا فيه وتبحرنا فيه، لذا فإن نوعاً من الاستقلالية سيمنح لنا، نحن، عن السموات والأرض، إننا جميعاً قد فطرنا الله عز وجل، ولكننا نحن، وحدنا، من مُنِحنا الحق في خلافته فيما خلقه..

"الميل" عن كل الخيارات "المائلة"

تختار الآية الكريمة، على لسان إبراهيم، وعلى لسان أفضل الخلق من بعده، وعلى ألسنتنا جميعاً لاحقاً، أن نعرف من وجّه وجهه باعتبار أنه المسلم الحنيف، أنه ليس المسلم فقط، بل "المسلم الحنيف"، والحنيف في اللغة تعني "المائل"، وهذا يعني، في هذا السياق، أن المسلم الحنيف، هو المسلم الذي (مال) وترك كل الخيارات الأخرى، والحضارات الأخرى، والإيديولوجيات الأخرى، والأديان الأخرى، لقد عرضت عليه، لكنه "مال" عنها..

وربما لهذا، ارتبطت الحنيفية بأبي الأنبياء إبراهيم، الذي "مال" عن كل الخيارات القائمة، وأبطلها الواحد تلو الآخر، وكانت استقامة طريقه تتمثل في ميله المستمر عن كل ما يمكن أن يشوه أصالة وعمق الحقيقة التي وجدها..

وربما لهذا، جاءت "وما أنا من المشركين" بعدها؛ ذلك أن الإشراك هنا، ليس بالضرورة الشرك التقليدي المتمثل في التعبد للأوثان والأصنام (وسواها مما يماثلها في المعنى ويخالفها في الأصل)، ولكنه أيضاً، وربما بشكل لا يقل خطورة، الإشراك بالرؤية، "الميل إلى" بدلاً من "الميل عن"..

أربعة، تختصر كل شيء..

بعد ذلك المقطع الإبراهيمي المحض، الذي تجسد واقعاً في التجربة المحمدية، يأتي الجزء المحمدي الصرف، الذي يفترض أن يستمر تجسده واقعاً في حياتنا..

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: ٦/١٦٢]..

أربعة أشياء، يحددها النص الإلهي، الذي اختاره عليه أفضل الصلاة والسلام، ليكون جزءاً يفتتح به الصلاة..

الصلاة، النسك، المحيا والممات..

فلنلاحظ هنا أن الصلاة هي قبل كل شيء، العنصر الأول الذي اختير قبل كل العناصر الأخرى، المدخل لكل

ما سيلي، على أهميته، يعزز ذلك نظرتنا من الصلاة؛ هي بمنزلة دورة تدريبية لكل ما يجب أن يفعل في الحياة..

بعد الصلاة، تأتي النسك، وسيقزم من معناها لو فهمنا أنها "الذبيحة"، هي الذبيحة طبعاً، لكن ذلك جزءٌ منها، فالذبيحة هي الأضحية، هي ما تضحي به، وأنت لا تضحي فقط بكبش، بل تضحي بأشياء أخرى كثيرة، بل إن الذبيح الأول الذي كاد يكون ذبيحاً لم يكن كبشاً أو بقرة؛ بل كان ابن إبراهيم نفسه، إلى أن فدي بذبح عظيم..

النسك هو كل ما تضحي به، أحياناً يكون دمك تهرقه (أو تحرقه)، وأحياناً يكون أعصابك، وأحياناً يكون كل رصيدك: عمرك كله..

وأحياناً يكون جهدك كله: فكرك كله، كل ما تملك، ليس بالمعنى المادي، بل بمعنى أعمق، كل ما تملكه حقاً حتى أعضاؤك، حتى كريات دمك الحمراء والبيضاء؛ تضحي بها: ليس بمعنى "الذبح" والإهراق بالضرورة، ولكن بمعنى أن تكون كلها مجندة لقضية واحدة.. لله ربّ العالمين..

دمي، ودموعي، حتى ابتسامتي، ممكن أن تكون "أضحية" عندما تصير جزءاً من هذا الدرب، عندما تصير وسيلة لتعبيد الدرب نحو الهدف..كل ما أضحي به، في سبيل ذلك، هو "أضحية" وهو نسك.. وهو نسكي..

* * *

و "محياي" أيضاً..

إنها حياتي كلها. لا، الأمر أعمق من حياتي كلها.. ليس الحديث هنا عن الحياة، بل عن المحيا ..عمّا أحيا به، عما أحيا من أجله.. الأمر ليس عن محض حياة بيولوجية؛ بل عما هو وراء ذلك، عن الهدف من حياتي، الهدف الذي يجعلني أستيقظ صباحاً وأنهض من فراشي، الهدف الذي يجعل قلبي يدق، ولا ينبض فقط، الهدف الذي يجعل الدم يغلي في عروقي، ويروي في عروقي، ولا يجري فحسب، الهدف الذي يجعلني أود أن أعيش فعلاً - لا أن أعيش لأني وجدت نفسي "كذلك" وانتهى..

محياي، ما أحيا من أجله.. ما يجعلني أستمر، مع كل شيء.. أن يكون لله..

* * *

ولا ينتهي الأمر عند "محياي"..

بل هو هناك أيضاً عند النهاية.. عند إسدال الستارة على الفصل النهائي من حياتنا.. عند "مماتي"..

أستطيع أن أجعل من الموت ليس مجرد "نهاية"، أستطيع أن أجعله أكثر من مجرد حتمية لا بد أن نمر بها، أستطيع بمحياي - عبر أن يكون لحياتي معنى، أن يكون موتي توقفاً عن التنفس، ولكن ليس عن العطاء.. أن يستمر عملي وعطائي وأثري حتى بعد أن أذهب ..بطريقة ما، أن يستمر عملي، ربما عبر عمل الآخرين، ربما عبر تفاعله مع أعمالهم، ربما بأن يكون بذرة يرعونها هم..

المهم، يمكن - أحياناً على الأقل - أن يكون "الممات" ليس قاتماً كما نتصور، يمكن لنا أن نجعله حصاداً لموسم، واستعداداً لموسم آخر، لن نحضره، لكن بذورنا ستنوب عنا، وستكبر، تنضج، ربما لتصير ثماراً، أو حتى سماداً، لموسم لاحق.. إنه إحداثنا فرقاً عبر "محيانا"، أن نكون قد جعلنا من زيارتنا لهذا الكوكب "مجدية"؛ زيارة أحدثت فرقاً، زيارة جعلته مكاناً أفضل مقارنة به قبل أن نأتي إليه..

أن يكون هناك فرق، لا أن يكون وجودنا، وعدمه سواء.. لا أن تكون حياتنا وموتنا سواء..

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٢١]..

* * *

بدأ الأمر بـ "صلاتي"..

وانتهى بـ "مماتي"..

وبينهما الأمر كله.. بينهما طريق مفروش بالأشواك والزجاج المطحون.. لكنه يجب أن ينتهي، ينتهي ببناء عالم أفضل.. فلنتذكر أن الأمر بدأ بالصلاة، وأن النص كله قد وظف في افتتاح الصلاة، كأنما لتذكرنا بوظيفة الصلاة، بل بوظيفتنا من خلال الصلاة..

وذلك كله، ليس كل شيء في الاستفتاح..

فهناك بعد، ربما ما هو أهم من ذلك كله..

* * *

هناك، "وأنا أول المسلمين"..

خاتمة: أن تكون الأول..!

من الناحية العملية، الآية تتحدث على لسانه عليه أفضل الصلاة والسلام، ما دامت تبتدئ بـ "قل"..

وهذا لن يلغي طبعاً أننا جميعاً مشمولون بالأمر الإلهي المباشر لنبيه..

من ناحية أخرى، نحن نعرف أن الإسلام، تاريخياً، أقدم من شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام.. بل إننا نعرف ذلك من القرآن الكريم ..

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/١٣٠-١٣٢].

هنا، يكون إبراهيم مسلماً، وقد وصى أولاده، وأولادهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون، أي أن يتوجوا حياتهم بأكبر حقيقة يمكن أن يخضع لها إنسان..

إذن إبراهيم، كان مسلماً، وكذا أولاده، وسلسلة أولادهم.. إلا من ظلم منهم، وخرج عن هذه الحقيقة..

كيف إذن "وأنا أول المسلمين" تنسجم مع هذا وهي موجهة له عليه أفضل الصلاة والسلام؟..

وكيف تنسجم - بعد ذلك، والأولى من ذلك - مع

حقيقة أننا سنقف، عند نقطة شروعنا في الصلاة لنقولها، ليقولها كل منا، "وأنا أول المسلمين"..

* * *

"عدم الانسجام" الظاهري هذا، هو بالذات أهم ما في الأمر..

إنه بالذات قوة الموضوع.. وحيويته.. وهو ما يستحق أن نتوقف عنده..

فأول المسلمين، ومعنى "الأول" في كل شيء لا علاقة له، في عمقه، بالترتيب الزمني الذي سيجعل منه - عليه أفضل الصلاة والسلام - لاحقاً لإبراهيم، بل ولأتباع إبراهيم..

"الأول" هنا، هو تلك الريادة التي تتجاوز القوالب المحددة، وتحطم قوالب التراتب وأسرها إلى مفهوم نسبي واسع، يجعل بإمكان أي شخص، أن يضع هذا نصب عينه، ليكون "الأول"، أول المسلمين..

دوماً هناك "أول" ما

وكان إبراهيم هو أول من أسلم.. حسبما نعلم، ولكن خاتم الأنبياء - وآخرهم - وصاحب الرسالة الخالدة، هو أيضاً أول المسلمين..

فالمفهوم هنا لا يعامل الأنبياء بالمطلق، ولا يعتبر التاريخ والواقع والزمن كتلة واحدة تتراكم باستمرار، بحيث أن "الأول" في أول زمن، هو الأول دائماً..

لا، سيكون ذلك انتفاءً للعدل الذي هو من صفاته عز وجل.. فما ذنب من جاء آخر الزمان، أن يحرم من أن يكون "الأول"..

كل مرحلة، بظروفها وشروطها وإرهاصاتها وإفرازاتها وتفاعلاتها ونتائجها، لها "أولها".. لها مسلم ما، سيؤمن بأن له دوراً ما، في هذه المرحلة، وتجعله "أول المسلمين" فيها.. ثم تأتي مرحلة أخرى، بظروف مختلفة، تتطلب "أولاً" "آخر"، يتصدى للتفاعل، ويتفاعل معه.. وينتج "أول مسلمين" آخر..

بل إن مرحلة ما، لها ظروفها وتفصيلاتها، قد تنتج أكثر من "أول"، أكثر من "رائد" في مختلف المجالات..

وقد يكون هناك، مرحلة ما، يفشل المسلمون فيها، في فهم دورهم، وفي فهم إمكاناتهم، وحقيقة ما كلفوا به، فيكونون أرضاً بوراً: لا تقدم ثمراً ولا عطاءً..

ولقد أمرت أن تكون من "الأوائل"!

أن تكون "أول المسلمين"، ليس خياراً نستطيع أن نتخلى عنه، إنه ليس ترفاً، ليس شيئاً إضافياً تزين به صدرك إلى جانب بقية النياشين والأوسمة الافتراضية..

إنه ليس أمراً تكافأ عنه إذا أديته، ولا تعاقب عليه إذا تركته، كما تعودنا أن نفهم كل شيء..

لقد أمرنا بذلك!.. أمرنا، جميعاً، كل واحد منا، أن يكون "أول المسلمين"..

لا أقصد.. "وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" التي توحي أن "الأمر" هنا كان عن "صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي" أكثر مما توحي بأنها عن أن تكون أول المسلمين..

ولكن، تكتمل الصورة، وتتوضح أكثر، مع آية أخرى، عن "أول المسلمين" أيضاً.. آية نزلت على لسان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ولكنها يمكن أن تكون واقعاً نتقمصه نحن أيضاً، نحن الذين ندعي أننا مؤمنون به..

سورة الزمر، التي تحدثت عن الإخلاص، بالذات عن متلازمة (العبادة - الإخلاص - الدين) وعن ذلك الرجل الذي هو سلم لرجل، بالضد من الرجل الذي فيه رجال متشاكسون..

الرجل الذي انتهى بأن صار "زمرة" ورث الأرض..

على أهمية تلك "المتلازمة" التي جسدها الرجل، إلا أن هناك تفصيلاً إضافياً، سيفسر الحلقة المفقودة عن كيفية انتقاله إلى أن يرث الأرض..

تفصيل يهمنا جداً، وله صلة بكل ما نحن فيه، وبكل ما يجب أن نكونه..

* * *

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١٢].

إنها بين ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١١]، وبين ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١٣].

هل يمكن أن نهرب مما قبلها ومما بعدها؟.. حتى يبرر

هروبنا من هذا الأمر: الأمر بأن يكون كل منا أول المسلمين؟..

لقد جاء هذا الأمر ضمن سياق ملزم للجميع (الإخلاص، خوف العذاب في حالة العصيان)..

ولا يمكن أن نهرب من الأمر - الذي نزل ليتحدث على لسان أشرف الخلق، إنما نحن ملزمون به أيضاً..

لأكون أول المسلمين..

* * *

يمكن أن تكون..

أول مسلم يطأ سطح القمر، أو أول مسلم يطأ عمق الإنسان، ويضع شارته هناك..

أو يمكن أن تكون أول مسلم يفتح واحداً من مغاليق الكون، أو سراً من أسرار الكيمياء، أو الفيزياء، لم يكتشفه أحد من قبلك..

يمكن أن تكون أول مسلم يسبر أغوار كون جديد، لم يسبره أحد قبلك، أو أن تكون أول مسلم يحلق في فضاء جديد، أو يفتح أفقاً جديداً..

يمكن أن تكون أول مسلم يكتشف عالماً جديداً عبر القرآن، أو يقرأ ما لم يقرأه أحد فيه من قبل..

يمكن أن تكون أول مسلم يضع خطة للوصول إلى ذلك العالم الآخر، العالم الذي يبنيه أولئك المسلمون، كل منهم يؤمن بأنه، على الأقل، يمكن أن يكون أول مسلم..

تبدأ صلاتك عبر الإيمان بنفسك

اختيار صيغة الدعاء هذه، في افتتاح الصلاة تحديداً، له معان عديدة، إنه يعني أنك لكي تقيم الصلاة حقاً، وأعني هنا "إقامتها" فعلاً لا تأديتها فحسب، عليك أن تكون مؤمناً بإمكانياتك، مؤمناً بنفسك، أول المسلمين..

* * *

الدخول إلى إقامة الصلاة، عبر إيمانك بنفسك، يشبه "علاجاً نفسياً" أو دورة إعادة تأهيل، ترمم بها ذاتك وتعيد صياغتها لتكون مؤهلة للقيام بدورها الذي خلقت من أجله..

أن تؤمن بنفسك - بكونك "أول المسلمين" - يشبه أن تقف أمام المرآة وتكرر أنك الأفضل ألف مرة حتى تقتنع بذلك، لكي ترفع من مستوى تقييمك لذاتك، كما ينصح اللاعبون قبل مباراة ما، أو المقبلون على امتحان ما، تلعب ثقتهم في أنفسهم دوراً مهماً في اجتيازه..

بفارق أن هذا التكرار فيه نوع من الخداع قد يرفضه العقل الواعي، أما أن يكون صيغة دعاء، في افتتاح الصلاة.. فالأمر يدخل في الوعي نفسه، وفي اللا وعي.. ويعمل على رفع مستوى تقديرك لذاتك، ومن ثم من سقف إمكاناتك، وقدراتك.. فهو تحصيل حاصل نهائي: من أدائك..

* * *

بل إن صيغ دعاء الاستفتاح الأخرى، التي صحَّت عنه عليه أفضل الصلاة والسلام تبدو كما لو أنها تتآزر لترسيخ فكرة "أول المسلمين" هذه..

"اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب" (البخاري). فأول المسلمين قد يكون، كأي إنسان، له خطايا، إنه ليس ملاكاً، بل هو إنسان وله إرادته التي يمكن أن تخطئ وتصيب، لكن ذلك لن يمنعه أن يكون "أول المسلمين"؛ بل هو يطلب أن يباعد بينه وبين خطاياه.. ليكون أداؤه أفضل..

ليكون أولى بأن يكون "أول المسلمين"..

ويتفاعل مفهوم "أول المسلمين" الذي وظفه استفتاح الصلاة، مع وظيفة الصلاة نفسها، كما نفهمها وكما مرت سابقاً..

إنها الصلاة التي تجعلك مؤهلاً لتغيير العالم - لإعادة بنائه على أسس أكثر عدلاً وتوازناً، إنها الصلاة التي تدربك على أن تقوم بما خلقت من أجله ..**أن تكون خليفة الله على الأرض، أن تكون "الأول"..**

أول المسلمين..

* * *

مرة بعد أخرى، افتتاح بعد آخر، صلاة بعد أخرى، يتسرب إليك ذلك الإيمان بذاتك، بكونك مؤهلاً لأن تفعل كثيراً، لأن تؤدي ما هو مطلوب حقاً منك..

مرة بعد أخرى، تعيد الصلاة ترتيب أوراقك، تعيد فهمك لنفسك.. تعيد تكوينك..

وقبل ذلك كله: تجعل إيمانك بنفسك، ضرورياً جداً، لكي تؤمن بالله..

* * *

بين "أول المسلمين" و "وأنا من المسلمين"

ولأسباب مختلفة، وبحسن نية، تم إجراء تعديل بدا لمن أجراه أنه طفيف ومن ضروريات التأدب معه عليه الصلاة والسلام.. حيث تم تغيير "وأنا أول المسلمين" إلى "وأنا من المسلمين"، على أساس أن مكانة "أول المسلمين" يجب أن تظل محفوظة له عليه الصلاة والسلام..

ومكانة الرسول، ومقامه العالي محفوظان حتماً، لكن "تغيير" ما كان يعلمنا إياه، لا يندرج ضمن حفظ المقام، بل لعله يشكل حاجزاً بيننا وبين ما كان يريدنا أن نكون..

ولقد كان يريدنا أن نكون مؤهلين لأن نكون **"الأوائل".. رواداً للحضارة، بنّائين للعالم.. معيدين لبنائه وتشكيله.. وفرق كبير، بين أن تؤمن بقابليتك على أن تكون "أول المسلمين" وبين أن تؤمن بأنك "من المسلمين" فقط..**

الهبوط في تقدير قدراتك، سيتبعه هبوط في طموحك، وفي أدائك..

انظر الآن حولك، لا يمكن أن يفسر إحباط الواقع،

بسبب هذا التعديل حسن النية، لكن جملة أسباب وتراكمات، أدت إلى أن يكون تقديرنا لذاتنا متدنٍّ جداً، فنحن لا نكاد نطمح أن نكون "من المسلمين"..

ونسينا تماماً "أول المسلمين"..!

* * *

لكن حادثاً عرضياً، مثل هذا التعديل، يجب ألا يكون عقبة أمامنا.. فالنص القرآني، والدعاء المستوحى منه، لا يزال ينادينا، لا يزال يحدثنا، يأمرنا، ويحثنا، على أن نكون "أول المسلمين"..

لا يزال النص القرآني يملك تلك القوة، التي جعلت "الجيل الأول" يؤمن بذاته، وأن يكون إيمانه بذاته جزءاً من إيمانه بالله عز وجل الذي خلقه.. وهو الجيل "الأول" الذي آمن أنه بإمكانه أن يكون "الأول" لا على صعيد الترتيب الزمني، بل "الأول" بالمعنى الأعمق للريادة والإبداع والبناء، وكان ذلك كله جزءاً من محركه الداخلي، الذي جعله يحقق أعظم قفزة حضارية، في أقصر فترة زمنية.

* * *

محرك تلك القفزة لا يزال موجوداً.. كل ما في الأمر أننا افترضنا أن المحرك يجب ألا يستعمل حتى لا يعطل، فكان أن علاه وعلانا الصدأ..

لا يزال هناك جناحان جاهزان لكل منا.. يمكن لنا أن نستخدمهما لو أردنا، أن نحلق بهما، لكن ليس لكي ننفصل عن الواقع، ليس لكي نكون أقرب إلى الغيوم..

ولكن كي نرفع الواقع..

كي نحلق مع الواقع، بالواقع..

جناحان، ومحرك، عند افتتاح الصلاة، من أجل بناء الملكوت الحقيقي..

ملكوت الواقع..

دمشق ١٥ شوال ١٤٢٨

١٣-١٠-٢٠٠٧



مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني – عبر الصلاة – فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

في (ملكوت الواقع) – الجزء الثاني من هذه السلسلة، يتألف من مقدمة وستة فصول وخاتمة، تتناول موضوعات ترتبط بإقامة الصلاة، وتمهد لها قبل البدء بها، مثل النداء للصلاة، والوضوء، وفلسفة الأوقات الخمسة، ومعنى الاتجاه إلى القبلة، وأهمية ركن النية، ومن ثم التكبير ودعاء الاستفتاح، وعلاقة كل ذلك بمفهوم النهضة – العميق والواسع – في الإسلام.

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Part Two of this series, *"Realm of Reality"*, consists of an introduction, six chapters and a conclusion. It handles topics related to the call to prayer uttered shortly before it [*al-iqamah*], and those that precede it and prepare the soul for it, such as the call to prayer [*al-adhan*], the ablution [*al-wudu'*], the philosophy of the five times of prayer, the meaning of turning towards the *qiblah*, the significance of the pillar of the intention [*al-niyya*], glorifying Allah [i.e., saying '*allahu akbar*'], the initiation invocation and the relation of each with the concept of the revival, which is deep and vast in Islam.

Realm of Reality
Malakūt al-Wāqi
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

كيمياء الصلاة ٢
ملكوت الواقع

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

الصلاة باعتبارها وسيلة للنهوض ولإعادة بناء العالم، تشكل منظومة متكاملة، تبدأ حتى قبل أن تقام الصلاة عملياً.

هذه الحلقة (ملكوت الواقع) تبحث في محفزات للنهوض تسبق الصلاة لكنها تكون جزءاً من هذه المنظومة. فالنداء للصلاة سيكون نداءً للحياة، والمواقيت الخمسة ستجعل المصلي يتوحد مع الكون الملتزم هو الآخر بنظام مواقيت خاص، وسيكون الوضوء أكثر بكثير من مجرد غسيل، بل سيكون التحاماً بالماء الذي هو أصل كل حياة، وسيكون اتجاهنا في الصلاة إلى القبلة، تحديداً، لموقف حضاري، تأكيداً على بناء حضارة مستقلة، لها ثوابتها الخاصة وقيمها ومنطلقاتها. كل ما هو قبل الصلاة، سيكون جزءاً من منظومة النهوض، إلى أن نصل إلى التكبير، ودعاء الاستفتاح، الذي سيكون هنا مقدمة للفتح: ***فتح ملكوت الواقع.***

ISBN -9953-511-67-5
9 789953 511672

تصميم الغلاف: يمان بطيح

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٣)

عالم جديد ممكن

الفاتحة . العدسة اللاصقة على العين المسلمة

عالم جديد ممكن:الفاتحة- العدسة اللاصقة على العين المسلمة / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٦٨ ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٣)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري
مكتبة الأسد



2011=1432
دار الفكر - دمشق - برامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٣

عالم جديد ممكن

الفاتحة العدسة اللاصقة على العين المسلمة

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٦,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-68-9

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٦٨ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

عن فاتحة وضعت في غير موضعها..

إذا كانت الصلاة هي عماد الدين، فإن الفاتحة هي حتماً عماد الصلاة، فلا صلاة لمن لا فاتحة له، وهذا يجعلها في موقع قلب القلب من الجسم، أو المخ من الدماغ.. أو جوهر الجوهر - ليس من الصلاة فحسب - بل من الدين كله، باعتباره رؤية شاملة للحياة ووسيلة للحكم ومقياساً للأمور..

تمتلك الفاتحة إذن هذا الموقع الذي يجعلها ملازمة للصلاة، ففي كل ركعة هناك الفاتحة، مراراً وتكراراً، مرة تلو أخرى، من أول ركعة نتعلم من خلالها الصلاة إلى آخر ركعة نستطيع أن نؤديها قبل أن نغادر الحياة.. وهذا يجعلها، بالنسبة للمصلين على الأقل، السورة الأكثر تكراراً على الإطلاق.. بل إنه ربما يجعل من كلمات آياتها الكريمات مجموعة الكلمات الأكثر تكراراً في حياة الفرد المصلي..

* * *

ولأنها "المدخل" في الكتاب الذي هو آخر ما أنزل الله عز وجل، الكتاب الذي هو الفرصة الأخيرة للبشر لكي يقرؤوا.. لكي يكونوا ما خلقوا من أجله، لكي يعيدوا تشكيل

العالم.. فإن "الفاتحة" - المدخل - لابد أن يكون لها دور في هذا.. في تعليمنا كيف نعيد تشكيل العالم..

ولأنها - العماد، القلب - من الصلاة وقد قلنا إن الصلاة هي بمثابة دورة تدريبية، تدخلها طوال حياتك - لتتقن حياتك، لكي تجعل لحياتك معنى - فلا بد أن يكون للفاتحة دور في ذلك، في جعلك تتغير، وتعيد صياغة نفسك لتتأهل لتغير ذلك العالم.. الذي سيتغير للأسوأ باستمرار إن لم يقم شخص ما بأداء دوره، بأداء ما كلف به..

لا يمكن إلا أن يكون ذلك، لا يمكن لسورة تأخذ موقعاً كهذا إلا أن يكون لها وظيفة كهذه..

فما الذي فعلناه بها - الفاتحة؟..

بدلاً من أن تكون فاتحة لحياة جديدة، فاتحة لحياة من نوع آخر، أكثر خصباً وأكثر عطاءً وأكثر حيوية، فإننا جعلناها، ويا للأسف، علامة على "الموت"، صرنا نقولها عند موت أحدهم، عند التعزية، على أمل أن يذهب ثوابها لروحه المغادرة..

لا أجد شيئاً أكثر تناقضاً من هذا، لا أجد دليلاً على سوء فعلنا بالقرآن، وبكل ما يمت له بصلة، أبلغ من هذا (على كثرة ما فعلنا من أشياء مناقضة لما يريده القرآن منا)، أن تتحول "الفاتحة" التي افتتحت الحياة يوماً ما، التي كانت فاتحة عصر جديد يوم كنا نصنع العصور، أن تتحول لتصير علامة مقترنة بالموت.

أن تتحول الفاتحة من شاهد على الحياة، إلى مجرد أحرف مكتوبة على شواهد القبور..

لا ريب بعدها، ولا استغراب، من أننا تخلفنا عن صنع الحياة، وهو أمر لن يكون له ثواب جيد "أخروياً"، مهما تمنينا غير ذلك..

بين الفاتحة للحياة، والفاتحة للموت، مسافة شاسعة، هي بعينها المسافة بين ما يجب أن نكون، وبين ما نحن عليه فعلاً..

* * *

الطريق طويل، وصعب، وكذلك الغوص في أعماق الفاتحة التي هي قلب التغيير، لذا لابد من البدء به.. بلا طول مقدمات..

باسم الله، نبدأ..



الفصل الأول

البسملة: أن تعمل باسمه..

تبدأ الفاتحة، بالبسملة، وهي آية كريمة، عوملت، كما غيرها، بالكثير من التنميق والقليل من التعمق، حتى صارت مجرد جملة "أخرى"، نستهل بها الكلام، ولا نتوقف ولو للحظة واحدة عندها.. ولا نرى، أحياناً، أي ربط بينها وبين ما يتلوها مما نقوله.. أو ما نسمعه.. أو نفعله..

* * *

ولأنها عوملت كذلك، فقد تحولت إلى شيء أشبه بالطلسم، الذي يستخدم من أجل البركة أو الحفظ أو الحماية أو الحرز، أو أي شيء يرتبط، بطريقة غامضة، وغير مفهومة، بقوله عز وجل، أو بأمره لنا أن نقول ذلك، هكذا، كما لو أن الألفاظ هنا تمتلك استقلالية خاصة، أو سرّاً خاصاً، بمعزل عن معناها، كما لو أن فاعليتها، مستقلة عن فهمنا وتفعيلنا نحن لهذا الفهم..

من جملة ما يقوي هذا الفهم الطلسمي لأحرف القرآن عموماً، وأحرف "بسم الله الرحمن الرحيم" تحديداً، تلك

القصة المعروفة، عن واحد من كبار الصحابة، الذي طلب منه أحدهم أن يشرح له معنى بسم الله الرحمن الرحيم، فاستغرق حرف الباء منه الوقت كله بين صلاة العشاء وصلاة الفجر..

وهذه القصة، التي لن تصح بكل الأحوال، توحي أن لحرف الباء معنى مستقلاً عن السياق الكامل، عن ترابطه بباقي الآية الكريمة، والأكثر طرافة من هذا، أن القصة لا تروي لنا - ولو سطراً واحداً - مما قيل بين العشاء والفجر عن حرف الباء، كما لو أنه سر خطير لا يجوز أن يعلمه أحد من عامة المسلمين، وإنما هو مما يتداوله كبار الصحابة أو الأئمة مع بعض خواصهم..

وهذا كله، مع أنه يساق لإثارة الإعجاب بعجائب حرف واحد من أحرف القرآن، إلا أنه - بغموضه - يتناقض حتماً مع أساس من أساسات القرآن الكريم: إنه بيان للناس.. وليس تقريراً سرياً يجري بين بعض خواصهم..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم إذن،

ليست أحرفاً طلسمية، وطلباً - لا عقلانياً - للبركة والحفظ، ليس مجرد استهلال قد يكون غير مترابط مع ما يليه.. بل "بسم الله الرحمن الرحيم"، ارتباطٌ مباشر بحقيقة من أهم الحقائق في حياة كل منا ..حقيقة تكليفنا في هذه الأرض.. تكليفنا بالخلافة؛ خلافته هو عز وجل..

البسملة هي عن توصيفك الوظيفي..

عندما تستخلف أحداً ما في مهمة ما فإنه، مهما امتلك من صلاحيات، سيكون مقيداً بك.. وصلاحياته ستظل مقيدة بما (علمته) عنك وعن مهمته، التي هي خلافتك في جوهرها..

خليفتك، سيظل مقيداً بأنه مجرد خليفة، لا يمكن له أن يتجاوز هذا التوصيف الوظيفي (ويمكن له، بسهولة، أن يتخلف عنه)، لكن منصب الخليفة هو حده الأعلى، حتى لو كلفته بالمهمة وتركته لعقود مؤتمناً عليها.. أو لم تره بعدها أبداً، فإنه سيظل "خليفتك".. مجرد "نائب" - تركته ينوب عنك في مهمة ما، على ما في ذلك من تشريف..

* * *

باسم الله، إذن، هي في جوهرها، إعلان بأنك الخليفة، وأنك باسمه عز و جل تقوم بما تقوم به، إنك، نيابة عنه، وأصالةً عن دورك وما كلفت به، تقوم "باسمه" بما تقوم به.. - بالضبط كما يصدر قرار ما، مرة أخرى بلا تشبيه، من جهة تشريعية عليا، وتقوم جهة تنفيذية ما، أدنى طبعاً، بتنفيذه، باسم الجهة العليا..

هذه هي البسملة في حقيقتها.. ليسَ من سر للبركة - ليس من طلاسم في أحرف منفصلة، بل الأمر كله يتعلق بوظيفتك في الأرض، بتوصيفك الوظيفي، بكونك الخليفة، الذي تنوب عنه، بأمره، في أداء ما كلفك به سبحانه.. أنت تعمل، بالتعريف، وبمنتهى الوضوح: باسمه..

هذه هي البسملة - إعلان منك عن وظيفتك، عن مهمتك في هذه الأرض التي ستظل دوماً كما هي، في حدها الأعلى، السقف الأعلى الذي هو أقصى ما يمكنك أن تحوزه، وأن تتشرف بالوصول إليه..

ليست مجرد جملة استهلال، ليست قولاً رتيباً، ليست مجرد أحرف نقولها بذلك التسطيح المؤسف الذي أضعنا به أعمق المعاني.. بل هي جملة تعلن فيها مشروعك، تعلن فيها وظيفتك في الأرض. وتعلن في الوقت نفسه، هوية من وظفك..

وتقر، أنك تعمل باسمه..

باسم الله..

عالمان وسفينة واحدة

أول مرة نطقت فيها هاتان الكلمتان، كانتا كما يجب أن تنطقان دوماً.. أن تكونا بياناً، استهلالاً لمشروع يعيد بناء العالم..

مشروع حقيقي، وليس تنظيراً مجرداً بلا إسقاطات على أرض الواقع..

"باسم الله" كانت هناك للمرة الأولى في التاريخ.. بين عالم قديم كان يوشك على الانهيار والزوال، وعالم آخر، كان يوشك أن يولد - وكانت "باسم الله" جزءاً أساسياً من بناء هذا العالم، كانت موجودة هناك في مخاض الولادة..

فكانت تلك هي المرة الأولى التي نطقت..

كما أنها كانت المرة الأولى، التي يعاد فيها بناء العالم.. من جديد..

* * *

الزمان: فجر التاريخ.

المكان: المعمورة بأسرها.

المناسبة: إنقاذ العالم.

* * *

حدث ذلك فعلاً، عندما واجهت البشرية أكبر أزمة حتى ذلك التاريخ، وكانت مسببات الأزمة يلتقي بعضها مع بعض، وتتفاعل دون ضجيج واضح، لكن عندما فار التنور، والتقى الماء على أمر قد قدر، اتضح أن الخلل كان قد بدأ من الأساسات، من العمق، ولذلك كان البناء كله هشاً ورخواً، وسرعان ما أطاح به الطوفان..

كان ثمة طوفانان، وليس واحداً؛ طوفان غير مرئي، استشعره نوح، وأدركه قبل حدوثه، لأنه كان نابعاً من اللا توازن الذي غطى المعمورة، من عدم وجود "سد" واضح في النفوس البشرية يمنع هذا الطوفان، الذي صار قدومه حتماً مقضياً..

وكان ثمة الطوفان، التحصيل الحاصل. المرادف المادي لذلك الطوفان الأول..

وكان ثمة، بمواجهة الطوفانين: سفينة واحدة، هي أكثر من مجرد سفينة؛ بل هي رؤية مغايرة، مشروع إنقاذ،

مشروع بناء لعالم جديد.. مشروع ولادة ومخاض.. لعالم يوشك أن يولد من أنقاض عالم قديم متهاوٍ..

عالمان إذن، وسفينة واحدة..

* * *

وفي تلك اللحظة الحاسمة الفاصلة بين موت العالم القديم، وولادة العالم الجديد.. قيلت، لأول مرة، أول بسملة في التاريخ..

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ١١/٤١]..

اركبوا فيها !، قيل لهم، كانت تلك هي السفينة، الفلك، الذي صنع بالرؤية الإلهية ﴿أَصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٧].. المركب الذي صنع حسب مواصفات تلك الرؤية، ولكن بأيدي خليفة الله على الأرض، ممثلاً في نوح الذي كان يعمل بالنيابة، وفق المواصفات الإلهية، كما سيعمل أي مستخلف، بأمر من أخلفه..

اركبوا فيها، قال لهم، باسم الله مجراها ومرساها، وكان قبلها بسم الله بناؤها أيضاً - وكان ذلك آنذاك تحدياً لتيار الواقع كله - كان بناؤها، باسم الله، عملاً أقرب إلى الجنون حسب المقاييس السائدة، لكن كل عمل ينطلق من رؤية مختلفة، من مشروع مختلف ومغاير، سيبدو كذلك..

﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١١/٤١] قال لهم - وكانت البسملة يومها هي المركب الحقيقي، ليس الخشب

والمسامير والألواح، كانت البسملة، باعتبارها بيان التوصيف الوظيفي، هي استهلال المشروع الذي أنقذ البشرية من نفسها..

كانت البسملة هي ذلك المركب الذي رحل عن المرافئ القديمة الغارقة، باتجاه المرفأ الحقيقي الآمن..

كانت البسملة، نورساً جاء في خضم المخاض، وحط على ألواح السفينة، بشارة بقرب الوصول إلى البر الآمن..

حكاية المجرى وحكاية المرسى

لم تكن البسملة يومها وحيدة، بل كان معها ما يوضحها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ١١/٤١]..

فالمجرى والمرسى هنا، تعني أن مشروع الاستخلاف ليس مشروعاً اعتباطياً أو شعاراتياً، كما يمكن أن يكون أي مشروع. المجرى والمرسى هنا، توضحان أن "اسم الله" لم يزج به في الموضوع دونما عمق..

فالمجرى هنا؛ مجرى السفينة، أو مجرى المشروع كله، قائم حتماً وطبعاً على السنن؛ أي على القوانين الإلهية التي وضعها عز وجل في الكون، وجعل الكون قائماً عليها مستمراً من خلالها..

أي مشروع يتجاهل حقيقة "المجرى"؛ أي جريان الكون كله على هذه السنن، سيكون مشروعاً خارجاً عن "السنة".. وعن أي نتيجة إيجابية يحققها.. أي مشروع، يبدأ باسم

الله، دون أن يضع في الاعتبار قيد السنن الإلهية، لن يأخذ من "اسم الله" إلا الاسم دون المسمى..

لن يكون سوى شعار..

وما أكثر الشعارات، وما أقل المشاريع الحقيقية.. في عالم هو في أمس الحاجة إلى "المشروع"..

عندما يصير المجرى بلا مرسى

من السهل جداً الادعاء بالتمسك بالقوانين الإلهية، والسنن الكونية، وتوسيع معنى القوانين والسنن، لتشمل كل نظرية حديثة، وكل رأي لم يثبت مصداقيته، وكل صرعة حديثة لن يذكرها أحد بعد عشر سنوات من لمعانها..

من السهل التخبط في هذا.. ومن السهل الانخداع ببريق وازدهار المشروع الغربي، القائم على معرفة القوانين الكونية واستخدامها.. لكن الأمر، مع مشروع نوح الذي استُهِلَّ "باسم الله" ليس هكذا بالضبط. فمجراها متبوع فوراً بمرساها.. وهذا يعني أن المشروع له قصد معين، له هدف معين، له منتهى معين، هو مرفأ وبر الأمان بالنسبة إلى المشروع كله، وهو، كما "المجرى"، "مرسى" مرتبط باسم الله ومقيد به؛ أي إن "هدف المشروع" - وقيمه الداخلية، ومقاصده هي مقاصد مطلقة وليست نسبية، ثابتة وليست متغيرة..

وهذا هو الفرق بين مشروع يعتمد على "جريان" السنن والقوانين فحسب، كما هو المشروع الغربي القائم والمزدهر حالياً؛ ومشروع آخر، ليس موجودا حتى اللحظة،

لكنه يجب أن يقوم، وأن يكون، مشروعاً مقيداً بالمجرى والمرسى، بالسنن، وبالمقصد الأصلي..

مشروع "المجرى دون المرسى"، مشروع يعتمد على جريان السنن دون بوصلة "قيم" تحدد هدفه، فيسقط بسهولة أحياناً فريسة أصحاب المصالح والأرباح، الذين يوظفون "السنن" عندهم في الشركات العابرة للقارات، من أجل زيادة الأرباح و مراكمة الأرصدة، وما دام لا بوصلة - ولا قيم مطلقة تحدد الصواب والخطأ، ولا "مرسى" أو بر أمان محدداً، فإن السفينة ستظل تجري وتجري، دون أن تحظى بنورس يبشرها بقرب الخلاص..

بالضبط ستظل تجري "على غير هدى"..

* * *

كانت هذه أول بسملة في التاريخ، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ١١/٤١]، وكان الزمان فجر التاريخ، والمكان المعمورة كلها، والمناسبة: إنقاذ البشرية من نفسها..

هل تغير شيء عبر التاريخ؟.. ليس كثيراً..

لا يزال الطوفان كامناً، ولا تزال المرافئ القديمة غير آمنة، ولا تزال تلك السفينة كامنة، تحتاج من يبنيها..

النورس القريب من البر ينتظرنا.. ينتظر ألواح السفينة كي يحط عليها، معلناً بشارة الخلاص..

من الإنسان الخليفة إلى العالم بأسره

المرة الثانية التي قيلت فيها "باسم الله"، كانت هي المرة الأولى التي نطقت البسملة بشكل كامل؛ أي كما نقولها الآن، كما ابتدأت بها الفاتحة، ومن ثم كل سور القرآن.. هذه المرة كانت على لسان سليمان، الذي تصدى ليكون "الخليفة في الأرض" في وقته، لا بمعنى الوصول إلى كرسي الملك، على أهمية ذلك، ولكن بالاستخلاف بمعناه الواسع الشامل، من إعمار الأرض إلى إحقاق الحق مروراً ببناء المجتمع المتوازن..

وهكذا، فبينما بنى نوح مجتمعاً جديداً خارجاً من الطوفان، فإن سليمان الذي استخلف في الأرض، مع أبيه داوود من قبل، كان يروم نقل تجربة الاستخلاف إلى المجتمعات الأخرى التي تسير في طريق آخر.. كان يروم "إصلاح العالم"..

لهذا فعندما جاءه الخبر، عن مجتمع بعرش عظيم، لكن أصحاب هذا العرش يسجدون للشمس من دون الله، قرر سليمان أن أساسات هذا العرش، هذا المجتمع، رخوة بما فيه الكفاية لكي تسقط، وإن بدا الازدهار والنمو على سطح الأمور وزخرفها الظاهر..

لذلك فقد بعث بذلك الكتاب.. يقول فيه ما يجب أن يقال..

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/٢٩-٣٠].

عند البسملة الأولى، وقت الطوفان، لم يكن هناك خيار آخر أمام من ركب السفينة، كان المجتمع قد انهار، والماء قد اكتسح كل شيء، حتى قمم الجبال، بدا بالتدريج أنها لن تنجو من أمر الله..

لذلك، وبما أن الخراب قد حل، فقد كانت السفينة، في أسوأ أحوالها، قشة، لا يمكن لعاقل إلا أن يتعلق بها، ما دام لا خيار آخر هناك.. وقد ثبت لاحقاً أنها لم تكن قشة بل مركب نجاة حقيقي، لإنقاذ العالم بأسره، لكن ذلك لم يكن من الممكن معرفته لحظة الركوب.. كان وجود أمل ولو خافتاً أفضل بالتأكيد من الاستسلام للطوفان..

أما مع البسملة الثانية، فقد كان المجتمع -هذه المرة- في أوج ازدهاره ونموه، لم يكن واضحاً للعيان أن ثمة مشكلة في أساساته، على العكس، كانت كل أرقام النمو تجعل من هذا المجتمع، ومن عرشه العظيم، مثالاً ونمطاً يحتذى..

لكن رؤية الاستخلاف، التي تتجاوز الظاهر رغم بهرجته، كانت تعلم أن المشكلة قائمة بجذورها، وقادمة مهما طال الزمن..

لذلك كانت رسالة الإصلاح تلك..

وإنها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾..

لا تسجدوا للسنن..

في البسملة الثانية، كان هناك المجرى والمرسى مجدداً، وإن بشكل مختلف..

فسفينة نوح سخرت المجرى للوصول إلى المرسى؛ أي بعبارة أخرى، سخرت السنن والقوانين، للوصول إلى الهدف..

أما حضارة سبأ، التي سجدت للشمس، فقد تحول استخدامها للسنن والقوانين إلى عبادة لها، والسجود للشمس هو مظهر متقدم من هذه المظاهر، بكل ما تمثله الشمس من قوانين فيزيائية تتدخل في حياتنا وفي زراعتنا وفي مظاهر النمو والازدهار عموماً..

حضارة الاستخلاف، الممثلة في الإنسان الذي تصدى للتكليف؛ وهو سليمان هنا، هي حضارة تستخدم السنن وتسخرها للوصول إلى هدف محدد وليس العكس، ليس أن تستخدم هي عند السنن.. دون أن يكون هناك هدف واضح؛ فالرياح إذن، على سبيل المثال، كانت تجري بأمر سليمان، وليس العكس؛ أي ليس أن تأخذنا السنن إلى حيث تريد، بل أن نخبرها ونختبرها ونسيرها إلى حيث نريد..

وهذا هو الفرق الأساسي، بين حضارة الاستخلاف، سواء كانت إبراهيمية، أم داوودية، أم حضارة يبنيها أي أحد منا، أو من أولادنا إذا أحسنا إنشاءهم، وبين أي حضارة أخرى على غير قيم الاستخلاف، إن الأخيرة تتحول بالتدريج إلى السجود إلى السنن.. بعد أن تفقد بوصلة المسار والهدف..

علينا أن نكرر أن مشروع الاستخلاف كله.. قد بدأ بتلك العبارة التي تحتويه وتختصر أهم شيء فيه..

العبارة التي تشير إلى أننا هنا، نقوم بما يجب أن نقوم به، بأمر من كلفنا بذلك، إننا فقط "مأمورون".. وإن كل هذا، نحن فقط "خلفاء" فيه..

تلك العبارة التي تفتتح بها الفاتحة..

"بسم الله".. الرحمن الرحيم.

القضايا الصغيرة كجزء من سياق أوسع..

ولكن إذا كانت "البسملة" كبيرة كما تقول، وتحتوي في داخلها على كل هذه المعاني الكبيرة، فكيف تفسر و (تقعّد) ذكر "اسم الله" على عمل روتيني وعادي مثل تناول الطعام؟..

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٢١]..

إنه مجرد طعام.. ولكن ثمة حملة من الشياطين وأوليائهم للجدل في الأمر (.. لا تكن سخيفاً، إنه مجرد طعام، والبسملة مجرد ألفاظ تقال، هل يعقل أن الله سيحاسبك عليها؟!..)..

وهذا هو الأمر بعينه.. إنه ليس مجرد طعام.. كما أن البسملة ليست مجرد ألفاظ.. فالطعام، الذي هو حاجة بيولوجية يشترك فيها الإنسان مع بقية المخلوقات الأدنى منه، واستمراره في الحياة بمعناها البيولوجي مرتبط باستمرار أدائه لهذه المتطلبات بالضبط كما هو الأمر مع المخلوقات الأخرى..

لكن مع الإنسان، المخلوق الأعلى، لا يجب أن ينتهي الأمر هنا.. فالعيش ليس هو الهدف بحد ذاته، فهذا لا يفرز إلا نوعاً متدنياً لا يعدو أن يكون "حياة دنيا"، لكن ثمة حياة بمتطلبات أكثر رقياً، مرتبطة بمعانٍ أكثر سمواً، يمكن أن "تحيا" وأن "تمارس"، فإذا بها تخرج حتى التفاصيل البيولوجية عن مسارها الضيق إلى آفاق أعلى..

وهكذا لا يكون "الأكل" محض أكل لسد الرمق أو لإرضاء غرائز الجوع والشبع أو التلذذ بالطعام الطيب.. يصير "الأكل" قضية أخرى مع البسملة، فها أنت تتذكر، مع هذا الطعام، وسواء كان مصدره نباتياً أم حيوانياً - أو أي مصدر آخر بينهما - فإنك ستتذكر مع البسملة، أنك "السيد" في هذا الكوكب، وأن كل ما سواك من المخلوقات، هي دونك في سلم الخليقة، وأنها مسخرة لك وحدك؛ لتواصل حياتك وتستمر في معيشتك، ولكن وجودك على هذه المرتبة التي تخولك السيطرة على ما هو أدنى منك من المخلوقات ليس وجوداً مطلقاً بلا قيد أو شرط، إنك هناك لتؤدي "واجباً" بعينه، ولديك، بالمقابل، حقوق تمكنك من الاستمرار، و "تسوّدك" على تلك المخلوقات، عملية مبررة ومنطقية ضمن سياق التوازن بين الحقوق والواجبات..

هذا كله، يبث الضوء والنور في تفاصيلنا المعتمة.. يبث الإنسانية فيما يبدو أحياناً أنه بهيمي وحيواني...

باسم الله، يتحقق ذلك.

ضمانات لا بد منها ضد التمادي: الاستخلاف المشروط

لكن لا بد من الإقرار هنا، أن ثمة من يسيء استخدام "اسم الله" من جهة أخرى..

عندما تقول ما تقول وتفعل ما تفعل باسم الله، وبتفويض منه، وتخويل منه، فإن هناك، فرصة كبيرة، وهامشاً واسعاً، للتمادي، لاستغلال السلطة..

كما قد يسيء أي موظف كبير استخدام منصبه، يمكنك أن تسيء إلى منصبك الكبير: الخليفة.. يمكنك أن تتمادى.. وأن تظلم.. أن تفسد حتى، وتدعي أنك تصلح، وأن تفعل كذا وكذا.. بحجة أنك إنما تفعل ما تفعل باسم الله..

حدث ذلك عبر التاريخ.. ويمكن أن يحدث.. أن يساء استخدام اسم الله، كما يساء استخدام أسماء أخرى، فترتكب الفظاعات باسم أرقى المبادئ وأكثرها تحدثاً عن العدالة والحرية..

لكن أن يساء استخدام المبادئ "الإنسانية" شيء، وأن يساء استخدام "اسم الله" - جل وعلا - شيء آخر تماماً.. وهو أمر تقيده، وتحيده، وتمنعه البسملة نفسها..

كيف؟..

لأن "البسملة" - منذ أن أرسل سليمان كتابه "الكريم" إلى ملكة سبأ - استقرت بأن تكون مقيدة" بالرحمن الرحيم"..

ليس أي اسم هذا الذي نعمل باسمه.. من أسمائه سبحانه وتعالى..

من بين كل أسمائه - على كثرتها - فإنه عز وجل شاء أن يحدد لنا اسمين فحسب، لكي يكون عملنا ضمن "النطاق" الذي يحدده هذان الاسمان..

والاسمان، يحددان نطاقاً منحازاً تماماً للرحمة.. أي عمل تقوم به، وتقول إنه باسم الله، ولا يمكن أن يصنف ضمن رحمة الله، فهو ليس باسم الله حقاً.

بعبارة أخرى: التخويل الذي منحه الله لك، ليس تخويلاً مطلقاً بالتصرف كيفما كان..

إنه مقيد - حتماً وبلا تراجع - بأن يكون عملك جزءاً من رحمة "الرحمن الرحيم"..

ولذلك فالبسملة نفسها، تكذب، كل من يتلفظ بها ليسفك دماً حراماً أو يظلم.. أو يفسد في الأرض..

البسملة - بالتعريف، وبارتباطها الأساسي بالرحمن الرحيم - تعريه وتكشفه.. تبرأ من كل "فعل" يتخفى تحت اللفظ، دون المعنى..

من أجل ذلك؛ كي لا يصير "اسم الله" شعاراً تمرر عبره كل الجرائم، فقد ارتبط اسم الله بالرحمن الرحيم حصرياً، وكأن هذا سيجعل من يتلفظ بالبسملة ويفعل ما يخالفها، يقول عن نفسه صراحةً أنه كذاب، كما لو أنه قد كتب ذلك على جبينه دون أن يعلم..

وكم من أفعال، كم من قرارات، كم من بيانات وأحكام

وفظاعات فعلت استهلها مرتكبوها باسميه الرحمن الرحيم.. جاهلين، أنهم بهذه العبارة إنما ينسفون ادعاءهم.. ويبرؤون اسم الله وخلافته من أفعالهم..

من أجل ذلك، كان "اسما الله" اللذان اختارهما الحق في البسملة: هما الرحمن الرحيم.. لنتذكر أن تخويلنا مقيد، وأن استخلافنا مشروط..

هذا هو..

أهمية أن تؤمن بنفسك

ولا يجب هنا، ونحن أمام كل هذا العمق وكل تلك الآفاق المحتواة في البسملة، أن نغفل عن واحد من أهم هذه الأعماق، وأكثرها فاعلية من ناحية تعلقها بوظيفة الصلاة في حياة الإنسان..

"البسملة"، باعتبار أنها إعلان عن التخويل الذي استلمته. وباعتبار أنك تقوم بما تقوم به باسم الله تعالى، وليس باسمك الشخصي أو اسم أي شخص آخر، فإنها ستقويك، ستجعلك أكثر قدرة وأكثر إيماناً بقدراتك بالذات، ستجعل من كل ما يحول بينك وبين أهدافك أقل شأناً في ذهنك، كما يفعل التكبير في الافتتاح، أو "أول المسلمين" في دعاء الاستفتاح - إنك تكبر، يصير إيمانك بنفسك جزءاً من إيمانك بالله رب العالمين.. لن تنتفخ ذاتك بالأوهام، بل ستنمو كما ينمو نبات في بيئة صحية، ليكبر بالتدريج، ويثمر بالتدريج..

هذه البسملة، التي هي بيان الاستخلاف المرتبط باسم

من استخلفك، ستجعلك تؤمن أنه سيعينك - بطريقة ما - على مهمتك.. بغض النظر عن سلبية تصورك لنفسك في ذهنك (عاصٍ.. مذنب.. خاطئ.. بلا أمل.. إلخ) مهما كنت، فإن توصيفك الوظيفي؛ أي مؤهلك الأساسي - كونك إنساناً - سيجعلك مستخلفاً.. وسيعينك ذلك، على البدء بمهمة التغيير..

المهمة التي هي جوهر الصلاة التي إذا أديت كما يجب، فإنها ستكون أفضل الأعمال..



الفصل الثاني

استراتيجية "الحمد"...

تعودنا "الحمد" تلفظاً حتى كدنا أن نفقد المعنى، كما مع كل العادات، خمدت الشعلة المضيئة في المعنى، وصار بمثابة أنبوبة نيون باهتة على وشك النفاد، لن نفكر إلا في استبدال أنبوبة أخرى بها عندما تنفد تماماً، غير مدركين أنها يمكن أن تكون ضوءاً ساطعاً كاشفاً، يمكن أن تكون مصدراً مولداً للنور.. للطاقة، تغذي الروح والأعصاب وسائر أعضاء الجسد..

والحمد - كما كل "مصادر الطاقة" - يمكن أن يكون بوجهين، أو بالأحرى يمكن أن يوظف باستخدامين.. كما هو الحال مع الكهرباء، ومع الماء، ومع كل قوى الطبيعة، يمكن أن تكون نافعة جداً، مثمرة جداً. ويمكن لها أن تكون مدمرة جداً.. مفجعة جداً..

كذلك "الحمد" - يمكنه أن يوظف في سياق له إشارة سلبية جداً، وهو السياق المخالف للقرآن، ويمكننا أن نستخدمه كما أمرنا عز وجل. فإذا به سياق إيجابي جداً، بل ومتخم بالإيجابية..

هل هو "الحمد" نفسه..؟

لا.. فقط تشابه في الأسماء.. لا أكثر ولا أقل..

فالعبرة هي في طريقة الاستخدام: كهرباء أقبية التعذيب والمعتقلات، لا تشبه "الكهرباء" التي تنير قاعات الدرس والمصانع إلا بالاسم..

وجهان للحمد..

"الحمد" يمكنه أن يكون دواءً مسكناً للألم.. مثل عقار تخدير ناجح جداً.. ولكن، مع هذا (النجاح) فإن هذا هو، على الأغلب الجانب السلبي من الاستخدام.. وليس العكس..

لم ؟..

لأن الدواء المسكن، أو المخدر، رغم نجاحه في تخدير شعورك بألمك، وتخفيفه.. إلا أنه في الوقت نفسه، يلهيك عن سببه، يخفف من حدة حاجتك إلى مواجهة المرض حقاً لا لتخفيف أعراضه فحسب..

ولأنك لن تعود بحاجة ماسة إلى المواجهة، الآن وقد خف الألم، فإن المرض سيتقدم أكثر وأكثر، ما دمت لم تفعل شيئاً حياله.. وسيفاجئك في منعطف ما، لن تعود مسكناتك مجدية فيها.. لأنك كنت تزيد من الجرعة أكثر فأكثر، للحصول على القدر نفسه من التسكين..

* * *

أما "الحمد" الحقيقي، فهو "حبة" أخرى قد تشبه الحبة

الأولى في اللون والشكل والطعم، لكنه محض تشابه في الأسماء كما أسلفنا. أما التركيب الداخلي للحبة.. مكوناتها الكيميائية ونسبها - فهي مختلفة تماماً.. تماماً..

الحمد الحقيقي لا يبالي بالألم إلا بقدر تعلقه بسبب الألم، إنه يهاجم مصدر الألم؛ المرض الحقيقي وليس العرض الذي هو مجرد ناتج للمرض.. الحمد الحقيقي يهدف إلى العلاج حقاً حتى لو كان هناك ألم ناتج عن هذا العلاج، فلا بأس، لا شيء يأتي بسهولة. إنه يأخذ شكل تلك الحبة المقاومة بضراوة أحياناً، ويأخذ شكل العلاج بالإشعاع، أو بالجرعات الكيميائية أحياناً أخرى..

والحمد الحقيقي، قد يكون أحياناً جراحياً، استئصالاً لورم لا فائدة من معالجته..

هذا هو الحمد حقاً، ولكن أبداً ليس "التخدير"، أبداً ليس تخفيف الألم من أجل تناسي مصدره..

الحمد: الإصرار على الإيجابية

ورغم كل هذا التدرج في الوصف، من "الحبة" إلى "التداخل الجراحي"، فإني أتصور أن الوصف الأمثل للحمد الحقيقي، هو أنه بمثابة عدسة "لاصقة" تزرع على أعيننا ونرى الأشياء والعالم من خلالها..

إنها بمثابة "رؤية" للعالم من خلال منظور معين. عندما نفهم معنى الحمد فعلاً، فإنه سيصير فعلاً جزءاً من طريقتنا لرؤية العالم، ومن ثم لعلاقتنا مع هذا العالم ولموقعنا فيه..

وعندما أقول إن الحمد هو جزءٌ من تلك الرؤية فإني أقصد ذلك حرفياً، بمعنى أن الفاتحة بمجملها، تكون تلك الرؤية..

و"الحمد" حتماً هو جزء أساسي من ذلك كله..

* * *

وعندما يكون "الحمد" جزءاً من تلك الرؤية، وعندما يكون "الحمد" موظفاً في سياقه الذي يجب أن يكون، فإن الرؤية الناتجة، ستكون رؤية إيجابية جداً..

ذلك أن "الحمد" هو ذلك الانحياز الدائم - المسبق - للإيجابية في هذا العالم..

الحمد، الذي هو جزء من الفاتحة التي تتكرر - في الحد الأدنى - سبع عشرة مرة في اليوم، هو اتخاذ ذلك الموقف، الذي يصر على رؤية ما هو إيجابي في العالم..

إنه اتخاذ الإيجابية كزاوية ثابتة للرؤية.. والبقاء هناك.. عدم مغادرتها أبداً..

ما دمت تصلي.. ما دمت تقول "الفاتحة" سبع عشرة مرة في اليوم والليلة.. فإن زاوية الرؤية هذه ستظل ثابتة.. ملتصقة بك التصاق أهدابك بعينيك.. بل أكثر..

التصاق بؤبؤيك بعينيك..

إيجابية أن ترى السلبيات

والإيجابية هنا، الناتجة عن موقف "الحمد" هذا، هي أبعد ما تكون عن التفاؤل السطحي الساذج الذي هو في

حقيقته أقصى سلبية يمكن تخيلها، مهما زركشت بشعارات الإيجابية والحث عليها..

ليس من الإيجابية في شيء، أن ترسم صورة زاهية وبراقة لعالم بائس وتعيس؛ لأن هذه الصورة البراقة المزيفة ستعطل في داخلك إرادة تغيير العالم وإعادة بنائه بصورة أكثر عدلاً واتساقاً.. ليس من الإيجابية في شيء، أن تضع نظارات وردية على عينيك، لتغطي على صورة الدم الذي يلطخ العالم، والجهل الذي يكتسح العالم، والجوع الذي يكتسح العالم.. ليس من الإيجابية في شيء، أن تركز بعينيك على العالم المترَف، والناس المتخمة بطراً وثراءً بينما هناك عالم آخر، مدقع الفقر، يعيش فيه ناس آخرون، لا يمتلكون ما يسدون به جوع أطفالهم..

ليس من الإيجابية في شيء، أن تعتقد أن "على الأرض السلام، وفي الناس المسرة" وتشيح بوجهك عن كل ما يعارض ذلك.. من حروب ودماء وحزن وظلم تعيش فيه الإنسانية..

ليس من الإيجابية في شيء، أن تؤمن بأمل كاذب طويل؛ لأن هذا الأمل، سيزيف المعطيات التي سيكون العمل على أساسها، ومن ثم فإنه إما سيعطل إرادة العمل، أو يضعه في سياق غير مؤثر، فما دام العالم جيداً هكذا، فلماذا تغيره؟.. احرص فقط على استمراره كما هو..

* * *

الإيجابية الحقيقية، التي يمكن أن توظف في سياق إيجابي، ليست تلك التي تجعلك تتعايش مع الواقع السيئ عبر الاقتناع أنه ليس سيئاً جداً، بل أنه مليء بالإيجابيات ليسهل ذلك تأقلمك معه، هذه ليست إيجابية، هذه فقط "آلية إنكار"، حبة مسكن للألم، حقنة مخدرة تجعل الألم أقل..

الإيجابية الحقيقية هي التي تنطلق من حقيقة أن الواقع سيئ جداً، وأنه مليء بالظلم والقهر والتمييز والجهل وكل ما هو سلبي وسيئ.. لكنها تنطلق من هذه الحقيقة لا لكي تتجه للنواح والندب واليأس، بل لكي تؤكد أن ذلك كله مع سلبيته ليس قدراً مقدوراً، ليس حتماً مقضياً، بل هو شيء يمكن تغييره، شيء يمكن العمل عليه وعلى إزالته واستئصاله من جذوره إذا كان الخطأ من أساسه، وعلى تشذيبه وترميمه إذا كان الخطأ ناتجاً عارضاً..

الإيجابية هي أن تعترف أن الواقع - أحياناً، على الأقل - سيئ جداً، وأن العالم - أحياناً أيضاً - هو عالم "لا يطاق"..

لكن الأمر هنا، هو أن تؤمن، أن ذلك كله ليس نهاية الأمر.. ليس مرساه..

بل أن تؤمن أنك تطيق تغيير هذا العالم.. مهما كان ذلك صعباً.. مهما بدا ذلك شاقاً..

يجب أن تؤمن أنه ليس مستحيلاً..

ولو بعد حين..

"الحمد" من أجل التغيير

"الحمد" هنا إذن، ضمن هذا السياق، هو أبعد ما يكون عن كونه "تكتيكاً" مرحلياً يجعلك تنسجم مع واقعك، باعتبار أنه قضاء الله وقدره.. بل هو "استراتيجية" شاملة باتجاه التغيير وإعادة بناء العالم..

ليسَ "الحمد" ثناءً على واقع سيئ، بل هو الثناء على الله عز وجل لأنه منحك الوعي الذي يجعلك تفهم كيف يسير العالم، و "الإرادة" من أجل جعله مكاناً أفضل، إنه الثناء على الله لأنه خلق لنا عالماً واستخلفنا فيه؛ عالماً يمكن تغييره وإعادة بنائه وجعله كما أراد الحق عز وجل..

الحمد، لمستحق الحمد، عز وجل، سيكون بهذا حمداً مطلقاً، ودائماً وغير مقيد، لسبب بسيط وأساسي، وهو أن كل ما خلقه الله من إمكانيات للتغيير، ومن معطيات له، ومن "عالم" هو بطبيعته قابل للتغير، كل ذلك سيكون دائماً.. ما دامت هناك حياة، وما دام هناك هذا النوع الإنساني، المكلف بالتغيير..

* * *

وهكذا، فإن مواضع الحمد في القرآن الكريم، تتجه دوماً هذا الاتجاه؛ اتجاه "العلاج الحقيقي"، لا اتجاه "المسكن والمخدر" الذي استخدم بكثرة للأسف لأسباب ليس هنا مجال الحديث عنها......

جوهر الحمد

واحدة من الآيات القرآنية الكريمة، تكاد تكون آية مفتاحية لكل آيات الحمد، ولكل استخداماتها، ومن ثم هي مفتاح لأبواب كثيرة، من أبواب حياتنا ومغلقاتها..

ففي الحياة، حياة كل منا، تحدث أحياناً أشياء كثيرة، لا أستطيع أن أقول إنها "لطيفة"، بل إنها أحياناً أشياء لا يمكن وصفها بأقل من كونها مفجعة، كريهة..

ثمة أحياناً، ظلم، وظلم فادح، ثمة قهر.. ثمة فقر.. ثمة جشع.. ثمة تمييز..

ثمة "الحزن".. الكثير منه..

ولكن ثمة أيضاً: الحمد..

* * *

قد يطرق الباب يوماً ما، زوار فجر جالبين معهم الظلمة، قد لا يطرقونه حتى، بل يفجرونه ليدخلوا - والوقت فجر أو قبله بقليل - ثم يأخذون أحدهم، قد يكون أباك، وتكون هذه آخر مرة تشاهده فيها، وقد يكون أخاك.. وقد تكون أنت.. ولن يكون لك فرصة لتشاهد أولادك يكبرون..

ومع ذلك... هناك: الحمدُ لله..

* * *

قد تجد نفسك يوماً لاجئاً في البلد الغريب بلا سقف، بلا اسم، بلا عنوان، وكنت قبلها عزيز قومك، وابن عزيز

قومك.. ثم شردتك الدنيا فجأة بلا سابق إنذار، وأطاحت بأحلامك ويجنى عمرك وخططك وكل ما بنيته إلى تلك اللحظة.. ووجدت نفسك بعيداً في المنافي والأصقاع..

ومع ذلك، تقف، لتقول، سبع عشرة مرة في اليوم - في الحد الأدنى المقبول -: الحمد لله..

* * *

وقد تجد نفسك على وشك الغرق في التيار، والماء وصل إلى ذقنك، وأنت تحاول أن ترفع رأسك ليبقى أعلى من مستوى المياه،و وفوق ظهرك تحمل أطفالك، تشهق بصعوبة لتدخل الأوكسجين في رئتيك.. والماء يرتفع ويكاد يأخذك..

قد تجد نفسك مطحوناً في دوامة الحياة.. أعصابك تكاد تهترئ مثل جثة رجل غريق ملأتها عضات الأسماك.. تحاول أن تتوازن فإذا بك مثل من يمشي على حبل رفيع في الهواء، وتحته أسود تتضور جوعاً..

قد تكون الحياة تلعب لعبتها معك، بأقسى وأشد شروطها وقواعدها، وأنت لا تكاد تجد الوقت - ولو لحظة واحدة - لكي تخلو إلى نفسك، لكي تسترخي من شدة ضراوة اللعبة..

رغم ذلك، فإنك ستقف لتصلي، ولو انتبهت في صلاتك، لانتبهت، أنك، مع ذلك، ستحمد الله..

* * *

وقد تجد نفسك راجعاً من المشرحة، حيث استلمت جثة واحد من أحبابك.. قتلوه ظلماً، أو حتى بلا سبب.. وكانت المشرحة مليئة بجثث مشلوحة، قتلت أيضاً ظلماً، قتلت أيضاً بلا سبب، لكل منهم أحبابه وأطفاله الذين سيكبرون بلا أب، وسترجع دامع العينين وقلبك يجهش بالبكاء، ورائحة الدم تملأ أنفك حتى النخاع..

رغم ذلك، رغم أنه لا يصدق، ولا يطاق..

فإنك ستقف، وربما قلبك لم ينه بكاءه بعد، تقف، لتصلي، وتقول، ضمن أشياء أخرى: الحمد لله..

* * *

لا.. إنه لا يصدق.. ويبدو أحيانا أنه لا يطاق..

ولكن من أجل أنه لا يصدق.. ومن أجل أنه يبدو أنه لا يطاق، فإن هذا هو جوهر الحمد.. هذا بالذات هو جوهر "الحمد لله"..

الجوهر الذي توضحه تلك الآيات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٥/٣٢-٣٤]..

فالسياق هنا يتحدث عن إرث "للكتاب" ساهم في تشكيل أمة استخلاف، لا ريب أنها مرت بصعوبات بالغة

في أثناء تشكلها، لا ريب أنّ كانتّ أحزان كثيرة ودموع أكثر، ومصاعب ومشاق وألم وفراق، كما سيحدث في أي مخاض تاريخي..

لكن كل تلك المصاعب، وإن خلفت الألم والحزن، المهم ألاّ تخلف الحَزَن..

آلية مضادة للحَزَن

و "الحَزَن" غير الحزن، إنه الأرض الجامدة الصلدة التي لا تفلح ولا تنبت.. إنه الاستعارة القرآنية البليغة عن ذلك اليأس الذي يجعل مصاعب الحياة تحيدك عن دورك، تحيدك عن الحياة نفسها، عن تفاعلك ونموك وإثمارك.. تحيدك عن أن تكون "نفسك"..

وهذا هو جوهر وفاعلية "الحمد" - ووظيفته الأساسية: إذهاب الحَزَن، إذهاب اليأس والجدب وعدم الإثمار، الحمد وظيفته أن يأخذك من ذلك الركن البعيد، الذي ستجرفك إليه أحزانك ومصاعبك..

ويرجعك إلى حيث يجب أن تكون.. إلى موقع "الفاعلية"..

الحمد لله، والثناء عليه، لا يتنافى مع أن عينيك قد تدمعان، وقلبك قد يجهش بالبكاء.. فالحياة صعبة أحياناً (.. في الحقيقة إنها صعبة جداً).. لكن "الحمد لله" تقوي عمودك الفقري وتجعله يصمد أمام العاصفة.. "الحمد لله" تذكرك بأنه هناك، وأن الإطار الكلي للمشهد النهائي، أهم

وأهم من بعض التفاصيل الصغيرة التي قد نقف عندها طويلاً..

الحمد لله، تذكرك بألا تقف عند هذه التفاصيل طويلاً، وأن ترحل دوماً إلى حيث يمكنك أن تؤثر في المشهد النهائي، له الثناء والحمد، خلق لك الإرادة والوعي، وجعل من العالم كله ساحة تعج بالمؤثرات والسنن بحيث يمكن لك أن تغير فيه.. وهذا الثناء والحمد مطلقان غير مقيدين؛ لأن هذه العوامل الثلاثة ستظل قائمة، وستظل قادراً على الفعالية والتفاعل من خلالها..

"الحمد لله"، لا تنكر عليك أن الحياة صعبة، ولا تزيف لك عالمك عبر نظارة وردية.. لا، الحياة صعبة وشاقة أحياناً، تكون في بعض الأحيان وبعض الظروف، صعبة دائماً..

لكن، المهم، ألا تكون فوق طاقتك على الاحتمال.. فوق إصرارك على التغيير.

هذا هوا..

عدسة الفاتحة حتى الآن

فلنتذكر هنا، أن العدسة التي تبنيها الفاتحة، صارت الآن تضم عبر "البسملة"، و "الحمدلة" عنصرين أساسيين من عناصر الرؤية القرآنية..

عبر البسملة ثبت - في نفسك - أنك مكلف بالخلافة،

وأن لديك تخويلاً منه عز وجل للعمل، وهو تخويل مقيد بشيء واحد فقط: الرحمة.

وعبر "الحمد"، ثبتت أن مقر إقامتك الدائم سيكون الإيجابية، إنك مهما حصل، ومهما كان، ستظل تحمد الله وتثني عليه لأنك تعلم أنه أعطاك كل مقومات الاستخلاف والتغيير وأسبابهما..



الفصل الثالث

عز وجل يعرف عن نفسه

تثبت الفاتحة، بعد البسملة والحمد، صفات لله عز وجل، عبر تقديم هو بمثابة هوية تعريفية له..

فلنتذكر هنا أمرين؛ أولهما، أن الفاتحة نزلت في مرحلة مبكرة بعد العلق والقلم والمزمل والمدثر.. وهكذا فإن معرفة المسلمين بالله عز وجل لم تكن قد اكتملت بعد، ولعلها لم تكن قد وصلت إلى عشر معشارها، بل كانت تتراكم بالتدريج، مع توالي نزول آيات القرآن الكريم..

لذلك كانت الفاتحة، وفيها تفاصيل أكثر عن الله عز وجل وصفاته، بمثابة هذه الهوية التعريفية الحاسمة في "توضيح" ما يجب توضيحه عن الله عز وجل..

الأمر الثاني، هو أن هذه الهوية "التعريفية" لم تنتهِ صلاحيتها باكتمال نزول آيات القرآن الكريم، وباكتمال معرفتنا لما يجب أن نعرفه عنه عز وجل، ذلك أن الفاتحة أخذت "موضعاً" مميزاً يحتفظ لهذه "الهوية" بمكانها

ومكانتها؛ سواء عبر كونها ركناً أساسياً في الصلاة، أم عبر كونها المدخل الأساسي، للقرآن الكريم..

* * *

من أجل ذلك، فإن ما ستقوله لنا الفاتحة، عنه عز وجل، سيظل مهماً جداً، ومرتبطاً جداً، بسبب من أهميته، بتلك العدسة التي تزرعها الفاتحة في أعيننا..

وبالرؤية التي نرى من خلالها العالم، وموقعنا فيه، وعلاقتنا به..

عن العالمين الذي هو ربهم...

"رب العالمين"، هو أول اسم، أو.. أو "وصف" تعريفي له عز وجل، من هذه الهوية الثلاثية الأبعاد..

الرب، إذن...إنه الخالق، والمالك، والرازق..

لا شك في ذلك. لا جدال في أنه هو المالك والخالق والرازق.. لكن اختيار لفظ "الرب" تحديداً، قد يكون له معنى أوسع، أو على الأقل معنى آخر هنا.. دون أن يلغي ذلك معنى المالك، أو الخالق، أو الرازق..

فالفعل "ربب" الذي اشتق منه لفظ "الرب"، يحتوي من المعاني أيضاً على معنى "التربية".. ربَّى الصبي قام بتربيته.. والفعل يستخدم أيضاً للأغنام والمواشي التي تربى للحصول على ألبانها دون أن تذبح، ويسمى ابن المرأة من زوج آخر "ربيباً" عندما يربيه زوجها..

كما أن ربى السحاب "جمعها وأنماها"..

وكذلك ربى المطر "جمعه وأنماه"..

إذن: التربية، الجمع، والإنماء..

لنضع هذا في بالنا ونحن نعيد تشكيل رؤيتنا، عبر استرجاعنا لتلك العدسة، ولزواياها البؤرية المفتوحة على العالم كله..

التربية؟..

أليس هذا المعنى حقيقياً جداً؟.. بالأحرى: أليس هذا هو الذي يجب أن يكون؟.. أليس هو الحقيقة التي ليست بالضرورة الأمر الواقع.

الأمر الواقع، هو أن تربيتنا تتم بأساليب مختلفة، ومن مصادر مختلفة، بعضها تحتاج إلى إعادة تربية، وبعضها تتعمد الإساءة، وبعضها تقع ضمن خانة "فاقد الشيء لا يعطيه"..

الأمر الواقع؛ هو أن مؤسسات معينة، إعلامية خصوصاً، صارت هي التي تربي، ورغم أنها يمكن أن تقوم بدور إيجابي جداً إلا أنها تقدم تربية الشوارع الخلفية.. سواء بشكل مباشر أم غير مباشر..

أما الحقيقة؛ فهي أن الله عز وجل - الرب - الوحيد صاحب الحق في أن "نتربى" حسب قوانينه وقواعده..

إنه صاحب الحق، بالتعريف..

* * *

الجمع؟..

مرة أخرى، يبدو المعنى قريباً جداً من الحقيقة، بعيداً

غاية البعد عن الأمر الواقع.. فالإيمان الحقيقي بالله عز وجل، يمسك بشخصية الإنسان المؤمن، وينظمها بشكل متوازن - بالذات يكون مركز الثقل فيها، بطريقة تجمع كل الأطراف وتلمها في نقلة واحدة..

أما عندما يكون مركز الثقل خاوياً، أو مليئاً بأشياء غير مؤهلة للإمساك بزمام الشخص وأطرافه، فإنه وإن بدا قوياً متماسكاً، سيكون "فرطاً"..

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٨]..

إنها تربية لها أهداف واضحة، فالهدف ليس أن يمتنع عن منهيات هنا أو هناك، بل أن يكون امتناعه هذا ناجماً عن تماسك في شخصيته، عن صلابة ومتانة في بنيته الداخلية..

* * *

الإنماء ؟..

ليس هناك من معنى ظلم وأقصي أكثر من هذا. دوماً مفاهيم الأمر الواقع تأخذنا إلى إنماء في مقاييس مادية.. زيادة في الرصيد.. زيادة في الممتلكات، زيادة في الشهوات.. زيادة في الأولاد..

لكن الإنماء الحقيقي هو ذلك الذي يدور في أبعاد أخرى.. وبمقاييس أخرى.. إنه نموك الداخلي الذي يزيد من فاعليتك.. من إيجابيتك.. من قدرتك على الفعل والأداء.. وليس أي فعل وأي أداء.. بل الفعل الذي أنت

مطالب به، والأداء الذي يحقق الغاية من وجودك على الأرض.. إنه ذلك الإنماء الذي يشبه الحاضنة التي يضعون الأطفال الخدج فيها، فتمدهم بالأوكسجين وتعزلهم عن مؤثرات العالم الخارجي التي قد تضر بهم إلى أن يشتد عودهم..

كذلك الإنماء هنا، من الرب، إنه "الحاضنة" التي تشد عودك وتقويك من أجل أن تدخل العالم فتغيره وتعيد بناءه وتتفاعل معه لا أن تجعله يغيرك ويعيد بناءك كما يريد..

لكن الفارق هنا، أنك لا تغادر هذهِ الحاضنة تماماً، على الأقل، هي موجودة دوماً، تحيطك وتحميك وتظل تسند عودك وتقويه.. إنك لا تغادرها حقاً، إنها تظل تربيك.. إلا إذا اخترت مخطئاً أن تفقدها..

* * *

هذه المعاني الثلاثة، التربوية بما فيه الكفاية، ترتبط، كما أؤمن، بدور الصلاة في حياتنا.. بوظيفتها في إنشائنا وتكويننا..

لذلك لا غرابة، أن يكون الوصف الأول، الذي يأتي لله، في الفاتحة - الهوية التعريفية - وصفاً مرتبطاً بالتربية؛ بأن الرب هو المربي الذي يجب أن نتربى، ونجمع، وننمى من خلاله..

الإنسان مركزاً للعالم

ولكن هذا الوصف لم يطلق، مع أن الله هو المطلق

الوحيد، لكنه - الحق عز وجل - أضاف الوصف إلى ما يعرفه أكثر بالنسبة لنا، وهو الغني عن التعريف..

لم يقل: الرب، بالإطلاق..

لم يقل عز من قائل: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أو ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أو ﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أو ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أو رَبُّ ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾..

لا.. فمن بين كل ما هو ربه، من هذا الكون العظيم الفسيح - الذي خلقه بعلمه وقدرته وحكمته، فإنه تجاوز كل ما هو مبهر من وصف واختار بأن يعرف عن نفسه، ليس برب العرش العظيم، أو رب السماوات والأرض.. بل.. أن يعرف عن نفسه بأنه ربنا نحن.. نحن الذين نعتبر أنفسنا مخلوقات تافهة عديمة الشأن.

لكن لا، لا يبدو أننا تافهون.. على العكس...

لو كنا تافهين، لما كان رب العالمين، اختار هذا الاسم له..

بالذات، أن يختاره في فاتحة الكتاب.. التي ستصير "عدسة" لصيقة بأعيننا.. عبر تكرارها في كل يوم سبع عشرة مرة.. (في الحد الأدنى)..

* * *

عندما تصور الإنسان أن الأرض هي مركز الكون لم يكن على صواب بالتأكيد.. وعندما أعيد بناء تصوره على أن الشمس هي مركز الكون كان مخطئاً أيضاً.. وعندما

تشكل تصوره على أن الكون هو بلا مركز على الإطلاق، كان مرة أخرى قد جانب الصواب.. طوال الوقت، بينما الإنسان يبحث عن المركز، أو يبحث عن اللا مركز..

كان يجهل أنه هو المركز..

ليس الأمر بمدار بيضوي تدوره الأرض حول الشمس، أو المجرة حول نفسها، أو الكون حول اللا شيء..

إنه في العمق الذي يسكن الأشياء، في وجود إرادة للدوران، لا أن يكون كل شيء مسيراً فحسب..

تلك الإرادة هي مركز المركز - هي جوهره..

لذا، فإنه أنت، أنت مركز الكون..

سلسلة انقلابات أطاحت بك شخصياً

ولقد أغراهم مركزك هذا بالانقلاب عليك مرات عديدة، وأطاحوا بك من قمتك العالية المرة تلو الأخرى..

مرة زرعوا فيك أنك مخلوق تافه عديم الشأن قليل الحيلة، لا يستحق الذكر واجتزؤوا النصوص من سياقها ليدللوا على ذلك.. فكان أن آمنت بذلك، وتصرفت بالضبط كما هو متوقع من شخص يؤمن بأنه خلق ليكون بلا شأن ولا حيلة..

ومرة قالوا لك: إنك صدفة، جئت من العبث وتمضي حتماً إلى العبث، فأضعت الهدف والمقصد.. وكان كل ما فعلته هو بالضبط ما يتوقع من شخص آمن بأنه عبث..

ومرة قالوا لك: إنك مجرد نسخة مطورة قليلاً جداً من

فرد منتصب لم يعد بحاجة إلى ذيله، وآمنت بذلك، فآمنت ضمناً أنك حيوان مع إكسسوارات إضافية، فإذا بكل حياتك يعاد تشكيلها وتفسيرها لتصب في هذا القالب..

وليس لديك، كي تعود إلى مكانك القديم، إلى مركزك الذي أطاحوا بك منه ..سوى أن تؤمن بنفسك.

أن تؤمن بأنك مركز الكون..

وها هو الله ربك، يقول لك ذلك ضمناً، عندما يتجاوز كل عظيم مما خلق، ويعرف نفسه بأنه ربك..

رب العالمين..

رب من يمتلكون الوعي..

و "العالمين" لا تشمل كل شيء، ولا تضم كل ما خلقه الله.. فهي لا تشير إلى العرش العظيم - أو إلى السماوات والأرض.. أو إلى ما بينهما أو إلى المشارق والمغارب..

"العالمين".... حصراً إلى كل من يملك "الوعي" أو أدوات الوعي على الأقل، التي تجعله مهيئاً لكي ينذر، أو يهدى أو يتذكر.. أو يرحم..

ليس ذلك للسماوات - أو للأرض - أو للعرش، أو للملائكة.. ولكنه للعالمين فقط..

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٩٠].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧]..

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/١]..

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦/٣]..

كل هذه الآيات - ومثيلاتها كثيرات - تدل على أن للعالمين، أدوات معينة، **قد يكون العقل من ضمنها، وقد يكون الأمر أوسع، من الأدوات التي تهيئ وتمهد للعقل..**

المهم أنك تعلم - علم اليقين - أن الله لم ينذر عرشه ولا ملائكته ولا السماوات والأرض، ولا أنزل القرآن ذكراً لهم، ولا أرسل نبيه ليكون رحمةً لهم..

إنما أنزل ذلك كله، وجعله، نذيراً ورحمةً وذكراً.. للعالمين، ولك، شخصياً، باعتبارك من العالمين.. العالمين.. كلهم..

فلماذا "العالمين"، وليس العالم..؟ لماذا هذه الإضافة في المبنى التي تحتم حتماً زيادة في المعنى؟..

لأن هذه الزيادة، ستعطي ذلك المعنى لتعدد أصنافهم واختلاف طبقاتهم..

لقد كانت نقطة انطلاقهم واحدة ما داموا جميعاً أولاداً لآدم..

لكنهم بعد نقطة انطلاقهم الواحد تلك، تفرقت بهم السبل، واختلفوا في الطرق وفي مفترقاتها افترقوا، البعض منهم مضى حثيثا ولكن في الاتجاه الخطأ، والبعض ظل يراوح مكانه، والبعض ظل يدور في حلقه مفرغة، والبعض استطاع أن يجد بوصلة الطريق الصحيح..

مثل أطفال أشقاء لأب واحد وأم واحدة،.... تبنت كلاً

منهم عائلة مختلفة بظروف مختلفة، فنشؤوا مختلفين كما لو أنهم من عوالم مختلفة..

هذا هو معنى ذلك التنوع في العالمين.. رغم أنهم ربما قد ابتعدوا عنه، وفرقتهم عوالمهم عنه، إلا أن ذلك لم يغير من كونه ربّاً لهم..

واختار أن يعرف نفسه بذلك، رغم كل ذلك..

ربّاً للعالمين..

* * *

على اختلافهم واختلاف عوالمهم واختلاف ألوانهم وطبقاتهم وأجناسهم.. هو ربهم جميعاً..

رب أولئك الذين يعيشون في القصور الفارهة.. وأولئك الذين يعيشون تحت الجسور وفي الأنفاق.. رب أولئك الذين ولدوا وأقيمت لولادتهم الاحتفالات وتصدرت أنباء ولادتهم صفحات المجلات، ورب أولئك الذين ولدوا سراً وألقوا في العتمة على باب مسجد أو ملجأ، أو حتى في القمامة..

رب أولئك الذين فوق، ورب أولئك الذين تحت.. ورب أولئك الذين بين بين، يرنون إلى فوق بأمل، وينظرون إلى "تحت" بجزع.. رب أولئك يولدون ويوضع لهم رصيد ووديعة في البنك، ورب أولئك الذين يستدين آباؤهم ليسدوا مصاريف الولادة.. رب الذين دراستهم في المرحلة الابتدائية، تكلف أكثر مما ستفعل في الجامعة، ورب أولئك الذين لا يملكون ثمن الزي المدرسي الموحد.. رب أولئك

الذين ترمى فضلات طعامهم - بالأكوام - في القمامة.. ورب أولئك الذين يبحثون عن الطعام في القمامة.. رب سيدات المجتمع الثريات وقلوبهن المتخمة بالخواء والتشاوف.. ورب النسوة اللواتي يفقن من الفجر، وقبل الفجر، ليبدأن رحلة الكدح اليومي بين سماسرة العمل والمساومة في بيع المحاصيل.. رب أولئك النسوة اللواتي يستخدمن مساحيق تجميل تكفي لإطعام عشر عوائل.. ورب النسوة اللواتي ما عرفن غير القهر قناعاً لوجوههن.. رب الأصحاء المعافين.. ورب الأطفال المعوقين.. رب الجثث مجهولة الهوية تركت في العراء بلا مراسيم.. ورب الجثامين التي تنصب لها السرادقات وتقام لها الاحتفالات التأبينية.. رب أولئك الذين يبحرون في اليخوت المترفة.. ورب أولئك الذين يغرقون، بينما هم في مراكب صغيرة في عمق المحيط، بحثاً عن فرصة أفضل، يسمونها هجرة غير شرعية.. رب أولئك المتسولين عند تقاطعات المرور.. ورب أولئك الذين يمدون بأيديهم ليمنحوا النقود من السيارات المترفة وكل همهم ألا تمس أيديهم أيدي المتسولين.. رب أولئك الذين يعيشون حياة "خمس نجوم".. ورب أولئك الذين حتى لم يسمعوا بذلك.. رب الأغبياء الأغنياء الذين سيتكفل مالهم بشراء الشهادة واللقب والوجاهة الاجتماعية... ورب الأذكياء الفقراء، الذين سيضيع ذكاءهم فرصة مهدرة في مطحنة البحث المبكر عن العمل.. رب أولئك الذين يحلقون في درجة رجال الأعمال، ولا يرضون بالأدنى.. ورب أولئك الذين يتدبرون

بصعوبة أجرة باص مهترئ تشك أنه سيكمل الرحلة.. رب النسوة الفضليات، اللاتي لم يخطئن يوماً لأنهن لم يخرجن يوماً من لفافة الحماية حولهن.. ورب النسوة اللواتي بعن أجسادهن من أجل دواء وحليب ورغيف خبز... رب أولئك الذين حميتهم مكلفة أكثر من الطعام العادي.. ورب أولئك الذين ينامون على عزف أنين الجوع في بطونهم.. رب أولئك الذين يعلمون.. وأولئك الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون.. رب المؤمنين المتقين - لا يعلنون عن إيمانهم بين كل جملة وأخرى.. ورب أولئك المدعين، الإيمان عندهم كلمة لا أسهل منها.. ولا أسهل من تجاوزها أيضاً.. رب السجانين والمسجونين.. ورب الضحايا والجلادين ورب الزبانية والمعذبين.. رب أولئك الذين قضوا زهرة شبابهم داخل حفرة في معتقل.. ورب أولئك الذين تسببوا بذلك وهم لا يكفون عن الحديث عن العدالة والحرية.. رب أصحاب المبادئ حتى لو كانوا ملحدين.. حتى لو كانوا بلا شعارات.. ورب الذين لا مبادئ عندهم حتى لو كان عندهم مظاهرها وشعاراتها.. رب المشردين المهجرين اللاجئين.. كان عندهم بيوت مثل الجميع، ربما أكبر وربما أصغر من بيوت الجميع.. لكن تجار الحروب والدين والسياسة، من ملأ كل زمان ومكان.. شاؤوا أن يتقاسموا مصالحهم - وكان أن هجر هؤلاء.. رب الناجحين والفاشلين.. الأولين والآخرين.. رب الثائرين والنائمين.. رب أولئك الذين تكلفهم نوبة زكام بسيطة في مشفى فندقي بقدر ما يمكن أن يقيم أود

عشرة مرضى بمرض عضال.. ورب أولئك الذين يموتون من أجل لقاح تافه لا يتعدى السنتات العشر..

رب أولئك الذين لا قضية لهم ويخوضون مع الخائضين.. ورب أولئك الحالمين بعالم أفضل من هذا، عالم أقل تناقضاً وأقل بشاعة.. رب الذين يريدون أن يبقى العالم كما هو.. ورب أولئك الذين يحلمون بعالم جديد أكثر عدالة.. كل هذا، وكل هؤلاء وأكثر، هو ربهم جميعاً..

رب العالمين..

* * *

بعد "رب العالمين"، يأتي الوصف الثاني في التعريف الثلاثي الأبعاد الذي اختاره عز وجل ليكون في الفاتحة..

"الرحمن الرحيم" وهو ذات الوصف الذي قيَّد استخدام اسمه بقيد وشرط الرحمة، بحيث إن أي استخدام لاسمه، لا يقع تحت هذا الشرط، سيكون خارجاً - بالتعريف - عن التخويل الذي كلفنا به..

"الرحمن الرحيم" فلنتأمل فيها إذن..

عن الرحمن أولاً....

يقال عادة، إن "الرحمن" عامة ومطلقة لكل البشر.. وإن "الرحيم" تخص المؤمنين فقط..

.. لكن هذا وحده قد لا يملأ مداد المعاني الذي لا يملأه شيء، ولا سبعة أبحر..

فلنحاول أن نتقرب أكثر، وننقب أكثر.. لنعرف أكثر..

الألف والنون، التي دخلت على الفعل الثلاثي رحم، تفيد المبالغة، على وزن فعلان..

وهذا يعني، في حالة "الرحمن".. الحد الأقصى من الرحمة، الذي يمكن تخيله، أو بالأحرى، في الحد الأقصى الذي لا يمكن تخيله..

وهذا مناسب جداً، لما نعرفه من أوصافه عز وجل..

ولكن مرة أخرى ربما ليس هذا كل شيء..

* * *

الألف والنون، تفيد المبالغة.. ولكنها تفيد النسب أيضاً: فمما يقال عن شخص ما، شديد الالتصاق بقربه من الله عز وجل: إنه رباني، أو كما جاء في الذكر الحكيم عن الحياة الآخرة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٤]...

إذن لفظ الرحمن هنا، يفيد معنى المبالغة في النسب إلى الرحمة.. حاشا لله أن يكون منسوباً إلى شيء، لكن المعنى يتوازى ويتناسق مع أن الله - وهو الذي لا يسأل عما يفعل - قد كتب على نفسه الرحمة.. ولم يكتب على نفسه أي شيء آخر على الإطلاق..

﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٦/٥٤]..

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦/١٢]..

لعل هذا يفسر، تلك النسبة إلى الرحمة، في واحد من أكثر أسماء الله الحسنى مدعاة للتأمل..

الرحمن..

الرحمن: ثنائية الأسماء الحسنى وفرديتها

لم يرد ذكر لفظة الرحمن، بالتأكيد، أكثر من سائر الأسماء الحسنى (٥٧ مرة بالمقارنة مع ٩٥ مرة للرحيم مثلاً).. لكن ذكر الرحمن ورد بطريقة مميزة جداً، مميزة عن كل أسماء الله الحسنى التي ورد ذكرها بالقرآن الكريم ..ذلك أن الرحمن، هو الاسم الوحيد، الذي يذكر منفرداً - دون أن يتبع باسم آخر، كما هو الحال مع الأسماء الحسنى الأخرى له عز وجل.. والاستثناء الوحيد هنا، بطبيعة الحال، هو لفظ الجلالة ذاته..

كل الأسماء الأخرى، عدا الرحمن، ترد في سياق ثنائي، أو أكثر (غفور رحيم، عزيز حكيم، الملك المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر..)..

وحده الرحمن، يرد ذكره في كل السياقات التي ورد فيها، دون أن يتبعه اسم آخر..

كما لو أنه، لفظ مكتفٍ ومستغنٍ عن أي شرح آخر، يكفيه أنه الرحمن.. بلا أي وصف آخر، بلا أي تثنية على هذا..

كما لو أنه، كلفظ يحتوي كل الأسماء الأخرى.. يضمها ضمناً.. وتكون كل معانيها موجودة فيه..

أو كما لو أن الرحمة التي كتبها الله على نفسه، هي أظهر صفاته، وأكثرها بروزاً، وأكثرها "أهمية" في تعاملنا معه..

ربما.. وربما أيضاً توجد - بالإضافة إلى كل هذا - معان أوسع وأعماق أخصب..

الرحمة بعيداً عن التفكير بالتمني

لكن ما هي الرحمة في جوهرها، التي نسبَ الله نفسه لها، والتي كتبها الله على نفسه؟.. ما هي في أوضح صورها وأكثرها شمولية؟..

قد يبدو السؤال ساذجاً للوهلة الأولى.. فالرحمة معروفة.. ونحن كلنا نطلب رحمته عز وجل.. وليسّ منا من لا يأمل أن ينال رحمته..

لكن ما هو رائج عن الرحمة، هو الصورة الذهنية لها في رؤوسنا، بالذات المعنى الذي نتمناه لها، والذي قد يريحنا..

لكن الرحمة، في معناها القرآني، وهو المعنى الذي يجب أن تدور حوله كل الأذهان، قد يكون مختلفاً، ليس الاختلاف هنا اختلاف تضاد، بل قد يكون اختلاف سعة.. قد يكون المعنى أوسع بكثير، وحدوده أبعد بكثير، الحدود الضيقة المباشرة للمعنى في أذهاننا..

* * *

فلنتوقف قليلاً عند المعنى الرائج في أذهاننا، والذي ترسخه المعاجم إلى حدّ بعيد، فتذكر عن الرحمة أنها: الرقة والعطف..

لا ريب أن النموذج الأكثر شيوعاً للرحمة، والأكثر قرباً من هذا الفهم: هو نموذج الأم العطوفة الرقيقة ذات القلب الرحيم، والتي نؤمن أن الله سيكون أرحم بنا منها، على شدة رحمتها..

نعم.. هذا لا شك فيه.. إنما هذا جانب من الرحمة.. وقد يكون مختصاً مثلاً بـ (الرحيم)، وليس بـ (الرحمن).. أما (الرحمن)، وما دام الاسم مرتبطاً بالله عز وجل إلى هذه الدرجة فربما المعنى مرتبط بالصورة الأوسع للرحمة.. وليس بجانب منها..

نموذج الأم العطوف: هل هو إيجابي دوماً؟

فلنرجع إلى الأم الرحوم العطوف على أولادها.. ولنحاول أن نتدارس رحمتها بمعزل عن التفكير بالتمني..

لا شك أن الأم التي ليس في قلبها عطف ورحمة على أولادها هي أم سيئة، ولا شك أن أولادها سينشؤون عطشى إلى الحنان، وسيكون عطشهم هذا بمثابة عوق في نموهم ونضوجهم العاطفي وحتى الفكري..

لكن لا شك أيضاً، أن الأم التي تبالغ في الرقة والعطف أمام أولادها، تضعف أمام ضعفهم ودموعهم وطلباتهم، تؤدي أيضاً إلى إحداث (عوق) في نموهم النفسي والفكري، وتنتج على الأغلب أطفالاً اتكاليين مدللين

وفاسدين.. وهي بهذا ليست "الأم النموذجية" على الدوام.. فالمبالغة في الرحمة، قد تؤدي، كما في حالة فقدانها، إلى إنتاج بشر غير أسوياء..

لست بصدد التشبيه هنا، فهو عز وجل، ليس كمثله شيء، لكن فلنتذكر أن "الرحمن الرحيم"، سبقت برب العالمين، وقد رأينا كيف أن الرب، بالذات رب العالمين، لها معانٍ عميقة تتصل بتربيتنا - بنمونا.. وهذا كله، لا يبدو بعيداً عن "الرحمة" عندما ننظر إليها من هذه الزاوية.. خاصة وأن السياق كله جاء في مركز ثقل مهم من "الصلاة"، والتي نعتقد أن من وظائفها المهمة هي وضعنا على سكة النمو الصحيحة، على نسق النمو الصحيح..

* * *

فلنبحث في الرحمة قرآنياً، كيف هو، كيف هي رحمته؟.. وأين يمكن البحث عن جواب ذلك، أكثر من سورة، تحمل هذا الاسم بالذات؟..

عالم سورة الرحمن

لفظة "الرحمن" لم ترد إلا مرة واحدة في سورة الرحمن.نعم، إنها مرة واحدة فقط، ولكنها (مرّة) مهيمنة على نص السورة كله.. كل ما هو موجود في سورة الرحمن من أفعال الله عز وجل، سيكون منسوباً للفاعل الوحيد في السورة، الذي لم يرد له اسم، أو صفة أخرى،

ولم يظهر أبداً عبر الآيات إلا باسم الرحمن، في الآية الأولى[١]..

إذن كل سورة الرحمن، عن "الرحمن"..

فما الذي تقوله لنا، هذه السورة..؟

* * *

تقدم لنا السورة صورة عن عالم متوازن جداً.. تحكمه القوانين والسنن.. ويتحرك بحسابات دقيقة جداً.. كل شيء فيه موزون.. ومتوازن ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٥٥/٥-٦]..

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٠-١٢]..

إنه عالم متوازن، الظواهر الكونية فيه تجري وفق قوانين واضحة ومتوازنة، وكلها يرتبط بعضها مع بعض بتوازن أيضاً، لتنتج عالماً متوازناً،... تماسكه وقوته نابعان من التوازن..

لكن عالم الميزان الدقيق هذا ليس في الظواهر الكونية و عالم المادة فقط.. ولكنه يجب أن يكون أيضاً، في العلاقات بين البشر.. فـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٥٥/٧]– تتبع فوراً بـ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى

(١) مع الإشارة إلى اللازمة المتكررة: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ التي لا يمكن اعتبار أن فيها اسماً من أسماء الله الحسنى..

ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٨-٩]..

فالميزان هنا، كما في الآية السابقة، هو تلك الاستعارة اللفظية التي تعبر عن ذلك التوازن الدقيق بين كفتين، قد يكون بين كفة المطالب والاحتياجات، أو بين الروح والمادة، أو بين كفة الفرد وكفة المجتمع، أو بين كفة الحقوق وكفة الواجبات..

التوازن في ذلك كله، وبين ذلك كله، وبين أكثر من ذلك، هو الذي يصنع عالماً أرضياً موازياً لعالم الظواهر الكونية بتوازنه.. بارتباطه بالرحمن.. وبارتباطه بالميزان، ذلك أن ارتفاع المجتمع، لا يكون، إلا كما ارتفاع السماء، عبر وضع الميزان..

وتذكرنا ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٩] أن عملية الوزن، والموازنة، هي عملية مستمرة ودائمة، وهي لا تشمل فقط الأشياء المادية التي تقاس وتكال وتوضع في كفتي الميزان، ولا تشمل فقط القرارات الخطرة والتي تحتاج (عادة) إلى عمق تفكير، بل هي حالة وزن وتوازن مستمرة، تضعك أنت شخصياً في واحدة من كفتي الميزان، وتضع في الكفة الأخرى ما يجب أن تكونه، وما يجب أن تفعله.. ستضع العالم كما هو في كفة، وتضع العالم كله كما يجب أن يكون في الكفة الأخرى، وتحاول أن توازن، تحاول أن تساهم في تعديل الميزان، في جعل الكفتين متعادلتين..

وستعرف بالتدريج، أن كفة حقوقك، عندما تتوازن مع كفة واجباتك - فإن ذلك سيساهم، بالتدريج في صنع عالم أكثر توازناً.. عالم أكثر عدالة..

عندما لا يبغي شيء على آخر

وفي عالم الميزان المستقيم هذا، المبني على توازنات المجتمع، فإن جوهر التوازن، سيكون ألا (يبغي) شيء على شيء آخر، يظل هناك حاجز - برزخ - يبقي كل شيء في حدوده وضمن إطاره، ضمن حاجته الوظيفية التي سيفقدها لو وضعت في موضع آخر - وهكذا فإن توازنات الغيب والمادة والفرد والمجتمع والحق والواجب - كلها ستثمر (اللؤلؤ والمرجان) ما دام لا شيء فيها يبغي على الآخر.. ما دام كل شيء في موضعه..

معنى الرحمة الحقيقي

عالم التوازن، هذا، وتفاصيله، هو العالم الذي ابتدأت (صورته) أو (سورته) بذكر الرحمن، فالرحمة المنسوبة للرحمن هي ليست المبالغة في الرحمة بمعناها التقليدي، صورة الأم التي تعفو باستمرار عن أولادها، ولكنها الرحمة بمعنى التوازن العميق الذي يلغي أسباب الخطأ ويفقده مبرراته، الرحمة بمعنى ألا يبغي شيء على شيء، ويظل هناك الحد الذي يحافظ على كيان كل شيء ويكون بمثابة صمام أمان للصورة بأسرها..

ولذلك، فإن ابتداء السورة بذكر اسم الرحمن،

وارتباطها كلها بالرحمن، لن يلغي العقوبة التي يجب أن تحل، على من يستحق العقوبة.. فالرحمة ورحمة الرحمن هي في جوهرها التوازن والعدل، والتوازن والعدل لن يستقيما إذا تساوى الجميع ، بل سيكون هناك ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤١].. دون أن يكون هناك أي تناقض مع رحمة الرحمن،.. فلنلاحظ هنا أنهم "المجرمون"، إنهم ليسوا مجرد من أخطأ أو عصى أو من ضل.. إنهم المجرمون بامتياز؛ لقد تجاوزوا كل الحدود، كل قوانين التوازن في الكون من حولهم.. وكانت جهنم، في النهاية مجرد محصلة، مجرد نتيجة نهائية لتكذيبهم وإجرامهم ..وهذا عدل لا يتنافى مع رحمة الرحمن بل يتعاضد ويتناسق معه، بل إنه جزء جوهري منه..

ومن أجل هذا، سيكون أيضاً، في الجانب الآخر من الأمر، أولئك الذين كانوا جزءاً من التوازن، ولم يخرقوه أو يخلوا به، أولئك لهم، في تحصيل حاصل أيضاً، وبجزء من رحمة الرحمن ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠]..

نقطتا توازن: القرآن والبيان

وبين البداية والنهاية - بين قوانين التوازن ومحاولات الإخلال، وبين جهنم التي يساق إليها المجرمون، والإحسان الذي يجازي الإحسان - وضع الرحمن نقطتي توازن مهمتين، تساعداننا من أجل أن نكون على الجانب

الصحيح من الاختيار.. جانب الرحمن.. أين نقطتا التوازن هاتان؟..

لقد كانتا موجودتين دوماً - أمام أعيننا..

في مقدمة سورة الرحمن!!..

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/١-٤]..

عَلّمَ القرآن إذن - ليس بالضرورة أن يكون معنى (علَّم) هو ما في أذهاننا عن التعليم (وما في أذهاننا عن التعليم شيء مؤسف يختلط فيه التعليم بالتلقين الأصم والأبكم)..

علَّم القرآن، بمعنى أنه وضعه علامةً لنا، علامةً على طريق الاختيار والموازنة بين كفتي الميزان، علامة على درب حياة كل منا، تدله على الطريق الصحيح في كل مفترق طرق يواجهه..

نعم، إنه بمثابة العلامة على الطريق، المنارة التي تنير ظلمة البحار، البوصلة التي تهدي إلى الاتجاه الصحيح..

* * *

لكن هذا ليس كل شيء، فرحمة الرحمن، وضعت نقطة أخرى للتوازن، تنتهي معها كل حجة، ذلك أنه لم "يعلم القرآن" فحسب، بل "علم البيان" أيضاً، والبيان هو كل أدوات الفهم والإدراك والتجريد التي اختص عز وجل الإنسان بها دوناً عن كل مخلوقاته الأخرى..

(علم) القرآن، و (علَّمه) البيان هنا - تشيران إلى خطين متوازيين:

القرآن، علامة وبوصلة على درب حياتنا، والبيان، وسيلة لفهم هذا القرآن ودوره في حياتنا وفي دورنا على هذه الأرض..

إنهما جناحان لا يمكن التحليق من دونهما، لا يمكن رفع واقعنا من دونهما معاً، القرآن، وأدوات فهمه وإدراكه..

من دون الفهم، والقدرة على استنباط الجديد والمتجدد، سيتحول القرآن، إلى لوح حجري لا يتفاعل مع الواقع ولا يغيره..

ومن دون القرآن، ستكون أدوات الفهم ضائعة بلا بوصلة - بلا عتلة - بلا حدود..

معاً: القرآن والبيان، في وضع هذا العالم الذي خلقه الرحمن..

عالم متوازن: عالم جديد أكثر عدالة و تماسكاً..

* * *

خلق الرحمن، الذي ليس فيه تفاوت، هو الذي ينتج عالماً متماسكاً بلا فطور..

تنزيل هذا الخلق على الواقع وصنع مجتمع بلا تفاوتات، هو الذي ينتج إنساناً بلا فطور..

إنسان توازن فيه الجانبان اللذان نادتهما الآيات: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾..

ثم إنه الرحيم..

بعد الرحمن، يأتي "الرحيم"..

لفظ "الرحيم"، في حقيقته أقرب إلى صورة الأم العطوفة الرقيقة من "الرحمن"..

ولا يتنافى هذا طبعاً مع ما شرحناه من معنى رحمة الرحمن، بل هو بمثابة وضع هامش أوسع يتم فيه التخفيف عن أولئك الذين لم يحققوا التوازن المطلوب، ربما لأنهم حاولوا على الأقل، لكن محاولتهم لم تكف، أو ربما لأن الظروف حولهم كانت أشد وأقسى، أو ربما لأنهم غُرِّرَ بهم.. أو ربما لأسباب أخرى لا نعرفها.. لكن رحمة الرحيم تأتي بمثل الأخذ بشروط مخففة، أو إصدار حكم استئناف يخفف الحكم الأول الذي نتج عن عدم تعادل كفتي الميزان..

الملفت للنظر في اسم الرحيم، في التراكيب المزدوجة المؤلفة من اسمين لله تعالى، أن اسم "الرحيم" نادراً ما جاء في مقدمة هذه التراكيب.. وإنما جاء على الأغلب تالياً لاسم آخر..

ففي الـ (١١٥) مرة التي ذكر فيها اللفظ - في (٩٥) مركباً مزدوجاً - كان لفظ الرحيم على الأغلب تالياً لألفاظ أخرى هي: الغفور الرحيم، التواب الرحيم، الرؤوف الرحيم، العزيز الرحيم، وطبعاً الرحمن الرحيم..

فكون لفظ الرحيم جاء تالياً - على الدوام، في الأغلب

- للفظ آخر، يفسر أن رحمة "الرحيم" تأتي مشروطة ومكملة لصفات أخرى من صفاته عز وجل: وهو أمر مفهوم جداً في الغفور، الرحيم، التواب، الرحيم: ذلك أن الرحمة هنا جاءت بعد المغفرة (التي غطت الذنب) والتوبة (التي قطعت جذور الذنب)، أو مع الرأفة (بالغ الرحمة وخاصها)، والعزة..

وهذا كله، يعني أن معنى الرحيم يدخل في هامش (الاضطرار)، عندما يضطر الإنسان، هنا أو هناك، إلى أن يتجاوز حداً معيناً، فيكون، بحكم اضطراره ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ مع أنه قد يبدو أنه كذلك، لكنه باضطراره دخل في هامش آخر، وقانون آخر..

* * *

فلنتنبه هنا إلى أن سورة الرحمن، هي مدنية، رغم أنها تشبه، في أسلوبها وجوها، السور المكية..

لكن لهذا، مرة أخرى، ودوماً، دلالته المميزة، كما لو أن سورة تبين رحمة الرحمن بمعناها الواسع، وترسم صورة هذا العالم المتوازن، ما كان لها إلا أن تتنزل في المدينة؛ أي عندما يبدأ المجتمع المتوازن بالنهوض والقيام..

* * *

ليس الرحمن فقط إذن، ولا الرحيم وحده..

بل "الرحمن الرحيم"..

مركب لفظي يتواءم فيه معنى الرحمة العامة مع الخاصة؛ العامة: التي هي ذلك التوازن الذي بنى عليه الكون ابتداءً، والذي منح الجميع فيه الفرصة للإسهام في بناء عالم متوازن..

والرحمة الخاصة، التي هي النظر بالشروط المخففة، وإفساح المجال، من يستحق هامش الاضطرار..

الرحمة التي تخرجك من الرحم

وعندما يصير فهمك "للرحمن الرحيم" جزءاً من رؤيتك الإيجابية للعالم، جزءاً من العدسة التي تنظر من خلالها إلى العالم، فإنك ستعتبر أن مهمتك في إعادة بناء العالم، تتعاضد وتتقوى بالرحمة العامة التي أودعها الله في بنية الكون: التوازن..

ولذلك فإنك تشعر أنك جزء من رحمته، عندما تعيد التوازن لميزان اختلت كفته هنا أو هناك..

سيكون عملك معززاً برحمتين؛ العامة التي تأمل أن تصير جزءاً منها.. والخاصة التي ستأمل أن تشملك، على اضطرار هنا، أو خطأ هناك.. لا يخلو منه إنسان..

مع "الرحمن الرحيم"، ستشعر بأنك مغمورٌ برحمته..

لكنها الرحمة التي تقويك، الرحمة التي تجعلك أصلب.. وأكثر إثماراً.. وأكثر فاعلية..

إنها (الرحمة) التي تخرجك من (الرحم): تجعلك تولد من جديد..

عن البعد الرابع: رصيدنا كله

يكتمل التعريف الثلاثي الأبعاد، بمالك يوم الدين..

وكما مع كل شيء، صارت الكلمة لا تكاد تثير الانتباه، ولا نجد فيها غير الدلالة السائدة في الأذهان عن السيادة، والحكم في يوم الدين..

لكن لفظة (مالك) هنا، تطلق سراحنا في آفاق أخرى، تدق مسماراً صغيراً في جدار المعاني، وتجعلنا نتسرب معه، نحو ما خلف الجدار، فإذا بالعالم يصير عالماً مختلفاً مضيئاً.. وإذا بالإنسان يشعر أن بإمكانه أن يبني هذا العالم.. ويحوله من الواقع الافتراضي، إلى أرض الواقع..

التملك، أو الحيازة، يستعمل عادة مع مقتنيات ثلاثية الأبعاد، مقتنيات مادية.. بالمعنى المباشر المعروف..

لكن هذه الهوية الثلاثية، لله عز وجل، تتجاوز مرة أخرى ذلك، وتتجاوز الأبعاد المادية للحيازة، وتعرّف الله باعتباره أنه مالك لشيء غير مادي، وغير ملموس.. ولا يمكن تعبئته بقوارير ولا تسويقه حتى عبر آلة الإعلام التي تبدو قادرة على تسويق كل شيء..

من بين كل ما يمتلكه مالك الملك، وهو مالك كل ما يمكن أن يمتلك في هذه الدنيا وفي سواها.. فإن الفاتحة تتجاوز كل ذلك وتتجاوز كل ما يبهرنا عادة من المقتنيات التي عودتنا أخلاقيات السوق على تثمينها وتقديرها.. وتتجه نحو شيء آخر تماماً..

هذه المرة، التملك له شكل مختلف، شكل يفجِّر مفاهيمنا التقليدية عن الأشياء وعن قيمة الأشياء.. وعن طبيعة الأبعاد التي تحكم حياتنا..

هذه المرة، القيمة العليا للتملك تكمن في بعد آخر تماماً غير الأبعاد الثلاثة..

إنه امتلاك البعد الرابع.. الزمن..

هذا هو أعلى ما يمكن امتلاكه..لأنه ما لا يمكن امتلاكه حقاً إلا منه عز و جل..

ولهذا فقد جاء في الفاتحة..

* * *

للوهلة الأولى، سيبدو لك أن الزمن هو ما لا يمكن أن يملكه إنسان، سواء كان قارون أم فرعون أم أوناسيس أم أي من أعضاء قائمة فوربس للأثرياء ومثيلاتها ممن نعلم أن أملاك بعضهم تفوق قدرتنا على الخيال وعلى الإحصاء..

كل ذلك وأكثر، نفهمه، لكننا لا نستطيع أن نتصور أنهم يمتلكون الوقت، أو يستطيعون تحويله إلى أرصدتهم السرية وخزائنهم المصفحة.. ومهما حاولوا، فإن وقتهم عندما يبلغ نهايته، فإن أرصدتهم وناطحات سحابهم وجزرهم.. لن تزيد ثانية أو تضيف دقيقة إلى وقتهم..

الوقت، يساوي بين الجميع، مهما كانت المشافي باهظة الثمن والعلاج نادراً.. لابد أن يأتي وقت ما، ينتهي فيه وقت الجميع..

الوقت، لا يملكه أحد..

إلا مالك يوم الدين..

أو هكذا سيبدو للوهلة الأولى..

* * *

للوهلة الثانية، سنكتشف أننا لا نملك شيئاً بقدر الوقت، إلا أن امتلاكنا له امتلاك من نوع مختلف.. صحيح أن الزمن لا يمكن وضعه في قارورة، أو في علبة أو خلف" فترينة".. لكنه كل ما نملكه حقاً، بمعنى أنه الشيء الوحيد، الذي يتساوى في امتلاكه جميع البشر، فقيرهم وغنيهم.. ما إن تبدأ حياة كل منا، منذ أن نلج هذا العالم، حتى تقلب تلك الساعة الرملية، وتبدأ حبات الرمل بالتسرب من الخانة العليا إلى السفلى ..حبات الرمل تلك هي كل ما نملكه، وهي رصيدنا كله.. كل منا له عدد محدد ومحدود من الحبات، يختلف من فرد لآخر.. ولكن، ومع كل ما نقتنيه في حياتنا، فإن حبات الرمل هذه، هي أهم ما نملكه.. حتى لو كنا غير قادرين على إمساكه بأيدينا..

كل ما نملكه، من الأشياء الملموسة، هي محض معايش، بعضها ضروري ولا عيش من دونه، بعضها كماليات صارت تبدو ضروريات، بعضها ضار، وبعضها نافع، وبعضها لا يضر ولا ينفع..

عبر حبات الرمل تلك، نتمكن من أن نحصل على هذه المعايش، أن نحوزها وأن نقتنيها..

وعبر حبات الرمل، يمكن لنا أيضاً، أن نحول كل حبة رمل منها إلى أرض خصبة، أرض مستثمرة..

لو وعينا طبيعة امتلاكنا لها..

الاستخلاف في الوقت

ولكن امتلاكنا لحبات الرمل تلك، للوقت، لذلك البعد الرابع، هو في حقيقته امتلاك من نوع خاص، إنه حيازة مؤقتة فحسب - نملكه بقدر عدد الحبات، ثم ما إن تنفد، حتى يؤخذ منا..

إنه في حقيقته، تخويل استعمال فقط، الذي هو جوهر الاستخلاف على الأرض..

أما مالكه الأصلي، فهو الوحيد الذي يمكنه حيازة الوقت، حيازة البعد الرابع، وطيه، واسترجاعه، ذلك أنه المطلق المنزه عن الأبعاد - بل خالق ومبدع الأبعاد كلها.. مثنى وثلاث ورباع.. إلخ..

الله عز وجل، هو مالك الثواني والدقائق والساعات والأيام..

إنه مالك الزمن.. بكل تقسيماته..

إنه مالك اليوم، ويوم غد، ويوم أمس..

إنه مالك يوم الدين..!

وحياتك ملحمة تبدأ من شروق الشمس..

اليوم، هو الوحدة الزمنية التي اختارها عز وجل

لتكون قياساً زمنياً للإشارة إلى "البعث" أو "القيامة": لذلك فإن لدينا يوم الدين، يوم القيامة، اليوم الآخر، يوم البعث، يوم الحساب ..يوم التغابن، يوم الفصل..

هذا غير الآيات الأخرى، التي تصف يوم القيامة بيوم أيضاً دون اسم محدد مثل الأسماء السابقة، مثل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٧٠/٤٤]، ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٥] ..﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١٣] ..﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ٤٠/١٦]، وغيرها كثير من الآيات التي تتعامل مع "يوم" القيامة.. وليس أي وحدة زمنية أخرى..

ربما يكون هذا له معنى مرتبط بأن اليوم، قد يأتي عند العرب ليفيد الوقت بالمطلق، وقد يكون مرتبطاً بمعناه اللغوي الأصلي: الوقت من طلوع الشمس إلى مغربها، رغم أن ذلك لن يحدث فعلياً يومَ القيامة، لكن ليذكرنا بوقت الفاعلية والنشاط والجهد، الذي دارت حوله، وعليه، أوقات الصلاة الخمسة للسبب ذاته، كل يوم، بهذا المعنى، وحدة زمنية مستقلة مرتبطة بحركه الكون: حركة الشمس والأرض ودوران كل شيء في مداره يتطلب أن تكون أيضاً أنت في مدارك، بفارق أن مدار الأرض، والشمس، وكل شيء آخر، هو مدار وضعه عز وجل وليس للأرض أو للشمس أن تخرج عنه، أما مدارك أنت، فلك الخيار والإرادة في أن تخرج عنه (وتتحمل نتائج ذلك لاحقاً)، بل إنك أنت من لك الحق في صنع هذا المدار وإعادة تشكيله ما دام محوره ثابتاً..

يذكرك لفظ (اليوم) بكل هذا، ويجعل من كل (يوم) في حياتك مشروع حساب: **هل ساهمت في شروق الشمس فيه؟.. هل ساهمت في جعلها في أعلى نقطة لها في مدارها؟.. هل حاولت أن تحافظ عليها؟.. هل جعلتها تأفل؟.. هل تحفزت في انتظارها وهل مهدت لفجر آخر؟..**

كل حياتنا يمكن أن تختصر في ملحمة يوم واحد.. البعض يفضل أن يجعل منها ملهاة، في عبث سخيف.. والبعض يجعلها مأساة في سلبية قاتمة، والبعض يجعلها بلا ملامح في خوض مع الخائضين، ولكن كل حياة يمكن أن تكون ملحمة، يمكن أن تقدم إضافة لحياة الجميع، يمكن أن تجعل الأرض مكاناً أفضل..

كل حياتنا، بعد أن نجردها من التفاصيل غير الضرورية، لا تكون غير (يوم) واحد بين الظل والضوء، بين طلوع الشمس وغروبها، بعضهم يفضل الظل، وبعضهم يساهم في الضوء، وبعضهم لا يبالي..

لكن (اليوم) هو اللفظ الأكبر دلالة على حياتنا برمتها..

ولهذا جاء في الفاتحة، لتذكرنا بحبة رمل، هي كل رصيدنا..

* * *

لكن لماذا يوم الدين، وليس يوم القيامة، أو البعث أو الحساب، وهي أسماء وردت في القرآن الكريم، أكثر مما ورد يوم الدين..

لكن الفاتحة، بموقعها المركزي سواء في القرآن أم في الصلاة، لا تذكر غير "يوم الدين"..

لا بد أن يكون هناك مغزى في ذلك..

"يوم" كان التحدي الابليسي..

من خلال العدسة القرآنية، فإن يوم الدين، كان هو أول اسم أطلق على يوم القيامة، قبل أن يستخدم أي اسم آخر..

كان ذلك في بداية مبكرة جداً، منذ أن خلق الله النوع الإنساني، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، فكان التمرد الابليسي على الأمر، ومن ثم ذلك التحدي الذي تقع حياتنا بين شقيه، بين أن نكون عند حسن ظن إبليس، أو أن نخيب توقعاته..

يومها، وعندما طرد إبليس من رحمة الله، وفي تلك اللحظة الحاسمة، جاء الوعيد الإلهي صريحاً، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/٣٢-٣٥]..

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٧٥-٧٨]..

يوم الدين إذن، هو أول ما استخدم من أسماء ذلك اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة الكاملة للأشياء، وتصطف كل الأجزاء والتفاصيل في إطارها الكامل المتكامل، سيكون لكل جزء موقعه من الصورة والسياق والإطار، وسيكون تقويم الخير والشر من خلال هذه الرؤية الشاملة، سيتكون الحكم، سيدان كل ما فعلنا، كل ما أنجزناه، من خلال هذه الرؤية الشاملة..

الرؤية الشاملة للحياة هي (الرؤية الكاملة)، ما دامت ليست رؤية بشرية لديها قصر نظر هنا أو بعد نظر هناك أو عمى تجاه لون معين.. وهذا هو معنى "الدين" في القرآن الكريم، كما مرّ ذلك في "ملكوت الواقع"، ليس "يوم البعث من القبور"، فذلك مجرد بداية، ولا يوم يقوم الناس، فذلك تمهيد لما سيحدث، ولا حتى يوم الحساب، فما دام الحساب مستمراً فذلك يعني أن الحكم لم يصدر بعد - ولكنه يوم "الدين"، حين يصدر الحكم.. حين ينتهي كل شيء.. حين تتوج الصورة بالعدل الذي يكملها ويتمها..

والتقابل بين "الدين" مفهوماً عاماً وبين "الدين" في "يوم الدين" حتمي وبدهي: فالدين هو تلك الرؤية للحياة، وطريقة الحكم على الأشياء وقياسها وتقويمها، "يوم الدين" هو اليوم الذي يتضح فيه، بلا أدنى مجال للشك، أن تلك الرؤية هي الحق، ولا شيء بعد الحق، غير الضلال..

* * *

عليّ هنا أن أشير، إلى أن التعريف الثلاثي بالله عز

وجل، في سورة الفاتحة، لم يحتو على أي وصف يمكن أن يثير مشاعر الخوف، على أهمية هذه المشاعر أحياناً كرادع، ووجودها بوفرة في سياقات أخرى في القرآن الكريم، لكن "مالك يوم الدين" ليست ضمنها على الإطلاق، يشبه الأمر، في النهاية، تحديد موعد لتأدية امتحان مهم، وإخبارك في الوقت نفسه، أن النتائج ستعلن في "وقت معلوم"..

ماذا كنت تتوقع إذن؟..

أن تؤجل النتائج، إلى أبد الآبدين؟..

أهمية فهمنا لمالك يوم الدين

ماذا يترسخ لدينا في رؤيتنا مما فهمناه من "مالك يوم الدين"؟..

هناك أولاً، أهمية عنصر الوقت، واعتباره أثمن من أي شيء آخر، باعتبار كل وحدة زمنية فيه، يمكن أن تساهم في جعل العالم أفضل، لو أحسن استثمارها واستخدامها.. كل حبة رمل يمكن أن تصير منجماً للخصب، كل قطرة ماء يمكن أن تساهم في العطاء، في توليد الطاقة. كما أن حبة الرمل يمكن أن تكون مجرد حبة رمل، وأن تذهب قطرة الماء هباء، لكن الالتحام بمفهوم القيمة العليا للزمن، سيجعلك تحطم الأبعاد التقليدية وتقتحم ذلك البعد الرابع، فيكون منجزك وإنجازك، على صعيد الأبعاد الثلاثة المادية، أكثر تحدياً لعوامل الزمن، وأكثر قدرة على البقاء..

عندما تلتحم بتقويمك هذا للزمن، فإنك تصير أقل قدرة على تضييع الوقت، وأقل قدرة على "قتل الوقت".. ذلك أنك تفهم الآن أنك مستخلف فيه وعليه، وإن استخلافك هذا، سيجعل الحياة أفضل، بينما قتل الوقت، في اللا شيء، سيقتل الحياة نفسها..

* * *

الأمر الثاني، مما نفهمه من "مالك يوم الدين" هو أن رؤيتنا ستضعنا في إطار ذلك الصراع القديم بين آدم وإبليس، وهو صراع قديم - جديد بهذا الإطار، وهو لا يخص آدم فقط بل النوع الإنساني كله، كل فرد فيه عليه أن يثبت أنه مؤهل فعلاً للاستخلاف، وأنه يستحق أن ينال الشرف الذي منحه الله له: شرف سجود الملائكة للنوع الإنساني..

* * *

الأمر الثالث، هو أن مما نفهمه من "مالك يوم الدين" سيذكرنا أن الدين، هو مفهوم أوسع بكثير من شعائر وطقوس منفصلة عن الحياة، بل إنه مفهوم واسع للحياة، وسيلة لقياس الأمور وتقويمها ضمن هذا المفهوم..

ارتباط اللفظين "اليوم" و "الدين" في مركب واحد، سيعطيك أيضاً ذلك الإيحاء بأن يكون يومك (أي حياتك كلها..) مصبوباً في إطار تلك الرؤية الشاملة متعددة الآفاق للحياة..

لن يكون يومك يوماً، ولا حياتك حياة، إن لم يكن للدين، بهذا المعنى الواسع للدين..

الفصل الرابع

محور مثالي لأهم علاقة في حياتك

بعد أن أثبتت الفاتحة طبيعة التوصيف الوظيفي للإنسان، وحددت الموقف الإيجابي تجاه العالم، ورسمت الخطوط العامة للتعريف بالله عز وجل، فإنها ستنتقل إلى محور أساسي في الفاتحة ومحور أساسي في حياتنا أيضاً.. في علاقتنا به عز وجل.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ١/٥]..

* * *

يشير تقديم "الضمير" على الفعل وهو أسلوب من أساليب التوكيد، إلى أن الفعل نفسه، سيحصل بكل الأحوال، العبادة والاستعانة، سواء لله، أم لسواه، وتقديم الضمير الذي يشير إلى الله عز وجل على الفعل، يقدم ربطاً مستحكماً لهذا الفعل بالله عز و جل حصراً..

لكن ما معنى أن الفعل نفسه سيحصل بكل الأحوال؟..

ثمة بشر لا يعبدون، ولا يتعبدون ملاحدة.. لا دينيون..

أو فقط كسالى لا يطبقون العبادة.. فكيف نقول إن الفعل سيحصل بكل الأحوال؟؟..

فلنتأمل الآن، مجدداً، في الفعل "عَبَدَ"..

* * *

مرَّ بنا، أن الفعل عبَدَ، الذي يفيد التذلل والخضوع، يفيد أيضاً معنى الطريق الذي يعبد بإقدام الناس.. ووجدنا أن المعنى الأعمق هنا هو "إعادة التشكيل" التي تكون، بحسب هذا المفهوم، أن تتشكل كما يريد معبودك..

هذا هو جوهر العبادة.. أن تكون كما يريدك معبودك أن تكون.. وأينما يريد أن تكون..

لا يتعلق الأمر بالتواجد في شعائر معينة وأوقات معينة فحسب، إنه أن تتشكل كما يريد، ولأن عملية التشكل هذه لا تنتهي عند عمر معين، ولا تقف عند حد معين - بل هي تستمر دوماً.. تتشكل دوماً..

القوالب وإنسان الطين

... خلق الإنسان من طين..

والطين مادة مطواعة، تستطيع أن تشكلها كما تريد.. تأخذ شكل القالب الذي تصبها فيه.. القالب بمثابة الإطار العام للطين..

كذلك الشخصية الإنسانية، رغم وجود مؤهلات فطرية فيها.. إلا أنها كذلك تشترك مع الطين في طواعيتها ومرونتها، صحيح أن هذهِ الطواعية والمرونة تقل مع تقدم

العمر، إلا أنه من الثابت أن الشخصية الإنسانية (تتقولب) بشكل القالب الذي توضع فيه، خاصة في مرحلة الطفولة..

وتقدم البيئات المختلفة قوالب مختلفة، ربما القوالب المتشابهة لا تنتج أشخاصاً متشابهين بالضبط؛ لأن (الطينة) المحتواة قد تختلف أصلاً، لكنه من المؤكد أن التوائم المتطابقة، لو وضعت في قوالب مختلفة، لأنتجت أشخاصاً متشابهي الشكل مختلفي المضمون..

و (القوالب) هنا، قد تكون عادات أو تقاليد اجتماعية، أو ثقافة معينة، أو حضارة معينة.. أو ديناً بعينه.. إنه قالب معين، نتشكل من خلاله..

* * *

الطين إذن، والقوالب..

التشكل، والتعبد.. فلنسجل هذا، ونتذكره..

* * *

بهذا المعنى الواسع، فإن تكوّن الشخصية، ونموها، ونضوجها، كله، هو في حقيقته، نوع من أنواع التعبد، بل هو التعبد في جوهره..لا أقول هنا إنه تعبد لله..لأن العبادة يوجهها بعضهم لغير مستحقها.. لكن نمو الشخصية و تشكلها يدخل حتماً بهذا المعنى ضمن التعبد..

[والصلاة، كما نفهمها - هي أهم هذه العبادات؛ لأنها فعلاً الأداة الأكثر فعالية لإنماء الشخصية وإعادة تشكيلها]..

وتشكل الشخصية، عملية تحصل بكل الأحوال، إنه "فعل" يجري سواء أدركت ذلك، أم لم تدركه، ذلك أن إدراكك نفسه مبني ومتضمن داخل عملية التشكل هذه..

التشكل عملية تلقائية، تحصل دونما ضجيج، ودونما إشعار مسبق أن ذلك يحدث..

مثل الشهيق والزفير، التشكل يحدث بكل الأحوال..

فلنسجل هذا... ولنتذكره أيضاً..

* * *

والتشكل هذا، لا يجري بشكل واعٍ غالباً.. بل هو غالباً ما يكون لا إرادياً.. يضعنا المجتمع في قوالب، ننمو ونتشكل من خلالها..

لا ينفي هذا أبداً وجود الإرادة عند الإنسان، التي يستطيع عبرها أن يكسر قالباً ما تم وضعه فيه.. ويخرج من إطاره..

لكن هذا، لنعترف، أقل وأندر..

التشكل كعملية حتمية

نحن عموماً في حالة تشكل مستمرة، تختلف وتيرتها مع اختلاف العمر، وتتباطأ بحدة مع تقدمه، لكنه لا يتوقف تماماً..

وجود الإرادة والوعي يمكن أن يقلب عملية تشكل معينة، أو يزيد وتيرتها، أو حتى يبدل القالب الذي تتشكل من خلاله..

وعملية التشكل هذه، تتم عبر قوالب توفرها البيئة والمجتمع والثقافة والإعلام، قد تكون قوالب عالمية تتخطى الحدود والقارات، وتنتمي لحضارة كاسحة منتصرة، وقد تكون قوالب محلية محدودة بمكان وإقليم.. وقد تكون إيديولوجية معينة.. أو مذهباً دينياً معيناً.. أو فلسفة معينة.. اختارها شخص ما، ولو لم يكن لها أثر في بيئته الأولى..

وقد تكون قوالب قسر عليها.. ولم يدرك حتى أنه أقسر عليها..

هذا التشكل، وآلياته، هو في حقيقته جوهر "العبادة" - إذا عدنا إلى جذرها اللغوي - حتى لو لم يكن هناك شعائر وطقوس بالمعنى المتعارف عليه..

فلنسجل هذا كله، ولنقرأ الآن للمرة الأولى، بعد كل ما كان: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾..

أصب نفسي في القالب الذي تحدده أنت..

ما دام لا مفر من القوالب، ما دمت أتشكل بطريقة ما عبر القوالب المحيطة بي، فإني لن أجد نفسي إلا في القالب الذي حددته أنت لي..

إذا غفلت عن ذلك، فإن العملية ستجري بكل الأحوال، سأجد نفسي في قالبٍ ما، ربما قالب يحدده لي المجتمع، ربما قالب يحدده لي الإعلام،... ربما قالب ثبت عليه في طفولتي.

لكني لن أجد نفسي حقاً، إلا في قالب وضعه لي ذاك الذي خلقني..

ما دام التشكل حتماً محتماً، فإني لا أملك إلا أن أختار أن أتشكل كما يريدني من خلقني..

ما دام التشكل، عبر قالب ما، هو ما يجري في كل لحظة، فإني أستبق ذلك، أستبق الفعل.. وأحددك أنت، يا رب العالمين، لكي أتشكل كما تريد..

هذا هو، إياك نعبد.و هناك المزيد!.

وجه في المرآة...

الفعل (عَبَد) ليس جذراً للعبادة فقط، لكن يشتق منه أيضاً أحد أهم أسماء الإنسان، وأكثرها التصاقاً بحقيقته الداخلية..

أسماء الإنسان وألقابه، تشتق من معانٍ تخص كيانه، وحقيقته، واسم "الإنسان" مثلا، مشتق من حاجته إلى الأنس، من كونه كائناً اجتماعياً بطبعه، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن بقية جنسه، ووجوده كان دوماً مرتبطاً بوجود المجتمع من حوله..

تلك الحاجة إلى الأنس، المنعكسة في اسم الإنسان، حاجة أصيلة وعميقة، وتعبر فعلاً عن حقيقة "إنسانية".

لكن هناك اسم آخر له، للإنسان نفسه، يعبر عن حقيقة أكثر عمقاً، وأكثر التصاقاً به..

إنه اسم قد لا يعجب البعض.. وقد يشمئز منه

البعض.. قد يرفع البعض أنفه تكبراً - وقد يثير غضب البعض..

لكن هذا لن ينفي حقيقة أنه اسمك.. كما أنه اسمهم جميعاً، لا شيء - تفعله - سيغير ذلك، لا يمكنك حتى أن ترفع دعوى لتغييره في المحكمة.

لا يمكنك أن تهرب منه.. كما لا يمكنك أن تهرب من ظلك.. بل أكثر، كما لا يمكنك أن تهرب من انعكاس وجهك في المرآة..

أي اسم هذا؟..

رغماً عن أنفِ أنفك..

العبد!

الإنسان: عبد بالتعريف

العبد؟..

نعم.. العبد.. حتى لو لم يعجبك ذلك.. لكن حقيقة أنك "العبد" لن تبارحك حتى لو حاولت ذلك.. ربما انعكاسك في المرآة لا يوحي لك بالصورة التقليدية للعبد الأسود بشفاه غليظة وشعر أجعد، لكن من قال إن هذه الصورة الحصرية هي صورة العبد..؟

كل ألوان طيف النوع البشري، كل تدرجاته في البشرة والعيون والحجم.. كلها ترسم صورة هذا العبد..

الإنسان؛ أبيض البشرة أشقر الشعر، أسمر اللون أسود الشعر، هو العبد بالمطلق..

وحقيقة عبوديته، هي أكثر التصاقاً به، من جلده وأظافره..

عبودية عموماً

لا أقصد هنا عبودية الإنسان لله تعالى..

بل أقصد العبودية عموماً.. فالعبودية لله، هي مرحلة معينة من العبودية وهي المرحلة الأرقى، والأكثر تطوراً.. والأكثر قرباً والتصاقاً بحقيقة الأشياء..

العبودية لله، هي ربط العبودية الكامنة في داخلك باستحقاقها الأصلي، إذ إن أدوات "العبودية" ستجعلك دوماً عبداً لشيء ما، سواء أدركت ذلك أم لم تدركه، سواء اعترفت بذلك أم أنكرته، فإنك عبد دوماً لشيء ما..

أنت دوماً عبد لهذا الشيء، أو لذاك..

* * *

كما أن "الإنسان" سمي بذلك لحاجته للاجتماع بالآخرين وكسر عزلته، فإنه سمي أيضاً بالعبد لأنه يحتاج إلى أن يكون (خاضعاً) لشيء ما؛ أي أن يكون عبداً لشيء ما..

هذا الشيء ليس بالضرورة تمثالاً ضخماً في وسط الهيكل أو في الساحة العامة، أو أيقونة معلقة في صدر البيت، إنه قد يتخذ أشكالاً وأنماطاً متعددة..

لكن "العبودية" في الداخل تظل نفسها، تتعدد أشكال ارتباطاتها ومظاهرها، ولكن جوهرها، وهو الحاجة إلى الخضوع يظل واحداً، ويظل هو السبب الرئيسي في الارتباط بتلك الأشكال المختلفة..

فمنذ أن كان هناك إنسان، كان هناك دوماً الخضوع لشيء ما..

الخضوع لسلطة مجتمع، ممثلاً في العشيرة غير المستقرة - الراحلة - مرة، وممثلاً في سلطة العشيرة المستقرة مرة أخرى؛ رئيسها وتقاليدها وأعرافها، أو في رئيس القرية، أو في سلطة أكثر تعقيداً، بمملكة أو إمارة أو بنظام شمولي..

الأمر أعقد وأعمق من أن يكون الحاجة التنظيمية إلى القانون وسلطته.. إنه الحاجة العميقة الموجودة في عمق هذا المخلوق إلى الخضوع لفكرة أعلى؛ قد تتمثل في الدين، بأشكاله المختلفة، وقد تتمثل في فلسفة إنسانية، أو في إيديولوجية..

وتتمظهر هذه الفكرة - التي يخضع لها الإنسان - في مظاهر متعددة: مرة بشكل طقوس وشعائر توجه للمعبود الذي قد يكون الرعد أو البرق أو النار أو البقرة أو وثناً لرجل صالح، قد يكون في الخضوع لعادات وتقاليد تمثل كيان هذا المجتمع وهويته ورؤيته في الحياة..

وقد يكون في الخضوع لرجل ما، لشخصية زعامية تمكنت من أن تتماهى مع أمتها ومجتمعها، سواء كان هذا التماهي مصطنعاً عبر آليات الإعلام وغسل الدماغ، أم عبر تعبيره فعلاً عن إرادة هذه الأمة..

وقد يكون في الخضوع لنمط معين من الحياة، لطريقة

معينة في الحياة، في حقيقتها، تستبدل خضوعاً بآخر، أغلاله ربما غير مرئية، لكن هذا لا ينفي وجودها..

ليس هناك حرية إذن؟.. ليس هناك إلا الخضوع؟..

واستعدادنا للخضوع هو أكبر وأعمق، من قابليتنا للحرية..؟؟

الأمر ليس بهذه البساطة.. فالحرية تطرح حالياً بطريقة تجعلها لا تقبل النقاش، وأي تشكيك بالحرية، سيقابل بطريقة أشد مما يقابل به التشكيك بوجود الله عز وجل..

ففي عصرنا اليوم، يمكن لمن هبّ ودبّ أن يشكك بوجود الله ويعتبر ما يتقوله "حرية رأي"، أما أن تشكك بالحرية فهذا مرفوض تماماً..

وهذا يشوش جداً على كل شيء: بالذات على كون الإنسان مجبولاً على العبودية..

كيف وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

عبودية الذات

بعبارة أخرى: ماذا نسمي من يتمرد على كل القوانين والأعراف في مجتمعه.. ولا يطبق إلا ما يريده (هو) وما يراه (هو)، وما يشتهيه (هو)؟ نسميه ببساطة عبداً لذاته.. عبداً لشهواته.. عبداً لرغباته وميوله.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٣]..

أليس من اتخذ أهواءه الفردية إلهاً معبوداً بالخضوع والطاعة هو "عبدٌ" أيضاً، لكنه أبدل عبودية بأخرى، فبدلاً من أن يخضع لقوانين المجتمع حوله، سنَّ قوانينه بنفسه، واتخذ إلهه هواه..

إنها عبودية مكان أخرى..

"الحرية الشخصية"، عبودية... من بين العبوديات

ماذا عن "الحرية الشخصية" التي صارت قدس الأقداس في الحياة المعاصرة؟.. وصارت معياراً للتقدم والتطور في أنحاء العالم الحديث؟..

إنها عبودية مزدوجة: تضم عبوديتين في آن واحد..

العبودية الأولى هي العبودية لذلك الإله الفردي، القابع في غرائز وميول ونزعات كل منا، إله الهوى.. الحرية الفردية في جوهرها قائمة على تأليه الهوى و تقديسه، على تنصيبه إلهاً بلا منازع.. كل نظريات الفلسفة الفردية - لو جردت من تفلسفها وتنظيرها - هي فقط تطوير لفظي لتأليه الفرد لهواه.. لذلك الذي اتخذ إلهه هواه..

كل ما في الأمر أن الأمر صور وسوّق على أنه صواب.. بل على أنه الصواب المطلق..

* * *

والعبودية الثانية هي تحويل نمط الحياة المرتبط بالفردية إلى نمط حياة لا يقبل النقاش أو الاستبدال..

نمط حياة يمجد "الحرية الفردية" ويقول لكل فرد إن حريته الفردية هي أغلى قيمة، لكنه، كتحصيل حاصل، ينتج مجاميع من أفراد متشابهين جداً، أفراد يؤمنون تماماً أنهم أحرار، ولكنهم لا يرون الأغلال التي تشدهم من أيديهم وأرجلهم: أغلال تجعل من حريتهم مقصورة على حياة هي "حياة دنيا" بكل المقاييس: حياة ببعد واحد، حياة "الآن و هنا." حياة التمتع بأكثر ما هو عابر عبوراً وسطحية، حياة هي السطح الظاهر بلا أي عمق، بلا أي بعد، بلا أي ارتقاع..

حياة تختصر فيها الحرية إلى حرية اختيارك بين مشروب غازي وآخر.. وبسعرات معينة وآخر بسعرات أقل. حرية تختصر باختيارك لقناة من بين مئة قناة تبث التفاهة طول الوقت. حرية تختصر بأن تختار بين مرشحين لا فارق حقيقي بينهما إلا باختلاف الشركة الممولة وأن تصوت لفلمك المفضل.. أو نجمك المفضل..

حرية هي في جوهرها أقسى عبودية مرت على البشرية.. أغلال روما وخوازيق السلاطين وقيود القياصرة ما أوهمت الناس يوماً أنهم أحرار.. أما أغلال "الحرية الشخصية" فهي غير مرئية وتتغلغل داخل رؤوس الناس، تبرمج لهم حياتهم خياراتهم وأدوارهم، تقول لهم أن لا شيء ثمة غير هذه الأبعاد المادية، ولا حرية ثمة غير الاختيار مما هو متاح من هذه الأبعاد، هذه السلعة أو تلك، هذا المرشح أو ذاك، بطاقة الاعتماد هذه أو تلك، قضاء الإجازة في ذلك البلد أو تلك الجزيرة، الذهاب إليها بتلك

السيارة أو بالخطوط الجوية، بالدرجة السياحية أو بدرجة رجال الأعمال..

كل ما هو أنت سيتبرمج، عبر وسائل الإعلام، ليتخذ مجموعة من القرارات من هذا النوع، بطريقة تخضعك وتخضع رأسك لعملية غسيل دماغ هي في حقيقتها إعادة تركيب، بحيث يصير كل أفقك محصوراً بهذه الخيارات على سطحيتها وسخافتها، خيارات تداعب غرائزك الفطرية، وتجعل حياتك متمحورة حولها، وخيارات أخرى تفرز فيك "ميولاً" ما كانت فيك، على الأقل لم تولد لها، لكن آلة الإعلام الأخطبوطية تغرزها فيك بالتدريج حتى تصير "ميولك" فعلاً بالحث والتدريب.. وبين هذا وذاك ستتقزم اهتماماتك ورغباتك وطموحاتك لتكون في النهاية: خياراً حول ماذا سترتدي، وماذا ستشرب، وأين ستسهر، ومن ستضاجع الليلة؟..

إنها أقسى عبودية عرفها التاريخ: لأن العبيد فيها خاضعون دون أن يدركوا مقدار خضوعهم.. لأن العبيد فيها، أكثر من أي وقت مضى، لا يدركون مدى عبوديتهم.. وتقنعهم وسائل الإعلام حولهم بأنهم في منتهى الحرية.. تقول لهم أن يختاروا تصميم الثياب الذي يعبر عن "ذواتهم ".. رغم أنه لم يبق شيء اسمه ذات أصلاً..

حرية واحدة فقط في حياتك..

لكن هذا لا ينفي وجود حرية في حياتنا..

حرية واحدة فقط..

لكنها الحرية الحقيقية... الحرية العميقة التي لا علاقة لها بحيرتك في اختيار سلعة من بين السلع على الرف أو في المشجب وما يسمى بحريتك في اتخاذ هذا القرار المصيري..

إنها الحرية الإنسانية بمعناها الشامل، بمعناها العميق الذي لا علاقة له بالحرية التي ابتذلت وتقزمت لتصير ما نسميه اليوم "الحرية الشخصية"..

إنها الحرية - الامتحان..

الحرية التي نولد بها من أرحام أمهاتنا، ونحملها على ظهورنا معنا أينما ذهبنا..

أي حرية تلك..؟

إنها حرية اختيارنا لعبوديتنا، بين كل العبوديات التي تمر بنا ونمر بها..

إنها حرية أن تختار لمن تكون عبداً..

لذاتك، لشهواتك، لنمط حياة استورد من هناك، لنمط حياة آخر استوطن هنا، لإيديولوجية من هنا أو إيديولوجية من هناك..

أو لذاك الذي خلقك - وخلق كل ما، وكل من، حولك.. هذه هي حرية الاختيار الحقيقية الوحيدة الموجودة في هذا العالم..

ولعلها تكون أهم قضية في حياتك..

ويكون الباقي مجرد تفاصيل..

اختيار القالب الصحيح الذي خلق من أجلك، يختلف عن قسر نفسك داخل قالب يحاول أن يجعلك تتشكل حسب مقاساته، مثل قوالب الأقدام الصغيرة التي كانت توضع داخلها أقدام الفتيات الصينيات لمنعها من النمو وقسرها على التلاؤم مع مقاييس الجمال السائدة هناك..

الوظيفة نفسها تؤديها كل القوالب الاجتماعية السائدة اليوم والتي تروج عبر وسائل الإعلام، إنها تقسرك على أن توقف نموك حسب مقاسها، وأن تتشكل حسب مقاساتها ومقاييسها، وتخبرك أن هذا هو حدك الأقصى، ولا تنتبه إلى قالب آخر، صنعه من صنعك، وخلقه من خلقك، فكانت مقاساته تناسب إمكاناتك حقاً، وآفاقه تناسب أبعادك الكامنة حقاً..

ولكن، ولأنهم أخبروك أنها الأفضل وزوقوها لك، فإنك تحاول أن تقسر نفسك داخل قالب "فتى الإعلام"، بأسنانه البيضاء الملمّعة، أو "فتاة الإعلان" بتسريحة شعرها الذي سيبدو كالحرير على الشاشة، أو "رجل الأعمال" الذي يبدو في منتهى السعادة وهو يهبط من سيارته الفخمة ليوقع عقداً ما، دون أن تبدو كآبة حياته وخواؤها..

و.. كيف تترك ذلك القالب الآخر، قالب القامة العملاقة، قالب الخليفة على الأرض.. من أجل كل ما يعرضون عليك..

لذا أختار قالبك، يا رب العالمين، أصب نفسي فيه..

لا مفر من أن أكون عبداً.. خاضعاً لشيء ما..

لذا أختار عبوديتي لك؛ لأن فيها وحدها أستطيع أن أتحرر من كل العبوديات الأخرى..

عبوديتي لك، هي حريتي الوحيدة الممكنة..حريتي الوحيدة التي هي حرية حقيقية..

لذا...

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ١/٥]..



الفصل الخامس

العون من صاحب العون

ثم إننا بعد أن نحدد لمن سنكون عبيداً، نحدد أيضاً بمن سنستعين..

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾..

* * *

العون، في لسان العرب: هو الظهير.. إنه من يكون ظهيراً لك على فعل ما تقوم أنت بالأساس بأدائه..

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/٤].

ففي هذه الآية نرى أن التهمة كانت موجهة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، على أنه هو من افترى الوحي - ولكن التهمة أيضاً، وجهت إلى "آخرين" على أنهم أعانوه في الأمر.. - أنهم كانوا ظهيراً له..

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/٩٥]..

فالعمل الأساسي هنا كان يقوم به ذو القرنين، لكنه طلب

مـن الآخـريـن أن يـسـاعـدوه فـي الأمـر.. أن يـكـونـوا لـه الظهير..

وهكذا كانت العرب تقول إذا جاءت السنة جاء معها أعوانها.. يعنون بالسنة: الجدب، وبأعوانها: الجراد والذئاب والأمراض..

وهكذا فإن "العون" عندما يأتي، وعندما يطلب قبلها، فإنه يكون نتيجة لوجود "عامل" حقيقي، لوجود فعل يفعل له فاعل ما، لكن الفاعل، من أجل إتمام فعله، يحتاج إلى الظهير فيه..

هناك إذن فعل فاعل.. وهناك طلب لإسناد، لظهير ..

الفاعل يطلب العون

طلب الاستعانة يعني، بالتعريف، وبشكل متوازٍ مع الطلب، أننا نقوم بشيء ما، أن هناك "فعلاً ما" نقوم به، فعلاً يحتاج إتمامه إلى ظهير وإسناد..

إننا، دون شك، حسب هذا النص في هذه السورة المركزية، نحن من يقوم بالفعل.. موقعنا من الاعراب لا يمكن أن يجادل فيه.. لا يمكن أن يتغير إلا إذا نكصنا..

في هذه الأرض، موقعنا الأساسي من الإعراب، هو الفاعل.. وفعلنا للفعل، يحتاج حتماً، إلى ظهير..

وها نحن نطلبه..

* * *

وما الذي نفعله، ما هو هذا الفعل الذي نؤديه والذي نطلب منه عز وجل أن يقدم لنا الإسناد والعون فيه؟..

هل هو أي فعل بالمطلق؟.. هل هو مجرد أفعال نفعلها كيفما كان، كيفما اتفق، دونما هدف، دونما بوصلة؟..

هل هو الفعل المرادف للبطالة؟.. هل هو الفعل المرادف للا شيء؟.. هل يمكن أن نعدّ الانتظار فِعلاً نطلب العون عليه؟.. هل يمكن أن نعدّ قتل الوقت، وما نفعله فيما نسميه "وقت الفراغ" فعلاً يمكن أن نطلب العون عليه؟..

* * *

عندما يكلفك شخص ما بعمل ما، بمهمة خاصة، وتذهب لأدائها، فإنه لا غرابة أن تطلب العون والإسناد منه عندما تحتاج العون في أداء هذه المهمة..

لكن، لن يكون من الحصافة - ولا حتى من التهذيب - في شيء أن تطلب العون والإسناد، ممن كلفك بعمل، على عمل لم يكلفك به..

كلفك بشيء معين ثم تتصل به لتخبره أنك بحاجة لإسناده ودعمه في عمل آخر لم يكلفك به..

أين ما كلفك به إذن؟.. لم انشغلت عنه بعمل آخر، ثم جئت تطلب العون منه؟..

لا.. لن يكون ذلك حصيفاً ولا مهذباً..

والأجدى أن تقصر طلب العون، على ما كلفك به هذا الشخص..

* * *

..بلا تشبيه، فالله عز وجل ليس كمثله شيء..

لكنه أيضاً كلفنا بمهمة.. وأيضاً انشغلنا عنها بأعمال أخرى، ذات اليمين وذات الشمال..

وبعد هذا، يأتي في بالنا، عندما نواجه صعوبات هنا أو هناك، أن نطلب منه العون..

أين ما كلفتكم به أصلاً؟..

ما الذي أنجزتموه من الفرض الأساسي؟.. ما الذي أنجزتموه من نصيبكم من الخلافة في الأرض؟..

عندما نطلب العون، علينا أن نتقبل أسئلةً كهذه..

من قال إن الخليفة هو رأس الدولة؟

ما نصيبنا من الخلافة في الأرض؟..

وضعنا تلك الكلمة في إطار معين، وضعنا الإطار في صندوق مغلق، وضعنا الصندوق المغلق في برج عالٍ.. وبنينا حولها الأسوار والحواجز، وزرعنا الألغام حول الأسوار والحواجز.. ثم وقفنا ننظر متحسرين ونحن نتمتم بأسف: الخلافة!..

لقد وضعنا الكلمة في سياق حصري وضيق جداً، وملأنا الطريق إلى هذا السياق بالعقبات والعراقيل، لنقنع أنفسنا أن لا فائدة من المحاولة، ولا جدوى حتى من تأنيب الضمير..

من قال إن الخليفة في الأرض له صورة واحدة تتراوح بين سليمان وداوود وذي القرنين وعمر؟..

من قال إن الخليفة هو رأس الدولة حصراً؟.. من قال إنه من يتربع هناك؛ سواء كان قد وصل برضى الناس أم بسخطهم، بالتوريث أم عبر صندوق انتخابات يساق الناس إليه وأدمغتهم مغسولة عبر الإعلام، بعمامة كبيرة، أو بتسريحة حديثة؟

الخليفة في الأرض، قد يكون، رأس الدولة، لكن ذلك لا علاقة له بمنصبه هناك، وإنما بما يفعله هناك، بالقيم التي تتحكم فيه بينما هو هناك، هل هو ملتصق بقيم الاستخلاف؟.. هل هو واعٍ مهمته في الأرض؟.. هل يؤدي ما يؤديه وقد وضع هذا نصب عينيه، قبل منصبه؟..

ما دام الأمر لا يتعلق بالموقع الوظيفي بقدر ما له علاقة بفهم التوصيف الوظيفي الذي عيننا على أساسه، فإن أداءك لدور الخليفة على الأرض لن يلتزم بموقع رأس الدولة إلا كتحصيل حاصل، بعبارة أخرى: إن بائعة اللبن، التي رفضت مزج اللبن بالماء، وسمعها الخليفة عمر، في الحادثة المعروفة، كانت هي أيضاً تمارس الاستخلاف في الأرض.. رغم أن (وظيفتها) كانت مجرد بائعة لبن..

الاستخلاف يسكن كل المهام، بشرط أن تؤدي معنى الاستخلاف فيها، ما دامت تؤدى وهدف إحقاق الحق وإقامة العدل منتصب أمام عين من يؤدي هذه المهمة..

الاستخلاف هو أن تؤدي ما تؤديه، بينما تتوقد تلك الروح التي نفخها الله عز وجل في داخلك؛ قد تكون في دور (أم) تربي أبناءها تربية تجعل منهم فاعلين - الفعل

الصواب - وإيجابيين تجاه عالم يحتاجهم ليكون على صواب..

قد يكون في (أب) يعيل أولاده، ولكن إعالته لهم لا تقتصر على الخبز و البيض وأدوات المدرسة، بل في أن يكون ذلك الأب الذي يمد بالقيم وبقوة القيم والتوازن في عالم يحتاج إلى ذلك..

إنه ليس أن تكون أباً جيداً أو صاحب معمل جيداً أو مصرفياً جيداً.. بل أن تكون - إلى جانب الجودة - واعياً لدورك في الاستخلاف ..أن يكون توصيفك الوظيفي الأساسي داخلاً في تفاصيل وظيفتك اللاحقة.. إنه أن تتذكر ذلك كله، وأن يدخل في فهمك لما تقوم به.. متحداً مع فعلك الذي تفعل..

أي شيء دون هذا الفهم، دون وجود روح الله في عملك، سيجعلك مجرد طبيب جيد أو مهندس جيد، ويمكن لأي منتمٍ لدين آخر لا يضم هذه المعاني أن يكون ذلك، بل يمكن لأي ملحد أو لاديني أن يكون ذلك..

لكن الأمر هنا مختلف - إنه ليس "عمل الصالحات" فحسب، بل فعل الصالحات ضمن الإطار الشامل للتوصيف الوظيفي الأساسي، أن تؤدي ما تؤديه وأنت مؤمن بدورك ومؤمن بالذي كلفك بهذا الدور، بشكل يصب "الصالحات" في سياق إطارها... في سياق نيتك، وفي سياق تكليفك..

ولذلك فقد كان الربط الدائم في القرآن الكريم بين

الإيمان والعمل والصالح.. إذ لا معنى لعمل صالح، ما لم تكن مؤمناً أنك مكلف به.. لا معنى لعمل صالح ما لم يكن في الإطار الذي تؤمن أنك خلقت من أجله..

شروط المعونة

الأمر الذي يدعو إلى التأمل، وإلى التفكير، أنه على بعد آيات وعلى غير مسافة بعيدة من طلب العون في الفاتحة - يأتي الرد الإلهي، موجهاً ومحدداً موضع طلب العون.. يأتي الرد في سورة البقرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٣]..

فالطلب الإنساني الذي حدد الله عز وجل مصدراً للعون، سرعان ما سيجاب - إلهياً - في سورة البقرة، مرتين اثنتين، بتوظيف طلب العون هذا، بالبحث عنه، في موضعين اثنين، يتلاحمان هنا.. ليكونا مركباً واحداً: الصبر والصلاة..

* * *

للوهلة الأولى سيبدو الأمر كما لو أنك تدور في حلقة مغلقة..

نطلب العون، في فاتحة الصلاة..

فيأتي الرد بطلب العون من الصلاة نفسها، ومعها الصبر؟..

ما الذي يعنيه هذا؟.. وهو الذي سيبدو أنه ردٌّ لطلب العون أو على الأقل تأجيل له؟..

في الحقيقة إن ارتباط العون هنا بالصبر والصلاة، له علاقة مباشرة بما أسلفناه من ذلك المفهوم العميق للصلاة الذي يجعل منها دورة تدريبية لإعادة بناء العالم وإعادة تشكيله على أسس أكثر عدلاً وتوازناً.. فالصلاة بما أنها دورة تدريبية - فإنها تمدك بالعون الذي تحتاجه، تقويك تكون ظهيراً لك، إنها مثل الدورة التي يحتاجها الرياضي الذي على وشك أن يخوض مسابقة مهمة، هل سيحصل على الإسناد إلا من التدريب والمثابرة عليه؟..

ومفهوم الصبر هنا في هذا السياق له دلالاته المهمة، فنبتة الصبار هي تلك النبتة التي تتحدى الجدب والعطش والموت لتقتنص فرص الحياة وتحقق عبر صمودها أقوى أمثلة الإيجابية..

إنه صبر المثابرة إذن والدأب، وليس صبر الانتظار المرادف لليأس.. إنه صبر العاملين وليس صبر العاطلين عن العمل.. إنه صبر الإصرار وليس صبر الاستسلام..

الصبر والصلاة: استحقاق المعونة

ارتباط الصبر هنا بالصلاة مهم جداً: ذلك أن الصلاة لا تأتي بنتائج سحرية على صعيد الفرد، ومن ثم على صعيد المجتمع، وذلك أصلاً ليس مطلوباً منها - إنها عملية طويلة ومعقدة تحتاج دأباً ومثابرة؛ أي إنها تحتاج صبراً، ومصابرة، وقد مرَّ ذلك عدة مرات في القرآن الكريم:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طـه: ١٣٢/٢٠].. ولا سيما أن عملية إعادة البناء الفردي والمجتمعي، قد تمر أحياناً بانتكاسات، لذا لابد من الصبر - بهذا المفهوم الإيجابي للصبر، وهو الصبر الذي سيجعل الانتكاسات عابرة، ويعبرها نحو ضفة البناء والفوز..

إنها عملية صعبة معقدة طبعاً.. إنها عملية "كبيرة"، وستبدو تقريباً مستحيلة، والنص القرآني يقرر ذلك أيضاً، لكنه يوضح ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥/٢]..

الاستمرار بالأمر- المواصلة فيه - هو الذي يجلب المعونة الإلهية:

ففي الآية الثانية التي تكرر فيها توجيه العون نفسه ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣/٢] يأتي هنا العون والإسناد من الله مباشرة، الذي يمنح معيته وعونه، لمن يكون صابراً..

أي إن العون الإلهي جاء فعلاً وحقاً، لكن ذلك جاء بعد مرور طلب العون بمرحلة معينة تبين فيها جديته وحصل على استحقاقه..

أي إن الله لا يمد العون - هكذا كيفما كان - لمجرد أن أحدهم يطلب العون منه، ويبكي بحرقة بينما يطلب ذلك، لا طبعاً، عليه أولاً أن يجعل (مركّب) الصبر والصلاة يعينه على الفعل.. وذلك لا يحدث إلا لمن يتفاعل ويثمر، وبعد هذا يأتي العون الإلهي ظهيراً للفعل.. مسانداً له.. متخذاً مظاهر وأشكالاً عديدة..

المعونة بين الإفراط والتفريط

وهذا موجه أصلاً، لنموذجين وحالتين موجودتين في مجتمعنا وفهمنا.. بين تفريط وإفراط..

فهناك من ينكص عن الفعل، ويستصعبه، يستهول إمكانية إحداث فرق.. يعدّ كل شيء أقوى منه وأكبر من إمكانياته بطريقة لا يجدي معها أي فعل..فلا يفعل غير أن يطلب المعونة.. دون أن يحاول أداء المستحقات..

وقد حدد القرآن الكريم هذا النموذج: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥/٢]..

وهذا النموذج خرج من الخاشعين؛ ومن ثم فإن العون لن يأتيه؛ لأن صبره وصلاته لم يعيناه؛ لقد اكتفى بالدعاء، ونكص عن الفعل.. وكان لابد أن يمتنع عنه العون..

* * *

النموذج الثاني وقف على الضفة الثانية المتطرفة، فتصور أن السنن والقوانين يمكن أن تمده بالعون الذي يحتاجه، وهي كذلك فعلاً، لكنه تصور أنه يعرف كل القوانين والسنن، والحقيقة أن هناك قانوناً أشمل، يضم كل قوانين السنن، ويضم أيضاً قانوناً آخرَ، هو قانون العون الإلهي، الذي لا يمنح إلا لمن حاز استحقاق السنن، ولكن بعد أن يطلب العون كذلك، أي بعد أن يقر بحاجته إلى العون، يقر بأن موضعه - كخليفة - سيظل

دوماً في حاجة إلى عون من استخلفه.. إنه الإقرار، بأنه مع كل القوة الكامنة، في إمكانات الإنسان الخليفة، فإنه سيظل بحاجة إلى العون الإلهي..

سيظل بحاجة إلى أن يطلب العون منه عز وجل، أن يستعين به..

إنكار ذلك سيعكس ملامح الانهيار والضعف الكامنين، رغم مظاهر جبروت القوة، إذ إنه سيعني التمادي الصلف، وتجاهل الحاجة إلى إعادة النظر.. العون، بالذات طلب العون، سيعكس استسلاماً شجاعاً لحقيقة الأشياء: حقيقة موقعنا من الأشياء، وموقع الأشياء منا، وموقعنا من السياق كله..

الفصل السادس

جدل الهداية والاهتداء

يجري تصوير الهداية غالباً، كما لو كانت ضوءاً ساطعاً - يضيء حياتك مرة واحدة، يرشدك إلى الطريق الصحيح.. وتتغير حياتك بعدها مرة واحدة وإلى الأبد..

لا يمكن انكار أن هذا قد يحدث، لكنه نادر جداً، على الأقل ليس بهذا التبسيط..

الهداية، عندما تحدث، لا تكون بالضرورة هذا الضوء الساطع، لكنها قد تكون مجموعة أضواء، ليس فيها واحدٌ يكون بمثابة هذا الضوء الكاشف الساطع الذي يكون بهذا الحسم والوضوح.. بعضها يكون مثل مصباح صغير تحمله في يدك لتبحث عن الطريق، وبعضها قد يكون مصدراً للضوء - موجود دوماً - لكنه مغطى ومموه.. وعليك أن تزيح عنه تمويهه ليسطع وينبعث..

بعض الهداية قد يكون ضوءاً ساطعاً فعلاً، لكن لا تتخيل أنه وحده هناك، فسيكون هناك أضواء أخرى، بريقها قد يوحي أنها هي "الأضواء التي تدل إلى الطريق الصحيح"..

بعض الهداية قد يكون ضوءاً واحداً كبيراً ساطعاً ينير حياتك في لحظة ما، لكن ذلك لن يكفي حقاً إن لم تكن هناك سلسلة من الأضواء اللاحقة، ربما ليس بالضرورة أن تكون ساطعة جداً كما الضوء الأول، لكنها تكون كافية لتدلك على الطريق.. لتثبتك عليه..

الهداية ليست عود كبريت، يشتعل ويضيء لمرة واحدة فقط..

إنها ليست خياراً واحداً تقرره وتمضي في حياة صممت على هذا الخيار.. بل هي الضوء تلو الضوء، بل الضوء يبحث عن ضوء، نادراً ما يكون الضوء الذي تجده - أو الذي يجدك - ضوءاً ينير الطريق كله، بل غالباً ما ينير الخطوة التالية فحسب، أو بضع خطوات تالية في أحسن الأحوال.. لا أكثر..

والأمر هو أن تبحث دوماً عن الهداية؛ أي عن الضوء، لأنك في كل خطوة في حياتك ستحتاج إليها..

ولهذا، فإنك، عملياً، ستطلبها سبع عشرة مرة في اليوم.. الحد الأدنى المقبول..

لتقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ١/٦]..

مجموعة أضواء وعلامات على الطريق

والهداية ليست الضوء بالضرورة.. إنها أحياناً العلامة الموجودة لتدلك على الطريق الصحيح، ولكنك قد تحتاج

إلى ضوء قد يكون ضوء مصباح صغير، ينبعث من داخلك.. وقد تحمله في يدك.. لتراه..

أي إن الهداية قد تكون هذا التفاعل المستمر المتبادل، بين علامة موجودة فعلاً - ويمكن أن يشهدها الجميع - وبين إصرار على رؤيتها، وعلى البحث عنها..

الهداية، ليست بالضرورة ذلك الشيء الذي يهبط من فوق، إنها أحياناً تكون ذلك التمازج بين ما يأتي من فوق، وما يتدفق من تحت، من أعماق الإنسان، من كونه يريد أن يهتدي إلى الطريق، من إرادته للهداية..

علامات الطريق موجودة على الطريق، وهي للجميع.. ومن أجل الجميع.. لكن ليس الجميع يهتدون بها إلى الطريق الصحيح.. بعضهم لا يلتفت إليها.. البعض يضع علاماته هو.. البعض لا يعرف كيف يقرأها. والبعض يقرؤها بشكل معكوس رغم أنها موجودة بوضوح..

* * *

الهداية إذن ليست فعلاً إلهياً يقع بلا سبب على شخص فيهديه الله وينتهي الأمر.. على الأقل ليس دائماً..

إنها أحياناً "استحقاق" نكسبه ونحرزه ونعمل من أجله..

للهداية وجه آخر غير الذي نعرفه، وجه اسمه "الاهتداء"؟؟

الاهتداء: تفاعل انساني مع معطيات الهداية

و "الاهتداء" - بالتعريف - فعل إنساني، يتفاعل - إرادياً - مع كل معطيات الهداية الموجودة أصلاً في العالم من حولنا. "التاء" التي تدخل على الفعل "هدى" تمنح المعنى المشدد الذي يركز على الإنسان وهو يقوم بالفعل..

إنه يجعل الإنسان "فاعلاً" و "متفاعلاً" في الوقت نفسه، مع الطريق من حوله.. مع العلامات التي على الطريق.. إنه يحاول أن "يهتدي"، لذلك فهو يركز على العلامات، ويحاول قراءتها بشكل صحيح..

لذا، فالهداية، تأتي نتيجة لذلك، تأتي استحقاقاً على عمل من اهتدى - بجد - من أجل الفوز به..

ولأن التفكير السلبي يمتلك "قوة" معينة، يستمدها من التكاسل والرغبة والتهرب من مواجهة المسؤولية، فإن مجمل آيات الهداية والاهتداء، قد اختزلت في آية معينة، اجتزئت من سياقها طبعاً، لتوضع في سياق آخر مختلف تماماً، سياق السلب والنكوص عن الفعل وتبرير العجز، وأي آية تقرأ في سياق كهذا، تكون مجتزأة من سياقها كله؛ لأن كل القرآن الكريم، بلا أي استثناء، نزل في سياق النهوض والإيجاب..

الآية المجتزأة من سياقها، والأكثر استخداماً في

موضوع الهداية هي آية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨/٣٥]..

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [المدثر: ٣١/٧٤]..

وهكذا فإن الآية تستخدم أحياناً بطريقة متعسفة تبريراً وتفسيراً لأحوال من يقولها، ولأحوال من حولهم:

(ماذا سنفعل لمن أحواله وطرقه ورحلاته كلها بعيدة تماماً عن الله؟.. ماذا سنفعل لمن تختصر حياته ونمط حياته بأنها بعيدة تماماً عن كل ما يجب أن يكون؟..)

لا نحاول أن نبدل شيئاً من ذلك.. أو نحاول بطريقة إسقاط الفرض فقط، لكي نقول إننا حاولنا: ثم نردف بعدها، مفسرين ومبررين..

إن الله يهدي من يشاء!..

لكن "جبل الهداية" أكبر بكثير من أن يختصر بصخرة واحدة..

الهداية: شروط وموانع

فهم الهداية حقاً، يتطلب فهم مجمل آياتها، وليس انتقاء واحدة لأي نوع من الأسباب..

ولذلك فإن هناك شروطاً قرآنية للهداية، كما أن هناك موانع لها - وبين الشروط والموانع تقع دائرة الاستحقاق الإنساني لحيازة الهداية، ولو عبر تسلق جبل الهداية الصعب الوعر..

هناك قبل ذلك - حجة الله البالغة، التي يمكن أن تغني عن أي دليل هداية آخر، أو علامة إرشاد، أو ضوء ساطع، لأنها موجودة عند جميع البشر، وهي حجة كافية فعلاً، لنحاسب على معرفتنا أو عدم معرفتنا للطريق حتى لو لم يكن هناك علامات إرشاد، ذلك لمن يحسن استخدام هذه الحجة البالغة: إنها الأدوات "العقلية" التي ميز بها الله عز وجل الإنسان وجعله سيد المخلوقات كلها.. والتي تمكنه، نظرياً على الاقل، حتى دون علامات إرشاد، أن يصل إلى الطريق الصحيح..

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٤٩]..

لكن رغم ذلك، ولأن هذه الحجة البالغة يمكن أن يتراكم عليها ما يحيدها، وضع الله كل علامات الإرشاد التي نغض البصر عنها أحياناً..

شرط الهداية الأول..

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩]..

الهدي الإلهي هنا جاء (نتيجة) لذلك الجهاد في الله، والجهاد هو مفهوم واسع لبذل الجهد في كل ما يتعلق بما أمر الله به، ولا يقتصر ذلك أبداً على النطاق الضيق للقتال الذي حصر فيه، وذلك واضح طبعاً من كون السورة مكية، والجهاد وقتها كان جهاد الدعوة، والإصرار والدأب على بناء عالم آخر غير العالم الظالم الذي كان (.. ولا زال؟!..)..

وهذه المجاهدة، بكل المعنى الداخلي الممتلئ زخماً وإصراراً وفاعلية (والتي تكاد تشبه حرباً مع نفسك) هي التي تؤدي إلى أن ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ كما تشير الآية..

وهذه المجاهدة أيضاً، هي جوهر عملية الاهتداء التي يقوم بها الإنسان نفسه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٥٠]..

فالاهتداء هنا، هو الفعل الإنساني تجاه الوحي الإلهي (وهو الوحي الموجه إلى عموم الإنسانية).. وهو الاهتداء الذي سيؤدي إلى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ١٩/٧٦] ..﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/١٧]..

فالاهتداء البشري - يؤدي إلى المزيد من الهدى لكنه هذه المرة هدى إلهي.. إنه النور الذي سيتدفق من الثقب الصغير الذي أجهدت نفسك في إحداثه في الحواجز والأسوار من حولك، ربما لم تكن تطمع بأكثر من بقعة ضوء في خضم العتمة.. لكن النور سيتدفق من ذلك الثقب؛ لأن الذين يهتدون بأنفسهم يزيدهم، عز وجل، هدى..

شرط الاهتداء الأول

لكن ما هو هذا الاهتداء؟.. لماذا يهتدي البعض ولا يهتدي البعض الآخر؟.. لماذا يكون هناك (شيء واحد) يهتدي به البعض ويضل به البعض الآخر..

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦]..

الاهتداء، يعتمد على وجود الرغبة الجادة لشخص ما، أن يصل إلى الحق والحقيقة.. إنه باختصار جاد في ذلك، مستعد لتقبل الحقيقة وإن كانت خارجة عن نمط حياته المعتاد وبيئته المحيطة به..

إنه جاد ومصرّ على ذلك، بحثه عن الحق ليس ترفاً فكرياً يتمتع فيه بنقاش الأفكار وسجالها، تداول الأفكار عنده وتمحيصها ليس لعبة "شطرنج فكرية" تؤدي لغرض قضاء الوقت واستعراض العضلات الدماغية في دحض الأفكار وتفنيدها دون الوصول إلى فكرة حق واحد لا يدحض.. إنه باختصار أن تكون جاداً لتقبل الحق وتقبل نتائج قبولك له على حياتك.. لأن ذلك قضية من أهم قضايا حياتك.. وليس مجرد هواية، كالشطرنج أو جمع الطوابع..

* * *

ويشبه هذا، ذلك التحدي الإبراهيمي الشهير، الذي جمع بين الجدية والإصرار والمجاهدة، في تحديه لكل الحقائق حوله، للوصول إلى الحقيقة الواحدة؛ إنه الإصرار على الحصول على الهداية ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٦/٧٧]..

لم يكن ينتظر الهداية دون أن يقوم بشيء حيال ذلك، لم يكن يطلبها دون أن يسعى لها حثيثاً، لم يكن يطلبها

في دعائه دون أن يستحق الحصول عليها بجهده.. معبود تلو آخر، قام إبراهيم بسبره ورفضه، رغم أنهم كانوا يمثلون أعمدة العالم الذي آمن به قومه - لكنه هدمها جميعاً، الواحد تلو الآخر، وهدَّ بذلك العالم القديم.. من أجل أن يهديه ربه، إلى عالم آخر، عالم جديد أكثر عدالة..

ولأنه استحق ذلك، فقد هداه الله حقاً..

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ [الأنعام: ٦/٨٠]..

موانع للهداية؟

وكما أن للهداية شروطاً، فإن لها موانع، وهي موانع تبطل عملية الاهتداء أصلاً، وتبطل التفاعل بين الهداية الربانية، وبين الاهتداء الذي هو فعل بشري..

وموانع الهداية واضحة وقد بينها القرآن الكريم.. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦٤].. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ [النحل: ١٦/١٠٧]..

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨]، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/٨٦]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥١]..

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٥/١٠٨]، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/٢٤]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٦١/٥]..

إذن هناك ثلاثة مرتكزات أساسية لمنع الهداية وهي الكفر، الظلم والفسوق..

والكفر هنا هو بمعناه العام الذي يجعل الإنسان يتخذ موقفاً مسبقاً رافضاً معانداً لله عز وجل بالمطلق، إنه الموقف الجاحد الذي لا يرى أي هامش للتواصل مع الايمان بالله عز وجل، ومن ثم للرضوخ له..

أما الظلم فهو يمنع عملية الاهتداء لأن الاهتداء بالتعريف يتطلب أن تتخلص من الظلم الذي في داخلك تجاه أي شيء، سواء كان ظلماً للآخرين أم لنفسك، أم للأمور بصورة عامة، فالظلم يجعل المقاييس غير متوازنة، يعلمك الانحياز دوماً لجهة ما دون وجه حق، وهذا يتنافى فوراً مع آلية الاهتداء التي تتطلب قدراً من النزاهة يجعلك تتحمل نتائج ما وصلت إليه..

والفسوق يمنع عملية الاهتداء أيضاً لأنه ببساطة يجعلك عازفاً عنها وعن كل ما هو جدي ونافع حقاً، إنه يربطك بمجموعة غرائز ومتع صغيرة ويجعلها محور عالمك وحياتك، بعيداً عن كل ما يتطلبه الاهتداء من جدية والتزام ودأب..

وهكذا نرى، أن الله لا يهدي هذه الأصناف الثلاثة، ما كانت هذه المقومات لديهم، زوال هذه المقومات، لسبب أو لآخر، سيرفع هذا المنع - ولكن الهداية ستكون مرتبطة أيضاً بعملية الاهتداء بذلك الفعل الإنساني الذي يتفاعل مع كل رموز الهداية وعلاماتها بطريقة إيجابية وفعالة..

دائرة الهداية وتفاعلها المستمر

وهكذا فإن الاهتداء والهداية مرتبطان بطريقة تجعل فصلهما عملية صعبة، مثل تفاعل دائري مغلق..

العناصر الأصلية الموجودة في التفاعل تنتج مركبات جديدة تظل تمد العناصر الأصلية بروافد إضافية للتفاعل.. فعلامات الطريق موجودة فعلاً - ولكن الانتباه لها، واتباعها، يتطلب إرادة ذلك، يتطلب الاهتداء، والاهتداء سيؤدي بدوره إلى الانتباه إلى علامات أكثر وضوحاً.. والنكوص عن الاهتداء، أو عن إرادته سيخفف من التفاعل كله.. وقد يقلبه على أعقابه..

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣/٧] - ليس لأن الهداية نزلت هكذا كيفما اتفق، ولكن الله وضع علامات الهداية للجميع، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠/٩٠] ..﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣/٧٦]، ولكن ليس الجميع ينتبهون، ليس الجميع يهتدون..

وعندما ينتج ذلك التفاعل عن الوصول إلى الطريق

الصواب، فإن الإقرار، بأننا ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، هو إقرار بالأمر الواقع، إن هذا كله ما كان سيكون لولا أن وضع الله كل تلك العلامات على الطريق، ووضع قبل ذلك، تلك الأدوات الإدراكية التي جعلت من الإنسانِ إنساناً.. وجعلته يفهم تلك العلامات ويقرؤها بشكل صحيح.. إن أراد هو ذلك..

* * *

كل ذلك يساعدنا على فهم ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾..

ذلك أن طلبنا الهداية إلى الصراط المستقيم، هو جزء من مفهوم الهداية بشكل عام، بل هو في الجوهر والأساس من هذا المفهوم..

وهكذا، فإن ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ترتبط فوراً، بمعادلة اهتدائنا له..

بل بدأبنا، بإصرارنا على ذلك..

بتكرارنا الأمر: سبع عشرة مرة، على الأقل.. في اليوم الواحد..

الفصل السابع

"صراط مستقيم" واحد

وكل ذلك يقودنا، حتماً، إلى ما يجب أن يقودنا إليه: الصراط المستقيم..

والصراط المستقيم، كما رسخ في أذهاننا جميعاً، هو ذلك الطريق السوي الذي علينا أن نسير عليه..

لن يتغير شكل هذه الاستعارة كثيراً من الخارج، عندما نخوض في معانيها وننقب في جذورها..

لكن جوهر فهمنا للصراط، سيتعرض لعملية تحديث شاملة، بحيث إن هذا الطريق لن يبقى منه إلا اسمه..!

* * *

أول ما يلفت نظرنا في الصراط، أن الفعل الذي اشتق منه، هو "سرط" بالسين، وليس صرط، بالصاد..

أي إنه لا يوجد في لسان العرب، فعل "صرط".. وإنما هناك سرط..

لكن عندما جاء الصراط، أبدلت السين صاداً.. لماذا يا ترى؟..

جدل السين والصاد

هذا الإبدال، بالذات، إزالة السين، وإحلال الصاد، يوحي بأشياء كثيرة لو حاولنا أن نقف عنده، ونحن في بداية تنقيبنا عن المعاني، أول الصراط..

السين سهلة، توحي أن الأمور ستكون يسيرة، ستكون بلا عسر، بلا مشاكل، بلا مخاض..

الصاد، على العكس من السين، تقع في الطرف الآخر، إنها صعبة، بل هي رمز للصعوبة والتعقيد، وعندما تحل محل السين، بالذات في السياق الذي نحن فيه، فإن الصاد تقول لك، ببساطة، إن الأمر ليس بسيطاً أبداً، بل إنه صعب جداً، كل خطوة فيه تشبه إزاحة صخرة كبيرة من أمامك.. أو حملها على ظهرك.. أو الاثنين معاً..

رسالة الصاد البديل عن السين واضحة: إنها بمثابة إشارة مبكرة تخبرك، تخبرنا، أن الطريق، بالتعريف، أقصد الصراط،... لا يمكن أن يكون سهلاً.. إنه أي شيء، وكل شيء، إلا أن يكون طريقاً سهلاً معبداً ومرصوفاً ومهيئاً لك لتسير عليه بيسر..

لن يكون مفروشاً بالورود، بل ربما بالأشواك، بالزجاج المطحون.. بالألغام حتى..

ربما أي شيء، لكن ليس السهولة واليسر..

السين للأفراد.. الصاد للجماعات

وهذا الابدال ليس إبدالاً نادراً جداً، وله دلالاته في مثل قرآني آخر، سيقدم لنا الضوء على دلالة الإبدال في الصراط..

فلفظة (بسطة) قدمت في القرآن الكريم مرتين: مرة مع الإبقاء على السين، ومرة مع إبدالها صاداً - الأولى عن طالوت ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٧]..

والأخرى مع إبدالها صاداً ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةً﴾ [الأعراف: ٧/٦٩]..

الفرق الجوهري بين السياقين، الذي استدعى الصاد، هو أن السياق الأول كان سياقاً فردياً، سياقاً يتحدث عن شخص واحد..

أما السياق الثاني، فكان سياقاً جماعياً، يمكن أن يكون عن مجتمع ما، أو عن طبقة في مجتمع، أو عن حضارة بأسرها، لكنه ليس سياقاً فردياً بأي حال من الأحوال..

السين، للأفراد إذن..

والصاد، للجماعات ..

وهذا يضع مفهومنا للصراط في ذات السياق ..السياق الجماعي الذي ينأى عن طريق الأفراد وانفراداتهم.. إنه ليس طريق الأفراد إذن، بل هو طريق المجتمعات، طريق الشعوب والأمم.. قد يكون طريقاً للهاوية وللجحيم، وقد يكون طريقاً للنعيم والفوز..

بين الصراط والسبيل

هذا الطابع الاجتماعي الأممي للصراط، هو ما يميز الصراط، عن السبيل.. فالسبيل يمكن أن يكون سبيلاً لفرد، ويمكن أن يكون سبيلاً لمجموعة أشخاص، لكنه لن يقتصر - كما الصراط - على أن يكون للمجتمع كله..

أول ما يلفت النظر، أن السبيل ليس واحداً بالضرورة، إنه (سبل) في أحيان كثيرة..

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٤/١٢]..

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩]..

فالسبل يمكن أن تكون متعددة المظهر ومختلفة المظهر، لكن الصراط لا يكون إلا واحداً - لم يأت أبداً بصيغة جمع في القرآن الكريم، رغم أن جمعه (صرط) مثل جمع (كتاب - كتب) أمر مقبول لغوياً، لكن ذلك لم يحدث أبداً.. وظل الصراط المستقيم واحداً، في إشارة واضحة لا مفر من الانتباه لها، إنه غير قابل للتعدد، بينما السبل قابلة، وقد يكون التعدد من طبيعتها أصلاً..

بينما الصراط لا يقبل ذلك..

الصراط واحد..

* * *

ما الذي يعنيه ذلك بالضبط، هذه التعددية - مقابل تلك الأحادية، تعددية السبل وأحادية الصراط؟..

وقبل ذلك، ما العلاقة التي تربط بينهما؟..

سبل متعددة لصراط واحد

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦/٥]..

إذن، السبل، تسبق الصراط المستقيم، والمضي في هذه السبل، يمهد للوصول إلى الصراط المستقيم..

وهذا يبدو منطقياً مع ثنائية التعدد والأحادية المشار إليها آنفاً، ذلك أن هناك سبلاً متعددة، يمكن أن تؤدي إلى طريق واحد..إلى صراط واحد، يؤدي بدوره إلى مكان محدد..

إنها ليست تعددية مفتوحة، بل تعددية نقاط الانطلاق المختلفة، التي يجب أن تصل إلى نقطة محددة سلفاً، يبدو منها الصراط المستقيم..

التعدد إذن ليس تعدداً بلا ضوابط ولا حدود..

بل هو مثل روافد متعددة ستصب كلها في نهر واحد (علينا أن نتذكر هنا أنه سيصب بدوره في بحر آخر)..

السبل المشروطة..

حتى هذه السبل إذن، هي ليست "السبل" على

إطلاقها.. بل هي مربوطة أبداً ودائماً، لكي تكون السبل التي نريد، بكونها سبل الله.. وليست أي سبل أخرى، وهكذا فإن الخطاب القرآني عندما يطلق "السبل" فإنها تكون سبل ضلال، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٣].. بينما تعرف سبل الحق لتميز: سبيل الله، سبل السلام، سواء السبيل، سبيل الرشاد..

قد تؤدي كل الطرق إلى روما، كما يقول المثل الشائع، لكن ليس كل السبل تؤدي إلى الصراط..

* * *

فلنتنبه هنا أن كل الأفعال التي ارتبطت بسبيل الله، كانت أفعالاً من نوع ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾..

وهي كلها أفعال تدور حول معنى الانتقال- بالجهد - من موضع إلى آخر، أو من مكانة إلى أخرى.. سواء كان ذلك عبر الإنفاق أم عبر القتال أم عبر تغيير المكان (الهجرة) أم ما يختصر ذلك كله: بذل الجهد.. أي الجهاد..

كل هذه أفعال متنوعة وعامة جداً، ولا تكتسب مكانة خاصة إلا عندما تصب في سبيل الله؛ أي عندما تكون سبيلاً مؤدياً إلى النقطة - الهدف من السبل.. الصراط..

بعبارة أخرى إنها لا تكتسب أهميتها: إلا عندما تكون

جزءاً من عملية التراكم في البناء الاجتماعي والحضاري.. كما سيتكامل ذلك مع مفهوم الصراط..

هندسة الصراط- هندسة السبيل

الفرق الأساسي بين السبيل والصراط، هو أن السبيل، لا شكل هندسي له..

إنه مفتوح، لا شيء يحده من الجهات الأربعة، المهم فيه هو اتجاهه فقط، وهو لا يملك غير سطح واحد فقط.. السطح الذي يكون بمثابة الأرضية لهذا السبيل، وأرضية السبيل هذه هي القيم الدافعة للفعل في سبيل الله - لكنها السطح الوحيد الذي يملكه السبيل..

والمعنى في ذلك واضح وشائع، فالأسير يقال عنه، عندما يفك أسره إن «سبيله قد أخلي».. وهذا يعني أنه امتلك قدراً أكبر من الحرية..

فالسبيل، إذن، هو حركة بالاتجاه، أما المكان فهو لا يملك غير سطح واحد، هو الدافع القيمي لهذه الحركة..

الصراط شيء آخر تماماً..فالفعل سرط، وهو الجذر الأصلي للسراط الذي أبدلت سينه صاداً، يعني ببساطة: ابتلع..

والفعل (سرط) يستخدم بهذا المعنى، سرط الطعام، البلعوم يسمى مسراطاً، والداء الذي يبتلع الناس والدواب كانت العرب تسميه سرطاناً..

إذن سرط بمعنى ابتلع..

والصراط هو ما يبتلعنا..

ألسنا جميعاً هناك؟

والابتلاع مرعب حقيقةً عندما نتخيل أنفسنا بين أنياب وحش كاسر ونحن ندلف إلى أحشائه المظلمة ، لكن هذا ليس كل نماذج الابتلاع، فنحن أحياناً نبتلع بالتدريج ودون أن نشعر، ويتم إقناعنا أن بطن الحوت الذي نحن فيه هو المكان الأفضل، وأن الحياة في داخل بطن الحوت تمثل أفضل ما يمكن تخيله من حياة، بل إن أي حياة خارج بطن هذا الحوت لا يمكن حتى تخيلها..

الابتلاع إذن، يمكن أن يكون انهماكاً في حياة ما، انغماساً فيها، بغض النظر عن إيجابياتها أو سلبياتها..

ونحن نقول ذلك فعلاً، نستعمل التعبير "ابتلع" عن انشغالنا بالحياة وتفاصيلها وتفصيلاتها.. فنقول: ابتلعتنا الحياة، ولا نقصد إلا انهماكنا بها..

* * *

والجوهر في هذا المعنى، بعد تجريده من تفصيلاته، أن شيئاً ما عندما يبتلعك، فإنه يحيط بك من كل جهاتك، وهذا شرط أساسي في أي عملية ابتلاع على الإطلاق، الشيء المبتلع سيكون - حتماً - محاطاً من جميع الاتجاهات..

ومن أجل هذا، فقد قيل عن الصراط، إن من صفاته الإحاطة، وإنه على وزن حزام وشداد..

ومن أجل هذا أيضاً، فقد شبه البعض الصراط بالممر

الواصل بين النقطتين وليس الطريق، وهذا أدق، لكنه ليس ممراً بجدارين وسماء مفتوحة، إذ إن الممر يمكن أن يكون كذلك، مثل ممر بين جدارين، لكن الصراط، يمتلك تلك الخاصية التي تميزه عن السبيل، إنه يحيط بك من كل الجهات، إنه ليس صراطاً إن لم يكن كذلك، أي فراغ في أي جهة، سيحدث صدعاً في عملية الابتلاع.. وسيفرغها من معناها..

إنه، بالذات، أن يحيطك من كل الجهات..

الصراط نمط حياة "يحيط بك"

ما الذي يعنيه هذا هنا ؟يعني أن "الصراط" هو ما يكون كل ما يحيط بك، ليس أن يكون مجرد أرضية من القيم والدوافع، كما يمكن للسبيل أن يكون، بل هو يكوِّن السقف والجدران كذلك؛ أي إنه يتجاوز الرؤية المجردة، إلى أن يكون مشروع عمل متكاملاً، مشروعاً فيه سقف وأفق، كهدف واضح، والجدران فيه قائمة حدوداً واضحة مثل كل الجدران، تحمي من المؤثرات الخارجية، وتمنح القوام لما هو في الداخل..

الصراط إذن ليس فكرة رجراجة - ليس شعاراً فضفاضاً، بل هو مرحلة عليا تتم فيها ترجمة الأفكار والشعارات والقيم والمنطلقات، لتكون عملاً حقيقياً، لتكون حياة حقيقية، تمزج فيها النظرية بالتطبيق، وتكف الشعارات أن تكون مجرد شعارات، بل تنزل إلى الواقع، لتفعله، بل لتعيد صياغته وتشكيله..

يمكن للنظرية المجردة، أن تحيط برأسك، بعقلك، يمكن أن تخطف قلبك، لكن لا يمكنها أن تحيط بك كلك، لا يمكنها أن تحيط بك بكل تلك الثنائيات الموجودة فيك، بين العقل والقلب، والروح والجسد..

لا يمكن لنظرية، مهما كانت متقنة، أو متماسكة، أن تحيط بك كلك.. لا يمكن لنظرية أن تبتلعك كلك..

لا يفعل شيء ذلك، إلا إذا كان مشروع عمل كاملاً، نمطاً للحياة.. تمتزج فيه النظرية بالتطبيق، لتعيد صياغة الحياة..

لا شيء يبتلعك تماماً، إلا شيء كهذا..

وعندما نتحدث عن الصراط، أو عن نمط الحياة الذي يبتلع، أو عن النظرية وعن تطبيقها، فإن ذلك كله لا يخص الصراط المستقيم وحده، بل صراط الجحيم أيضاً..

فكل نظرية، إلحادية كانت، أو إيمانية، اشتراكية أو رأسمالية، مادية أو روحية لن تتمكن من الإحاطة بالإنسان كله، قد تكسب عقله أو قلبه أو جزءاً من اهتمامه، لكنها لن تحيط به كله، بعبارة أخرة لن تبتلعه كله، ما لم تتحول لتصير مشروعاً متكاملاً، نمطاً للحياة تتمثل فيه القيم والمبادئ لتصير سلوكاً معاشاً..

يمكن أن تقود النظرية - وبناؤها الحياتي - إلى الجحيم..

ويمكن أن يكون ذلك الصراط، نمطاً مستقيماً لحياة مبنية على نظرية الاستقامة..

وعندها ستؤدي إلى النعيم..

إلى السائق والفران وبائع الورد.. مع التحية

"نمط الحياة" هذا، هو الطريقة الناجحة الوحيدة (حتى الآن!) لنقل المبادئ والأفكار والمبادئ والعقائد والإيديولوجيات بشكل جماعي؛ أي إلى عموم الناس..

الأفكار والمثل العليا، والإيديولوجيات والعقائد، لا يمكن أن تصل لجميع الناس، ثمة فئة محددة ستنتج هذه الأفكار أو إنها تكون مجددة لها إذا كانت عقائدَ سماوية، وثمة فئة أوسع قليلاً من سابقتها ولكنها تظل محدودة، يمكنها أن تتفاعل مع الأفكار والعقائد، تؤمن بها، تكون وسطاً للتفاعل ونقل هذه الأفكار إلى المجتمع..

لكن، رغم ذلك، فإن عموم الناس، ليسوا من هاتين الفئتين، لا يقلل هذا من شأنهم شيئاً، ذلك أنهم قد يكونون أكثر صلاحاً، وأكثر تمسكاً، وأكثر قدرة على بناء المجتمع.. لكنهم عموماً غير قادرين على التقاط الفكرة، أو الايمان بها، ما لم تتحول لتصير نمطاً للحياة، ما لم تتمثل لتشكل أسلوباً للحياة، سلوكاً وممارسة..

إن سائق الحافلة، والفران، والبائع على الناصية، وشرطي المرور، والمئات من سواهم، قد لا يتمكنون من التفاعل كثيراً مع ما نسميه نحن "رؤية الحياة". لكن عندما تتحول هذه الرؤية لتصير نمطاً للحياة، طريقة للحياة، فإنهم

سيتشربون بهذه الرؤية، ويكونون جزءاً من إطارها العام، حتى لو لم يتحدثوا عن "الرؤية" والتنظير طول الوقت، إنهم باختصار جزءٌ فاعل أساسي في تلك المرحلة؛ أي عندما تتحول الرؤية لتصير نمطاً حقيقياً للحياة، وليس قبل ذلك..

وهكذا، فإن العقائد والايديولوجيات عموماً مرت بهذه المراحل، وهي لم تنتشر على نطاق جماهيري وشعبي واسع، إلا عندما تم تحويلها وتبنيها لتصير نمطاً للحياة..

فالليبرالية، مثلاً، التي تروج اليوم على أنها بديهة من بديهيات الإنسانية غير قابلة للنقاش، لم تصبح كذلك إلا عندما تم تحويلها إلى نمط للحياة، ولاسيما فيما يتعلق بالفردية والحرية الشخصية.. قبل ذلك كانت الليبرالية مجرد "رؤية نظرية للحياة"، يؤمن بها من أنتجها ونخبة أوسع قليلاً وجدت في هذه الرؤية ما تؤمن به.. كذلك هو الحال مع أي عقيدة سادت و انتشرت و صارت نمطاً للحياة في هذه البقعة أو تلك..

وكذلك سيكون الأمر مع ما نريد له أن يسود من عقيدة الحق والتوازن و "السلام"..

السبل: كيف تؤدي إلى الصراط؟

وهذا كله يذكرنا بالسبل وما هو مهم فيها: أن تؤدي حقاً إلى الصراط.

ولكن كيف يمكن لمن هو في السبيل، يشقه شقاً، أن يتأكد من أنه سيؤدي به إلى الصراط؟.. قد تكون نيته

صافية وهو يعمل (يجاهد، يهاجر، ينفق) في سبيل الله حقاً.. أو هكذا يحاول أن تكون، ولكن مع ذلك، لا تؤدي السبل إلى الصراط، فسعة السبيل،و عدم وجود حدود واضحة أحياناً، تجعل من الأمر واسعاً لدرجة أنه لا يصل إلى النقطة - الهدف.. ومن السهل أيضاً، على الشعارات والنظريات، أن تتعدد، وتتوسع، وتكون تطبيقاتها واسعة وبراقة، ولكن لا تصل للصراط..

ما هو المحك في الأمر، الذي يحدد إن كان السبيل خطوة للوصول إلى الصراط، أو إنه لن يكون كذلك؟..

الأمر هو، هل هذه الأفعال، التي هي في سبيل الله، تبني حجراً في ذلك المشروع... هل تحول الرؤية إلى واقع؟.. هل تقدم خطوة واحدة في بناء "نمط الحياة" الصحيح وتقديم الفكرة إلى العالم عبر تقديم نموذج تطبيقي؟..

لذلك، فإن "الصدقة" - في سبيل الله - يمكن أن تكون مجرد عمل خير، صدقة على باب الجامع، لن تتقدم خطوة في مشروع عالم أكثر عدالة وأقل فقراً، لكنها، يمكن، لو قدمت بشكل مختلف، وعبر آليات مختلفة، أن تروج لعالم آخر، أن تقدمه للناس لكي يساهموا في بنائه..

وكذلك فإن القتال، يمكن أن يكون في سبيل الله بالنسبة إلى من يقاتل، ولكنه يمكن أيضاً ألا يكون أكثر من ردود أفعال مجردة عن المشروع الحضاري، مجرد رغبة في الثأر لكرامة مجروحة أو الانتقام لقتلى سقطوا ظلماً

وعدواناً.. لكن قتالاً آخرَ، ربما بالأسلحة نفسها، يمكن أن يكون مختلفاً جداً، إذا ارتبط بالمشروع، بالدفاع عن نمط حياة قادمة، إذا كان ضمن ضوابط قرآنية ثابتة لا تتغير..

الشيء نفسه، يطبق، ومن باب أولى، على العمل الفكري، ذلك الجهاد في إنتاج الأفكار، في تقديم قراءة جديدة لنص لا و لن يمسه التغيير..

يمكن أن تكون هناك قراءات كثيرة ومتعددة، وليس فيها ما يضج بالخطأ الواضح، أو ما يعارض القراءة السائدة، وقد يكون بعض القراءات أنيقاً.. جميلاً.. متناسقاً..

لكن ليس المهم أن تكون القراءة مرضية لأذواق المتلقين، المهم هو فاعليتها، المهم هو أنها تفعل النص القرآني، وتساهم في تقريب النموذج، وبنائه.. تساهم في جعل المتلقي، ليس متلقياً فقط.. بل فاعلاً أيضاً، هناك، سيكون ذلك السبيل مؤدياً إلى الصراط المستقيم.. إلى مشروع العمل، ونمط الحياة الحقيقية..

ولا يعني هذا التشكيك بنية من يعمل في سبيل الله، فذلك أمرٌ لا يعلمه إلا علام الغيوب.. ولكن العمل الصواب يجب أن يجمع بين النية، والتخطيط الواضح، للوصول إلى ما ينبغي الوصول إليه..

صفة واحدة للصراط

لكن الصراط - الحق، الصراط الذي نطلب الاهتداء إليه، لم يوصف في الخطاب القرآني في الغالب إلا بصفة

واحدة فقط - صفة واحدة تماهت مع هذا الصراط حتى صار من الصعب فصلهما..

كانت ثمة مرات قليلة ذكر فيها الصراط بإطلاقه، وكان ثمة مرات أخرى، قليلة أيضاً، نسب فيها الصراط الحق إلى الحق عز وجل، وكان هناك، بالإضافة إلى الصفة الغالبة المتماهية، وصف آخر تكرر مرتين فقط، الصراط السوي..

لكن الصفة الأكثر استعمالاً - ٣٣ مرة - كانت هي الغالبة، والمتماهية، حتى صرنا لا نقول الصراط، إلا إذا أردفنا: المستقيم..

الأصل من النهوض

ولفظ "المستقيم" لفظة تعني أكثر بكثير من معنى الامتداد الهندسي المجرد، الذي لا يحيد إلى تلك الجهة أو هذه، فاللفظة مشتقة من الفعل "قوم" - وهو الفعل نفسه الذي يأخذ هذا الدور المركزي المهم في الصلاة (وإن كان المغيب عن فهمنا الحالي)..

فإقامة الصلاة، هذا المعنى الشامخ الذي يجعل من الصلاة وسيلة للبناء وللتشييد مشتقة أيضاً من ذات الفعل، والفعل بحد ذاته يحمل ذلك المعنى غير الخفي، ولكن الذي نتغاضى عنه دوماً، وهو أن الفعل قوم، بالمعنى النقيض للجلوس، يشير أيضاً وضمناً، إلى فعل "النهوض"، فعل "النهضة"، فعل القيام من السبات

الحضاري، من اللا شيء السائد، نحو آفاق خلقنا أصلاً من أجلها..

لذلك لن يكون غريباً أبداً، أن يلد الفعل "قوم" الذي أنتج الإقامة، لفظاً آخرَ لا يبتعد كثيراً عن المعنى العميق للإقامة..

إنه الاستقامة.. التي تماهت مع الصراط، وكونت ذلك الصراط المستقيم، الذي نطلبه، سبع عشرة مرة في اليوم..

الاستقامة: عملية التحول المستمر

الأمر الملفت للنظر في "المستقيم"، أن زيادة المبنى التي دخلت على الفعل، زادت من ربط الفعل بالمعنى، فحرفا السين والتاء، عندما يدخلان على الفعل، ويحولانه إلى مستفعل، (مثل مستديم، مسترجل، مستكين، مستوحش..) لا يؤكدانه فحسب.. بل هما يرتبطان به في أثناء عملية تحوله تلك، إنه المعنى المرتبط بعملية التحول والصيرورة، التي تطرأ على شيء وتجعله يصير شيئاً آخر.. "مثل استوقت الإبل واستتيست الشاة"...

الصراط المستقيم إذن، بهذا المعنى، هو ذلك الصراط الذي تجري من خلاله، وفيه، عملية التحول والصيرورة..

التحول إلى ماذا؟.. وصيرورة ماذا؟..

عملية التحول إلى كل ما هو متضمن في فعل القيام - النهوض.. النهضة.. الارتقاء.. النماء..

إنها تلك الصيرورة التي تقودنا ضمن عملية إعادة تكوين مستمرة، لا تنتهي لأنها لا تعرف حداً، لا تنتهي لأنها تحتاج دوماً إلى عملية تقييم وتقويم، ولأن الطبيعة الإنسانية تحتوي نوعاً من القابلية للتراجع والارتداد، فهذا يحتم أن تكون عملية التقويم والتصحيح، عملية تحمل نوعاً من الاستمرارية، نوعاً من التفاعل المستمر الذي لا يتوقف لأن نواتجه ستؤدي إلى المزيد من التفاعل، وهكذا تكون الاستقامة وعملية صيرورتها مثل تفاعل دوار لا يعرف النهاية؛ لأن هدف التفاعل هو الاستمرار في التفاعل نفسه، فالصراط هنا يشبه سلالم كهربائية متحركة لا تنتهي أبداً، كلما ارتقيت ستعرف أنك يمكن أن ترتقي أكثر، وعملية الارتقاء يمكن أن تستمر لأن لا قمة هناك أصلاً، ولأن التراجعات تحدث بشكل حتمي ما دام من يرتقي هو بشر، وهذا كله يزيد من دفق وديمومة عملية التحول المستمر، الصيرورة المستمرة التي هي رديف "الاستقامة"..

الإسلام بين الصراط والقسطاس

ما يلفت النظر جداً هنا، ويدعو للتأمل بطريقة لا تدع مجالاً للتجاهل، هو أن لفظ "المستقيم" لم يطلق في القرآن الكريم، إلا على الصراط (٣٣ مرة كما مرّ سابقاً)، وعلى شيء آخر واحد فقط هو "القسطاس

المستقيم ..﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ ..﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾..

وهذا كله يقدم لنا إضافة نوعية لصورة الصراط في أذهاننا، إذ إن لفظ المستقيم هنا، سيذكرنا بالميزان، بالقسطاس، بآلة قياس الأشياء ووضعها ضمن عيار موحد يرتب العلاقة بينها..

فالاستقامة أيضاً، تعني وجود هذا المعيار الثابت الذي يزن كل الأمور ويقيمها ويرتبها بالنسبة إلى المعيار نفسه..

وبعد وجود هذا المعيار، فإن الموازنة تصير ممكنة، والتوازن يصبح أيسر، أعني أن وجود وسيلة للقياس، ولمعرفة وزن الأمور، هو الخطوة الأولى في التوازن، فالأمر ليس أن تعرف أن شيئاً محدداً هو أثقل أو أخف من شيء آخر، وتقف عند هذه المعرفة، الأمر هو أن تصنع التوازن بعد أن عرفت.. أن تضيف هنا وتحذف هناك لتصل لذلك التوازن - القسطاس المستقيم..

هذا الحد الفاصل الذي يوازن بين الأمور، ويضعها في معيار الموازنة، هو جوهر الصراط المستقيم، الذي هو جوهر الإسلام، إنه تلك المساحة التي توازن بين مختلف الثنائيات الموجودة في حياتنا، والتي يشكل الصراع بينها قطب الحياة الإنسانية، التوازن بين الحق والواجب، بين الفرد والمجتمع، بين نفخة الروح وقبضة الطين، بين الغيب والمادة، بين ما هو منظور وما هو غير منظور، بين الدنيا ومتطلباتها والآخرة ومتطلباتها، بين الماضي والمستقبل،

بين المثال والواقع، بين النظرية والتطبيق، بين الغريزة والعقل،بين الهدم و البناء، بين الفطرة والاكتساب، بين ما هو حق وما هو حقيقة، بين ما هو كائن وما هو يجب أن يكون..

هذه التوازنات، هي جوهر الإسلام، لا إفراط، ولا تفريط، المنطقة التي تلتقي فيها هذه الثنائيات على معيار المساواة، هي ذلك البعد البؤري الذي يتجلى فيه معنى الإسلام، وهذه المنطقة ليست ضيقة كما قد يتخيل كل من يعيش في عالم اللا توازن، في كفة واحدة من الميزان، ذلك أن مساحتها ليست كمية، بل هي نوعية، إنها المساحة الأوسع للإثمار، وللإخصاب، وللنماء..

بل إنها المساحة الوحيدة التي يمكن للإنسان العدل أن ينمو فيها.. للمجتمع العدل، أن ينشأ فيها..

ذلك هو الصراط، الذي نطلبه كل يوم..

تاريخ الصراط المستقيم: حكاية الخيار الثالث

وهذا الصراط المستقيم له آلياته، وهو يتعرف بالتضاد، بالتمايز، فنحن لا نعيش في أنبوبة مفرغة من الهواء، والمشروع الحقيقي، لا يمكن أن يكون في عالم افتراضي - بل هو مشروع يحدد موقعه بالنسبة إلى ثوابته، وأيضاً بالنسبة إلى المشاريع الأخرى، خاصة عندما تكون مشاريع متحققة على أرض الواقع، نماذج حضارية موجودة فعلاً وليست مجرد رؤى ونظريات.. وهذا التعريف بالتضاد يمنح ذلك التمايز الذي هو الضمانة الحقيقية لعدم ذوبان

(المشروع قيد الإنجاز) في مشاريع الآخرين، وتحوله إلى نسخة منها عبر وضع لافتات مختلفة فقط..

لكن الحق عز وجل، لم يعرف هذا الصراط بكونه صراط الذين أنعمت عليهم فقط - بل عرفه أيضاً بالتضاد ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ - كان يمكن أن يكون التعريف مقتصراً على الصفات الإيجابية للذين أنعم عليهم، الإيمان، التقوى، الخشوع.. إلخ.. لكن الحق يعلمنا هنا، أن المشروع الحقيقي لابد أن يتعرف بالتضاد، أن تكون قوة الطرد فيه قوة تميزه وتمنحه القوام والحصانة..

فبالضد، تتميز الأشياء..

يوجد ثمة خيار ثالث دوماً..

الأمر الآخر الذي يجب التوقف عنده ملياً - هو أن السورة تدلنا على وجود خيار ثالث.. إنها تعلمنا أن الأمر لا يقتصر أبداً على خيارين اثنين، قد يبدو أحدهما أقل سوءاً، ويدفعنا إحباطنا وسلبيتنا إلى اتخاذ ما نعتقد أنه الأهون والأسهل..

دوماً يصادفنا خياران، طريقان، ونعتقد أن لا خيار غيرهما، ولا طريق غيرهما، فنضطر للاختيار من بين ما هو أمامنا، وقد يكونان في حالة تنافس شديد على الأسوأ، وقد يكون واحدٌ منهما أقل سوءاً بقليل وبفارق طفيف من الآخر، لكن العالم سيبدو أنه ضاق ليقتصر على هذين الخيارين، وبذلك لن يكون هناك سوى أن تختار الأقل سوءاً، رغم أنه قد يكون سيئاً جداً أيضاً..

الفاتحة تعلمنا أن نتمسك بالخيار الثالث.. أن ننظر دوماً باتجاه الخيار الآخر، ألا نقبل ما يسمونه أهون الشرين ما دام شراً أيضاً، ولكن أن نبحث عما هو صواب حقاً، أن ننحته نحتاً، نحفره حفراً، نبنيه حجراً تلو آخر، إن لم يكن موجوداً بوصفه بديلاً و خياراً حقيقياً.. لكن، أبداً، ليس أي خيار، فقط لأن الآخر يبدو أكثر سوءاً..

(وحياتنا مليئة بهذا، بخيارين كلاهما سيئ، بخيارين أحلاهما مرّ، ولكن سلبيتنا تزين لنا أحدهما، وتجعله يبدو مقبولاً، فنضطر للاختيار كما لو أنه قدر..

لكن الفاتحة، تقول لنا، ببساطة، إن الخيار الثالث ممكن دوماً، فقط لو عملنا عليه)..

* * *

الصراط المستقيم إذن يعرف بثلاثة أشياء..

مثبت واحد، ومنفيان..

مثبت هو ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ١/٧]..

ومنفيان هما ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾..

الفصل الثامن

حكاية الذين أنعمت عليهم: حكاية لم تنته بعد

والحديث عن الذين أنعم الله عليهم، واسع جداً لدرجة أنه يشمل الإنسانية كلها، ذلك أن نِعم الله، التي أنعمها على الجميع، لا تعد ولا تحصى، ولا يمكن أبداً الخروج من نطاق النعمة الإلهية؛ لأن مجرد "وجودك" - على الإطلاق - يدخلك في حظيرة الذين أنعم الله عليهم، بنعمه اللا نهائية.. لكن بما أننا نتحدث عن التمايز، فإنه من المؤكد، أن هناك نعمة إضافية، لعلها تجعلنا نفهم كل النعم الأخرى، لعلها تساعدنا على استثمارها وتوظيفها بشكل صحيح، والاستثمار والتوظيف للنعم هنا، هو جوهر الشكر لنعمه عز وجل..

لكن هناك "نعمة" إضافية، أنعم بها الله عز وجل، وهي التي تشكل الركيزة الثابتة، في ذلك الصراط المستقيم..

الإنعام الجماعي

لم يرد سياق (الإنعام) بشكل جماعي، كما في ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ التي تشير إلى إنعام خصّ فئة، أو

قوماً، أو أمة دون غيرها إلا في أربع مرات.. في كامل الخطاب القرآني..

مرة واحدة، كانت في الفاتحة ..﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾..

وثلاث مرات كانت بصيغة ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾..

كان الخطاب في الفاتحة على لسان الإنسانية، فكانت الإشارة إلى ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾..

لكن في المرات الثلاث الأخرى، كان الخطاب الإلهي موجهاً إلى فئة محددة - فكان ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾..

في المرات الثلاث كان المخاطب هم بنو إسرائيل..

وجاءت كلها في سورة البقرة، على بعد آيات من سورة الفاتحة..

ولكل هذا مدلولاته.. ومغزاه..

* * *

فلنتأمل فيما أنعمه الله على بني إسرائيل..

لو فهمنا من النعم، أنها الثروات والموارد والمرتبة العليا على مقياس الترف والغنى، لما كان لذلك أي معنى مع بني إسرائيل..

ذلك أنهم كانوا، بهذا المقياس، يشغلون المرتبة الدنيا في السلم الحضاري، كانوا، كما هو معلوم تاريخياً، فئة مهمشة تماماً، تعيش كطبقة عمالة "سخرة" في حضن أهم وأقوى الحضارات آنذاك: الحضارة الفرعونية..

كانوا يعيشون حالة استعباد شبه تام.. خارج أي عملية حضارية أو إنتاجية، لم يكونوا حتى مشاركين في صنع الحضارة الفرعونية، كانوا مجرد أدوات إنتاج يمتلكها المصريون، مثل الدواب والبهائم..

الحديث عن شظف العيش هو أمرٌ (ترفي) هنا، فوضع بني إسرائيل كان أسوأ بكثير من هذا، كان أطفالهم يبادون، ونساؤهم يغتصبن كما سيفعل بأي طبقة مستعبَدة في نظام استعباد شامل.. أي حديث عن نعم الله على بني إسرائيل بالمعنى المادي لكلمة نِعم، سيكون لا رابط له هنا.. فما أنعم الله به عليهم هو إذن شيء آخر تماماً.. لا علاقة له بدعة العيش وترفه..

فلنتنبه أيضاً، إلى أن المرتبة الدنيا بشرياً، التي كان بنو إسرائيل فيها، تشابه جداً، مع اختلاف في التفاصيل، المرتبة التي كان عليها عرب الجاهلية قبل القرآن.. (وتشبه أيضاً، المرتبة التي نحتلها اليوم، ولا فخر!)..

عن أي نعمة إذن، يتحدث النص القرآني، أنعمها الله عليهم؟.. فلنتابع السياق، لنعرف معنى النعمة حقاً..

الكتاب: النعمة التفضيلية

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة ٢/٣٧-٤٠].

السياق إذن، يبدأ من آدم، من الهبوط الأول إلى الأرض.. والوعد بأن يأتي هدى من الله..

ما هو هذا الهدى؟.. إنه "النعمة" نفسها التي خصَّ بها الله عز وجل قوماً آخرين، كل نعمه الأخرى كانت مشاعة، لكن هذا الهدى هو "النعمة" التفضيلية التي هي ليست ثروة في بطن الأرض، أو أرضاً خصبة أو مياهاً وفيرة..

ما هو هذا الهدى؟.. هل هو هداية نزلت على بني إسرائيل فجأة، بلا استحقاق، بلا سابق تهيئة؟..

لا طبعاً.. فثنائية الهداية والاهتداء تتضمن تفاصيلَ أكثر من هذه ولها متطلبات أشد تعقيداً من هذا التفسير..

الهدى هنا، هو أن بني إسرائيل، كانوا الأمة التي استلمت الكتاب السماوي الأول: قبل ذلك كان هناك رسالة (مع سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم)، وكان هناك صحف (صحف إبراهيم)، لكن (الكتاب) بالمعنى الواسع العميق والوظيفي للكتاب، كان نعمة خص بها الله بني إسرائيل ابتداءً..

لماذا النعمة الأهم للشعب الأدنى؟

لكن لماذا ينزل الكتاب على فئة من الناس تحتل هذه المرتبة الدنيا أصلاً.. سواء كانوا بني إسرائيل أم عرب الجاهلية؟

لأن هذه المرتبة الدنيا، تشكل التحدي والعقبة التي يمكن أن يثبت أمامها "الكتاب" فاعليته في التغيير، أن يخرجهم من ذلك الدرك، من ذلك القعر الذي كانوا فيه..

عندما يفلح (الكتاب) في إخراج أي أمة من أدنى درك يمكن أن تكون فيه أي أمة، ويجعلها على قمة الأمم... ليس فقط أن يرقي مرتبتها، فهذا يعني ضمناً وفي تحصيل حاصل، أنه قادر على فعل ذلك مع أي أمة أخرى، مع الإنسانية كلها.. فإنه (وعندما يكون الكتاب هو الكتاب النهائي، الخاتم والحاسم، فإنه يمكنه أن يفعل ذلك في كل وقت، فقط لو قرئ بشكل جيد..)..

* * *

هكذا فإن كل النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، مثل إنقاذهم من آل فرعون وفرق البحر والعفو عنهم مرة تلو أخرى، كان من نتائج تفاعلهم مع الكتاب..

وهكذا فإن الآيات التي تقع بين التذكير المتكرر بالنعمة التي أنعم الله بها عليهم هي آيات توجه تفاعل بني إسرائيل مع هذه النعمة التي فضلهم بها الله عز وجل..

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ

تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٤٠-٤٧]..

فبين الآيتين هناك موجهات عامة وخطوط واضحة لكيفية استثمار هذه النعمة وتوظيفها، (فالتصديق يجب ألا يكون مجانياً) ليس التصديق الذي تدفع من أجله ثمناً قليلاً، بل التصديق الذي يتطلب ثمناً باهظاً، التصديق الذي يجعلك تغير حياتك، التصديق الذي حدَّ حداً فاصلاً بين الحق والباطل، والذي يتطلب أداء متطلبات لهذا التصديق، يتطلب بالذات أن يقود الكتاب عملية بناء حقيقية تبدأ عند الذات، ولا تقف عندها بل تعيد صياغة وتشكيل المجتمع من جديد.. وهذه هي التلاوة الحقيقية للكتاب وليس مجرد قراءة بثمن قليل لا تتجاوز الصوت ومخارج الحروف...

حق التلاوة..

وعندما جاءت الآية الثالثة التي تستخدم ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وتخاطب بني إسرائيل مجدداً، فإن السياق مرة أخرى كان يتحدث عن التعامل مع الكتاب، عن كيفية توظيفه واستثماره بالشكل الأمثل.. كيف؟.. عبر تلاوته حق التلاوة..

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ [البقرة: ٢/١٢١-١٢٢]..

وحق التلاوة هنا، عندما نربط السياقين، ليس إتمام الأداء الصوتي وإتقانه (وإن كان ذلك ليس خطأ على الإطلاق) لكنه تجاوز الوقوف عند ذلك إلى تفعيل المعاني وتجسيدها، حق التلاوة هو أداء حق أي نعمة؛ نعمة (الكتاب) مثل نعمة البصر؛ وأي نعمة مادية موجودة حولنا..

ما هو التعامل الحق مع كل تلك النعم؟..

إنه، ببساطة، استعمالها بشكل صحيح، توظيفها ضمن سياقها الذي أوجدت من أجله. كل الثروات المعدنية الموجودة في باطن الأرض هي (نعم)، يمكن تحويلها إلى (نِقم) فقط عبر الاستعمال الخاطئ، يمكن أن تكون تلك الثروات نِعماً لبناء مجتمع متوازن وعادل يحقق فيه الإنسان ما خلق من أجله، ويمكن أيضاً لكل تلك الثروات، عبر الاستعمال الخاطئ، أن تتحول إلى وسيلة لهدم العالم وجعله أكثر بؤساً وأقل عدالة..

ويمكن أيضاً، أن (تجمد) تلك الثروات، ألا يتم التعامل معها على الإطلاق..

كل النعم، لو تذكرناها الآن، من أكثرها وأوضحها مادية (مثل اليورانيوم ومصادر الطاقة كلها)، إلى أبسط النعم التي لا يمكن قياسها (مثل الوعي أو مشاعر الحب والأمومة)، كلها خاضعة لقانون الاستخدام المزدوج، أو

عدم الاستخدام على الإطلاق.. كلها يمكن أن تساهم في صنع عالم أفضل وأجمل وأكثر توازناً، وكلها يمكن أن تساهم أيضاً في صنع عالم أسوأ بكثير.. وكلها يمكن أيضاً أن (تحيد)، أن تهمل، دون أن تستخدم على الإطلاق.. وعلى قمة هذه النِّعم هناك تلك النعمة الأعلى، النعمة التي يمكن أن تعلمنا كيف نتعامل مع كل النعم الأخرى..

إنها نعمة "الكتاب الذي أُنزِل"..

* * *

لكي نعرف ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ١/٧]، يحتم علينا أن نعلم ما الذي فعله بعض من أنزل عليهم الكتاب، وكيف طردهم سلوكهم من الصراط الحق، إلى الصراط الآخر..

فمن ؟؟

تبلغنا السنة النبوية، أن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، قد سئل عن المغضوب عليهم والضالين، "اليهود والنصارى؟".. فرد ذلك الجواب المفتوح، "فمن؟.."..

وهذا الجواب يفتح أبواب الذهن على التجربتين الكتابيتين الأكثر استحضاراً في الخطاب القرآني.. ليرشدنا إلى الخطأ فيهما لتجنبه، وبالتأكيد فهذا (الخطأ) - أو آلية التعامل كلها مع الكتاب - لم يكن أمراً جينياً محتماً على أهل الكتاب في الحالتين، بل هو "آلية تعامل" يمكن أن نسقط فيها أيضاً، ولهذا بالذات، فإننا نطلب الخيار

الثالث، ونطلب الطريق الثالث، حتى لو لم يتجسم أمامنا، وحتى لو بدا واحد من الخيارين الآخرين أكثر سهولة..

لأننا دوماً على خطر من أن ننزلق إلى هذا الطريق أو ذاك في التعامل مع الكتاب، فإننا يجب أن نكون على حذر من المنزلق..

وعلى معرفة بالآلية - الصواب..

ما الذي جرى بالضبط مع المغضوب عليهم؟؟

ما الذي جرى بالضبط مع المغضوب عليهم؟.. وما الذي جعلهم يستحقون هذه المكانة وهذا اللقب؟.. تتبع الجواب قرآنياً سيضعنا أمام تاريخ بني إسرائيل كله، وهو تاريخ لم يرد في القرآن بتفاصيله وإنما بخطوط عامة عريضة، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ، بل هو كتاب يهدي لبناء الحضارة، والتجربة الإسرائيلية عموماً بكل ما فيها هي نموذج تطبيقي لما يمكن أن يحدث لأي أمة عندما تتعامل كما تعامل بنو إسرائيل.. مع الكتاب..

وعندما نراجع عموم ما فعله بنو إسرائيل، نجد أننا أمام نوعين من المشاكل:

النوع الأول: مشاكل عقائدية تتراوح بين مشاكسة الأنبياء وتكذيبهم وتصل إلى قتلهم، واتخاذ العجل والكذب على الله وادعاء بنوة الأنبياء له..الخ.

النوع الثاني: مشاكل سلوكية تطبيقية، نقض الميثاق، البخل، أكلهم السحت، صيد السبت، عدم التناهي عن المنكر.. إلخ، وهي أمور يمكن أن تحدث في أي مجتمع،

لكن تحولها إلى صفة ملازمة لهذا المجتمع هو الأمر الاستثنائي..

هل يرتبط النوعان من المشاكل؟.. وهل يمكن إلا أن يرتبطا؟ هل يمكن لمشاكل العقيدة والإيمان إلا أن تنعكس سلوكياً على الفرد والمجتمع؟.. ولكن كيف يمكن لأمة استلمت كتاباً سماوياً أن تنحرف لهذه الدرجة عن معاني الكتاب وأوامره؟..

الجواب عن هذا السؤال سيربط هذين النوعين من المشاكل، وسيجعلهما نتيجة طبيعية، لسبب واحد..

سبب متعلق بالكتاب نفسه..بالذات بآلية التعامل مع الكتاب..

التعامل مع "الحروف"

بنو إسرائيل هم الأمة الأولى التي تجرأت على "تحريف" الكتاب، و "التحريف" هنا ليس بالضرورة عملية تغيير أحرف الكتاب، وإن كان هذا وارداً بوصفه نوعاً من أنواع التحريف..

ورد التحريف مرتبطاً بالذين هادوا أربع مرات في الخطاب القرآني، و التحريف هنا هو عن "الموضع"..

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤/٤٦]..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٥/١٣]..

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٥/٤١]..

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢/٧٥]..

وهناك إشارة خامسة لا يذكر فيها التحريف لفظاً - وإنما اختلاق نص ونسبته إلى كتاب الله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢/٧٩].. ومن الجلي أن هذه الخطوة تختلف في جرأتها عن التحريف الذي ذكر في المواضع السابقة، وهي تخرج عن آلية التعامل مع الكتاب، لأن هذا النص لم يعد "كتاباً" بل صار يدخل ضمن ما هو منحول تماماً.. ومع وقاحة هذه الخطوة إلا أنها نتيجة طبيعية لوقاحة "تحريف الكلم عن مواضعه"..

التحريف: دفع المعنى إلى الحافة

لكن ما هو التحريف لغة؟ لنتمكن من فهم آلية التعامل هذه، التي جعلت من بني إسرائيل "مغضوباً عليهم"، والتي ستجعل أي فئة مغضوباً عليها لو تعاملوا بالآلية نفسها، مع الكتاب..

الحرف، في لسان العرب، الطرف والشفير والحد. أي إنه حافة قصية من موضع ما، وهذا يعني أن التحريف عندما يكون عن كلمة ما، فإنه يعني دفعها إلى أبعد ما يمكن عن مركزها، عن معناها الأصلي الكامن في وسطها، إنه يعني دفعها إلى حافتها لدرجة إخراجها من معناها،

دون إخراجها من لفظها.. ولأن الآيات أشارت إلى أن الأمر كان ﴿بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥/٢] فإنها تشير إلى نية مبيتة لذلك، إلى عملية مقصودة لإخراج اللفظ عن معناه، إلى حافته أو طرفه، أي إلى مكان يكاد لا يكون له علاقة أصلاً بالمكان الأصلي، إلى مكان يكاد يخرج منه إلى مكان آخر.. إلى معنى آخر مخالف تماماً..

كيف يحدث هذا؟ ..إما بتكريس هذا (المعنى - الحافة)، (المعنى - الحرف)، ومنحه القداسة ضمناً بحيث يصير هو فهم الأحبار (والرهبان) الذي سيعامل أي فهم غيره على أنه فهم مرفوض وخارج.. أو أنه يحدث عبر استخدام ألفاظ مشابهة (للمعنى - الحافة)، وإبدالها مكان الألفاظ الأصل، سواء في اللغة الأصل، أو عبر عملية الترجمة التي نقلت فيها التوراة من لغة إلى أخرى..

والنتيجة المتراكمة المتراكبة لكل هذا: أن آلية التعامل مع الكتاب، أدت الى انتقاء حافة اللفظ، حرفه القصي، الذي لا يملك من المعنى والأصل المقصد غير خيط هزيل كالشفير.. وهكذا فإن كل الأخطاء والأهواء والزلات البشرية، وجدت لها (حرفاً ما)، ليبررها، ويكرسها، بل ويقدسها، ويحولها من صفة مذمومة إلى صفة ملازمة تجد التبريرات والتفسيرات من كتاب هو بريء تماماً من ذلك..

كيف يمكن لشيء كهذا أصلاً أن يحدث؟ كيف يمكن لأي أحد أن يغير، ولو بالتفسير والتأويل؟ فكيف بإبدال الكلمات بأخرى؟ بل كيف باختلاق نص كامل؟..

التفاعل مع الكتاب بشروط مسبقة

الإجابة عن هذا السؤال تأتي من طرف المتهم نفسه.. من طرف المغضوب عليهم، الذين اعترفوا بألسنتهم في الخطاب القرآني بالعلة الأساسية التي أدت إلى تعاملهم بهذا الشكل مع الكتاب، والذي أدى إلى تبرير هذا الكم من الأخطاء وزرعه في طبيعتهم ..﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٨٨]..

القلوب الغلف، المغلقة مثل قارورة، المغلفة من الخارج بغطاء كالصوان، هي السبب في كل ذلك..

فالقلب، هو اللب، هو جوهر الإنسان، و "الكتاب" قد أنزل من أجل إصلاح هذا الجوهر، الذي قد يكون مريضاً.. أو فيه مرض ما أو مجموعة أمراض.. فتفاعل القلب مع آيات الكتاب سيجلو عنه أمراضه، ليس بشكل سحري طبعاً، ليس من دون جهد من طرف صاحب القلب، لكن إعادة تركيب هذا القلب، هذه الذات، ستكون أمراً ممكناً، قابلاً للنقاش والأخذ والرد..

أما عندما يكون التفاعل مشروطاً بأن "قلوبنا غلف"، وأن ذاتنا منغلقة، وأن جوهرنا لا مساس به، فإن آلية التعامل مع آيات الكتاب، ستنتهي إلى توظيف هذه الآيات بشكل يتواءم مع هذه الذات المغلقة ويكرس انغلاقها..

كل شيء في الكتاب، سيعاد تدويره وفهمه وتوظيفه ليتمحور حول هذه الذات المغلقة، الذات الغلف..

وهكذا فإن كل مشاكل بني إسرائيل - عقائدياً وسلوكياً - يمكن فهمها على ضوء اعترافهم هم: "قلوبنا غلف"..

البخل.. السحت.. كنز المال.. نقض الميثاق.. كلها أمور تشير صراحة إلى ذلك الغرق في الذات والانغلاق عليها، كيف لا يبخلون؟.. كيف لا يأكلون السحت؟.. كيف لا ينقضون الميثاق متى ما كانت واحدة من بنوده ضد "ذواتهم"؟.. حتى في العقيدة، كيف لا يتخذون العجل وقد أشرب في قلوبهم، فكان لابد أن يظهر في عبادتهم بشكل أو بآخر؟.. كيف لا يؤمنون أنهم الأفضل وأنهم أبناء الله وأحباؤه ما دامت ذاتهم لا تريهم غير ذاك؟.. كيف لا يؤمنون أنهم شعب الله المختار لمجرد أنه أنزل عليهم الكتاب؟.. كيف لا يتحولون ليشكلوا أعتى عنصرية معاصرة؟

كيف لا يؤمنون بأن عزيراً هو ابن الله ما دامت ذاتهم المغلقة الفوقية قد زينت لهم أنهم قد تماهوا معه - عز وجل - وصاروا يرون في أنفسهم ما يرونه في الله؟.. كيف كان يمكن لهذه الذات المغلقة وهي تتفاعل مع الكتاب إلا أن تنتج هذه الرؤية الحلولية لله عز وجل حيث جعل منهم إيمانهم بأنهم الأفضل بالمطلق صورة لشعب حل فيه الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

كيف كان يمكن لهم ألا يكذبوا الأنبياء ولا يحاولوا قتلهم، وكلهم كانوا يقولون لهم إنهم على خطأ، كلهم كانوا يأتون "بما لا تهوى أنفسهم"؟..

أليس كل تاريخهم كان مبنياً على هذا.. على القلب الأغلف الذي لا يرى إلا نفسه فيرى ذاته فوق كل قانون وكل حق وكل شريعة.. " و الحاضر..؟"

هل كان ممكناً، بعد هذا كله، إلا أن يكون تعاملهم مع الكتاب، ناتجاً لما أنتج، ما دام القلب كان أغلف..

وكانت الذات مغلقة لا تريد أن يعاد بناؤها؟..

وهل يمكن أن ينتج أي تعامل مع الكتاب بنفس الشروط إلا نتائج مشابهة؟ حتى لو كان كتاباً سماوياً آخر؟

كانت هذه هي آلية المغضوب عليهم..

فماذا عن آلية الضالين؟..

الضلال: القانون لا يحمي المغفلين

لفظة "الضالين"، استخدمت في الخطاب القرآني أكثر من وصف "المغضوب عليهم".. ومشتقات الضلال، هي أكثر بكثير من مثيلاتها من مشتقات الغضب.. قد وصف الخطاب القرآني أكثر من شريحة وفئة بالضلال وبكونهم ضالين..

فمثلاً قوم إبراهيم كانوا ضالين ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٦/٧٧]..

وقريش، أو عرب الجاهلية عموماً، يوصفون أيضاً بالضلال قبل الإسلام ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ٢/١٩٨]..

حتى من كفر بعد الإيمان، وازداد كفراً، وتوعده الخطاب بعدم قبول التوبة، فإنه يوصف بكونه ضالاً .. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/٩٠]..

حتى الموقف السلبي من رحمة الله، يمكن أن يوصف صاحبه بالضال ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/٥٦]..

إذن "الضالون" مصطلح واسع جداً، يمكن أن يضم كل من يضل، وقصره على فئة معينة من أهل الكتاب، أمر سيحتاج إلى طول تأمل، ذلك أنه ليس من الواضح أبداً وجود ما يدل على أن الصفة محصورة بالنصارى..

لكن فلنتذكر هنا، أن السياق كله يتحدث عن آليات التعامل مع الكتاب، وليس عن الضلال بصفة عامة..

إذن، هو الضلال في التعامل مع الكتاب.. وهذا سيطرح جانباً، كل من كان ضالاً من دون كتاب.. أي إن قوم إبراهيم وعرب الجاهلية وسواهم ليسوا بالمقصودين هنا.. إنهم خارج السياق كله..، نحن هنا نتحدث عن الضالين في آليات التعامل..

* * *

من هو الضالّ؟.. إنه الذي أخطأ الطريق وأخطأ الصراط، اختار الطريق الخطأ وتقدم فيه..

لماذا فعل ذلك؟.. إنه على الأغلب، اتبع قوماً آخرين،

مشى وراء آثارهم لأن الطريق بدا أكثر سهولة أو أكثر أماناً، أو فقط لأنه كان مأهولاً..

ربما لم يكن مقصودهم ابتداءً.. لكنهم لم يفكروا بالهدف وبالنقطة النهائية من الطريق بقدر ما فكروا بنقطة الانطلاق وطبيعة الطريق، ولن يقلل ذلك من خطئهم أو من النتيجة النهائية لعملهم.. فالنية الطيبة، لن تبرر عملاً خاطئاً، بل هي شرط أساسي للعمل الصائب فقط..

اتباع الغير لمجرد اتباعهم

الضلال هو أن تهرع على آثار الغير لمجرد أن تتبعهم.. لمجرد أنهم سبقوك إليه، حتى لو كان طريقهم سيؤدي في نهايته إلى الهاوية، إلى الدرك..

قد يكون هذا الغير جيلاً سابقاً أو أمة أخرى، المهم أنه "غير"..

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصافات: ٣٧/٦٩-٧٠]..

إنه أن تهرع على آثار الغير، دون أن تفكر بأين ستوصلك هذه الآثار، في محطتها الأخيرة..

آليات التعامل "الضال" مع الكتاب

لكن السؤال هو: كيف يمكن تطبيق هذا التعريف، على آليات تعامل الفئة الثانية من أهل الكتاب.. مع الكتاب؟..

فلنراجع الآن نقطة الاختلاف الرئيسية مع الفئة الثانية

من أهل الكتاب، فمقابل مشاكل متراكمة ومتنوعة الطابع مع بني إسرائيل، فإن نقطة الخلاف الأساسية (ابتداءً على الأقل) كانت من العقيدة..

كان هناك، ولا يزال، مسألة ألوهية السيد المسيح، والتثليث، وعقيدة الفداء الناتجة عن "الصلب"..

طبعاً يمكن أن تكون هناك فروقات في هذه المسائل الثلاث بين مذهب وآخر، ويمكن أن تكون هناك تاريخياً - مذاهب لم تؤمن بكل هذه العقائد، ويمكن أيضاً أن تكون هناك مقاربات وإقحامات فلسفية لهذه العقيدة أو تلك، بطريقة تجعلها تبدو كما لو كانت أكثر عمقاً.. لكن كل ذلك لن يغير من حقيقة وجود هذه العقائد عموماً، كما أن هذه الحقيقة لا تلغي إمكانية التعايش "معهم"، ذلك أن الخطاب القرآني لا يعلمنا محاكمتهم، بل هو يشير إلى مواطن خلل في آليات التعامل ويحذرنا من السقوط فيها "حذو القذة بالقذة"..

* * *

لكن ما هي آلية التعامل مع الكتاب، التي انتهت إلى ما انتهت إليه من تأليه الرسول والتثليث والفداء؟..

ما الذي حدث بالضبط مع النصارى؟..

التفاعل مع الكتاب بلا شروط على الإطلاق

الذي حدث كان العكس تماماً مما حدث مع اليهود..

فمع بني إسرائيل، كان الأساس هو القلب الأغلف،

الذات المنغلقة المصفحة ضد أي محاولة إعادة صياغة وبناء.. وكان أن أنتج تعاملاً مع الكتاب أخضع الكتاب لهذه الذات المنغلقة، وليس العكس..

مع النصارى، كان الأمر بشكل معاكس، كانت الذات مستلبة تماماً، منفتحة على الآخر بلا حدود، بلا ضابط ولا شرط.. كانت الذات متماهية تماماً مع ذات الغير، تهرع على آثار الغير وخطواتهم بغض النظر عن المحطة الأخيرة للطريق.. إنه آلية التعامل مع الكتاب، ليس عبر الذات المنغلقة كما مع بني إسرائيل، بل عبر ذات الآخرين، عبر الذات المنتصرة.. الذات الأكثر هيمنة... إنه إخضاع الكتاب مرة أخرى لذات أخرى.. هذه المرة لذات الآخرين.. وإعادة قراءة الكتاب، وتركيب مفاهيمه لينسجم مع تلك الذات..

إنه إخضاع الكتاب للعالم، بدلاً من إخضاعه للذات في حالة بني إسرائيل.. وبدلاً من أن يتم الهدف المطلوب: أن يكون الكتاب وسيلة لإعادة بناء العالم..

* * *

أين الآية التي تشير إلى ذلك..؟

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٩/٣٠]..

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [التوبة: ٩/٣٠]..

هذه الآية هي جوهر تعاملهم مع الكتاب..

وهذه الآية هي التي تختصر تاريخ نشوء المسيحية بالشكل الذي نعرفه اليوم.. ومرة أخرى هذا الكلام هنا ليس من أجل النقد، بل من أجل الانتباه إلى عدم تكرار الخطأ..

* * *

"مضاهاة الذين كفروا" أو "اتباع آثارهم"، الهروع إليها، هي جوهر ما حدث مع النصارى، عندما تعاملوا مع الكتاب عندهم..

فلنتنبه هنا، إلى أن اليهود، رغم تعنتهم وتحجرهم على ذواتهم، كانوا يمرون، وقت بعثة السيد المسيح، بواحدة من فترات اضطهادهم، فقد كانت أراضيهم محتلة من قبل الرومان الوثنيين المنتصرين..

حمل بولس الذي تصدر للدعوة بعد رفع السيد المسيح الذات السلبية هذه معه، وضاق في الوقت نفسه ذرعاً بتحجر التعاليم اليهودية وكهنتها، رأى أن حمل هذه التعاليم إلى الناس؛ إلى الأمم (من غير اليهود) سيكون عبئاً ثقيلاً، في ظاهر الأمر بدا أمر (الختان) عقبة شائكة عليه أن يتخطاها، وكان كهنة اليهود يعدونه بمثابة جواز مرور لكل من يتهود، وكان ذلك صعباً من الناحية العملية؛ أي إجراء الختان بالنسبة للبالغين..

لكن في باطن الأمر كان الأمر أكثر صعوبة وأعقد. من كان يمكن أصلاً أن يؤمن بالتعاليم اليهودية بينما اليهود

يعيشون حالة استلاب وذل ويعيشون تحت ظل الاحتلال الروماني؟.. ألا يفرض (الدين الصواب) أن يكون معتنقوه بوضع أفضل، لو أنهم فهموه بشكل صائب، على الأقل؟..

كان بولس يعلم أن لا فرصة لذلك، لذا فقد وضع نصب عينيه (الدعوة) - إن جاز التعبير - أو جمع الناس، أكبر عدد ممكن من الناس، بغض النظر عن صواب أو خطأ ما يجمعهم عليه..

هنا كانت مضاهاة الذين كفروا، صار على (الكتاب) أن يلبس لبوس ما حوله من عقائد وثنية من أجل أن يكون مقبولاً عند أصحابها.. بالذات عندما يكونون أصحاب القوة والهيمنة..

وهكذا فإن عقائد الفداء والألوهية والتثليث، تسربت، بالتدريج، من ثقب الاستلاب أمام الآخر، بحجة كسب هذا الآخر..

وهكذا، فعندما أعلن الإمبراطور قسطنطين، بعد حوالي ثلاثة قرون من كل ذلك، الديانة المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، فإنها كانت لا تشبه بشيء الدعوة التي نادى بها السيد المسيح، بل كانت بمثابة ديانة توليفية تجمع بين العقائد والمعتقدات التي كان حوض البحر المتوسط يعجّ بها.. والتي كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليها..

وهكذا فقد كانت تلك التوليفة مزيجاً يرضي معظم الأطراف..

باستثناء الطرف الأهم: الحقيقة..

آلية التعامل مع الكتاب، التي يهرع فيها المتلقي على آثار الآخر، ليركب مفاهيم الكتاب بما ينسجم مع هذا الآخر، ولو بالانتقائية أو الحذف أو التناقض، هي في حقيقتها منزلق خطير، ولا سيما عندما يكون هذا "الآخر" الذي نعدل الكتاب حسب مفاهيمه، منتصراً، مهيمناً، متفوقاً... ونكون نحن على الطرف الآخر من ذلك كله..

وبين ذات غلفاء كالصوان، تعيد تدوير الكتاب ليصب في انغماسها بذاتها، وذات مفتوحة بلا حدود، متحدة مع الآخر، تعيد تركيب الكتاب ليتصالح مع عالم لا ينبغي الصلح معه..

وبين هذا وذاك، تضيع تلك الآلية - الصواب..

الآلية التي تستند إلى الكتاب، مرجعاً ومرشداً وبوصلة ومناراً، لتعيد تحوير الذات، لتعيد بناءها من أجل أن تؤدي ما خلقت من أجله، وتعيد، خلال ذلك، إعادة بناء العالم..الآلية التي تتفاعل مع الكتاب بشروط من الكتاب نفسه: لا بشروط مفروضة عليه من ذات مغلقة، ولا من دون شروط على الإطلاق..بل بشروط تتحكم بالتفاعل مستمدة منه..

إنها الآلية التي تجعل من الكتاب نعمة "فاعلة":آلية تعبد الصراط، نحو عالم آخر..

عالم أكثر عدالة وتوازناً..

* * *

الخاتمة: افتح عينيك على العالم

علي أن أقر، أني لم أكن أفهم الحكمة من ذلك النهي النبوي الشريف عن إغماض العينين في الصلاة..

عدم فهم الحكمة لا يعني قطعاً، ولا بأي شكل من الأشكال، عدم الالتزام بهذا النهي والتقيد به.. لكني أقر، أني لم أكن أفهم فحواه، فإغماض العينين، يساعد على التركيز، على التأمل، وكلها مقدمات طبيعية لما نوليه أهمية كبيرة - عن حق -: الخشوع.. كان هناك النهي.. ويكون هناك الالتزام.. وربما عندما نتأمل في الأمر نجد تلك الحكمة..

* * *

الآن أفهم تلك الحكمة، الراسية مثل جذور جبل شامخ في الأرض، فإغماض العينين، ولو بنية التأمل والخشوع، يتيح لك الدخول إلى عالم افتراضي، عالم خارج واقعك المحسوس.. يتيح لك فرصة الهرب من العالم المحيط بك.. بكل ما فيه مما يستدعي الهروب..

إغماض العينين، يمنحك ذلك، ولو لدقائق.. ولو بنية التركيز والتأمل.. ولو من أجل الخشوع..

لكن لا !..

الصلاة، أبداً ليست من أجل الهروب من العالم، ليست من أجل التسلل من هذا الواقع..

إنها على العكس، من أجل الولوج فيه ..من أجل اقتحامه.. إنها من أجل مواجهته بكل ما فيه..

من أجل ذلك: لا تغمض عينيك في الصلاة، بل افتحهما على اتساعهما.. افتحهما جيداً على العالم بكل ما فيه.. ربما يكون ذلك أقل تركيزاً بالمعنى الذي نفهمه من التركيز، لكنه سيكون أكثر تصويباً نحو الهدف، أكثر تركيزاً عليه..

لن تستطيع أن تغير العالم، وما فيه.. إذا كنت تغمض عينيك.. وتقضي الوقت في تأمل عالم آخر.. افتحهما إذن، على وسعهما ، على أقصى ما في وسعك من وسعهما..

وصلِّ وهما كذلك..

إنما خلقت العينان من أجل ذلك!..

* * *

الآن أفهم هذا كله، بعد "الفاتحة"..

الفاتحة لم تعد مجرد فاتحة الكتاب.. لم تعد مجرد سورة ابتدأ بها القرآن، نسميها فاتحة الكتاب، بل صارت تحوي، في داخلها، على إمكانيات كامنة "للفتح"..

ستكون الفاتحة، إذا سمحت لها طبعاً، إذا سمحت لها بالقيام بدورها، فاتحةً لعينين، ستفتح عينيك كما لم يفتحهما شيء من قبل، ستكون لك رؤيتك للعالم من حولك، لن تزيفه وتزوقه وتقدمه بلون وردي ساذج، ولكنها لن تسوده وتبالغ في عتمته لتحبطك..

والأهم من ذلك أنها لن تجعلك تهرب منه - لن تجعلك تشيح بوجهك عنه، نحو عالم افتراضي في خيالك..

لا، إنما ستفتح عينيك عليه، وستضعك أمامه كما هو..

* * *

وستكون الفاتحة أيضاً، فاتحةً لعينيك على ذاتك، على دورك في هذا العالم، على "توصيفك الوظيفي" الذي جئت على أساسه إلى هنا.. إنك لم تأت من العدم، ولم تأت من أجل العدم، لم تخلق عبثاً، ولست وليد المصادفة، ولست سليل القرود أو التطور.. لقد خلقت بهدف ومن أجل هدف..

ستفتح الفاتحة عينيك على الجدل بين ذاتك كما هي، تلك التي شكلها العالم من حولك، وذاتك كما يجب أن تكون.. التي يجب أن تعيد تشكيل العالم، كما يجب أن يكون..

ستفتح عينيك على جدل الذات والعالم، وما يجب أن تكون، وما هو كائن فعلاً..

* * *

ستفتح الفاتحة عينيك على عالم آخر، ليس خيالياً، وإن كان لم يتحقق بعد، ليس افتراضياً وإن كان الطريق إليه لم يعبد بعد، ليس مستحيلاً لكن الوصول إليه بالتأكيد صعب..

إنه عالم أكثر عدالة وتوازناً، أكثر تماسكاً وانسجاماً، أكثر خصوبة وأصدق نماءً.. إنه العالم الذي يبنيه الإنسان حقاً، ليكون حاضنة للإنسان حقاً..

إنه عالم جديد فعلاً، لكنه ليس حلماً من أحلام الحالمين ولا وهماً من أوهام الواهمين..

إنه عالم جديد "ممكن" وهو ممكن بالذات لأنك يمكن أن تبنيه.. أن تساهم في صنعه وتشييده.. وأنت بما تملكه من كتاب أحق من غيرك بالمناداة به..

إنه ممكن بك، لو آمنت بنفسك، وبدورك، لو آمنت أن دورك في هذا العالم هو أبعد ما يكون عن تلك القصة الصغيرة التي زججت بنفسك فيها، بل هو جزء من قصة كبيرة هي محور الخلق كله..

إنه عالم جديد "ممكن".. لكنه مشروط بقبولك لدورك في الحياة..

* * *

ومع أنها شديدة الهدوء، إلا أنها أيضاً، وضمناً، "تفتح" النار على العالم القديم وأركانه ومؤسساته..

إنها عندما تمدك بالرؤية الصواب، تجعلك ترى، ربما للمرة الأولى، كم هو مزيف وهشّ ذلك العالم الآخر، مع ناطحات سحابه وهيمنته وبهرجه ولمعانه.. ما دامت أسسه غير راسخة، ما دامت أركانه مجوفة..

تفتح الفاتحة النار على ذلك العالم ومفاهيمه، مع أن

طريقه سيبدو مأموناً أكثر، ومأهولاً أكثر، ومع أن كل إشارات الطريق ستدل عليه..

لكن "الفاتحة" تجعلك تنظر إلى الهاوية التي تلي القمة، إلى الدرك بعد الصعود..

الفاتحة لا تكتفي بفتح النار على العالم القديم، بل هي تمهد "للفتح".. تمهد لكي تشارك بافتتاح العالم الجديد..

* * *

لا بد من الكتاب..

ولا بد من آلية تعامل صحيحة معه..

* * *

لهذا كله، إنها "الفاتحة"..

فاتحة الكتاب، لأن كل الكتاب سنفهمه بشكل مختلف أكثر فاعلية، لو فهمناه من خلالها..

فاتحة العينين، لأنها ستمنحك الرؤية لما يجب أن تراه، رؤية تنأى عن التفاصيل لصالح المشهد كله، فإذا بك إنسان آخر، وإذا بالعالم عالمٌ آخر، وإذا بالعالم الذي عليك بناؤه عالم جديد وممكن..

وهي فاتحة للحياة، وليس للموت، علينا أن نكتبها في أثناء رحلة حياتنا، أن نمارسها في أثناء ذلك - لا أن تختتم حياتنا بها، ويقرأها الآخرون علينا.. وتكتب على شواهد قبورنا..

إنها فاتحة للحياة: تمنح الحياة للقلب - الجوهر،

وتتفتح الروح بها، تستمد منها القوة والعزم، ويسير فيها وعبرها النسغ الصاعد، اللازم للبناء..

بناء ذلك العالم....

عالم جديد ممكن..

آمين..

دمشق ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٨هـ

الموافق ١-١- ٢٠٠٨م



مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني – عبر الصلاة – فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

في (عالم جديد ممكن)، الحلقة الثالثة من هذه السلسلة، يسلط الضوء على سورة الفاتحة باعتبارها السورة المركزية في الصلاة. الحلقة تتألف من مقدمة وثمانية فصول وخاتمة، ومن خلالها نرى دور سورة الفاتحة في تشكيل رؤية جديدة للعالم؛ رؤية تبتدئ بمعرفة الله سبحانه وتعالى كما يعرف هو عن نفسه، ومن ثم تحدد طبيعة علاقتنا به، وبعد هذا سيكون تحديد موقعنا من هذا العالم من خلال رؤية أخرى، هي الرؤية الحق والصواب البعيدة عن رؤية الإفراط في (المغضوب عليهم)، ورؤية التفريط في (الضالين).

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Episode Three of this series, *"A Possible New World"*, highlights the Opening Chapter [*al-Fatihah*] for being the central *Surah* in prayer. This episode consists of an introduction, eight chapters and a conclusion. It reveals the role of this Surah in forming a new view of the world, which starts with getting acquaintance with Allah, the Exalted and the All-High, the same as He is acquainted with Himself. Then it identifies our relation with Him. After that, our position in this world will be determined through another view, represented in viewing truth correctly away from the view of exaggeration – in "Not the path of those who earn Your anger" – and the view of negligence in "Those who go astray".

بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظراً لسرعته وفعاليته وقلة كلفته .

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقماً تدخله من خلال موقع الدار ، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات، ويصبح لك رصيد من النقاط، وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية، و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب.

هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم .

بتواصلك معنا، نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع .

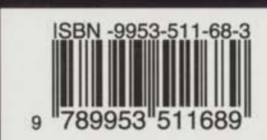
e-mail:fikr@fikr.net

A Possible New World
’Ālam Jadīd Mumkin
Aḥmad Khayrī al-‘Umarī

كيمياء الصلاة ٣
عالم جديد ممكن

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

هذه الحلقة تسلط الضوء على السورة المركزية في الصلاة، سورة الفاتحة، التي يرددها المسلم سبع عشرة مرة في اليوم، والتي هي عماد الصلاة والمدخل الأساسي للقرآن الكريم في الوقت نفسه. الفاتحة هنا لن تكون فاتحة كتاب فقط، بل ستكون فاتحة للعين المسلمة على عالم جديد، ستكون فاتحة لأبواب هذا العالم كي يدخله فرد يتماهى مع هذه الرؤية ويعيد بناء العالم من خلالها. الفاتحة، في الصلاة تجمع خيوط ذلك، إنها تحدد العلاقة الأهم في حياة كل منا، علاقتنا مع الله عز وجل، وهي العلاقة التي ستحدد بدورها علاقتنا مع ذواتنا، ومن ثم مع العالم من حولنا. هذا التداخل بين العلاقات هو الذي سيجعلنا نساهم في بناء ***عالم جديد ممكن***.


ISBN -9953-511-68-3
9 789953 511689

تصميم الغلاف: يمان بطيخة

٤ كيمياء الصلاة

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة: نمط عمارة لبناء الإنسان

د.أحمد خيري العمري



الدكتور
أحمد خيري العمري

(٤)

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة: نمط عمارة لبناء الإنسان





2011=1432
دار الفكر - دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٤

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة : نمط عمارة لبناء الإنسان

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٧,٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-69-6
التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)
١٠٨ ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الخامسة: ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م
ط١ / ٢٠٠٨م



سلسلة كيمياء الصلاة

(٤)

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة: نمط عمارة لبناء الإنسان

فيزياء المعاني: هيئات الصلاة-نمط عمارة لبناء الإنسان / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٠٨ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٤)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري

مكتبة الأسد

المحتوى

عن القوالب: عبوة المعاني

عصرنا، عصر يدعي أنه ضد القوالب بالمطلق.. ويقول: إن القوالب قيود، وإنها زنازين وأقبية، تمنع الانطلاق، تمنع التحليق..

عصرنا يدّعي أنه عصر الحرية، عصر تحطيم القوالب، عصر يفخر أن لا شيء ثابت، وأن القوالب لم توجد إلا لكي تحطم..

لكن عصرنا، تمادى على ما يبدو في مفهوم تحطيم القوالب، حتى صار هذا المفهوم بحد ذاته قالباً، أو على الأقل، صار له سلبيات القوالب.. دون إيجابياتها..

ذلك أن إنكار إيجابيات القوالب، سيعني إنكار كل منجزات الحضارة منذ نشوئها الأول حتى اليوم..

بغير القوالب، ما كان يمكن لبناء واحد أن يرتفع، كان الطين سيظل في الأرض.. والحجر في الجبال سيظل حجراً..

بغير القوالب، كانت "العجلة" ستظل مجرد فكرة، وكان العالم سيظل يتعثر على قدميه؛ مشياً، زحفاً أو حبواً..

بغير القوالب، كانت المعادن ستظل مختلطة بعضها مع بعض، في باطن الأرض.. دون أي استغلال لها في السراء أو في الضراء..

بغير القوالب، كانت الأفكار ستظل هائمة على وجهها،

حرة طليقة في الهواء، دون أن ينتفع بها أحد، دون أن تتجسم في قالب الأبجدية الذي ينقلها، أحياناً كما الزكام (الإيجابي!)، إلى الآخرين..

القوالب، هي الوسيط الوحيد الممكن، لنقل المعاني..

حيث لا قوالب هناك، لا يمكن نقل المعاني، لا يمكن تجسيدها..

وعندما تكون القوالب فضفاضة جداً، بلا قالب واضح أو محدد، فإن المعاني تتسرب من الثقوب.. كما لو أنه لا قوالب هناك..

القوالب، هي ما لا بد منه، لنقل المعاني..

أي أحد ينكر هذا يكون واحداً من اثنين: إما أنه لا يعرف شيئاً، أو أنه يعرف لكنه يريد أن ينشر "قالبه" هو..

وهذا لا ينفي أن بعض القوالب وجدت لتتحطم، وأن أخرى تنتهي صلاحيتها بعد مدة، ولكن هناك بعض القوالب، تتحدى الزمان والمكان، تصمد بوجه تغيراتهما.. ما دامت المعاني الكامنة المحتواة فيها حية.. وقادرة على بعث الحياة..

بعض المعاني، لا تعيش حقاً ولا يكون لها وجود إلا ضمن القوالب.. كما المواد المتسامية، لا يمكن أن يكون لها وجود إلا في القوالب المحتوية لها، المغلقة بإحكام.. أي تسريب لها.. أي فتح لسدادة القارورة المحتوية لها، سيقضي عليها تماماً، سيجعلها تتبخر و تتسامى.. دون أن تمر بحالة "وسط" ما بين المادة والبخار..

قليل مما يسمونه الحرية، يكون كافياً أحياناً، لقتل المعنى، إذا فتح القالب الذي يؤطر هذا المعنى..

عن أي قوالب، وأي معان نتحدث؟..

عن هيئات الصلاة، حركاتها وسكناتها، التي هي القالب الذي يؤطر المعاني ويحتويها..

حركات القيام، والركوع، والسجود؛ التي نظلمها، بل نظلم أنفسنا لو ظننّا أنها مجرد حركات. ونظلم أنفسنا أكثر لو عددناها قوالب، مجردةً عن وظيفتها الأصلية.. حمل المعاني، والمحافظة عليها، وتجسيدها في الوقت نفسه..

عن هيئات الصلاة، التي تضم أعماقاً من المعاني، نجتهد في تقزيمها دوماً، فندع مجالاً لهذا ولذاك، ليقول عنها: إنها "مجرد هيئات" وإن "المهم هو ما في القلب"..

و "المهم ما في القلب" ليس قولاً خاطئاً بالمطلق..

إنما "ما في القلب"، لا يمكن أن يكون أصلاً إذا لم يكن ضمن القلب القالب..

والهيئات، هي ذلك القلب والقالب، الذي يحفظ المعنى الذي يجب أن يكون في قلب قالب، يحميه من التسرب، يحميه من الاختفاء، يحميه من أن يتسامى ومن أن يتوارى عن الوجود..

ويتمادى أصحاب نظرية "المهم هو ما في القلب" قليلاً، فيقولون: إن المهم هو أن يكون القلب متجهاً إلى الله حتى

لو لم يكن ذلك ضمن هيئة تحيط به، والمهم هو أن يسجد القلب ولو لم يسجد الجسد، والمهم هو أن تكون مع الله بقلبك، حتى لو كانت كل أطرافك في مكان آخر تماماً..

والكلام جميل، وهو سهل، ويمكن المضي فيه إلى ما لا نهاية، لكنه كأي شعار، أزمته الحقيقية عند التطبيق، عند الفعل..

لا أحد يقول: إن المعنى غير مهم، لكن اجتزاء المعنى، من قالبه، هو معادل تماماً، لمن يقول، أو يجرؤ على القول: إن الحركات، الهيئات، خالية تماماً من المعنى..

إلغاء "القالب" كما يوحي هؤلاء، سيؤدي حتماً إلى قتل المعنى، حتى لو كانت عملية إلغاء القالب هذه مدججة بالدفاع عن المعنى، وتعزيزه..

هذه الهيئات، أو القوالب، لها هندسة خاصة، تعبر عن المعنى، وتحتويه، وتتحد معه ..شكل هذه الهيئات، وهيئتها، أمرٌ لا ينفصل أبداً عن المعنى الذي تعبر عنه..

معرفة هذا، والإبحار فيه، سيقوي المعنى، ويكرسه..

وعندما يكرس المعنى، ويزداد قوة ورسوخاً، فإن "الصلاة" نفسها، ستؤدي دورها..

ودورها، عندما يؤدى، لن يبقي شيئاً على حاله، فيك.. بل سيقودك إلى حيث تكون شيئاً آخر..

سيعطي هذا المعنى، المعنى لحياتك..

وسيبدأ الأمر، من تلك الهيئات، التي يستخف بها بعضهم.. ويقولون: "مجرد هيئات"..

الفصل الأول

القيام..: أداء ما يجب أداؤه

القيام هو الهيئة الأولى من هيئات الصلاة، وهو يعامل كما لو أنه وقوف مجرد يتضمن قراءة فاتحة الكتاب، وسورة أخرى، ثم الدخول في هيئة أخرى..

وفي ظاهر الأمر، بل في سطحه العابر، سيكون الأمر ليس أكثر من هذا فعلاً، ما الذي يمكن أن يكون هناك من معنى، أكثر من هذا؟..

لكن العين لو دققت في هذا الشكل، لوجدت في الأبعاد الهندسية لذلك القيام، أبعاداً من المعاني، يجسدها مجرد فهمها متحداً مع القيام بها..



لا يوجد "بناء هندسي" معزول عن القيم خلفه..

بل كل بناء، خلف أبعاده، له أبعاد أخرى تعبر عن العمق الداخلي فيه، مهما كان البناء، سواء كان بسيطاً متواضعاً، أم فخماً مزخرفاً، فإنه يعبر عن حقيقته الداخلية، أحياناً تعبر البساطة عن عمق، وتعبر الزخرفة

عن خواء، أحياناً تعبر البساطة عن سد الحاجات الأساسية، وتعبر الزخرفة عن عين فارغة لا يشبعها شيء..

وهكذا، فإن كل طراز معماري، ينتمي لحضارة ما، ويتماهى معها، يعبر عن جوهر هذه الحضارة، وعن قيمها الداخلية، بشكل هندسي لا (يسكن) فيه الناس فحسب، بل يحتوي قيمهم ونمط حياتهم أيضاً..

وكذلك فإن النمط المعماري في المجتمعات الإسلامية، كان متشابهاً رغم المسافات والقارات التي تفصل بينها، ذلك أنه كان يعبر عن قيم داخلية مشتركة..

وهكذا، فإن هذا النمط، عندما تآكل - في العالم الإسلامي كله - واستورد محله نمط عمارة أخرى، يعدونها أكثر معاصرة وحداثة، كان يعبر عن حدوث عملية تآكل وانهيار للقيم الأصلية، وورود قيم اجتماعية أخرى، جلبت معها عمارتها..

وهكذا فإن المنارة الإسلامية كانت رمزاً لشموخ وتفوق حضاريين، يوم كانت الحضارة الإسلامية هي المنارة - فعلاً - للعالم أجمع، وكان المجتمع الإسلامي منارة للعالم أجمع، وكان الإنسان المسلم كتحصيل حاصل "منارة للناس أجمعين..

وكانت الباحة التقليدية في مركز البيت تعبيراً معمارياً عن مركزية تلك العلاقة التي تربط سكان البيت بالسماء.. وانفتاحهم أولاً، عليها..

وكان تداخل البيوت وتقاربها في نماذج "الحارات" التقليدية المنتشرة في بلدان العالم الإسلامي، تعبيراً معمارياً عن حالة تماسك كان المجتمع يعيشها فعلاً..

لست بصدد الاستمرار في ذكر أمثلة.. إنما هذه إشارات لتوضيح أن "الشكل الخارجي"، يعبر عن حقيقة داخلية، وأن للمعاني، هندستها أيضاً، والهيئات، هي ذلك الطراز المعماري الذي يحتوي في داخله على المعاني..

رغم ذلك، ننشغل أحياناً، بحذافير الهيئات، دون أن نحاول التنقيب فيما تمثله هذه الهيئات..

غير منتبهين، أن عملية تآكل القيم، التي حدثت على نطاق واسع، قد تكون قد نالت من هذه المعاني أيضاً..

الأمر الذي قد يجعل من الهيئات مفرغة من معانيها، حتى لو كانت "حذافيرها" مضبوطة بصحيح الأحاديث..



ماذا تعني الهيئة الأولى، هيئة القيام؟..

ما الذي فيها، ما الذي يمكن أن يكون خلف هذا الطراز المعماري الذي ألفناه لدرجة أن لم نعد نلتفت إليه..

ما الذي يمكن أن يكون فيه غير هذا الوقوف بانتصاب؟..

ربما يكون هناك الكثير، خلف تلك الوقفة..



فلنتنبّه هنا إلى لفظة "القيام" التي تصف هذه الهيئة.. الوصف هنا لا علاقة له بالوقوف المجرد؛ بل بالقيام.. والقيام يشبه الوقوف من زاويةٍ ما، لكنهما ليسا متطابقين.. وتشابههما قد يكون عابراً وسطحياً..

"القيام" أعمق بكثير، من مجرد الوقوف..

فلنتأمل في هذا..

القيام = النهوض

القيام، يعني كما هو واضح، التحول من وضع الجلوس، أو القعود إلى ما هو عكسه..

إنه يعني "النهوض" بكل ما في ذلك من معان، بكل ما في ذلك من إسقاطات معاصرة، وإسقاطات تاريخية، وإسقاطات "مطلقة" : تتعلق دوماً بالوضع الإنساني..

القيام، هو "حزمة من المعاني"، يمكن أن تكون مقياساً لحياتك، تتعلق بك عندما تنهض من كبواتك، أو من سقطاتك، أو من كل ما هو متدنٍ، ومنخفض في حياتك..

القيام، بهذا المعنى، هو أن تنهض دوماً نحو الأعلى، أن تنهض دوماً من سطح الأرض، نحو قمم تساهم أنت في بنائها..

القيام، وهيئة "القيام" - بهذا المعنى - "رمز" لذلك المعنى العميق الكامن في الصلاة، المعنى الذي أؤمن شخصياً - من تلاقي كل ما سبق وتلاقحه - أن الصلاة

يمكن أن تساعدنا على القيام به، كدورة تدريبية، نعيد من خلالها صياغة أنفسنا، ونهيئها لإعادة صياغة العالم..

هيئة "القيام"، هي الوضع الذي يختصر هذا، ويرمز له، ويعبر عنه..

بعبارة أخرى: طراز العمارة المتجسد في وقفتنا تلك، يعبر عن ذلك المعنى العميق المرتبط بالنهوض، بكل ما هو ضد القعود..

أنواع من القيام، لكن النهوض واحد !

وليس كل ما هو "ضد القعود" إيجابي بالضرورة..

فالقيام أنواع، وهناك أنواع من القيام يكون الموات أحسن منها.. يكون القعود أفضل منها..

هناك ثلاثة أنواع من القيام، واحد منها حتمي وقسري، ولن نملك أمامه خيار، إنه يوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٨٣/٦]، بعد حياة ربما كانت خالية من الحياة، بعد موت تلا حياة، لم تكن سوى موت مع أداء بعض الوظائف البيولوجية..

وهناك "قيام"، قد يكون أسوأ من القعود، إنه قيام الذين ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٥].. إنهم قد يرتفعون في البنيان، قد يكون لديهم كل مظاهر النهضة، لكنهم، بما أن أساس نهوضهم هذا قائم على الاستغلال، على أكلهم الربا، فإن قيامهم هذا هو مجرد قيام من يتخبطه الشيطان من

المسّ، مجرد مظهر قائم، خالٍ من المعاني العميقة للقيام..

وهناك ذلك القيام الآخر، القيام بالقسط، الذي هو فحوى وجوهر "وجودنا كله" ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٥٧/٢٥]..

إنه النهوض الحقيقي هنا، المستند على الكتاب، والميزان، الذي ينتج نهوضاً عادلاً متوازناً، نهوضاً لا يقوم على ظلم أحد، ولا على إجبار أحد على "القعود"..

إنه ذلك القيام المتوازن، الذي الكتاب **قوة دافعة له للنهوض**، ويجعل الكتاب في الوقت نفسه بوصلة لهذا النهوض موجهة له، وحاكمة نهائية على نتائجه وعلى استقامته..لا نهوض حقيقي إذن بلا هذا الكتاب..

كل النعم خاضعة لهذا القانون

والإشارة القرآنية التي وردت هنا، إلى الحديد الذي فيه ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ هي إشارة إلى كل الموارد والثروات التي أودعها الله في خلقه، والتي يمكن أن تستعمل دوماً باتجاهين، ويكون الاتجاه مرتبطاً بنوعية قيام الناس، هل هو قيام بالقسط مستند إلى الكتاب ومتوازن به؟..

أم إنه قيام كقيام من يتخبطه الشيطان من المسّ؟..

القيام الأول سيتجه نحو إيجاد المنافع من الحديد.. والثاني سينتج البأس الشديد..

ولو التفتنا حولنا، في هذا العالم، لوجدنا مظاهر للتطاول قد تشبه، في بعض من جوانبها القيام.. لكن، مع كل البأس الشديد الناتج عن هذا التطاول، نستطيع أن نحدد إن كان قيام من يتخبطه الشيطان ويقوده..

أم إنه قيام بالقسط؟..

ناهيك عن قعودنا المزمن طبعاً..

تحديد اتجاه القيام

القيام، هو ذلك "الفعل" الذي يستجيب لأمر الله عز وجل ..﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨]..

ذلك أنه ليس أي قيام، بل قيام تتحدد حركته، واتجاهها بأن تكون لله..

ولنتنبّه هنا، أن هذا الأمر تحديداً جاء في سياق الأمر بالمحافظة على الصلوات..

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨].. فالمعنيان هنا يرتبطان بعضهما ببعض. القيام، بالمعنى الأوسع للنهوض، والصلاة بصفتها هذه الدورة التدريبية، على قيامك بدورك في حياتك..

"أن تقوم بدورك"..

أن تكون قائماً، يعني أن تكون فاعلاً.. أن تكون قائماً بدورك.. أن تؤدي دورك وواجبك..

ووضعية "القيام" - كهيئة - تحمل هذا المعنى معها، حتى لو لم نتنبَّه له ولم نربطه، في غمرة انشغالنا بالتفاصيل، عن المعاني.. النص القرآني، ذاته، يشدنا من تلابيبنا، يلفت ألبابنا نحو ذلك.. نحو الربط بين القيام، **وبين قيامك بدورك..**

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾ [المعارج: ٧٠/٣٣]..

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٣/٧٥]..

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: ١١/٧١]..

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥٩/٥]..

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾ [هود: ١١/١٠٠].

بعض معاني الآيات هنا، قد تجلب إلى الذهن المعنى المجرد للوقوف، كما في امرأة إبراهيم التي كانت "قائمة"، واللينة "القائمة".. لكن هذا المعنى سيذوب في المعنى الأكبر للقيام، معنى أداء الوظيفة والواجب..

فامرأة إبراهيم لم تكن واقفة بسكون، لكنها كانت تؤدي واجب الضيافة، تؤدي دورها ضمن النمط الاجتماعي الذي عاشت فيه..

والنخلة لم تكن واقفة بانتصاب فحسب، بل كانت قائمة على أصولها لأنها تنتج و"تقوم" بدورها الذي خلقت من أجله..

وهكذا فإن المعنى سيتوضح أكثر وأكثر عندما نقارن بين "قرى قائمة" و "قرى حصيدة"..

فالقرى القائمة هي ليست قرى واقفة بالتأكيد؛ أما "الحصيدة" فهي تلك التي انتهى دورها، فالحصيد هو ما قطع بالمنجل، وقطعه هنا يدل على انتهاء دوره وكفه عن القيام بأي وظيفة..

وتكون القرى القائمة - بالتضاد مع الحصيدة - هي تلك التي تؤدي دورها وتقوم بوظيفتها.. هي تلك التي تنتج (.. وليست تلك التي تستهلك فقط والتي ستعدّ حصيدة هنا)..

وضمن هذا المعنى ستكون الشهادة القائمة هي شهادة الفعل لا القول فقط.. شهادة تطابق الرؤية مع السلوك، والفكر مع التطبيق..

وهذه المعاني كلها، ستصب في المعنى الأساسي للقيام: القيام بدورك في الحياة..

القيام بالدور: من الفرد إلى الأمة

بين كل هذه الآيات، التي ترسخ المعنى الأعمق للقيام، تبرز آية تنير الدرب نحو كيف يكون الفرد قائماً، صحيح أنها آية تتحدث عن فرد استثنائي جداً، فرد نادته الملائكة، بينما هو قائم يصلي..

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٨-٣٩]

- فزكريا هنا كان قائماً يصلي، وكان ذلك يعني ليس هيئة القيام فقط؛ بل كان يعني أنه كان قائماً في حياته أيضاً، تعني أنه كان **يقوم بدوره في الحياة..**

كيف؟..

كان زكريا قد كفل مريم، ولم تكن هذه الكفالة تعني الإنفاق والإعالة فقط، لكن الآية تشير أيضاً إلى أداء دور تربوي واضح، فقوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧/٣] يشير إلى أدائه دور المراقبة والتقويم المستمر، الذي أنتج امرأة عفيفة طاهرة، هي مريم..

وذلك كله جعله مستحقاً لتلك البشارة، بشارة يحيى، وهي ليست مجرد بشارة عادية بإنجاب متأخر، بل هي تحقيق دعاء زكريا.. رغبة سابقة له، ألا يذره فرداً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩/٢١]، أن يستطيع، عبر هذا الابن، أن ينقل قيمه إلى المجتمع.. لذا جاءت البشارة بيحيى بكونه مصدقاً وسيداً وحصوراً.. إنه ليس مجرد ذكر آخر يحفظ اسم العائلة من الانقراض، لكنه "الإنسان" الذي يحفظ القيم، ويمارسها، الإنسان القائم بدوره، بواجبه، والحاصل على حقوقه بناءً على أدائه لواجبه أصلاً..

وكان الإنسان القائم، في هذه الذرية، التي بعضها من بعض، إنساناً فرداً يبذل الجهد ليكسر فرديته، يحمل الشعلة في كل جيل فردٌ واحد أو اثنان لا أكثر، ليوصلها إلى الجيل التالي، لفرد واحد أيضاً..

والتحدي الذي يواجه هذا الفرد، الإنسان القائم، هو أن **(يحمّل) الشعلة إلى عدد أكبر من الأفراد..**

عدد يتحول معه (القيام) من الفرد؛ من الإنسان.. إلى الأمة..

فتصير "الأمة قائمة"..

❖ ❖ ❖

لن يتأخر مجيء هذه الأمة القائمة، مع أن زكريا لم يشاهدها عياناً، ومع أن يحيى ابنه الوحيد قتل نتيجة محاولته نقل الشعلة إلى الجيل..

لكن جهوداً من هذا النوع لا تثمر مباشرة، بل يكون الحصاد بعد حين..

وفي سورة آل عمران نفسها التي التقينا فيها بزكريا وهو ﴿قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ [آل عمران: ٣٩/٣] نرى جهوده تتلاقح مع جهود أفراد آخرين، منهم ابنه البشارة يحيى، ومنهم مريم التي كفلها وابنها، ومنهم آخرون لا نعرفهم ويعرفهم ذاك الذي لا ينسى أحداً، وتثمر تلك الجهود جميعاً، على المدى البعيد.. في إنتاج أمة قائمة..

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/١١٣-١١٤]..

إنها الأمة "القائمة" إذن، القائمة بدورها، ودورها ليس تلاوة الآيات قراءة وسجوداً وتعبداً فقط، بل هذا هو التدريب الضمني للقيام بما ينبغي القيام به: الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، المسارعة في الخيرات..

تلك هي الأمة القائمة، الأمة التي **أداء الواجب فيها يسبق المطالبة بالحقوق، والتي تكون الحقوق فيها ناتجة عن أداء "الواجب"..**

إنها "الأمة القائمة" التي يغرس فيها " القيام بالواجب" بحيث إنه يكون تلقائياً وبدهياً، كما التنفس والطعام، دون أن يكون ذلك محض شعارات، وقوانين ينتظر مؤدوها الفرصة الأولى للتفلت منها..

كيف يحدث ذلك؟

عبر العقيدة الدينية، التي ستجعل "**القيام بالدور**" يدخل في كريات الدم الحمر والبيض والنخاع وتلافيف الدماغ.. كما الجنة والنار والرغبة في المغفرة..

وليست "الأمة القائمة" مجتمعاً فاضلاً لا يخطئ، فهذا خيال لن يتحقق، ولكنها أمة، عدد الأفراد الذين يقومون بدورهم فيها، أكثر من أولئك "العاطلين عن العمل" (رغم وظائفهم) حتى أولئك الأفراد ليسوا كاملين، في المطلق، لكن آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعمل على وضعهم دوماً على طريق "القيام" بأدوارهم..

القيام من كل ما يجعلهم على سطح الأرض..

القيام، كهدف من أهداف وجودنا، على هذا الكوكب..

وهذا كله، طال أم قصر، هو المعنى المتضمن في هيئة القيام، في ذلك الوقوف الذي نقفه عند الصلاة..

إنه الوقوف بشموخ، بانتصاب المقتدر، الوقوف كنخلة معطاء، قائمة على أصولها، صامدة بوجه الريح، فاعلة بوجه اليأس، منتجة ضد الجدب..

ذلك الوقوف، هو رمز "معماري" لقيامك بدورك، لقيامك بما كلفك به الله، إنه رمز معماري لما يجب أن تعمره، في نفسك وعبر نفسك، إنه "الهيئة" التي تعبر عبرها، عن استجابتك لأمره تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨]..

القيام هو هذا، هو دليلك على أنك حي وقادر، وأنك مؤهل لما كلفت به، مؤهل للنهوض، مؤهل لأن تقوم، لأن ترفض القعود؛ ترفض قدر القعود، لأن الله كتب عليك القيام، وها أنت ذا "تنبعث" من نقطة **الموات واللافعل، إلى الحياة.. والفعل..**

ليس هناك، في هذا العالم كله، خيال يمكن أن ينحت هيئة تدل على الفاعلية، على القيام بهذا الدور، على النهوض، مثل هيئة القيام هذه..

ليس هناك، نمط عمارة، في العالم كله، يمكن أن يجسد، دورك في الأرض، مثل وقوفك الشامخ هذا..

فلسفة "الصمغ" الاجتماعي: ذوبان "الأنا" في "النحن "

في هذا الركن، بالذات لارتباطه مع سورة الفاتحة، تبرز إحدى أكثر الوظائف وضوحاً وأهمية من وظائف الصلاة..

إنها وظيفة **التماسك الاجتماعي** التي تتماهى فيها علاقة الفرد بالجماعة و هي علاقة ملازمة لمعاني الفاتحة في الصلاة حيث إن النص كله من أوله إلى آخره يتحدث **بصيغة الجماعة** فيكون الفرد ملزماً بقراءتها بهذه الصيغة حتى لو صلى منفرداً في غرفته أو في الربع الخالي أو على سطح القمر.. إنه يقرؤها بصيغة الجماعة فيكون في هذا- لو اقترن بالوعي- تمثل لجماعة المسلمين كلها.. بمفهوم يخرج المصلي من إطاره الفردي الضيق..

هذا المفهوم المجسد في الفاتحة والمتماهي مع القيام يمثل هذا الذوبان الفريد للأنا في "النحن" التي هي العلاقة المثلى بين الفرد والمجتمع حسب الرؤية القرآنية. حيث "الأنا " تصب في صالح "النحن" التي هي رمز واسع لا للجماعة فحسب، ولا للمجتمع فقط، ولكن لمفهوم "الأمة" بشكل يتخطى حدود الزمان والمكان..

إنها صيغة تجعل الفرد يعي أنه جزء من هذه الأمة وأن جهوده لا تذهب هباء ولا سدى، بل إنها **تتراكم مع جهود** آخرين يشكلون معاً - كما تشكل معه- الإطار الأساسي لهذه النحن..

ومع هيئة القيام يتجسد ذلك أكثر في أن **قيامك** بدورك، أساس في علاقتك بالأمة: وأن "المردود" النهائي لذلك، عبر قيام الآخرين بدورهم سيعود عليك فرداً... وعليهم جماعةً.. وعندها سيكون للقيام أبهى وأوضح معانيه: النهوض.

وهنا يصير لمفهوم "صلاة الجماعة" معنى آخر غير زيادة الأجر، بل تصير صلاة الجماعة تعبيراً شعائرياً عن تماسك المجتمع ليس من ناحية قوة الروابط الاجتماعية؛ فحسب بل من ناحية أنه يتجه باتجاه واحد، وكل من أفراده لم يتخل عن "ذاته" و "أناه"، بل جعلها تصب في ذات المجتمع وأناه الجمعية.. أي في الكيان الذي يحقق فيه هذا المجتمع مثله وأهدافه..

كل الشعائر تمارس هذا الدور بطريقة أو بأخرى ما دامت تؤدى بشكل جماعي.. لكن الصلاة بخاصة هي **"الصمغ الاجتماعي" الأكثر فاعلية وقوة.. إنها تجعل** الفرد يشعر فعلياً بذلك عبر حميمية التماس مع الآخرين الذين سيكونون معه على الصف نفسه وباتجاه القبلة نفسها..

فلسفة "الأنا في النحن" والصمغ الاجتماعي، تتجسد أكثر ما تتجسد في صلاة الجماعة؛ حيث يتساوى الجميع في شعيرة تذيب الفوارق وتلغي الطبقات.. حيث يقف كتفاً بكتف، قدماً بقدم الوزير والفقير، وأولئك الذين فوق وأولئك الذين تحت، الكل في صف واحد.. في "رمز" لما

يجب أن يتحقق خارج "الأوقات الخمسة" عبر تحقيق "القيام" الاجتماعي ..بكل معاني العدالة المتضمنة فيه...

اليمين على الشمال

لا أرغب طبعاً، في الخوض في تفاصيل طائفية، أو مذهبية..

لكن بما أننا نضع اليمين على الشمال فعلاً، فهلا تأملنا في ذلك؟..

إننا نؤمن طبعاً بما هو متواتر من سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أمرنا أن نصلي كما رآه صحابته يصلي..

لكننا نؤمن كذلك، أن خلف كل سكنة، وكل حركة، في صلاته - عليه الصلاة والسلام - معنى، نحاول تتبعه، واتباعه، وتجسيده، بالضبط كما نتحرى دقة الهيئة..

اليمين، إذن، فوق الشمال..

فلنتأمل في كل واحدة على حدة أولاً.. ثم في اليمين، على الشمال..

اليمين، إذن..

نتأملها.. قد نعتقد أنها محض أداة.. لا فرق كبير بينها وبين الشمال..

لكن لا، الأمر ليس كما نظن عند الوهلة الأولى..

الأمر ملغوم برموز ومعانٍ.. قد تطيح بنا إن لم نفهمها..

❖ ❖ ❖

اليمين.. قرآنياً.. أخذت معنى عميقاً، ذا بعد مستقبلي / أخروي..

فصحائف الأعمال، تلك التي ستحصي علينا كل ما فعلناه في هذه الدنيا، ستوزع علينا بطريقة معينة..

بحيث إن أعمالنا، لو كانت قدمت بشكل يغير هذا العالم نحو الأفضل؛ فإنها ستقدم لنا بأيماننا.. والعكس، صحيح ..﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٧١] ..﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١٩] ..﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/٧].. سيكون اليمين يومها تلك البشرى.. وذلك الخبر السار..



ولأن الكتاب الذي يقدم باليمين، يحدد موقع الشخص أخروياً، باتجاه اليمين، فإن "اليمين" صار موقع أولئك الفائزين يومها..

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٢٧-٢٨] ..﴿لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٣٨] ..﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٩٠-٩١].

وهكذا يصير لليمين معنى الفوز والنصيب السعيد، وهو النصيب المرتبط بالعمل والجهد الدؤوب أرضياً، ولا علاقة له بمفهوم المصادفة العبثية التي تهبط على من لا يستحق..

ولهذا فإن أصحاب الميمنة، وأصحاب اليمين، هم أولئك الذين انشغلت أيمانهم - في الدنيا - **بصنع دنيا أفضل، بصنع عالم بشروط أكثر عدالة وتوازناً..**

"اليمين" في الآخرة، مرتبطة باليمين في الدنيا.. على الأخص بعمل هذه اليمين، بما بنته.. وأنتجته وشيَّدته..

اليمين مصداق للرأس..

حيازة الموقع هنا، تعني أن حياتك الأرضية لم تقتصر على مجموعة من العقائد والأفكار آمنت بها، وتحدثت عنها هنا وهناك، كلما خالفك أحد، أو لم تجد شيئاً لتفعله..

ارتباط اسم الموقع الأخروي باليمين، باليد عموماً، يعني أن حيازة هذا الموقع، **تتطلب عملاً يدوياً "يصدق" ما كان في العقل..** أو في القلب.. إن شئتم..

إنه أن تعمل وفق ما تؤمن به، لا أن تترك إيمانك بفكرة محلقاً في برج عاجي، أو في قفص تحمله في رأسك..

أما إن لم تعمل، أو عملت بما يخالف، باليد الأخرى، فإنك تعلم قطعاً أن اليمين هناك لن يكون موقعك..

❖ ❖ ❖

من اليمين بدأ الأمر...

ولو عدنا إلى الوراء، لوجدنا أن وحياً جاء بواحدة من أهم النبوات عبر التاريخ، جاء من الجانب الأيمن..

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٢]..

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٢٨/٣٠]..

اختار الله الشاطئ الأيمن، ليوحي إلى موسى.. ليبدأ وحيه من هناك..

لقد اختار الجانب الأيمن.. ليدلف الوحي منه إلى قلب موسى وعقله وكل كيانه..

الأيمن تحديداً..

هل هذه مصادفة؟ ..هل يمكن أن تكون مصادفة؟..



لكن أمر اليمين لم ينته عند بدء الوحي، مع موسى خصوصاً..

فبعد قليل، ونحن لا نزال في الجانب الأيمن سيأتي ذلك السؤال:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ٢٠/١٧]، إنه اليمين مجدداً.. وسيأتي الرد ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا

عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طـه: ١٨/٢٠]..

لكن ما في يمين موسى، سيكون له مآرب أخرى فعلاً. مآرب أكبر بكثير من تفاصيل الحياة الصغيرة. ما في يمينك يا موسى سيكون له دور في تغيير العالم من حولك.. ما في يمينك يا موسى سيقود الثورة ضد فرعون، وسيقود عملية الإصلاح الاجتماعي لقومك..

ونحن نعرف ما جرى، مع ما في تلك اليمين..

مع السحرة، مع فرعون..

ومع ذلك البحر؛ يوم انشق البحر ليسهل الخروج..

وكل ذلك مرَّ بما في اليمين..

الموعد عند اليمين

لكن الأمر لم ينته هناك..

فبعد الخروج، والنجاة من فرعون وآله، كان هناك الوعد الإلهي، مرة أخرى في الجانب الأيمن..

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: ٨٠/٢٠]..

مرة أخرى.. الجانب الأيمن..

وعندها "المن والسلوى"..

من اليمين، إلى اليمين..

❖ ❖ ❖

سيقول أصدقاؤنا المتثاقفون، من أولئك الذين لا يقتنعون بشيء لأنهم لا يؤمنون حقاً بشيء.. إنما هذه أساطير الأولين.. اخترعوها هم.. وصدقوها.. وها أنتم أولاء تصدقونها أيضاً.. إنها محض خرافات وأوهام.. محض ميثولوجيا..

حسناً إذن، دعوهم يقولون، لعلهم لا يحبون الميثولوجيا.. ما رأيهم إذن بالأنثروبولوجيا؟..

ما رأيهم في أن فكرة "اليمين" - كرمز للخير والصلاح - عميقة جداً في التراث الإنساني عموماً، وأنها موجودة في حضارات مختلفة ومتباعدة، بعضها وثنية - شركية، مثل مفهوم التاغترا الهندوسي، وبعضها سماوي توحيدي، مثل الموروث اليهودي؟ سيقولون: إنها مجرد أساطير تناقلتها الشعوب في تلاقحها، وقدستها كما تقدس كل قديم.. فلا تعظّموا الأمور وتصغروا عقولكم.. ما أهمية وضع اليمين على الشمال؟..

حسناً.. لا تحبون الميثولوجيا، ولا الأنثروبولوجيا..

ولكن هل تجرؤون على إنكار البيولوجيا؟!..



وقبل الدخول في البيولوجيا، هناك مقدمة قرآنية لابد من الغوص والتنقيب فيها.. لأنها ستكون المدخل الذي يفهمنا ما ستقوله البيولوجيا في اليمين..

اليمين ذات مرة..

إنه فجر التاريخ، تقريباً..

لا نعرف بالتأكيد على وجه التحديد متى، لكنه تاريخ فجر التاريخ.. تاريخ ما قبل موسى.. بالتأكيد..

كان العقل الإنساني لا يزال يحبو، لا يزال يحتاج إلى أن يقف على قدميه.. كان يحتاج دفعة قوية ترفعه لتضعه في مصافّ الفعل والإنجاز..



وهناك، على ضفة النهر، لا نعرف إن كان الأيمن أو الأيسر، لكننا نعرف أن هنالك حضارة نشأت ما بين النهرين، وتطاولت وازدهرت.. لكن أسسها كانت على غير ما يرام..



وهناك، المدينة خالية.. هجرها سكانها مؤقتاً.. فقط من أجل الاحتفال بعيد ما على ضفة نهر ما (لعله كان الأيسر؟)..

والمعبد خال من المتعبدين.. ولكنه لم يخل من معبوداتهم.. اصطفت الأوثان جنباً إلى جنب.. تمثل كل الأسس الخاوية التي تطاول عليها البنيان..

وهناك، بين الضفتين، أقرب إلى الجانب الأيمن، كان هناك فتى يقال له: إبراهيم..

لم يذهب مع قومه إلى العيد.. بل قال: إنه سقيم.. لم يكن يكذب.. كان سقيماً فعلاً.. سقمه كان ناشئاً عن ذلك الفارق الهائل بين الحقيقة التي في رأسه، والواقع الذي يراه من حوله..

كان ذلك الفارق مؤلماً لدرجة السقم.. وليس ذلك نادراً، أن تشعر بألم ما في أعماق روحك، يتمظهر في مرض ما في جسدك.. ويكون جذره شعورك الصادق بأنك لا تستطيع الاستمرار فيما لم يعد ممكناً الاستمرار فيه..

يومها قرر إبراهيم، أن يعالج سقمه من جذوره.. لا أن يعالج أعراض السقم بدواء أو عقار أو خلطة أعشاب..

لا، السقم هذه المرة، سيجتث من جذوره..



دخل إبراهيم المعبد..

في داخله لم يكن هناك أي إيمان بأنها مجرد تماثيل وأوثان صنعها قومه ليعبدوها.. كان يعلم أيضاً أنها أكثر من مجرد ذلك، إذ إنها تعبر عن مصالح وأسس بنى عليها قومه وآباؤهم مجتمعهم..

دخل إبراهيم المعبد، وهو خال من الناس، لكن إبراهيم كان ممتلئاً بالأفكار، كان ممتلئاً بالحقيقة..

وكان قد "خطط" بوضوح لشيء ما، شيء لجسر الهوة بين ما هو حقيقة، وما هو كائن.. شيء يخلصه من سقمه..

ثم إنه سأل الأوثان.. وجه إليهم الأسئلة..

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩١-٩٢]..

هل كان يداعبهم؟ هل كان يمازحهم؟.. ربما كان يستفزهم، لكن الموقف كان جاداً وخطيراً، لا يحتمل المزاح..

لعل الأسئلة وضعت من أجلنا كي نربط هذا المشهد، مشهد المعبد، بمشهد آخر، يتوازى ويتقاطع ويتكامل، مع مشهد المعبد..

إنه مشهد إبراهيمي أيضاً، بل هو إبراهيمي بامتياز..

تلك الليلة التي أشرق فيها العقل الإنساني..

الليلة التي اكتشف فيها الإنسان، أن بإمكانه أن يسأل، وأن يجيب عن الأسئلة..



المشهد الآخر كان عن تلك الليلة، التي تمكن فيها المنطق الإبراهيمي، من تحطيم قوة المعبودات، استوعبها، ثم طردها الواحد تلو الآخر، عبر آلية رفضت طبيعة الأفول التي كانت جزءاً من هذه المعبودات..

وكانت تلك التساؤلات معاول هذا المنطق الإبراهيمي، في هدم الإطار النظري للشرك بالله، ولعبادة تلك المعبودات الآفلة..



وتوازى هذا المشهد في بيئة أشرق فيها العقل، مع مشهد المعبد، والتخلص من السقم.. وتحطيم الآلهة..

في المشهدين، كان هناك تحطيم الآلهة: مرة عبر نمط التفكير، **المنطق الإبراهيمي..**

ومرة، فعلاً، عبر المعول، **المعول الذي كان بيمين إبراهيم..**

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩٣]..

اليمين مجدداً..

لم يكن رأس إبراهيم وحده هو الذي فتح الدرب إلى عالم جديد..

بل كان معه يمينه.. يمين إبراهيم..

بورك ذلك الرأس..

وبوركت تلك اليمين..

اليمين!..



عندما نضع المشهدين، بتوازيهما، وترابطهما، وتكاملهما، بعضهما أمام بعض.. ونضع كل جزء منه أمام ما يقابله، أو يساويه.. فإننا سننتهي **بالمنطق الإبراهيمي، واليمين الإبراهيمي.. وبينهما علامة المساواة..**

فلنحفظ ذلك كله، ونتذكره، إذ إنه مدخلنا الأساسي إلى ما تقوله البيولوجيا.. في اليمين والشمال..

للبيولوجيا قولها في اليمين

مع أن موضوع نصفي الدماغ (الأيمن والأيسر) قد عومل أحياناً دونما عمق، وروجت له وسائل الإعلام بطريقة الوجبات السريعة، المبهرجة لكن فاقدة القيمة الغذائية، وهو الطرح الذي يفقد الموضوع جديته، ويضعه في زحمة الأسئلة السطحية والتعميمات..

لكن هذا لا ينفي أن خلف الركام المبهرج البراق، هناك حقيقة علمية جادة ينبغي التعامل معها، والاستفادة منها..

ليست نظرية.. ليست فرضية.. ليست احتمالاً..

بل هي "حقيقة" بيولوجية، قد تضاف إليها لاحقاً بعض التفاصيل، توضح وتزيد التوضيح، لكن لا شيء سيغيرها..



ما هذه الحقيقة؟.. وكيف عوملت بسطحية وتبسيط مبالغ فيه؟.. إنها حقيقة أن دماغ الإنسان له - تشريحياً - شقان، أيمن وأيسر..

وأن كل شق من هذين الشقين، يمتلك حزمة وظائف مختلفة عن الشق الآخر..

وأن هذه الحزمة الوظيفية، تعكس نمطاً معيناً من الطبيعة الوظيفية لهذا الشق أو ذاك..

التسطيح الإعلامي كان في التعامل مع هذه الحقيقة على أن كل شق يعمل بمعزل عن الشق الآخر، وأن تغلب

هذا الشق أو ذاك، كاف لتفسير وتوصيف "الإنسان"، حيث يقال: إنه "إنسان بدماغ أيسر" أو "بدماغ أيمن"..

لذلك فإن من نمط الأسئلة الشعبية الرائجة في استطلاعات ما يسمى بعلم النفس الشعبي التي تسطح الأمر، مثل إن كنت تحب الرياضيات، أو الموسيقا، أو تفضل الدراسة وأنت جالس خلف مكتب، أو حين تمشي.. إلخ..

هذه الأسئلة، والحكم بناء على مجموع الردود، تؤدي غالباً إلى نتيجة سطحية، ذلك أن **نصفي الدماغ الأيمن والأيسر ليسا مستقلين لهذه الدرجة الحادة، ولكنهما** يتكاملان بعضهما مع بعض. خاصة أن بعض الوظائف (ومن بينها الوظائف التي ذكرت في نماذج الأسئلة آنفاً) **تتطلب فعلاً النصفين، لأنها قد تشتمل على مجموعة وظائف ضمناً..**

أما الأبحاث العلمية الجادة التي درست فسلجة الدماغ، فلم تعتمد على إجابات المستطلعة آراؤهم التي قد تكون محكومة بجواب مسبق، بل اعتمدت على دراسة نشاط كل شق بشكل مباشر، في أثناء إجراء بعض الاختبارات على المتبرعين، ودراسة أنشطة كل شق، بطريقة شعاعية وكهربائية، وتتضمن تفصيلات معقدة لا أريد أن أضجر أحداً بها (أكثر من هذا..!)..

النتيجة النهائية، وبعد حذف التداخل الحتمي بين الشقين، كان أن **الشق الأيمن** من الدماغ، يكون مهيمناً

أكثر في أثناء العمليات التي تتطلب الحدس، والخيال، والإبداع..

وأن الشق الأيسر من الدماغ يكون مهيمناً أكثر في أثناء العمليات التي تتطلب التحليل، والربط بين التفاصيل، وقواعد اللغة، والمنطق بشكل عام..

اليمين للخيال والإبداع..

والأيسر للمنطق والقواعد..

بقي هناك توضيح أخير: أن كل شق من الدماغ يسيطر، عضلياً، على الجهة المعاكسة من الجسم..

أي إن الشق الأيسر من الدماغ، يتحكم بالشق الأيمن من الجسم.. ومن ضمنه اليد اليمنى.. "اليمين"..

المنطق = اليمين

وهذا كله يضعنا في المربع الأول، الذي ضم تكامل المشهدين الإبراهيميين..، المنطق الإبراهيمي.. واليمين الإبراهيمي....

لكنه مربع يفتح لنا نافذة مطلة على أفق جديد متعدد الرؤى، متعدد الأطياف..

ماذا عن الشمال؟..

لقد احتل الشمال، ذلك الموقع المضاد لليمين، فكان اليمين يعني الفوز والنجاة، وكان الشمال يعني المشأمة والخسارة المطلقة ..﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٤١-٤٢]..

وكما كان الكتاب في اليمين بشارة فوز، فإن الكتاب في الشمال دلالة على شرّ قادم لا محالة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٢٥]..

فلماذا الشمال؟..

ثنائيات عالم الواقع

في عالمنا توجد ثنائيات لا مفر من الاعتراف بها: ليست مرتبطة حتماً بـ (الين - يانغ)[١] الصيني، أو بالمانوية المجوسية، لأنها لا تقحم هذه الثنائيات في عالم الغيب، عالم ما قبل الخلق، بل هي ثنائية في عالم الواقع، بعض الثنائيات تكاملها ضروري لاستمرار هذا العالم؛ مثل: الليل والنهار، والذكر والأنثى، بالمفهوم الواسع الذي يضم كل المخلوقات، وهناك ثنائياتٌ الصراعُ بينها حتمي، وصراعهما حتمي أيضاً من أجل الاستمرار، مثل ثنائية السالب والموجب، أو الخير والشر، أو أتباع الرحمن وأتباع الشيطان..

وهكذا، فإن لكل "يمين" شمالها، لا بد أن يكون لها شمالها..

لكل قيمة إيجابية لها وجود حقيقي، لا بد أن يكون هناك قيمة مضادة سلباً.. لا "مطلقات" في عالمنا هذا، "المطلق" لا يسكن الأرض، بل هو فقط عند الأول والآخر والظاهر والباطن..

(١) فلسفة دينية صينية تعتمد على وجود ثنائيات متضادة تفسر العالم.

لذلك، وكما أن "اليمين" يرتبط بكل ما ذكرناه من معانٍ، وقيم..

فكان لا بد، أن يكون هناك مُناظِر - سلبي.. لليمين ومعانيه وقيمه..

فكان الشمال..

جزءاً من حقيقة الأشياء..

تقدم اليمين لا يلغي الشمال

على الرغم من ذلك، فلنتنبَّه إلى أن ذلك لا يلغي "الشمال" مطلقاً، ولا ينفي دورها، وليس هناك أبداً أي دعوة، لا في القرآن الكريم ولا في السنة، إلى بتر الشمال، وإنما هناك تقنين وضبط لاستعمالها "كرمز" لما يجب السيطرة عليه.. ولذلك فإننا نرى وجوداً إيجابياً للشمال أيضاً؛ **لكن مع تقديم اليمين عليها فقط..**

﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٦/٤٨]..

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ [سبأ: ٣٤/١٥]..

إذن، فلنتنبَّه هنا إلى أن الآيتين، تتحدثان عن "وضع دنيوي" أتحدت فيه الثنائيات، لتقدما - معاً - شيئاً إيجابياً..

ولنتنبّه هنا، أن ذلك كان - دوماً - مرتبطاً بتقدم اليمين..

بتقدمها، على الشمال..

بالضبط كما نفعل في الصلاة..

هل يكون ذلك مصادفة؟..

هل يمكن أن يكون ذلك محض مصادفة..؟ هل هناك شيء في هذا العالم كله مصادفة، ليكون هذا مصادفة؟..



لكن إذا كانت الميثولوجيا، كما يسميها أصدقاؤنا المتثاقفون، والأنثروبولوجيا قد وضعت الشمال- التي يتحكم فيها اليمين الدماغي- في موقع (الشرير).. فإن البيولوجيا لم تفعل ذلك.. وقد مرَّ سابقاً، أن الجزء الأيمن من الدماغ، المسؤول عملياً عن الجزء الأيسر - اليد الشمال - مسؤول عن عمليات الإبداع بصورة عامة، العمليات التي تتطلب خيالاً وحدساً وتجريداً؛ سواء كان ذلك إبداعاً فنياً أم علمياً.. سواء كان لوحة أم قطعة أدبية أم نظرية علمية جديدة..

طبعاً لا يمكن لذلك كله أن يحدث بوساطة الجزء الأيمن من الدماغ وحده، فالأمر معقد ومتداخل، وجزأا الدماغ يعملان بشكل ديالكتيكي، وليس بشكل مستقل تماماً. على الرغم من ذلك، فإن شيئاً في عملية الإبداع، بمعناها العام، يتطلب نشاطاً متقدماً للجزء الأيمن في الدماغ في أثناء ذلك، لكن؛ وما نعرفه عن الأمر لا يزال أولياً، ولا يكاد يغطي جزءاً بسيطاً من قمة الجبل الغاطس في الماء؛ على الرغم من ذلك، فإن لمحة الإبداع، ذلك البرق

الخاطف الذي قد يمر لثوان ويسمونه أحياناً الحدس، أو أشياء أخرى، يتطلب الجزء الأيمن من الدماغ خصوصاً، وتنفيذه، بشكل أو بآخر، سيتطلب حتماً الجزء الأيسر..

هل الابداع شر؟

وهذا، سيجعلنا، أو سيبدو أنه يجعلنا أمام إشكال ما..

فالإبداع، لا يمكن أن ينكر دوره، أو يلغي، أو حتى يحجم، من مسيرة الحياة وصنع الحضارة..

وعلى الرغم من ذلك، فإننا نرى، وحسب هذا الإسقاط البيولوجي، على اليمين والشمال، أن الإبداع سيتأخر، وسيتقلص، بحسبان أن الشمال هي رمزه، وقد قدمت اليمين عليها..

ولكن كيف، ونحن نرى أن الإسلام هو أساس الحضارة، وأساس النهضة نحو قيام هذه الحضارة..؟؟

أما كان يجب أن يكون للإبداع، وفق هذه الرؤية، مكانة أفضل وأكثر تقدماً؟..

فلنحاول مرة أخرى..!

الخروج عن القانون

يتضمن الإبداع، كسراً معيناً لقوالب معينة، إنه محاولة لتخطي الحدود والحواجز، والنظر بطريقة مختلفة، من زاوية مختلفة، ومن عدسة مختلفة.. إنه محاولة لإنتاج ما هو جديد، عبر تغيير قوانين الرؤية، أو تغيير قوانين الإنتاج، أو قوانين الاستدلال..

الإبداع.. هو خروج عن قوانين ما، لمصلحة قانون آخر جديد..



ولأنه يحتوي في داخله على "تمرد ما"؛ ربما تجاه الذوق السائد، أو تجاه القوانين العلمية، أو تجاه القوانين الاجتماعية السائدة، فإن هذا قد يحدث رد فعل "بالضد" من قبل المجتمع.. كما أنه يولد أيضاً نوعاً من التمرد السلوكي من المبدع تجاه قوانين المجتمع التي لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بإبداعه.. لكنه يزاوج بين تمرده الإبداعي، وتمرده السلوكي بطريقة أو بأخرى.. بحيث أنهما يتماهيان معاً على الرغم من أن ذلك لم يكن ضرورة ابتداءً..

"صورة الفنان في شبابه.."

كرس هذا الأمر مبدعون حقيقيون، أنتجوا إبداعاً لا شك في أصالته، لكن حياتهم كانت مثالاً للتفلت من كل منظومة قيمية وأخلاقية، طبعاً كان هناك مبدعون لم يكن في حياتهم شيء كهذا، على الأقل ليس هناك فضيحة مدوية، لكن الصورة التي رسخت عن الإبداع والمبدعين، هي الصورة المتفلتة، كما لو أن التفلت هو صنو الإبداع، وساعد ذلك على الترويج للتفلت عند فئة تتمنى أن تكون مبدعة، أو تدعي أنها كذلك، لذلك نراهم يتفلتون من كل شيء، من المظاهر (في أبسط تفاصيل النظافة أحياناً) إلى الجوهر، الذي يجعل حياتهم عارية من كل التزام شخصي أو عائلي أو اجتماعي، وكل ذلك تحت شعار

الإبداع، ولأن الإبداع عملية أعقد بكثير من ترهات سطحية كهذه، فهم لا ينتجون حقاً إلا سخافات، لا يراها إبداعاً إلا نقاد على شاكلتهم.. وهذا لا ينفي أبداً وجود مبدعين حقيقيين متفلتين.. لكن الصورة النمطية للمبدع المتفلت عممت هذا الأمر، وجعلتهما يتماهيان بطريقة غير مقبولة..

الإبداع من أجل حضارة

الأمر هو، على الأقل من الزاوية التي أقف عليها، من أرضية يشكل الإسلام مادتها الأساسية، ويكون القرآن البؤرة التي أرى من خلالها، أن **الإبداع يجب ألا يكون مستقلاً عن نتائجه، وعن أهدافه..**

لا أتحدث هنا عن نتاج مؤدلج ساقط في المباشرة والشعاراتية، لأن هذا ليس "إبداعاً" أصلاً.. ولكن عن إبداع يلتحم بروح الأمة، **بروح النهضة، بنسغها الصاعد، بجدلها اللازم، بكهاربها التي قد تسري في الناس العاديين لكنهم** عاجزون عن فهمها..

عن إبداع ملتزم **بقضية، وقضية كبرى**، قضية تمس الإنسانية وهمومها ومصيرها.. قد يقول المبدعون - المتفلتون، أن تفلتهم، أو حريتهم - هو القضية، وقد يكون هذا فعلاً بالنسبة إلى بعضٍ منهم، لكن ماذا بعد؟.. ماذا بعد أن أطلقت حرية هذا المارد؟.. ماذا بعد أن استبدلت بقيوده قيود أخرى تسميها أنت حرية ويسميها غيرك تفلتاً؟.. ماذا بعد كل ذلك؟..

ليس هذا جدل الفن للفن، والفن للحياة، وليس طعناً في أن بعض أولئك قد يكون مبدعاً حقاً، لكن السؤال هو ماذا بعد؟..

هل انصهر إبداعهم في المجتمع ليقومه؟.. ليزيد نهوضه؟.. أم ليزيد من تخبطه وبهيميته وانحطاطه؟..

يمكن أن يكون الإبداع قوة فاعلة في كل ذلك.. في هذا الجانب أو ذاك، والأمر هو أن تكون لمحة الإبداع تلك، ذلك البرق الذي يضيء في رؤوس المبدعين، مؤدياً إلى "نور" حقيقي، لا أن يكون برقاً متخبطاً يؤدي إلى مزيدٍ من النار واللهيب الاجتماعيين..

ولكي يكون البرق مؤدياً إلى النور، يجب أن تكون هناك منظومة قيم أخلاقية منظومة ومنطقية تحيط به، ترعاه وتحتضنه، تحميه وتنميه..

منظومة تحيط به: كما تحيط اليد باليد..

كما تتقدم اليمين، على الشمال.. وتحيط بها..

هل هذا مصادفة؟!..

ربما الإبداع سيكون أكبر

من قال: إن ما قالوه وروجوه عن تلازم الإبداع بالتفلت هو ضروري للإبداع، لم لا يكون العكس؟.. أوسكار وايلد كان متفلتاً من كل الشروط الأخلاقية لكل الأديان والشرائع، آرثر رامبو كان كذلك، وسواهما كثيرون، والآن صاروا يعدون قد سبقوا عصرهم بحسبان أن شذوذهما قد شرع الآن وصار أمراً مقبولاً..

ولكن من قال: إن هذا لم ينتج عن ذاك؟..وإن ما هو مقبول الآن قد "قبل" اجتماعياً بسبب هذا الترويج المستمر للتفلت والذي كان من ضمنه هذا الربط مع الإبداع، من قال إن إبداع هؤلاء لن يكون أهم، وأكثر إبداعاً، وتأثيراً، وخلوداً، لو أنه كان ملتزماً بمنظومة قيمية أخلاقية واسعة؟..

من قال: إن الالتزام لا يمنح المبدع قضية أهم؟.. ويمنحه الإخلاص الأكبر؟.. والدأب الأكثر؟.. يمنحه السقف الأعلى والمحرك الأقوى لإبداعه..؟

من قال: إن الالتزام لا يكون هو الدافع للإبداع، بعيداً عن أوهام ضرورة التفلت التي تتدحرج على سلالمها المواهب، وتضيع أو تنتج إبداعاً بلا ضرورة وبلا هدف؟..

هم قتلوا القيم، ونحن قتلنا الإبداع!

في الوقت نفسه علينا أن نقرّ ونعترف، أننا قد عملنا كل ما في وسعنا، لقمع الإبداع، وعدّه أمراً سيئاً، أحياناً لأننا صدقنا أن الإبداع هو صنو التفلت، وأحياناً لأننا خلطناه بالبدعة، وأحياناً لأننا فقط نخاف من الجديد ومن احتمالاته ونتائجه..

وهكذا، فإن الجزء الأيمن من الدماغ، الأكثر نشاطاً عند العملية الإبداعية، قد عومل تربوياً بطريقة تقمعه بدلاً من تنميته وحمايته ضمن المنظومة الأخلاقية العامة، هذا الجزء من الدماغ تم سحقه - تقريباً - تحت وطأة

التفاصيل المباشرة، بدلاً من جعله ينمو في فضاء الخيال والحدس التي ستجعله مؤهلاً أكثر للإبداع..

علينا أن نسمح لهذا الجزء بالنمو والنماء، بل أن نحثه على ذلك - وإلا فسنرى واحداً من اثنين:

إما أن نراه يضمر ويضمحل، لينتج إنساناً **لا يضيف** ولا يساهم في النهضة ودربها المحتوم بالإبداع..

أو أن نراه ينمو ويتضخم، ولكن دون منظومة أخلاقية تحتضنه وتستثمره.. فيكون مبدعاً، لكن **كنغمة جميلة وشاردة، لا تلتحم بسيمفونية النهضة والنماء..**

"اليمين على الشمال "

لا أستطيع أن أتخيل "هيئة" أو نمطاً، يجسد هذا المعنى، معنى الإبداع المنضوي تحت منظومة أخلاقية، مثل هذا الذي نفعله في الصلاة.. اليمين على الشمال..

بكل ما يعني اليمين، وبكل ما يعني الشمال، هما ملتحمان ومتكاملان ومرتبطان، في علاقة ديالكتيك ديناميكي متواصل، مثل نصفي دماغ يتكاملان معاً، ويعملان معاً.. وينتجان معاً..

لا يمكن أن أتخيل شيئاً فيزيائياً - جسمانياً يعبر عن هذا المعنى العميق، أكثر دلالة وأكثر عمقاً من هذه اليمين التي تحيط بالشمال، وتكون **إحاطتها عند القلب، الذي هو الجوهر** - اللب من الإنسان.. وبكل ما يعني ذلك من "مركزية" موضوعة الإبداع ونمائها وسط هذه المنظومة

التي تحيي هذا القلب - الجوهر، وتحيا به في الوقت نفسه..

ولا يمكن تخيل ربط جسماني لهذا الابداع بالنهضة، بالنهوض، أكثر من وضع اليدين بهذا الشكل، في حالة القيام ..**فالقيام المنتصب المستقيم - وحده - يجسد فعل النهوض..** أما وضع اليدين بهذا الشكل أثناء القيام فيمثل **ارتباط النظام بالإبداع، والتحامهما معاً**، من أجل النهوض والبناء.. القيام..

الوضع الإنساني بامتياز

هذا الوضع المنتصب القائم على رجلين، واليدان محكمتان بهذا الشكل، هو الوضع الفيزيائي الذي لا يستطيع أي مخلوق آخر أن يؤديه.. إنه الوضع الإنساني المتميز بامتياز، الذي هو جوهر القيام، ما دام يعبر ضمناً عن جوهر ما نحن هنا من أجله: الاستخلاف..

هذه الوقفة، هي ما يعبر جسدياً عن تميز النوع البشري بأسره، بتفوقه على كل المخلوقات..

معظم المخلوقات، من حولنا، تمشي على أربع، أو تزحف على أربع، أو تحبو على أربع.. قليلة هي المخلوقات التي نجت من القوائم الأربع، منها الطيور، ومنها بعض أنواع القردة، ومنها الكانغارو والبطريق...

ويقول المؤمنون بنظرية التطور: إن الإنسان قد "دفع" للانتصاب لكي يحرر يديه..

والحقيقة أنه قد خلق بهذا التقويم، المتميز عن الجميع، لأنه مكلف بما لم يكلف به سواه.. لأنه بيديه هاتين سيبني الحضارة التي كلف ببنائها.. وستمثل يدٌ جانب الأخلاق والقانون، وستمثل اليد الأخرى الإبداع المنضبط، يلتحمان معاً.. ليشيدا معاً تلك الحضارة..

تستطيع بعض المخلوقات أن تقف منتصبة، ليس بانتصاب الإنسان ولا باستقامة وقفته..

لكن ليس هناك مخلوق واحد، غير الإنسان، يستطيع أن يجمع بين هذه الوقفة المنتصبة، وهاتين اليدين المتشابكتين بعضهما مع بعض..

إنه الإنسان وحده..

وهذه هي الهيئة، التي تسمى اختصاراً: القيام..

إبليس يدخل من الفصل بين اليمين والشمال

وكأني أفهم الآن لم توعد إبليس، يوم كان ما كان، أنه سيأتينا عن أيماننا وعن شمائلنا ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧/٧]..

كأن الوعيد هنا، يشير إلى أن نقطة دخول إبليس تستغل انفصال اليمين عن الشمال، أي عندما تكون المنظومة القيمية خالية من روحية الإبداع، ويكون الإبداع متفلتاً من الضوابط..

أما عندما يلتحم الاثنان معاً فإن ذلك يشكل سداً، لا أقول: إن إبليس لن يتمكن من اختراقه..

لكنه سيكون بالتأكيد أصعب مما لو كانت اليدان منفصلتين..



ومع "القيام" الذي يجسد كل تلك المعاني.. لا يمكن أن يكون هناك ما هو مناسب أن يقال أكثر من "الفاتحة"..

إذا كانت فيزياء النهوض، وطراز عمارة "القيام"، تتجسد في هذه الهيئة.. فإن "الفاتحة" هي المرادف اللغوي لذلك، إنهما الإعلان الدائم عن مكانتنا في هذه الأرض، وإصرارنا على اتخاذ موقف إيجابي، مع كل شيء، نستمده منه عز وجل، من أجل إنجاز ما كلفنا به، من أجل "قيام" عالم جديد ممكن..



الفصل الثاني

الركوع: قلب الصلاة

الركوع هو الهيئة الثانية، من هيئات الصلاة..

إنه الطراز الثاني الذي نتشكل عبره من خلال الصلاة، ومع أنه لا يأخذ مكانة الأولوية مثل (القيام)، ولا مرتبة السجود المهمة، إلا أنه يأخذ مركزاً في الوسط، بكل ما يعني الوسط من أهمية..

ويتوازى هذا الموقع الوسطي في القلب من الهيئات، مع حقيقة أن كل "وحدة بناء" من وحدات الصلاة، قد سميت "ركعة" على هذه الهيئة: الركوع.. ويتوازى أيضاً، مع حقيقة أن الركوع، لمن جاء متأخراً في الصلاة، يجزئ عن القيام، ويحسب الالتحاق في الركوع، ركعةً كاملة..

وهذا كله، يمنح الركوع.. تمايزاً لا بد من فهمه، في إطار العلاقة بين شكل الركوع، والمعنى المحتوى في داخله..

الرأس أولاً..

الركوع لغةً هو خفض الرأس..

وهيئة الركوع تتضمن ذلك وتتضمن التأكيد عليه، إنه خفض للرأس إلى درجة الانحناء بهذا الشكل، إنه بالضبط: الخفض الأقصى - الممكن - للرأس..

لكن لماذا؟..

لماذا الرأس تحديداً؟..

لماذا هذه الهيئة - التي أخذت هذا الموقع المركزي، تركز بالذات على الرأس؟..

وتتخذ من خفضه - كل هذا الخفض - شكلاً تعبر فيه عن المحتوى العميق لها..

لماذا الرأس؟..

الركوع (حصرياً) للإنسان..

نلاحظ هنا، في الفرق بين الركوع والسجود، أن لفظ السجود جاءَ لكل ما خلقه الله عز وجل.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٩].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٣/١٥].

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٥٥/٦].

كل ما خلق الله؛ النجم، والشجر، والكواكب، والملائكة.. وناهيك عن القول: البشر..

أما الركوع، فلم يأت تحديداً إلا مع البشر..

في المرّات الـ (١٣) التي جاءت فيها مشتقات الفعل ركع، كلها كانت تدور حول الإنسان، فرداً أو جماعة..

لكن ليس بقية المخلوقات..

لا نجم، ولا شجر، ولا عبارة واسعة تضم كل ما خلق الله مثل: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾.. ولا حتى الملائكة..

البشر حصرياً، يمكنهم الركوع..

بينما الكون كله، وكل ما فيه، بما فيه من بشر كذلك، يمكن له السجود.. لكن الركوع للبشر فقط..



هل يمكن أن يكون هذا بلا معنى؟..

هل يمكن إلا أن يكون مليئاً بالمعاني؟.. كما كل شيء مع الكتاب الخاتم.. وهل يمكن أن يكون هذا المعنى منفصلاً عن معنى الركوع الأصلي..

خفض الرأس؟..

ما وراء الرأس

ليس كل ما في السماوات وما في الأرض، لديه رأس.. وهذا بالتأكيد، يجعل من الركوع مستبعداً عما ليس له رأس..

لكن الدواب لها رؤوس.. وهي من مخلوقات الله عز وجل، إنها مشمولة ضمن الطيف الواسع من ﴿وَمَا فِي

ٱلْأَرْضِۗ﴾.. وهي، بانقيادها للسنن والقوانين الإلهية، إنما تمارس سجودها له عز وجل..

لكن لا ركوع بالنسبة إلى الدواب، رغم الرؤوس التي تمتلكها.. وحده الإنسان، يتشرف بالركوع، لله عز وجل..

إذن ليس الأمر في "الرأس" تحديداً..

بل هو في "ما وراء" هذا الرأس..

في شيء يستخدم العدة الموجودة داخل هذا الرأس، يكون ما هو أعمق من أن يحدد بالرأس..

إنه "العقل"، الذي هو حتماً ليس الدماغ بالمعنى المباشر، لكنه يستخدم وظائف الدماغ وإمكاناته ليكون ما هو أكبر من مجرد عضو فيزيائي..

إنه العقل، عقل الإنسان، أهم ما فيه، وأكثر ما يميزه من غيره من المخلوقات، يعلن، عبر الركوع، أنه خاضع لله..

حدود العقل: حكاية الركوع

هذا العقل لا يمكنه أن يركع إلا لله، لأنه ببساطة يمكنه أن يسبر أغوار الكون كله، والمخلوقات كلها، يفتح أسرارها كلها، ويغوص في أعماقها، ينقب في مغاورها وفي مجاهلها.. كل كتاب مغلق يمكن أن يفتح بواسطة هذا العقل.. العالم كله حقل مفتوح، أو محتمل، لهذا العقل.. لا حدَّ لهذا العقل، إلا حدّ واحد، يقف عنده: هنا لا أستطيع أن أعمل، هنا لا أستطيع أن أفتح ما هو مغلق، هنا لا مجال لي، ولا أدوات..

لا حدود هناك أمام العقل الإنساني، إلا حدّ واحد، لا يستطيع العقل اقتحامه إلا متوهماً، ولا يستطيع فتح أسراره ولو تسللاً، إنه ذلك الغيب الإلهي الذي لا مجال لمعرفته إلا عبر ما صدر عن هذا الغيب..

كل الكون يتحدى العقل الإنساني، والعقل الإنساني، يرد التحدي بالمثل، الكون يتحدى بكون مغاليقه تستفز العقل الإنساني، والعقل الإنساني يرد التحدي بفتح هذه المغاليق..

كل شيء إلا واحد..

هو الواحد.. الله..



ولهذا فإن " الركوع" يختص بالإنسان، إنه صاحب العقل، والعقل هو ما ميّزه وأهّله ليكون خليفة الله على الأرض..

فعالية هذا العقل، وتميزه، ستكون عندما توجه إلى فتح مغاليق الكون.. لكن هناك حدّ واحد عليه أن يخضع أمامه، عليه أن يقرّ أنه سيكون عاجزاً أمامه..

سيحني (الرأس) تجاهه، علامة الخضوع والاستسلام، استسلام من لا يودّ أن تنفد طاقته في مهمة لم يصمم أصلاً على الدخول فيها، بل يركز في المهمة - الأصل؛ مهمة الاستخلاف في الكون..

هذا هو المعنى، وراء "هيئة الركوع" ..

لكن ليس هذا كل ما هناك..

ليس فقط خضوع العقل واستسلامه أمام خالقه الذي صممه ليكون التقاطه للموجات مقصوراً على الكون، وليس على ما وراءه..

الأمر أيضاً أكثر من هذا..

إنه أن يكون هذا العقل، في خدمة خالقه.. أن يكون مسخراً في خدمة المشروع الذي كلفه به الله..

الاستخلاف..

الركوع ممهداً للسجود

من أجل ذلك، سبق الركوع السجود..

ذلك أن السجود هو خضوع "كلي" لله، إنه كناية عن خضوع بكامل الجسد والروح لله عز وجل..

وهذا الخضوع إسلامياً، وقرآنياً، يجب أن يمر **أولاً** عبر **العقل**، عبر إعلان هذا العقل خضوعه لخالقه، والخضوع العقلي يتطلب رفضاً لأي عقيدة أو إيديولوجية أو نمط حياة مخالفة أو متناقضة مع ما أمر الله به..

عبر خضوع حقيقي للعقل، ممثلاً في ركوع حقيقي، يمكن الوصول إلى ذلك الخضوع الشامل، الممثل في السجود..

لذلك كان لا بد أن يسبق الركوعُ السجودَ..

العقل أولاً..

ثم سائر أنحاء الجسد..و غير الجسد.

التراتب القرآني للركوع والسجود

لكن الركوع لا يسبق السجود في هيئات الصلاة فقط..

فذلك حدث في كل مرّة اجتمعا فيها قرآنياً ..﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧/٢٢].

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥/٢].

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢/٩].

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦/٢٢]..

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩/٤٨]..

دوماً الركوع يسبق السجود..

دوماً العقل هو بوابة الخضوع الكامل..

دوماً العقل، بإعلانه الانضمام غير المشروط للمشروع الإلهي هو الباب الذي يمكن فيه للإنسان، كل إنسان، أن يكون فاعلاً في هذا المشروع..

الاستثناء المضيء للقاعدة المضيئة

هناك استثناء واحد لهذا التتابع..

هناك مرّة واحدة، كان السجود سابقاً للركوع..

وهو استثناء يثبت القاعدة بدلاً من أن ينقضها..

فقد كانت هناك أمور ستجعل العقل عاجزاً حتى عن الانضمام.. ولذلك يسبق السجود هنا الركوع..

إنها أمور استثنائية على العموم، ولن تحدث لكم أو لي أو لأي شخص نعرفه..

إنها معجزة استثنائية، لن تتكرر..

كان ذلك ما حدث لسيدتنا مريم.. عندما تجاوز ما حدث لها بمشيئة الله كل قوانين العقل والسنن الإلهية التي بنى الله الكون عليها..

هنا كان لا بد للسجود أن يأتي أولاً..

ومن ثم الركوع..

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: ٣/٤٣]..

وما دام ما حدث لمريم لن يحدث مجدداً، فإنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة..

إن الركوع هو الممهد الحتمي للسجود..

"سبحان ربي العظيم"..

ويرتبط الركوع، ارتباطاً لا فكاك منه، بتلك التسبيحة التي تعودنا أن نقولها دون كبير انتباه.. "سبحان ربي العظيم"..

نرددها (٣) مرّات، وقد تعودناها حتى صار الأمر

روتينياً غير مثمر.. لكن لا شيء قد جاء بالمصادفة، دون معنى، في هذا الدين "العظيم".. ولا في شعائره..

ولا في أهم شعائره على الإطلاق..

لا شيء قد جاء هكذا، دون سبب، وهذه التسبيحة للرب العظيم، ما كان لها أن تستبدل بها تسبيحة لاسم آخر من أسمائه عز وجل: ما كان لها أن تكون للرحمن الرحيم، أو للقاهر القوي، أو للتواب الغفور..

ليس مع الركوع خصوصاً.. ليس مع تلك الهيئة التي تعني خضوع العقل واستسلامه وانضمامه للمشروع الإلهي..

هنا، ما كان يمكن لاسم من أسمائه، عز وجل وتعالى، أن يحلّ محلّ "العظيم"..

هنا، لا يتسق مع هذا الطراز المعماري، الذي نتشكل بحسبه، إلا هذا الاسم "العظيم"..

"العظيم"

اختير هذا الاسم تحديداً، لأنه يعبر بالذات عن السبب الذي نخفض رؤوسنا من أجله، الذي نخضع عقولنا من أجله..

يعبر الاسم "العظيم" عن المعنى خلف هيئة الركوع، في لفظة واحدة، صحيح أننا الآن استخدمنا هذه اللفظة في غير موضعها، بل وابتذلناها في الاستخدام، حتى صرنا نقولها عن كل ما هو عادي، أو ما هو فوق العادي بقليل:.. إنه "عظيم"، حتى فقدت الكلمة تأثيرها ومعناها الحقيقيين..

لكن بعيداً عن استخدامنا المفرط، فإن لفظ "العظيم" له معنى ينسجم مع عمق هيئة الركوع، وينسجم مع ما قاله أصدق من قال: "أما في الركوع فعظموا فيه الرب"..

إنها تعني ببساطة، أنه فوق التصور، فوق حدود العقل، فوق إمكانات الخيال الكامنة في هذا العقل البشري، الذي يمكنه أن يحتوي الكون الهائل المتمدد الذي لا حدود له، ويمكنه أن يضع ذلك في معادلات وقوانين، يمكنه أن يمضي في حدود إبداعه إلى ما لا حدود له، يمكنه أن يبتكر، وأن يخترع صوراً وأشكالاً ما خطرت على عقل أحد، لكنه سيظل عاجزاً أمام الله، الذي لا يمكن لعقل أن يفهم كنهه أو ماهيته، أي محاولة من هذا العقل لاقتحام حجب الغيب لن تكون أسعد حظاً من محاولات الإنسان وضع جناحين من الريش على يديه والتحليق بهما، أو محاولة استخدام مركب شراعي للتحليق في الفضاء..

إنه الشيء الذي سيقف العقل عاجزاً أمامه، لأنه لم يصمم لاختراقه بالذات..

هذا هو "العظيم" بالذات، إنه أعظم من أن يحاط بتصور أعظم من أن يحدّ بخيال، أعظم من أن يكون ضمن إطار..

ليس هذا مع كل أسمائه عز وجل.. فمع رحمته، عز وجل، يستطيع العقل أن يأخذ فكرة وتصوراً ما، مع حكمته وعدله، مع قوته وقدرته، مع مغفرته وهيمنته وقهره.. كلها يمكن للعقل أن يمتلك تصوراً، قاصراً بطبيعته، ولكنه (تصورٌ ما)..

إنه العظيم في كل شيء، في رحمته وقدرته ومقدرته ومغفرته في خلقه.. لكنه العظيم أيضاً في كل ما "هو هو".. وهذا بالذات هو معنى "العظيم"، وهذا بالذات هو الذي على العقل الإنساني أن يقرّ مرغماً أو طائعاً، بعجزِهِ أمامه..

العظيم، هذا هو، هذا الذي يشير إليه.. هذا هو المعنى الذي أشار إليه، هذا هو المعنى الذي أشار إليه العرب في لسانهم: "الذي جاوز قدره، وجل عن حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته"(١).

وهذا هو المعنى، بلا دخول في متاهات التفاصيل غير المعروفة في افتراضات غيب الغيب..

لا لاهوت هنا، ولا علم كلام لا طائل من ورائه..

بل هنا تلك الانحناءة "العقلانية" التي ستوفر على العقل طاقته، وتوجهه نحو ما يجب أن يسبره ويفك ألغازه..

استدراك وإضاءة

هل كان استخدام كلمة عظيم قاصراً على هذا المعنى في القرآن الكريم إذن؟..

لا، لم يكن اللفظ مختصاً بالله عز وجل، لكنه كان دوماً يشير إلى معنى خارج الحد المألوف، والمتصور..

العذاب يمكن أن يكون عظيماً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٧]..

---

(١) لسان العرب: مادة عظُم.

الكرب كذلك ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٧٦]..

الفوز ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ٥/١١٩]..

الحظ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٤١/٣٥]..

بالإضافة إلى ألفاظ كثيرة وصفت بالعظمة مثل الخزي، الكيد، ناهيك عن العرش، القرآن.. اللذين وصفا أيضاً بالعظيم..

ما وجه التشابه هنا، بين اللفظين؟..

التشابه هو أن ألفاظ "العظيم" كلها موجهة إلى (بنية) يراد وصفها، واقترانها بالعظمة، سواء كانت سلبية، مثل الخزي والعذاب، أم إيجابية مثل الفوز والحظ، فإن ذلك يشير إلى أن بنية هذا (الشيء)، مختلفة عن الحد التقليدي المعتاد، مختلفة عن المألوف من العذاب أو الخزي أو الحظ.. وكلها في الوقت نفسه، غير خاضعة لمقياس واضح، لا يمكن أن يقاس العذاب أو الخزي أو الحظ على مقياس أو مكيال معينين، إنها أمور يمكن أن (تحس) أو (تشعر)، لكنها غير معيارية بكل الأحوال..

أما الاختلاف، مع لفظ العظيم عندما يكون اسماً لله تعالى، فهو تلك العظمة المطلقة، حيث إننا لا نستطيع أصلاً الاقتراب من فهم بنيته، أو فهم ما هو (حقاً) إلا عبر ما أخبر به عن نفسه..

نستطيع أن نكوّن فكرة عن العذاب أو الخزي، فيكون العذاب أو الخزي العظيم هو المزيد من هذا أضعافاً مضاعفة.. وكذلك الفوز أو الحظ..

أما مع الله، فحدود العقل مغلقة، وقدراته عاجزة.. لا شيء سوى الاستسلام الشجاع.. وتلك الانحناءة التي اسمها الركوع..

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ

وهذه التسبيحة التي نرددها عند الركوع، "سبحان ربي العظيم" هي امتثال إنساني، لأمر إلهي بهذا التسبيح، جاء ثلاث مرات في القرآن الكريم..

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة ٥٦/٧٤، ٩٦، الحاقة ٩٦/٥٢]..

وبالمناسبة، فإن التسبيح لله عز وجل، لم يرتبط إلا باسمين من أسمائه عز وجل، كان هناك التسبيح لله، والتسبيح بحمده، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، لكن، مع الأسماء لم يرتبط التسبيح إلا باسمين حصرياً.. وهما العظيم والأعلى.. اللذان نذكرهما في الركوع، والسجود تباعاً..

ثلاثة سياقات تنتهي بتسبيحة واحدة

ثلاثة سياقات قرآنية، تنتهي بهذا الأمر بالتسبيح..

فما الذي في هذه السياقات؟.. هل فيها مشترك يؤدي إلى التسبيح للعظيم، لاسم العظيم تحديداً؟.. هل تتداخل

هذه السياقات الثلاثة؟.. هل تلتحم؟.. هل تسوقنا في النهاية إلى نتيجة واحدة؟..

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾
أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ
قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ
فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ
نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ
﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ
نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ
جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ
﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٥٦-٧٤]..

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ
﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ
تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ
﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن
كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن
كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ
﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ

﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٥-٩٦]..

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٨-٥٢].

صورة كبيرة واحدة: بزوايا تزداد انفراجاً

ثلاثة سياقات، لن تبدو متشابهة كثيراً في الوهلة الأولى، لكن عندما نحاول أن ننظر إليها من زاوية أكثر انفراجاً، سنرى أنها تملك قاسماً مشتركاً أساسياً، وهو قاسم الزاوية المنفرجة جداً، التي تغرسها هذه الآيات، الزاوية التي تتعامل مع "الصورة الكبيرة"، مع السياق ككل، وليس مع التفاصيل الصغيرة المتناثرة هنا وهنا، السياقات الثلاثة تلفت انتباهنا، بل تعيد تشكيل رؤيتنا، إلى ألاّ ننظر أولاً إلا إلى "الصورة الكبيرة"؛ ففي الصورة الكبيرة تعود التفاصيل المغبشة أكثر وضوحاً، ويمكن فهم التفاصيل غير المفهومة ضمن السياق الأكبر، ضمن الصورة الأكبر..

كل السياقات الثلاثة المنتهية بالأمر بالتسبيح، تشير إلى هذا.. كيف؟..

السياق الأول؛ ينبهنا إلى الخلق الأول، فيأخذنا من الزاوية الصغيرة التي نرى الأمور من خلالها، إلى زاوية أكبر، زاوية **أصل الخلق**، النشأة الأولى سواء كان هذا هو أول خلق خُلِقَ على الإطلاق، النشأة الأولى أم خلقنا نحن، تشير إلينا الآيات إلى زيادة سعة الزاوية التي نرى الخلق من خلالها.. الزاوية نفسها ستطبقها الآيات على الزرع، الماء، النار.. وكلها كانت أساسات في استمرار الحياة الإنسانية، واستمرار الحضارة الإنسانية، وكلها ستكون مختلفة لو نظرنا إليها من زاوية (الصورة الأكبر)؛ من زاوية **النشأة الأولى**..

السياق الثاني؛ يبدأ **بمواقع النجوم**، وهذا يجعل من زاوية الرؤية أكبر بكثير، إنها تتجه إلى رؤية الكون **ككل متداخل**، أي إنها تبحث هنا عن صورة أكبر، وسياق أكثر سعة وشمولية، ولذلك فإن الأمر هنا يتعدى الموت، وقد كان الموت في السياق الأول موجوداً بمواجهة الحياة، لكن الزاوية هنا أكبر، أكثر انفراجاً، لذلك يكون الموت محطة لما يليه: الآخرة، ويكون الحلقوم معبراً نحو المشهد **الأخير** الذي يكمل الصورة **الأكبر** ويختمها، ويجعلها الصورة النهائية..

السياق الثالث؛ ينبهنا إلى أن الصورة تشمل ما نبصره، وما لا نبصره، ولكن ما لا نبصره لا يمكن أن يحذف لمجرد أننا لا نبصره، إنه موجود، كل ما في الأمر أن أعيننا لا تلتقطه، أو أن عقولنا لم تركب لكي تفك مغاليقه، لكن رؤيتنا للأمر بشكل كامل، وتعاملنا مع

التفاصيل على أنها جزء من الصورة الأكبر، سيجعلنا نتجاوز عدم فهمنا، أو عدم إبصارنا، لأن الصورة الأكبر هي ما يهم..

حق اليقين!

ولماذا ارتبطت هذه السياقات، المتداخل بعضها مع بعض، بالتسبيح للعظيم بالذات؟..

الجواب عن هذا، يرتبط بارتباط آخر، ربط التسبيح للعظيم، في سياقين من هذه السياقات، مع "حق اليقين" ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾ [الحاقة: ٦٩/٥١-٥٢] ..﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة: ٥٦/٩٥-٩٦]..

واليقين، هو الإيمان وقد أزيح عنه كل شكّ، وهو مرحلة لا تنفي وجود شك سابق، لكنه شك يمرّ بمراحل للتمحيص إلى أن ينتهي إلى الزوال، ولا شيء يزيل الشك أكثر من الإيمان بالصورة الكبيرة، بالسياق الكلي، التفكير الذي يؤمن بالتفاصيل، لابد أن يصطدم بما لا يمكن فهمه من تفاصيل صغيرة، لم هذا الأمر هنا؟ ما الحكمة من هذا التشريع هناك؟ لِمَ لا نستطيع أن نفهم كنه الله.. إلى غيرذلك من هذه الأمور..

لكن الرؤية الأوسع، ستزيح أهمية عدم الفهم، ستبدو التفاصيل الصغيرة غير مهمة، وما دمت تؤمن بكلية الأمر، فإن تفاصيله لن تعود أكثر من تفاصيل..

واليقين بالصورة الأكبر، بالسياق الكلي، هو جوهر التسبيح باسم العظيم..

لأنك هنا، تقف لتقر بتنزيهك للعظيم، إن عقلك عاجزٌ عن إدراكه، لكنك موقن به لأنك تؤمن بالصورة ككل، صورة تبصر فيها الخلق والخليقة، وقوانين الخلق والخليقة، وتلك السنن التي بني عليها هذا الكون، ولا تبصر فيها من وضع هذا كله، كما أنك لن ترى من الجبل الغاطس في الجليد غير قمته المرئية، لكن هذا لا يعني أبداً أنك لن تؤمن بأن الجبل - تحت القمة - موجود فعلاً..

نعم، لن ترى الله، ولن تفهم أبداً كنهه، عقلك ببساطة عاجز عن ذلك، ولكن هذا هو بالذات السبب في أن تحني رأسك، عقلك له.. هذا هو بالذات، سبب يقينك.. الذي لن يأتي إلا من هذا..

ولهذا، ها أنت ذا تركع..

وتسبّح لهذا الاسم بالذات: العظيم..

تنزهه، عن أن يتمكن عقلك، أو أي عقل، على احتوائه، أو إدراكه..

باطل اليقين

فلنتنبّه هنا، أن تلك التسبيحة، لم ترتبط بأي يقين، بل بحق اليقين حصراً..

وهل هناك غير حق اليقين؟.. هل هناك يقين باطل؟..

نعم، هناك باطل يؤمن به الناس، ويلبس عقيدة أو مذهباً أو إيديولوجية، أو نمط حياة، ويؤمنون به دون أن يداخل إيمانهم هذا شك، هناك باطل يؤمن به بعض الناس، فيقدمون حياتهم من أجل قضيته وترويجه وبنائه وإقامته.. وهذا قد يفرض احتراماً لهم كأصحاب مبدأ، لكن لا يغير شيئاً من كون مبدئهم باطلاً..

ولكن هناك يقين حق، هو هذا اليقين الذي يجعلك تحني رأسك للعظيم..

هذا اليقين - الحق، هو الناتج عن منظومة شاملة، منظومة لا تقف عند التفصيل..

بل عند الصورة الكاملة أولاً..



وكل هذا، في الركوع..

وفي التسبيحة التي في ثناياه... التي تقول: إن عقلك ينزِّه العظيم، عن أن يحتويه أو يفهمه عقل..



الفصل الثالث

هناك، عند السجود..

السجود هو الهيئة الثالثة التي تشكل مثلث هيئات الصلاة، بعد القيام والركوع، وقد مرَّ أنه يعني مظهر الخضوع الكامل الذي يقدمه الإنسان لخالقه، وأن الركوع، الذي يعني خضوع العقل لهذا الخالق، هو مرحلة تمهيدية للسجود، للخضوع الكامل، حيث إن الخضوع الحقيقي، أو الخضوع المطلوب، لابد أن يمر بمصفاة العقل أولاً، وإلا كان خضوعاً شكلياً، خاضعاً لظرف عابر واضطراري، ومحتوياً على نية تمرد، أو لا مبالاة، لاحقة مرهونة بزوال هذا الظرف..

السجود إذن، لا يمكن عزله عن الركوع، بل لا يمكن عزل هيئة من هيئات الصلاة عن الأخرى، بل الصلاة كلها وحدة واحدة، بهيئات متداخلة ومتلاحمة، مرتبطة الواحدة بالأخرى، لتؤدي ملحمة المعاني التي يتشكل ويتربى الإنسان من خلالها وعبرها..

السجود مرحلة متقدمة من هذه الملحمة، إنه الحركة الثالثة من سيمفونية المعاني، التي يتناغم فيها الإنسان مع

ما خلق من أجله، ويتدرب من خلالها ليكون ما خلق من أجله..

الخضوع الكلي

والسجود لغة، انحناء الرأس، مثل الركوع، ولكنه انحناء أكبر، لدرجة وضع جبهة هذا الرأس على الأرض.. "الجبهة على الأرض"..

هذه هي علامته الأساسية، وهذه هي الوضعية التي "تحتم" باقي تفاصيل السجود، فلكي تضع جبهتك على جبهة الأرض، يجب أن تستند بيديك، وركبتيك، وقدميك.. كما في هيئة السجود..

وهذا كله سيبدأ من جديد، بالرأس، بأعمق المعاني التي يمثلها، ليشمل بعدها سائر أعضاء الجسد..

بكل ما يمثل ذلك من معانٍ، من أولوية للعقل، في عملية الخضوع المشرق لله عز وجل..

سجود الارادة

نحتاج أن نعود إلى الجذر التأسيسي للسجود، ونحن نعلم يقيناً، عبر ما أخبرنا به القرآن الكريم، أن كل ما في السماوات والأرض يسجد لله، طوعاً أو كرهاً، وذلك في عملية خضوع كونية شاملة للسنن والقوانين التي وضعها - عز وجل - وبنى الكون على أساسها، أو على أساس خضوع كوني لما قد يبدو أنه خروج عن هذه السنن، أو اضطراب

فيها، وقد يكون في حقيقته سُنّة أخرى، من سنن الله، هيمنت على سنة أخرى..

طوعاً أو كرهاً إذن، بلا إرادة، بلا خيار، يسجد الكون كله لله عز وجل..

أما الإنسان، فالأمر معه مختلف..

ذلك أن سجوده مرتهن بواحدة من أهم ما كرَّمه الله به: إرادته.. وإرادته هي مفتاح مسؤوليته عن أعماله، ومن ثمّ ثوابه أو عقابه.. لذلك فإن سجوده "الأرضي" هو طوعي في حقيقته، أي سجود يحدث (كرهاً) سيكون مجرد مظهر سجود خال من السجود الذي هو الخضوع الكامل، عقلاً وعواطفَ وانتماءً ونمط حياة..

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/٤٢-٤٣]..

وهو مرتبط بالإرادة الإنسانية بشكل مباشر، لا برتابة الحركات وتكرارها، عندما يكون بمعناه الشامل العميق..

يقال لك: اسجد..

والأمر طوعي.. تستطيع أن تمتنع إن شئت ألا تسجد، هيئة ومعنى.. أنت من يقرر ذلك..

لكنك عندما تقرر، عليك أن تتحمل نتائج اختياراتك وقراراتك..

ولو لاحقاً.. بأجل آتٍ، مهما بدا بعيداً..

السجود الأول

لكن أول أمر للسجود عرفنا به، وأخبرنا به القرآن الكريم، كان مختلفاً عن مفهوم السجود، كان مختلفاً من عدة نواحٍ، من ضمنها أن المسجود له كان في هذه المرّة الأولى، ولهذه المرة فقط وبشكل استثنائي، ليس الله سبحانه وتعالى، وأن السجود هنا لم يكن يحتوي في معانيه على معنى التعبد والخضوع الذي نعرفه في السجود بمعناه اللاحق.. المأمورون بالسجود كانوا أشرف خلق الله وأهمهم حتى لحظتها، وأمر السجود هذا هو النقطة التي ستغير ذلك، إذ إنها ستجعل هناك مكانة أعلى ممكنة ومحتملة، للمسجود له، يمكنه أن يتبوأها، ويمكنه أن يتخلى عنها، بحسب إرادته وبحسب قراره.. لكن "أشرف الخلق" لم يعد موقعاً حصرياً بالملائكة..

أما السجود فكان سجود التكريم، سجود التسخير، سجود الإقرار بأنه يملك الإمكانات الأكثر فاعلية..

أما المسجود له، فقد كان آدم، ولا أستطيع هنا إلا أن أتخيله منتصباً قائماً، ويمينه على شماله.. بكل المعاني الكامنة في هذا الموقف..

سجود لاحق...

كان ذلك هو الأمر الأول بالسجود، أول فعل أمر بالسجود عرفنا بوجوده، وتفاصيل ما حدث بعدها، من عصيان إبليس واستكباره، والقسم الذي أدّاه، تشكل جزءاً

كبيراً من حيثيات حياتنا الأرضية اليوم، سواء فسرناها بهذا الشكل، أو بشكل آخر..

لكن الذي يلفت النظر في المشهد الذي قدّمه لنا الخطاب القرآني، أن الأمر **لا ينتهي بسجود آدم للخالق** عز وجل.. مع أنه عزَّ وجلَّ أسجد الملائكة له، ولو من باب العرفان والامتنان لهذه المكانة..

كما لو أن الأمر، أن السجود "هناك" ليسَ هو المحكّ، بل الامتحان هو هنا "في الأرض"..

كما لو أن السجود الحقيقي لا يكون إلا في الأرض؛ موضع الامتحان، موضع الاستخلاف.. موضع ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠]..

قطبا التفاعل: آدم والعالم

آدم لن يسجد إلا في الأرض، إذن؟..

ألا يذكر ذلك بتعريف السجود: **وضع الجبهة على الأرض؟..**

هل كان يمكن لآدم أن يسجد إلا في الأرض، عندما يضع جبهته عليها، يضع (رأسه)، ومن ثم كله، على موضع التفاعل الذي استخلف فيه، كما لو أن هذا **السجود تعبيرٌ فيزيائي، عن التحام الإنسان بمهمته التي كلفه الله بها**، كما لو أن هذا السجود، هو تعبير جسدي..، عن ذلك **التفاعل المطلوب بين الإنسان والأرض** التي هي العالم بأسره، وسيغيرهما هذا التفاعل معاً: الإنسان، ليصير إنساناً أكمل وأفضل.. والعالم ليصير عالماً أفضل.. وأكثر عدالة..

إنها معادلة الاستخلاف، تتمثل في رمز جسماني: جبهة الإنسان، ومن ثم جسمه كله، بالتتابع، تلتحم بالأرض.. لتعيد بناءها.. لتصنع عالماً أفضل..

الأرض، وجبهة الإنسان، يلتحمان في جبهة واحدة، كما يلتحم قطبا التفاعل، كما يلج المكبس المولد الكهربائي في الأسلاك الميتة فيولد الحياة والضوء..

لم يكن ذلك السجود ممكناً هناك..

لكنه يكون كامناً، ممكناً هنا.. على جبهة الأرض..

جبهة الإنسان، على جبهة الأرض، وذلك التفاعل الخلاق المبدع.. الذي هو جوهر السجود..



وهذا التفاعل الخلاق المبدع هو مجرد اسم آخر للخضوع له عز وجل، لكن هذا الخضوع، يخضع أولاً للحقيقة الأولى التي كلفنا بها: الاستخلاف، وتصبح كل أوامر الله ومنهياته منضوية تحت حقيقة هذا التكليف الأول، فتشع أكثر، وتتوهج أكثر، وتزداد فاعلية وفعالية..

أبى إبليس السجود لآدم.. كان هذا هو امتحانه..

أما امتحاننا، فهو السجود في الأرض..

بأقصى معاني السجود وأعمقها..



ولكن هل كان على هذا التفاعل الخلّاق المبدع بين الإنسان والأرض، الذي هو جوهر الاستخلاف، أن يكون

بهذه الهيئة التي تتطلب النزول إلى الأرض، بهذا الشكل؟ أما كان يمكن أن يكون هناك هيئة أخرى؟..

ببساطة لا. لا يمكن؛ لأن هذه هي الهيئة الوحيدة التي ستحافظ على الخيط الرفيع اللازم لكي يتوازن الإنسان بين سيطرته على الأرض وهيمنته عليها، وبين خضوعه لله عز وجل، الخالق الذي كلفه أصلاً بأن يكون خليفته في الأرض ..دون هذه الهيئة، ومعانيها العميقة، يمكن للإنسان أن يتمادى، وهو يرى إمكاناته وقدراته وتمكنه من الأرض..

يمكنه أن ينسى أنه مكلف، وأن تخويله مقيد، وأن صلاحياته ليست مطلقة..

لكنه في هذه الهيئة، هو يتوازن على ذلك الخيط: إنه يمسك بتلابيب الأرض، وفي الوقت نفسه هو خاضع للخالق عز وجل..

بين السجدتين..

بين سجود الملائكة هناك، وسجود الإنسان هنا، علاقة متواصلة، لم تنتهِ حقاً.. فالملائكة سجدت بناء على الأمر الإلهي، الذي جعل هذا السجود "مراسيمَ تنصيب" تكريمية للإنسان وهو يتبوأ مكانته التي أعدّها الله له، وأعدّه لها: الخليفة في الأرض..

لا شك أن النوع الإنساني لم يلتزم بتلك المكانة غالباً، وأن تاريخه للأسف هو تاريخ الانحياز إلى إبليس، عبر إثبات أن الإنسان لم يستحق تلك المكانة.. لكن هذا لم يكن قط حتماً مقضياً على الإنسان، وإنما كان خياراً

اختاره بملء إرادته، وعليه أن يتحمل نتائجه، أو أن يصححه..

سجدت لي الكواكب يا أبي..

وهذا السجود، سجود الملائكة، مع أنه لم يذكر إلا في القرآن الكريم حصراً، متميزاً عن كل ما سبق من الكتب السماوية، إلا أنه كان موجوداً بشكل ما، بطريقة ما في الوعي الإنساني، وإن لم يكن بشكل دقيق.. ربما لم يع أن الملائكة سجدت له، إلا أنه وعى دوماً أنه "السيد" في هذا العالم.. وأنه حتى الكواكب يمكن أن تسجد له..

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٤]..

تلك الرؤيا كانت أكثر من مجرد منام، كانت تحتوي في داخلها على ذلك النزوع الإنساني إلى **تحقيق ذاته، تحقيق ما خلق من أجله..** أن يكون السيّد في هذا العالم..

قصة سيدنا يوسف، تحكي لنا المسافة ما بين هذه الرؤيا وتحويلها إلى واقع معاش..

وعندما يصل يوسف إلى ذلك، موقع "التمكين في الأرض" فإنه يحقق تلك الرؤيا.. ينجزها على الأرض..

فلنتنبّه إلى أن التمكين في الأرض الذي حققه يوسف، لم يكن ذلك المنصب المهم الذي تبوأه لاحقاً فحسب.. كان ذلك مرحلة متقدمة من مراحل التمكين، التمكين الذي ابتدأ عند يوسف من **نقطة العلم فقط**، وكان لا يزال

وقتها عبداً قد بيع واشتري بثمن بخس، لكنه امتلك التمكين في الأرض عندها أيضاً ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٢/٢١]..

كانت تلك هي الآية الأولى التي تحدثت عن تمكين يوسف في الأرض، فلنتنبّه هنا: الأرض كلها! وكانت آية التمكين هي العلم الذي يمكنه أن يفهم بشكل أفضل من أجل إعادة بنائه بشكل أفضل..

ثم جاء التمكين في الأرض مرة ثانية، كمرحلة لاحقة وتالية، وكنتيجة لأخذ التمكين الأول إلى مداه الطبيعي..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/٥٤-٥٦]..

الرحلة من ذلك البئر، إلى المنصب المهم حفيظاً على خزائن الأرض، هي الرحلة ذاتها بالتوازي، من البداوة إلى الحضارة، من أن يكون يوسف وأهله مجرد "بدو" على هامش الحضارة والتاريخ، إلى أن يكونوا قادة حضارة ورواد نهضة.. إلى أن يكونوا من أصحاب التمكين في الأرض..

لذلك؛ عندما تنتهي السورة بالمشهد الأخير، وقد خرَّ ساجداً من خرّ، فإن تأويل الرؤيا الأولى التي ابتدأت بها

السورة، لا يكون تأويلاً فردياً عن انتصار يوسف كفرد، كشخص استطاع أن ينجو مما حيك ضده، بل هو تأويل بأبعاد أعمق ومسافات أوسع؛ ليس فقط خروج يوسف من السجن، ومن البئر، وتبوؤه أعلى المناصب، بل **خروج قومه بمعيته من سجن البداوة إلى آفاق الحضارة..**

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠]..

ابتدأ الأمر برؤيا السجود، وتأول في نهايته بهذا السجود، بين السجودين،كان هناك ذلك التمكين في الأرض، التمكين الخاضع لله، الذي سيجمع بين عمارة الأرض، وبين الالتزام بأوامره وشريعته.. ابتدأ الأمر بالسجود، وانتهى بالسجود، وبين السجودين كانت هناك حكاية "فرد" وحكاية "أمة"، فرد خرج من سجن فرديته وبئر غربته وواقع عبوديته، إلى آفاق التمكين، وأمة خرجت، عندما تفاعلت مع هذا الفرد، من واقع بداوتها وتخلفها، إلى المشاركة الفاعلة في أهم حضارات عصرها..



ابتدأ الأمر بالإنسان، بالنوع الإنساني، وقد وعى مكانته التي أعدّها الله له، وأعدّ في داخله كل الاستعدادات لتبوئها..

ابتدأ الأمر بالإنسان وقد وعى أنه مهم إلى درجة أن تسجد له الكواكب، والشمس والقمر.. وكان سجوداً تكريمياً للفرد الذي آمن بذلك..

وانتهى الأمر بالوصول إلى العرش، والسجود هناك..

لمن سجد إخوة يوسف ؟

هل كان هذا السجود سجوداً ليوسف؟.. هذا هو الرأي التفسيري الشائع بين الكثير من المفسرين، معللين ذلك أن هذا كان هو العرف في تحية الأمراء والملوك عندهم، وأن سجود أهله وإخوته له كان تأويل الرؤيا..

فلنعترف أن ذلك سيكون محبطاً قليلاً، فنحن في المشهد الأخير من تلك الملحمة الرائعة بسياقاتها التي لا تنضب، ونحن نتوقع معنى يتوج تلك السياقات ويربط خيوطها بعضها ببعض..

وسنحمد الله أن هناك قولاً تفسيرياً آخر لذلك السجود، وهو قول يتسق وينسجم مع الخطوط العامة للحدث في السورة ككل..

هناك قول [١]، أن الضمير في ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠] يعود إلى الله عز وجل، الواحد الأحد الذي يستحق وحده السجود.. ويكون تأويل الرؤيا في هذه الحالة، مرتبطاً بالوصول للعرش، أو في سجود تراتبي، سجود من يوسف وأبويه لله، ومن إخوته له، عرفاً أو خضوعاً له..

(١) وهو ما اختاره الرازي ونقله القرطبي عن الحسن.

ما ابتدأ بالسجود، كان يجب أن ينتهي بالسجود، السجود لله عز وجل: وفي كل الأحوال، فإن ما قاله يوسف، بعد هذا السجود، هو جوهر السجود: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٢/١٠١]..



وما ينسجم مع ذلك حقيقة أنه ربما كان السجود، حتى ولو بمعنى التكريم، قد منح لآدم، لكن ذلك كان مرتبطاً بلفظ غير ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠]، بالضبط كان مرتبطاً بـ ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر ١٥/٢٩، ص ٣٨/٧٢]..

وهذا يوحي أن الأمر، في سورة يوسف، لم يكن مشابهاً لسجود الملائكة لآدم، بل مرتبطاً بالسجود له عز وجل..

ها هو ذا المشهد يتوهج، يوسف، وأبواه، على عرش أعظم حضارات عصرهم، ساجدين لله.. خاضعين لله..

وبين السجودين، حكاية التمكين في الأرض التي هي جوهر السجود..

السجود وفتح الأبواب المغلقة

أمر يستوقفنا هنا.. أن هذا السجود، سيصير لاحقاً مرتبطاً بشكل مباشر بالفتح بمعناه الحضاري الواسع.... ولن يمضي وقت طويل على بني إسرائيل، ويوسف هو أول أنبيائهم في مصر، حتى يعودوا أدراجهم إلى الأرض

المباركة، وسيكون السجود علامة دخولهم، كما كان السجود نقطة انطلاق يوسف وإخراجه لقومه من البدو إلى الحضارة، ومن الظلام إلى السطوع..

كذلك عندما عادوا إلى الأرض التي وعدت لهم، كان السجود بمعناه العميق الواسع الذي يسكن هيئة السجود ويفعلها.. كان السجود هو مفتاح كل ما هو مغلق..

لقد كان مفتاح كل باب مغلق في وجوههم..

ولذلك..

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٢/٥٨]..

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ٤/١٥٤]..

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/١٦١]..

كان الدخول، الفتح، مرتبطاً بالسجود..



كانت تلك الأرض قد وعدت لبني إسرائيل إذا عملوا وفق ضوابط محددة، ولم تكن هِبة إلهية لهم على مرّ الزمان، ولم تكن تلك الآيات "سند ملكية" يمنحهم تلك الأرض، كان الأمر مرتبطاً بتجربتهم المحدودة زماناً - ومكاناً..

"أرض الميعاد".. و "الأرض الميعاد"

هذا عنهم.. فماذا عنّا نحن؟..

هم وعدوا بأرض ما محددة، ولكنها مباركة، وكانت آية دخولهم إليها ذلك السجود الذي يفتح الأبواب..

لكن ماذا عنا، نحن الذين مثلت تجربة بني إسرائيل أمامنا، نموذجاً نتفحص سلبياته كي لا ننزلق إليها..

نحن أيضاً نمتلك وعداً مماثلاً، لكنه وعد مختلف، لأن ديننا مختلف، لم يأت لعرق أو لقوم أو لقبيلة، بل للإنسانية جمعاء، بينما تجربة بني إسرائيل كانت محدودة قومياً، وزمانياً، ومكانياً: بأرض مباركة بعينها.. لوقت محدد..

أما نحن، ولأن رسالتنا للنوع الإنساني ككل، فقد كانت **الأرض، كل الأرض، موعودة لنا، نحن الذين حملنا أول وعي إنساني بأنه الخليفة في الأرض، كل الأرض..**

ومرة أخرى هذه الأرض ليست منحة مجانية، بل هي إرث مستحق ضمن استخلاف الإنسان في الأرض، وكونه من المحسنين في ذلك، على ذلك الخيط المتوازن بين **إعمار الأرض، والخضوع لله عز وجل، جوهر السجود..**

ولذلك كان نصر الله مشروطاً بـ..

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٢٢/٤٠-٤١]..

ستأتي **إقامة الصلاة هنا**، هيئة ومعنى، لتذكرنا بكل هيئاتها..

بالسجود خصوصاً، ذروة الاقتراب فيها، ليسلط "الضوء" على طبيعة مهمتنا **في الأرض**، كل الأرض، وعلى حيثيات نجاحنا، أو أسباب إخفاقنا فيها..

كل الأرض..

القمة هي في الأرض

أمر آخر يستوقفنا، مع يوسف فيما بين السجدتين، وهو أن الله - عز وجل - مكّن له في الأرض يتبوأ منها أينما يشاء..

ولكنه اختار أن تكون **جبهته على الأرض**، اختار السجود، ذلك الموضع الذي يقدح شرارة التفاعل، حيث تتحد الأقطاب، ويتدفق الإبداع من ذلك الرأس، ويجعل الإنسان كله يتفاعل مع الأرض ليعمرها، ويعيد بناءها ليصنع عالماً أفضل..

كان يمكن أن يتبوأ حيث يريد..

لكنه اختار أن يكون هناك..

هذا هو الامتحان لاحقاً، إنه يمكن لك أن تكون في أعلى الأماكن، ولكنك تفضل "القمة"..

القمة التي تعني أن تكون جبهتك على الأرض..

"العلو" و "الاستخلاف".. تشابه المظهر واختلاف الجوهر

وهذا يجعلنا نتذكر "تمكناً آخرَ"، له أدوات متشابهة، وربما متفوقة، عدداً وعدة، ولكنه "تمكنٌ" سيختار مواضعَ أخرى، ولن يتجه أبداً إلى أن يضع جبهته في جبهة الأرض.. (إلا إذا كان ذلك شكلياً ومن أجل الحفاظ على مظاهر معينة)..

إنه التمكن الذي لن يفهم حقاً معنى أن يتوازن الخضوع لله مع إعمار الأرض، لن يفهم موقعه كخليفة مكلف بأن يقوم بدوره ضمن منظومة قيم ثابتة، وفي ظلِ إطارها..

إنه أن يتطاول في البنيان.. ولكن أن تنخفض "قيم" الإنسان..

إنه الضد من الاستخلاف، رغم كل مظاهر التمكين في الأرض..

إنه "العلو في الأرض"..



لم يأت هذا اللفظ في القرآن الكريم، أبداً بشكل إيجابي.. ولا حتى مرّة واحدة..

وهو أمر علينا أن نتنبّه إليه، في غمرة انبهارنا بحضارات تناطح السحاب، أو تتبجح بذلك، فقد يكون

التطاول في البنيان علامة بناء حضاري حقيقي، قائم على أسس متينة، أسس تجعل جبهة هذا البناء في حالة خضوع لله عز وجل..

وقد يكون التطاول، محض علو في الأرض، على أسس فيها من التمرد على الله - عز وجل - ما يكفي ليجعلها هشة مهما بدت عالية، ومهما بدا البنيان مزخرفاً..

وهذا طبعاً ليس ترويجاً لحالة اللابناء، بحجة أن البنيان قد يكون علواً في الأرض، لا تمكيناً في الأرض..

لكن حالة اللابناء واللاحضارة التي نعيشها، يجب ألا تجعلنا ننبهر بمحض التطاول، بل علينا أن نتنبّه إلى الأسس، لكي لا يكون بناؤنا محض استيراد، نسخة مقلدة من علو متهاو.. لكي نفرق بين التمكين والاستخلاف، وبين العلو والتطاول، اللذين قد يكون فيهما بعض التشابه في بعض المظاهر..

لكن جبهة الأول، ستكون في الأرض، علامة السجود الذي هو رمز الاستخلاف..

أما الثاني فجبهته تتصور أنها تناطح السحاب، علامة العلو الذي مصيره الانهيار..



ولا مرّة، ولا حتى مرّة واحدة، كان العلوّ البشري "إيجابياً".. في القرآن الكريم..

وكان العلو، رغم مظاهر القوة والازدهار، يرتبط دوماً بالفساد في الأرض والظلم وحتى الجحود..

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧/٤]..

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧]..

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤]..

وكان طلب عدم العلو، أساسياً في رسالة إصلاح المجتمع التي بعثها سليمان على سبأ ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النمل: ٢٧/٣١]..

كما أنه كان محاولة إنقاذ أخيرة إلى قوم فرعون ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾ [الدخان: ٤٤/١٩]..

وفرعون بالذات، كان رمزاً نهائياً للعلو والاستعلاء.. كان وقومه، نموذجاً ليس للطاغية المستبد فحسب، بل لحضارة الطغيان والاستبداد والاستعلاء، الحضارة التي ربما تقدم بناءً متطاولاً وفنوناً مبدعة، وعمارة مذهلة، وقوة عسكرية ضاربة، لكن ذلك كله يكون مبنياً على ظلم وفساد..

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ [القصص: ٢٨/٤]..

﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [يونس: ١٠/٨٣]..

﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الدخان: ٤٤/٣١]..

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٤٦]..

فلنتنبّه هنا أن العلو الفرعوني في الأرض، فرّق الناس، كما لو أن "العلو" يستلزم تفريق الناس ليتمكن من أن يسود.. ويفسد في الأرض.. ولنتنبّه أيضاً إلى ملازمة صفة "الإسراف" لذلك العلو، هل يذكرنا ذلك بشيء نعيشه اليوم؟ ..**هل هو قانون وسنة من السنن الكونية، التي تتعالى عن الأزمان والأمكنة، وتظل صالحة للعمل قبل** خمسة آلاف سنة، وبعد ألف سنة؟..

التمكين: شرط العدل

وعلى الجانب الآخر من تلك القوانين والسنن، هناك ذلك التمكين في الأرض، قد يمتلك بعض المظاهر المشابهة، قد يمتلك بعض التطاول في البنيان، لكن "**الحجر الأساس**" سيكون مختلفاً جداً..

وهو أمر سيجعل كل شيء مختلفاً..

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَـٰيِشَۗ﴾ [الأعراف: ٧/١٠]..

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٢٢/٤١]..

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ١٢/٢١]..

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/٨٤]..

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٢٨/٦]..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥]..

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٧/٦٩]..

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧/٧٤]..

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢]..

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٣٨/٢٦]..

إذن مقابل العلو هناك ذلك الاستخلاف، التمكين المشروط، الذي يحكم بين الناس بالحق، ويقيم الصلاة، ويؤدي الزكاة.. ويكون ذلك حجر أساسه المتين، وضمانته الأكيدة ضد التسلق إلى الهاوية..

ومقابل فرعون، هناك داوود، وذو القرنين.. وابن الخطاب.. و ربما اسم آخر لطفل آخر يولد في هذه اللحظة بالذات، من جيل قادم لا محالة، مهما تأخر، مهما قيل: إنه لن يأتي، قادم، لا محالة..

"..لا يريدون علواً..."

إذن..

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣/٢٨]..

إنهم لا يريدون علواً في الأرض، ليس لأنهم مساكين، عاجزون، غير قادرين، وإلا ما كانت الدار الآخرة لهم..

إنهم لا يريدون علواً في الأرض، لأنهم يريدون شيئاً آخرَ.. ويعملون على تحقيقه، يرونه في أحلامهم، ويتنفسونه مع أنفاسهم.. شيء آخر، هو جوهر وجودهم، يؤمنون بأنهم خلقوا من أجله..

التمكين في الأرض..

والعاقبة للمتقين..

قوانين الاستعلاء: اسجدوا لي !

ما علاقة هذا كله بالسجود؟

من قوانين الاستعلاء في الأرض أن من يعلو، سواء كان طاغيةً أم نمط حياة أم إيديولوجيا أم حضارة، يميل إلى أن يفرض "علوه" على الآخرين.. يفرض حكمه، نمط حياته، عقيدته، أو رؤاه.. بشكل عام..

قد يحدث ذلك قسراً واضحاً لا يحتاج إلى دليل، بالحديد والنار، وقد يحدث ذلك قسراً أيضاً لكنه غير واضح، بطرق قسر غير مباشرة كثيرة، ويتبجح أصحابها بحرية الرأي وحرية الفرد طوال الوقت، لكنهم في الوقت نفسه، يقسرون رؤيتهم على الجميع، عبر وسائل غسل الأدمغة، وصنعها وفق قالب واحد.. وينتهي الأمر في

الحالتين إلى نتيجة واحدة، فرعونية الطابع، سواء حصلت قبل خمسة آلاف سنة، أو بعد ألف سنة، (أو الآن!)..

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٤٠/٢٩]..

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٢٣-٢٤]

قانون العلو، سيفرض ذلك: رؤية واحدة، وأنا ربكم الأعلى..



حسن أيضاً.. ما علاقة هذا مرة أخرى بالسجود؟..

علاقته شيء نقوله في أثناء السجود، ونرتبط مباشرة بهذا المعنى.. ما الذي نقوله..

نقول: **سبحان ربي الأعلى**.. طبعاً..

..الأعلى منهم جميعاً

إنه ذلك التسبيح الذي يتخذ من السجود بالذات موضعاً لهذا الإعلان بالذات، الإعلان الذي لن يطرأ عليه أي تفسير، أو تحوير..

عند الأرض، وجبهتك عليها تحديداً، وأنت هناك في موضع التحامك الأشرف بك، بمهمتك، ستعلنها، أنه هو الأعلى.. وأنه مهما كان هناك علو، واستعلاء وتطاول، فإنه، عز وجل، تعالى عن أن يكون له مثيل، هو الأعلى، بلا مقاربة أو مقارنة..

مهما بدا الأمر صعباً، ومهما علا فرعون، ومهما علت حضارته، فارضين علوهم واستعلاءهم على الآخرين، فإن تلك التسبيحة، في ذلك السجود، تذكرك بقيمة أساسية من قيم هذا الكون، قيمة أن ذلك العلو، مهما بلغ، مهما بدا مبهراً ومزخرفاً وخاطفاً للألباب والأنظار، فإنه "محكوم" بالانهيار والأفول والهلاك، ما دامت آلية هذا العلو تقوم على تجاهل القيم الإلهية المؤسسة لهذا الكون كله..

"سبحان ربي الأعلى" عند السجود، تذكرك بهذا، ليسَ لتضمد جرحك عندما يكون فرعون ما، أو حضارة فرعونية ما، قد استعلت عليك وشردتك؛ فذلك يجب أن يكون مرحلة عابرة بكل الأحوال، لكن "سبحان ربي الأعلى" تذكرك أيضاً بأن بنيانك أيضاً، يجب أن يأخذ هذا كحجر أساس يستند إليه، وإنه عندما يعلو، يجب **أن يكون ملتحماً بالأرض، ساجداً لله..**

يجب ألاّ يكون بناؤك نسخة أخرى من بنيانهم الفرعوني، مهما كان مبهراً ومبهرجاً وناطحاً للسحاب.. لأن من هو "أعلى"، بقدرته وسننه وقوانينه، جعل الهاوية موضعاً لكل من يستعلي..

في سجودك، وأنت ملتحم بالأرض تسبح للأعلى، للأعلى دون منافسة، لمن هو الأعلى دون مقاربة، بقوانينه وقيمه ومقاييسه..

.. سبحان ربي الأعلى، سبحان الذي ليس له مقارب.. أو منافس..

وهناك أيضاً ما هو أعلى حتى من هذا، في هذه التسبيحة التي نقولها عند السجود..

هناك ما هو أعمق، وأعلى، وأقرب في آن..

"سبحان ربي الأعلى" تأخذنا إلى سجود الملائكة

تضعنا "سبحان ربي الأعلى" التي نقولها، عند السجود، في موضع خارج الزمان والمكان، في موضع الاستجابة للحظة هي فعلاً خارج الزمان والمكان، لحظة بدء الأمر، عندما كان أمر السجود الأول، يوم كان السجود لآدم..

إلى هناك.. تأخذنا "سبحان ربي الأعلى"، تجعلنا نسجد لله، مقابل ذلك السجود الملائكي لآدم..

كيف؟.. وما الذي يربط تسبيحة السجود هذه، بسجود الملائكة لأبينا آدم؟..



"سبحان ربي الأعلى" هي استجابتنا في الصلاة لأمر إلهي بالتسبيح باسم "الأعلى"، أمر جاء عبر الخطاب القرآني مرة واحدة فقط، في سورة تحمل اسم "الأعلى"، وليس (٣) مرات كما في التسبيح باسم "العظيم"..

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

[الأعلى: ٨٧/١-٥].

"سبحان ربي الأعلى" هي، حتماً وطبعاً، استجابة إنسانية لذلك الأمر الإلهي بالتسبيح..

ربما لا يمكن الجدال في هذا، لكن ما هو رابط هذا بسجود الملائكة لآدم؟..

جواب هذا موجود في ثنايا السورة ذاتها.. في الآية التالية تحديداً..

﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/٢].

لم يسجد الملائكة إلا بعد أن....

تأخذنا ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فوراً إلى حكاية خلقنا الأول، وبالذات إلى تفصيل مهم وأساسي ضمن هذا الخلق الأول، تفصيل كان ممهداً لشرف عظيم سيناله الإنسان بشكل حصري، ولن يناله أي أحد سواه من مخلوقات الله عز وجل..

ما هذا التفصيل، ولأي شيء مهّد؟..

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/٢٩]..

"سويته" هنا، بأوسع معاني الإنضاج والإكمال والتهيئة، هي التي سبقت ومهدت لتلك النفخة الإلهية، من روح الله، والتي سنظل نتوارثها جيلاً بعد جيل، مع أن بعضنا سيحاول طمرها تحت ركام أشياء أخرى..

وتلك النفخة ما بعد التسوية، سبقت ذلك الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم، للنوع الإنساني.. ممثلاً في أبينا آدم..

❖ ❖ ❖

و ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢/٨٧] تأخذنا إلى هناك بلا ريب، إلى تلك اللحظة المتوهجة على حافة الزمان والمكان.. إلى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩/١٥].. وذلك السجود الأول، السجود الوحيد الذي فعلته الملائكة..

تلك التسبيحة، تربطنا فوراً، **بالذي خلق فسوى**، الذي أدى إلى أن يقع الملائكة ساجدين، فإذا بسجودنا هنا مرتبط بالسجود هناك، وإذا بالمسافة بين السجدتين تتلاشى، كما لو أنه لا زمان هناك ولا مكان، وإذا بتلك النفخة، تلك الروح الإلهية التي في أعماقنا، تتوهج مرة بسجود الملائكة، ومرة بالسجود لله..

"سبحان ربي الأعلى" تستنفر وهج ذلك السجود الأول، السجود هناك، تستفز في أعماقنا ذلك الوهج، ذلك البريق الذي لابد أنه ملأ روح أبينا آدم وهو يرى الملائكة ساجدين..

وفي الوقت نفسه، فإن "سبحان ربي الأعلى" تجعل من **سجودنا هنا ، الامتداد الطبيعي ، المتمم ، لسجود الملائكة** لآدم.. تلك التسبيحة، تجعلنا نقوم بذلك المشهد النهائي الذي لابد لآدم وأولاده جيلاً بعد جيل، أن يقوموا به.. خضوعاً وطاعة شاملة، ولكن أيضاً، معهما، عرفاناً لهذه المكانة، امتناناً لأنه بوأنا ذلك المكان، ونفخ فينا من روحه..

وجعل الملائكة يقعون ساجدين..

لابد أن نخرّ سجّداً مثل نجمة تخرّ وهي تبعث الضوء في أثناء سقوطها..

لقد سوانا.. فهل استخدمنا تلك التسوية؟

لكن ألم يكن من الممكن أن يكون ذلك أكثر وضوحاً؟..

أعني أن "سبحان ربي الأعلى" التي نقولها في الصلاة، في أثناء السجود، لا تقول ذلك كله بوضوح.. أو بمباشرة..

لكن من قال: إن ذلك كله يجب أن يكون مباشراً جداً؟..

لقد سوّانا أي أبلغنا الذروة، منحنا العقل، وأدواته كافة، ونفخ فينا من روحه: وبعد ذلك يجب أن يكون كل شيء واضحاً؟..

لا..

أن نكتشف بعض الأشياء، بما منحنا إياه من أدوات، بما أعطانا من معلومات، بذلك التوق الذي يسكننا.. لن يكون أمراً سيئاً على الإطلاق.. لقد وضع لنا الأزرار، ومنحنا الأنامل لنتلمس الدرب، والحدس لنميز الاتجاهات، والرغبة في النور..

لذلك، فعندما نضغط على الزر، ويتدفق النور، لا يكون ذلك بمعزل عنه أبداً..

"سبحان ربي الأعلى".. ويتدفق الضوء من كل مكان، وبالذات من موضع التحامنا مع الأرض..

بنية القدر الإلهي: دليل الهداية

وذلك ليس كل شيء مع "سبحان ربي الأعلى"..

ذلك أن التسبيح للأعلى، جل وعلا، مرتبط كذلك بأنه ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣/٨٧].. وقدره هذا، هو كل ما بناه - عز وجل - في هذا الكون، وفق تقديره المسبق المتقن، إنه كل القوانين والسنن التي بني الكون عليها، والقوانين والسنن التي تنظم العلاقة بين هذه القوانين والسنن، إنها المنظومة المتكاملة التي بني عليها هذا الخلق كله، المنظومة التي كلما ازددنا معرفة بها، زاد يقيننا بقلة ما نعرفه، وهي المنظومة التي تقول، دون شعارات، دون خطب، بل بالصمت العامل الدؤوب: إن ذلك كله لا يمكن إلا أن يكون قد نتج من صنع إله له من الصفات ما يتطابق مع وصفه في القرآن الكريم، إنها الهداية العميقة المغروسة في بنية القدر الإلهي، الهداية التي تنبع من رؤية كاملة لهذا العالم، رؤية قد لا تدخل في تفاصيل الفيزياء والكيمياء - ولكنها تستشعر هذه البنية، تستشعر أن ذلك كله قد بني على قدر متماسك، وأن ذلك كله لا يمكن إلا أن يكون قد صدر من ذلك الإله الأعلى من كل مقياس، الأعلى من كل تصنيف..

والذي نسبح له، "سبحان ربي الأعلى".. عند السجود..

المرعى: العالم كله

وهو أيضاً ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٨٧/٤]..

سيقول هنا المثاقفون وأشباههم: إن هذا سياق تاريخي ناتج عن مرحلة البداوة، فالرعي والمراعي كلها كانت من الأمور التي تهم العربي، لذلك فإنه سينبهر ويتأثر بوصف الإله الأعلى، بأنه أخرج المرعى، أما الآن، وقد تركنا الرعي والبداوة، فإن الأمر لم يعد مؤثراً كما كان، إنه محض سياق تاريخي..

أو هكذا يزعمون..

والحقيقة هي أن هذا القرآن هو الذي أخرجنا من البدو، كما حدث مع أبوي يوسف آنفاً، لكن بفارق أن "البداوة" ليست مرحلة تاريخية أو موضعاً جغرافياً؛ إنها خيار نفسي واجتماعي وحضاري، خيار أن تكون على الهامش، خيار ألاّ تفعل شيئاً، وألاّ تنتج شيئاً، أن تكون محض مستهلك، أو تاجر ترانزيت في أحسن الأحوال، وعندها لن تكون البداوة مرتبطة بخيمة متنقلة في الصحراء، بل قد تكون في منزل فاره مليء بالأدوات الحديثة، وقد يكون "البدوي" هنا يتقن عدة لغات، أو على الأقل يستعمل كلمة من هذه أو تلك هنا أو هناك، من أجل الظهور بمظهر الحضارة، لكن ذلك لن يغير من حقيقة البداوة في أعماقه، ما دام على الهامش، ما دام لم يدخل في طور الحضارة حقاً..

والقرآن أخرجنا من البدو فعلاً، إلى آفاق غير محدودة لصنع حضارة حقة، لكن "بعضهم" يصر على العودة إلى "البدو"، ربما لأنه يرى أن عدم الفعل ترفٌ يستحق التضحية..

ولكن، من قال: إن ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٨٧/٤] تخص مرحلة البدو؟.. إنها نظرة بدوية جداً، أو إنها حديثة عهد بالخروج من البداوة، هذه النظرة التي تقصر "المرعى" على رعي الأغنام والإبل، وهو الذي لا إشارة إليه هنا على الأقل..

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٨٧/٤] تشير إلى كل ما وضعه الله – عز وجل – في باطن الأرض، مما يمكن إخراجه ورعايته واستثماره من أجل إنماء العالم وتحسينه وصياغته بشكل أفضل، إنها تشير إلى كل الثروات التي أودعها الله في الأرض التي وضع فيها الإنسان خليفة، وكل ما قامت عليه كل الحضارات، حضارات العلو كما حضارات الاستخلاف، كلها قامت على الاستثمار في وديعة الثروات هذه، ورعايتها، بفارق أن حضارات العلو ستستخدم في علوها واستعلائها، ويتحول الاستخدام هنا، مع الوقت، من مرعى إلى استنفاد إلى "غثاء أحوى"، كما تتحول النعمة إلى نقمة بالاستعمال السيئ الذي يفارق منظومة القيم، أما حضارات الاستخلاف فهي ترعى هذه الثروات وتستخدمها ضمن قيم ثابتة، قيم تضع التوازن في الحسبان، توازن المجتمع والإنسان والبيئة جملةً، وليس الربح أولاً وأخيراً، ومن بعد الربح الطوفان..

هذه الآيات الأربع، التي تتبع الأمر بالتسبيح باسم الأعلى، ليست آيات منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض، بل إنها تلتحم معاً، لتقدم لنا إضاءة ساطعة، على سجودنا لله تعالى، ومعناه، وهذا الالتحام المضيء هو التحام متتابع، وتتابعه يصب في سياق المعنى..

فالأمر يبدأ طبعاً بالذي خلق فسوى، فلقد كانت هذه التسوية، الذروة التي صنعنا الله بها، بكل الإمكانات والأدوات التي وضعها في داخلنا، والتي من أجلها جعل الملائكة يقعون ساجدين للإنسان الأول، وهذه الأدوات والإمكانات الكامنة هي نفسها التي ستستخدم في الآية التالية ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٨٧/٣]، ففهم بنية القدر الإلهي، بنية الكون المتوازن، والمنظومة التي أسس عليها، **تتطلب أساساً تلك الأدوات التي كانت جوهر "التسوية" الإلهية لنا.. ولأن "الهداية" ليست تأملاً نظرياً في الكون وإطلاق كلمات الإعجاب ببنيته والإيمان المجرد بخالقه، بل هي مشروع عمل حقيقي يعمل على صنع العالم** بشكل أفضل، فذلك يحيلنا فوراً إلى الآية التالية ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٨٧/٤]، فصنع العالم يتطلب استثمار الوديعة الإلهية في الأرض، ورعايتها وإنمائها، من أجل رعاية الأرض وإنمائها، وعدم تحويلها إلى غثاء أحوى إنها رعاية وإنماء خاضعان لله تعالى، كما في السجود..

إنها التسبيحة التي تضيء، وتجعل الضوء يتدفق منا، من رؤوسنا، مثلما هو متدفق من الأرض التي هي "المرعى"..

قصة حب

لكن الأمر له، أيضاً وأيضاً، معان أخرى لا تقل عمقاً..

فاعتبار الأرض التي هي موضع الخلافة والتكليف "مرعى" لنا، لكي نرعى الثروات والخيرات التي فيها، سيؤثر فوراً في علاقتنا بالأرض، لأنها ستصير موضعاً لرعايتنا، وليس مكاناً لاستنفاد الثروات ومراكمة الأرباح بأقصى سرعة ممكنة..

علاقتنا بالأرض -المرعى ستكون علاقة حميمة؛ علاقة فيها تناسق وحب ورعاية أكثر مما فيها من الاستغلال قصير النظر، فاعتبار أن الأرض "مرعى" سيستوجب الإبقاء على كونها كذلك، والرعاية بالتعريف فيها من الحب أكثر مما فيها من أي شيء آخر..

وليس هناك مظهر يدل على هذا الحب أكثر من عناق **تلك الأرض..**

العناق الذي نقوم به في أثناء سجودنا عليها...

كيف لم نتنبّه لهذا؟ كيف لم ندرك أن السجود لله، يتضمن أيضاً ذلك العناق المليء بالود للأرض، موضع الخلافة، مناط التكليف، الأرض التي خلقها الله لنا وخلقنا بهذا الشكل والسوية، لنكون لها...

إنه العناق للأرض: بحب، بتواصل، باحتواء...

إنها "المرعى" الذي ترعاه، وخلال رعايتك تحقق ما خلقت من أجله..

وكل هذا في السجود..

قهر الطبيعة

هذه الرؤية التي ترى أن الأرض هي مرعى يجب المحافظة عليه بقدر ما يجب استثمار كنوزه، هي رؤية معاكسة ومضادة تماماً لرؤية الحضارة السائدة الآن، التي هي رؤية تعتمد على مبدأ "قهر الطبيعة"، "غزو الفضاء"، "ناطحة السحاب".. وكلها تعبيرات تحتوي في داخلها على رؤية هذه الحضارة للطبيعة وتعاملها معها؛ تعامل قائم على أن هذه الأرض تضم مورداً للربح يجب اغتنامه بأقصى وأقسى طريقة، ولو باستنفادها، ولو بنهب ما للآخر وسلبه.. ولو بتدمير وتخريب توازنها و منظومتها عبر استنفاد جزء وتخريب آخر..

إنها الرؤية التي تنطلق من مفهوم أنهم "قادرون عليها" والتي تتصرف على هذا الأساس حتى لو انتهت بدمار لاحق بموعد آجل..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا﴾ [يونس: ١٠/٢٤].

"ظن أهلها أنهم قادرون عليها" : في مرحلة ما..

لكن ذلك سيؤدي حتماً إلى الخراب في مرحلة لاحقة....



فرق كبير أيضاً بين من يرى الأرض مرعى وهو عليها خليفة مسؤول عن إنمائها وإنباتها وإعمارها، وبين من يراها "فريسة" وصيداً يجب اقتناصه..

... بقي أن نتذكر هنا أن ذلك على الأقل حضارتهم، فعلهم، رؤيتهم..

أما نحن، فلا نزال في مرحلة اللافعل، وكل ما فهمناه من مرحلة الأرض "المرعى" كان حسب مفهوم البدوي.. مفهوم الكسل والارتخاء وانتظار ما لن يأتي..

وفرق كبير ما نحن عليه وبين ما يجب أن نكون عليه..

لكن جيلاً آخر، قادماً لا محالة سيكون له شأن آخر....

علامة على الطريق..، علامة على الوجوه

.. عندما يتحول السجود من مجرد هيئة من هيئات الصلاة، إلى مفهوم جسماني يحتوي على منظومة المعاني و القيم التي تشكل جوهر الوجود الإنساني، **فإن تلك المعاني ستتغلغل بالتدريج في عقول أصحابها**، ستغير من سلوكهم، ستغير من شخصياتهم، **ستقدح شرارة تفاعل** متبادل، ربما لا يكون سريعاً جداً ولا ضاجاً جداً، لكنه تفاعل جواني عميق، تفاعل داخلي يمكن أن **يقدح زناد شرارة تفاعل خارجي..**

المعاني **محمولة عبر الهيئات**، عبر التصاقنا بها، عبر تكرارها الذي لا فكاك منه إلا بالانفصال من الإسلام نفسه يمكن لها أن تحدث تفاعلاً ما، مع كل ما هو نحن، وتغير جزءاً مما هو نحن، ربما جزء بسيط في البداية، لكن التفاعل يستمر: **يزيل أشياء، ينتج أجزاء ويغير أجزاء...** بالتدريج وكما تكونت القارات، قد تنتج من فرد

كان يبدو عادياً، قارة جديدة، قارة مختلفة تساهم في بناء عالم آخر...

عندما يبدأ ذلك بالحدوث، فإن أول تباشيره، تكون أن (السجود) يكف عن أن يكون نقرات على الأرض.

بل سيكون دقات على أبواب العالم، عالم يساهم السجود في بنائه وإعادة تشكيله.....

❖ ❖ ❖

وسيكون لذلك علامة؛ لن يأتي بلا إنذار مسبق، بلا تمهيد، لن يأتي فجأة.... بل سيكون هناك إشارة، سيكون هناك علامة...

وستكون علامة "فارقة".........

وستكون علامة على "الوجه"....

علامة واضحة، على وجوه من يحملون تلك المعاني، وذلك السجود علامة تميزهم من غيرهم، تعرفهم بها......

تعرفهم من "سيماهم"....

"سيماهم التي على وجوههم"..

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩].

السجود، كهيئة، يترك أثراً كالندبة على الجبهة....

أما السجود، كقضية تعيش من أجلها، تتنفسها بكل أعماقها، بكل أعماقك، فهو يترك أثراً أعمق وأوضح من الندبة على الجبين....

إنه أثر على الوجه كله... وليس على الجبين فقط..

الوجوه ستبدو مشعة بشيء غريب، بنور عميق، الوجوه ستشع بالحياة، بالفعالية، بالإيجابية، ستبدو مضيئة ووضاءة بطريقة غريبة، سيتدفق منها النور، ستكون مميزة لا في القسمات أو الملامح، بل بتلك الكهارب، كهارب العمل من أجل البناء.

تلك هي" سيماهم" الحقيقية، جيل السجود ذاك، الجيل القادم لا محالة، ستكون علامة السجود على وجوههم، دلالة على أنهم تركوا البداوة حقاً وانخرطوا في صنع الحضارة الحقة..

جيل السجود ذاك ،الذي سيصحح مسار التاريخ....

فلنأمل أن يكون أولادنا منه....

أو أننا، أو أنهم، سيمهدون، سنمهد لقدوم هذا الجيل..

جيل السجود..



ولن يكون غريباً، أن ترتبط علامة السجود، بالمثل القرآني بزرع مثمر ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩/٤٨].

لن يكون غريباً أن يرتبط السجود على الأرض بالإنبات، بالزرع المثمر، الذي يخرج من الأرض؛ فالأرض هي موضع الالتحام، موضع التكليف، إنها المرعى والمنبت..



ولن يكون غريباً أن تكون الآية هي خاتمة السورة التي تتحدث عن الفتح المبين، سورة الفتح...

ذلك هو الجيل، جيل السجود، هو ذاته جيل الفتح..

وإذا كانت الفرصة قد فاتتنا لأن نكون من هذا الجيل..

فإنها لم تفت في أن نمهد له، أن نحرث له الأرض، أن ننثر بذوره التي ستكون يوماً ما زرعاً استغلظ واستوى....

أن تكون أجسادنا سماداً يصلح له الأرض ويزيدها خصوبة....

لم يفت الأوان، على الأقل، لذلك...



الخاتمة : آلية الاقتراب..

سيقولون: المسافة بيننا وبين جيل السجود، جيل الفتح، بعيدة.

وهذا صحيح.

من حيث نحن الآن...، من حيث نقف، فإنها بعيدة جداً.. ولا أستطيع، وربما لا يستطيع أي أحد، إلا أن يوافق على ذلك..

إنها مسافة هائلة، ولكن هذا البعد بين ما نحن عليه، وما يجب أن نكون عليه، يجب ألاّ يمنع المحاولة..

ألاّ يحبط محاولة أخرى..

ألاّ يحبط محاولة الاقتراب...

مهما كان ذلك الجيل بعيداً، علينا ألاّ نكف عن الاقتراب...

❖ ❖ ❖

لكن كيف؟ كيف نقترب من جيل السجود؟ وهل لهذا الاقتراب من سبيل؟

نعم، إنه القرآن، يدلنا على آلية الاقتراب هذه، إنه يعلمنا كيف نقترب ونقارب، مع ما يبدو من البعد، ومن وعورة المسافة.

آلية الاقتراب هذه، من جيل السجود، بسيطة في ظاهرها عميقة في باطنها....

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ [العلق: ٩٦/١٩]..

إنها آلية عبر السجود نفسه، السجود نفسه يجعلنا

أقرب إلى حقيقتنا، يجعلنا أقرب إلى الحقيقة الأهم في هذا الكون، يجعلنا أقرب إليه، وأقرب إلينا، وأقرب إلى ما يجب أن نكونه...

يجعلنا أقرب إلى الأرض، كما لو أننا نعانقها...، منها خرجنا، وإليها نعود، وبين الخروج والعودة لدينا هذا الوقت الذي هو كل رصيدنا، وإعماله في هذه الأرض هو كل امتحاننا.

السجود يجعلنا في تماس مع الأرض، موضع استخلافنا، كما لو أنه يذكرنا بكل ما يمكن لإبداعات رؤوسنا أن تفعله في هذه الأرض....

السجود يجعلنا في وضع أقرب إلى وضع الجنين، قريبين من رحم الأرض، كما لو أننا سنخلق من جديد، بهذه الصورة كما لو أن السجود سيعيد تشكيلنا من جديد.... (بلى إنه يفعل، لو تركناه يفعل..).

السجود يجعلنا أقرب إلى كل ذاك، وسجود بعد آخر، يجعلنا أقرب إلى ذلك الجيل... جيل الذي ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩]..

جيل الفعالية والنشاط والحضارة...

خطة الاقتراب سهلة وبسيطة كما تلاحظون...

ويمكن تلخيصها بكلمة واحدة:

الاقتراب، سجوداً...

دمشق ٢٦ محرم ١٤٢٩ الموافق ٢٠٠٨/٢/٣م



The Physics of Meanings
Fizyā al-Ma'āni
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

كيمياء الصلاة ٤
فيزياء المعاني

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

هذه الحلقة (فيزياء المعاني)، تنقل الضوء إلى هيئات الصلاة (القيام، الركوع، السجود)، فإذا بكل منها مثل طراز معماري يعبر عن إنسان النهضة والحضارة. كل هيئة من هذه الهيئات مثل عبوة مليئة بالمعاني، لا يمكن للمعاني أن تحفظ إلا في داخلها، يصير القيام قياماً بالمهمة التي خُلقنا من أجلها. والركوع انحناءً للعقل أمام الله، والسجود التحاماً بالأرض موضع الاستخلاف، معرفة هذه المعاني، وتمثلها في الصلاة، سيجعل من هيئات الصلاة بمثابة حركات منتظمة على درب بناء المجتمع، ومن ثم الحصول على استحقاق الفردوس الأُخروي.


ISBN -9953-511-69-1
9 789953 511696

تصميم الغلاف: يمان بطيخ

٥ كيمياء الصلاة

سدرة المنتهى

حجر النهضة: منصة الانطلاق

د.أحمد خيري العمري



بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٥)

سِدرةُ المُنتهىٰ

حجر النهضة: منصة الانطلاق

سدرة المنتهى: حجر النهضة- منصّة الانطلاق / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٥٦ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٥)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري

مكتبة الأسد

الدكتور
أحمد خيري العمري

(٥)

سِدرةُ المُنتهىٰ

حجر النهضة، منصة الانطلاق





2011=1432

دار الفكر - دمشق — برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٥

سدرةُ المنتهى

حجر النهضة : منصة الانطلاق

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٨,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-70-2

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٥٦ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الخامسة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

استراحة "المجاهد"..؟

بين كل الهيئات، فإن جلستنا الأخيرة، عند التشهد، وعند الصلاة الإبراهيمية، ستشبه جداً استراحة المحارب..

المحارب الذي يحق له أن يستريح قليلاً، ليلتقط أنفاسه، ليجدد قواه، من أجل أن يواصل لاحقاً..

والمحارب، واستراحته، ليس بالضرورة هو "المحارب" في صورته التقليدية في أذهاننا.. الذي يضع السيف أو الرشاش جانباً، (وإن كان ذلك متضمناً فيها، عندما يكون مع السيف - والرشاش - قضية حق ومبدأ حق).

المحارب، الذي يحتاج إلى استراحة، أوسع بكثير من المحارب التقليدي، إنه كل من يحارب، ولو بالكلمة، أو بالنية، ولو بعمل قد يبدو صغيراً، لكنه سيتراكم مع غيره من أعمال، صغيرة أيضاً، وينتظم داخل إطار أكبر وأوسع، ليسهم في تلك الحرب ذات المفهوم الأوسع بكثير من "الحرب"!..



استراحة المحارب..؟

لا.. فلنقل إنها استراحة "المجاهد"؛ فالمعنى الأوسع، الذي نقصده، لا يمكن أن تحتويه كلمة غير "الجهاد"، مع أنها تعرضت لمحاولات اختزال وتقزيم، وأحياناً تشويه، متعمد أحياناً، وغير متعمد في أحيان أخرى.. لكن الجهاد، هو ذلك المعنى الواسع - وسع الأفق - لكل جهد يبذل في سبيل الله، في سبيل أن تكون ما أراده الله لك أن تكون.. في سبيل الوصول للتوصيف الوظيفي الذي "عينت" - إنساناً - على أساسه..

الجهد قد يبذل في فكرة مبدعة. قد يبذل في عرق البناء.. في التخطيط.. في التنظير.. في حسن الخلق.. في تربية أبنائك.. في تربية أبناء الآخرين أيضاً..

كل عمل يصب زخمه بنية تحقيق إرادة الله، هو جهاد حتماً، صغر أو كبر، ما دام قد وجد مجرى ليصب فيه جهده ونتيجته.. والمجاهدون، والمجاهدات، يحق لهم أن يستريحوا أحياناً..

يحق لهم..؟؟

لا، إنه ليس مجرد "حق" يمكن لهم أن يطالبوا به ويمكن أن يتنازلوا عنه..

إنه أكبر من ذلك..

قد تكون تلك الجلسة ليست فقط استراحة "المجاهد"..

إنها جلسته الحتمية - الواجبة - التي يقوم فيها جهده

وجهاده، مرة يقوم بها وهو بعد في منتصف الطريق.. في الركعة الثانية، ومرّة يقوم بها وقد أشرف على الانتهاء، وتكون جلسته تلك بمنزلة نقطة النهاية، - كما لو أن الحصاد الحقيقي، لا يتم إلا بتقويم حسابات الحقل والبيدر..

في تلك الجلسة، حيث يستريح المجاهد، تلتحم النهاية بالبداية، والحقل بالبيدر، والمعايير بالنتائج..

في تلك الجلسة نقف، لنرى إن كان للقيام معنى القيام، وإن كان الركوع خضوعاً بالعقل، والسجود خضوعاً متمماً لخضوع العقل خضوعاً كلياً يتحد فيه الإنسان مع الطبيعة، مع الخلق كله.. في ذلك السجود الكلي الشامل لله عز وجل..

إنها استراحة المجاهد، مثل ربوة يصل إليها بعد طول جهد.. يشرف منها على ما قطعه من رحلته، ولكن يشرف منها أيضاً على هدف رحلته، على ما لم يقطعه بعد من الطريق..

يقوم النتائج التي حصل عليها حتى الآن، ويلقي النظر على ما يجب تحقيقه..

وبين هذا وذاك، يسترق النظر إلى بعض ما وعد به..

إنها النهاية، التي تتجدد فيها البداية، وتشرق فيها روح الانطلاق من جديد.. و تتجدد فيها الطاقة من جديد.. لمواصلة الرحلة..

الطاقة المنبعثة من المفاهيم مجدداً، المفاهيم التي تنحت عبر تلك الكلمات..

الكلمات التي تبدو كالكلمات: أحرفاً، وأصواتاً..

لكنها، أبداً ليست كالكلمات..



الفصل الأول

التحيات..حياة "أخرى"..

طالما عاملنا "التحيات" على أنها تشبه الطريقة التقليدية التي نلقي فيها "التحية" أو "السلام" على شخصٍ جئناه أو جاءنا.. والتحفظ هنا لن يشمل فقط تشبيه "الشخص"، تعالى الله عن كل شبه، ومقاربة، ولكن يشمل "التحية" و "السلام" أيضاً، فالمفهوم المتداول الآن يقزم المعاني العملاقة.. المعاني الأصل.. ويضعها داخل قوالب ضيقة.. فتكون مقيدة مثل مارد في قمقم..

لكن مع الصلاة، ومع تلك الكلمات التي تنحت مفاهيمَ جديدة لابد لنا أن نعود إلى الجذر، إلى الفهم الأساسي..

من أجل أن نكسر القمقم..

ونسمح للمارد بالانطلاق..

بالأحرى: نسمح لأنفسنا أن نكون ما يجب أن نكونه..



ولو افترضنا أن "التحيات" هي "تحية" بالمعنى التقليدي للكلمة.. فالسؤال سيكون: لماذا الآن؟.. لماذا قرب

النهاية.. لماذا ليس عند البدء؟.. لماذا ليس في السجود، والعبد يكون أقرب ما يكون لله في سجوده؟..

لماذا "التحية"، إذا كانت مجرد "تحية".. تكون في النهاية؟..

.. لابد، إذن، أنها ليست "تحية" بالمعنى التقليدي..

بل "تحية"، في معناها الأعمق، الأكثر جذرية..



التحية في أصلها مشتقة من الفعل "حيى".. وقد تعني في صيغتها هذه "الدعاء بالحياة"..

ولو تعاملنا مع التحية، على أنها دعاء بالحياة، لوجدنا ذلك ينسجم مع تحيتك لجارك أو صديقك أو أي عابر سبيل شاهدته في الشارع عَرضاً..

لكن "دعاء بالحياة"، للحي القيوم؟.. دعاء بالحياة، لخالق الحياة؟.. للحي الذي لا يموت؟..

مرة أخرى، لابد أن الأمر ليس بهذا الشكل المباشر..



لكن الدعاء بالحياة، في هذا الموضع بالذات، قرب النهاية، يذكرنا بشيء آخر، كان قد سبق حتى البداية..

شيء آخر كان في جوهره المباشر دعوة إلى الحياة..

وكان قد سبق الصلاة، بمعنى أدائها.. إنه النداء للصلاة..

إنه "حيّ على الصلاة".. "حيّ على الفلاح"..

تلك الدعوة إلى الحياة، المرتبطة بالصلاة، والمرتبطة بالفلاح، في علاقة تتساوى فيها "الصلاة" مع "الفلاح"، مع الإثمار، مع الفوز..

ليست مجرد حياة بيولوجية إذن.. تلك التي دُعِيَ لها مع الأذان..

ولكنها حياة بمعنى أعمق، حياة يرتبط معناها بالفاعلية فيها.. بالإيجابية في محتواها، بكل ما هو بناء من القيم..

كان ذلك قبل الشروع..



كي لا ننسى الهدف..

والآن تأتي "التحيات"، قبل الوصول إلى النهاية، كما لو أنها تذكرنا بالبدايات، بنقطة الانطلاق، بمحفزاته.. كما لو أنها تضع نصب أعيننا "هدفاً" أساسياً كي لا نحيد عنه.. كي نحتفظ بالمعنى ونحن نقوم بالأداء.. فيقوم "المعنى" بعملية تقويم ذاتي، وترميم دائم..

دعوة الحياة الأولى، في "حيّ على الصلاة".. لم تحدد مباشرة اتجاه هذه الحياة..

أما هنا، قبل النهاية، فالأمر يرتبط بالبداية ويصير أكثر وضوحاً..

ويشرق معنى هذه الدعوة إلى الحياة، بجعلها مرتبطة بالله..

"التحيات" لله..

التحية، على وزن الترضية، والتسمية، تشتق من "حيّ" هذا الفعل الذي يوحي بالإصرار على فعل الحياة ..إنها "حياة" مع سبق الإصرار والترصد، لكنها ليست أي حياة.. ليست "حياة فحسب" ..بل هي الحياة لله..

إنها مرة أخرى، تكريس وتصديق لما رددناه في البداية، مع طلب الفتح، في الاستفتاح ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: ١٦٢/٦] كما قالها إبراهيم أولاً، التي صارت بمنزلة منصة ننطلق منها إلى الصلاة..

وهي، مرة أخرى، استجابة لتلك الدعوة إلى الله، التي حملها لنا القرآن..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤/٨]..

.. إذا دعانا لما يحيينا..

نحن موتى في تلك الحياة البيولوجية المفرغة من الهدف الأمثل والمعنى الأقوم؛ موتى في تلك الحياة التي نمطها هو المزيد من التسوق والمزيد من "تكاثر" الأموال والسلع..

أما تلك الحياة "الأخرى".. التي يدعونا إليها الله ورسوله، فهي "حياة مختلفة" ليس بينها وبين الحياة الأخرى صلة قربى حقيقية، فقط هناك ذلك التشابه في الأسماء..

وهناك بين الحياتين، ذلك الجسر الذي يمكن أن يصل

بينهما، يمكن عبره أن ننتقل من حياة خامدة رغم بهرجها وأضواء الإعلانات المسلطة عليها، إلى حياة خلقنا من أجلها، وصُمِّمَ كل ما فينا لكي يحيا هذه الحياة.. ويكون عبرها وتكون عبره..

ما هو هذا الجسر، بين الحياتين؟..

إنه الصلاة ذاتها.. ليس الحركات فقط.. ولا المعاني فقط ..بل حزمة المعاني والمفاهيم ومنظومة القيم المرتبطة بكل كلمة وكل حركة وكل سكون فيها..

الجسر هو هذه الصلاة؛ الصلوات الخمس التي نؤديها في اليوم والليلة، لا من أجل إسقاط إثم تركها، ولكن من أجل أنها تهيئنا وتدربنا على ولوج تلك الحياة الحقيقية.. على أن نحياها ونكون جزءاً منها ونصنعها أيضاً..



سيترك لنا اختلاف المفسرين في تأويل "التحيات لله" تلك المسافة الصغيرة التي نستطيع المرور من خلالها إلى الكون الشاسع من المعاني والمفاهيم، التي تتسق مع بعضها بعضاً.. معان، يشرق فيها، ومن خلالها، معنى أن تكون الحياة لله..



ولن يكون ذلك إقصاءً لما قاله بعض المفسرين، من أن التحيات هي "السلام"..

إنما هو محض تأجيل..

..و "الصلوات الطيبات"..

تعودنا أن نعامل هذا المركب اللفظي، باعتباره "ثناء" على الصلاة التي يجب أن تؤدى لله عز وجل..

لكن - ربما - هناك معان أعمق من مجرد الثناء في هذا المركب اللفظي المزدوج..

ربما يكون هناك ما يرتبط بالتحيات التي قبلها..

وبكل المعاني في منظومة التشهد والصلاة الإبراهيمية..

❖ ❖ ❖

لا ترد لفظة الطيبات وهي تصف الصلوات، أو الصلاة، في القرآن الكريم..

وقد يكون هذا باعثاً على الدهشة للوهلة الأولى.. ولكنه قد يكون مقصوداً أيضاً، في الوهلة الثانية..

ربما يكون مقصوداً أن نفهم معنى هذا "التركيب" بأنفسنا، أن ننتبه للعلاقة بين "الطيبات"..

والصلاة..

وهو أمر سنكتشف أنه أعمق بكثير من أن تكون الصلاة "مُطيبة".. أي مضمخة بالطيب.. أي بالعطر..

تدرج المعاني إلى الأفق الأعلى

هناك طيف واسع من الاستخدام القرآني لكلمة "طيب" ومشتقاتها.. وهو طيف متناسق على سعته، وسيصب بكل تدرجاته في معنى واحدإلى أن يصل إلى الصلوات الطيبات..

هناك ضمن هذا الطيف، الطيب كإنسان، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ٣/١٧٩]..

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٤/٢٦].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٨]..

وهناك الكلمة الطيبة، كتعبير لفظي عن "المفهوم" الطيب أو المعنى الطيب..

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/٢٤]..

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٥/١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٤]

وهناك، بكم أكبر، واستخدام أوسع، الطيب باعتباره "المأكل" الحلال..

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٥/٨٨]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٧٢]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥١]..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ٢/١٦٨]..

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٥/٨٨]..

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٨/٦٩]..

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/١١٤]..

- هذه هي الاستخدامات الثلاثة الرئيسية لمفردة "الطيب" ومشتقاتها.. الإنسان، المفهوم، (المأكل)..

فكيف نربطهم معاً؟.. لنصل إلى قلب المعنى الذي يوضح لنا "الصلوات الطيبات"؟..

❖ ❖ ❖

المعنى يتولد أولاً في الأشياء المادية المجسمة.. وهذا يجعل من الآيات التي تحدثت عن "المأكل" هي الأساس في الفهم، والمدخل لفهم كل الآيات..

"المأكل" المقصود هو الثمر، النبات.. وكذلك المنتج الحيواني.. ما دام مأكلاً حلالاً..

ومن المؤكد أن الاصطلاح قد توسع ليشمل ما هو حيواني المصدر، لكن اللفظ في الأصل، كان يقتصر على المنتج النباتي..

من أين جاء هذا الاقتصار..؟

من القرآن نفسه..

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨/٧]..

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧/٢]..

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤/١٤]..

فالقرآن الكريم حدد في غير موضع، صلة واضحة بين "الطيبات" و "الإنبات".. صلة لم تتكرر مع ما هو حيواني الأصل والمنشأ.. مع أن المصطلح توسع ليشمل ما هو حيواني حتماً..

ويتفق ذلك مع المعنى المعجمي لكلمة "طيب"، فهي في لسان العرب: الطيب نقيض الخبيث، ويقال: الأرض الطيبة: التي تصلح للنبات..

التي تصلح للنبات..!

نضع خطاً تحت هذا ونقف عنده..

يصلح للنبات يعني أنه خصب.. أنه مثمر.. أن عنده - على الأقل - **قابلية كامنة للإثمار**..

نضع خطاً كبيراً، بل عدة خطوط، تحت هذا المفهوم.. ومنه، نعود أدراجنا إلى كل آيات الطيبات، بتصانيفها المختلفة، لنفهمها من جديد..

الإنسان الطيب؟.. الذرية الطيبة؟.. لا يرتبط الأمر الآن بإنسان يسير بالقرب من الحائط، وبذرية تقدم السمع والطاعة، ولا تتقن أكثر من احترام الأب وتقبيل يده..

الآن صار الأمر مرتبطاً بإنسان مثمر، إنسان منتج، إنسان مليء بالإمكانيات الكامنة التي يمكن أن تغير العالم، عبر ثمرة مختلفة، قد تنقذ البعض من الموت جوعاً، وقد تنقذ آخرين عبر دواء كامن في هذه الثمرة..

الهدف هو أن تثمر

و "الطيب من القول"، و "الكلمة الطيبة"، كذلك تعبير عن قول مثمر، عن كلمة "مثمرة"، عن مفهوم خصب ومثمر، عن مفهوم يجسد معنى الإنبات والإثمار والخصب..

وهكذا الآن، نفهم معنى أن يكون البلد طيباً ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥]..

وأن تكون الريح طيبة ..﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ١٠/٢٢]..

الريح هنا ليست "اللينة التي ليست شديدة" فحسب، بل هي التي تثمر توجيهاً لشراع السفينة، ريح يمكن استثمارها للوصول إلى البر.. ريح يمكن أن تحمل "لقاح" الخير، كجزء من تفاعل الإنبات..

.. ويمكن لذلك كله أن يكون جزءاً من تفاعل متسلسل ومتداخل ..تفاعل "طيب" بهذا المعنى العميق المثمر للكلمة..

القول "الطيب" الذي يتفاعل مع الإنسان، فيصير

الإنسان "الطيب".. الذي يترك فرديته ليصير مجتمع "الطيبين للطيبات".. ومجتمع "الذرية الطيبة".. الذي سيكون، "البلدة الطيبة".. وخلال ذلك كله، ستنشأ تلك الريح..

الريح الطيبة..

قد يسمونها أحياناً.. "رياح التغيير"..



ولذلك، سيكون منطقياً جداً، أن يكون استقبال خزنة الجنة، لمن يستحق دخول الجنة، ممهوراً بهذه الجملة الموحية ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/٧٣]..

لقد "طبتم"، كنتم طيبين، كنتم مثمرين.. في حياتكم الآنفة.. كنتم جزءاً من تفاعل مثمر..

والآن تستحقون الخلود، في الجنة..

عطر في قارورة النهضة

وسيكون منطقياً أيضاً، ومتسقاً مع كل ما سبق، أن يكون هناك للذين آمنوا وعملوا الصالحات، جائزة ما، فسرت دوماً أنها شجرة في الجنة، واشتق اسمها أيضاً من الفعل ذاته الذي فعلوه واستحقوا به الدخول إلى الجنة..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ١٣/٢٩]..

وذلك كله، سيجعل أذهاننا تتذكر أن الطيب، بتسكين الياء، هو العطر أيضاً..

ليس في ذلك "خروج" عن المعنى الأصلي.

فللإثمار رائحته أيضاً: رائحة نضوج الثمر..

كذلك "الإثمار" على كل الأصعدة.. الفكر المثمر، الذي يؤدي إلى الإنسان المثمر.. الطيب.. له رائحة مميزة أيضاً، كرائحة الطيب..

ربما يشبه أحياناً رائحة العرق.. لكنه عرق، من أجل الإثمار، من أجل البناء..

إنه عرق النهضة..

لا يشبه أي عرق آخر..

وعطره، أكثر نفاذية، من أي عطر آخر..

الصلاة هي سماد ذلك الإثمار

أين "الصلوات الطيبات" من كل هذا؟..

في الصميم طبعاً..

فالصلاة، في وظيفتها، في بنيتها التكوينية، من النية إلى التسليم، تهدف إلى جعلنا مثمرين، إلى جعلنا أفراداً وجماعة نقوم بأداء ما هو مطلوب منا. الصلاة، دورة تدريبية نخوضها من أجل إعادة تشكيل أنفسنا لنكون أكثر فاعلية، لنكون أقرب إلى أنفسنا، على الأقل أقرب إلى أنفسنا كما أرادها خالقها أن تكون.. أقرب إلى تلك القمة التي وضعنا الله فيها، والتي يختار بعض البشر، اختياراً، أن يتركوها، ليجعلوا من الدرك الأسفل عنواناً دائماً لهم..

"الصلوات الطيبات".. هي وسيلتنا إلى ذلك الإثمار.. وسيلتنا إلى أن نتمكن من استثمار كل الخصب الكامن في داخلنا.. بها نتفاعل ومع أنفسنا، يتداخل كيمياؤها في كيميائنا، فنصير جزءاً منها، وتدخل عبر التفاعل المزدوج هذا في معادلة الحضارة.. معادلة الإنسان الفاعل..

جوهر الصلاة هو ذاك؛ وهو متجسد في كل كلمة، كل حركة منها: من النية إلى الوضوء، إلى اتخاذ القبلة، إلى تكبيرة الإحرام، إلى الاستفتاح، إلى فاتحة الحياة، إلى وضع اليدين، إلى الركوع، إلى السجود، كل ما فيها يهدف إلى ذاك، ولا انفصال بين "الهدف" وآلية تحقيقه، لا يمكن لهدف أن يتحقق بمعزل عن هذه الصلوات، بالضبط كما لا يمكن أن نتوقع لثمرٍ أن ينمو بلا أرض صالحة لإنباته..

هذه هي الصلوات "الطيبات"..

.. إنها ما يجعلنا نثمر..

هل هناك صلاة غير طيبة؟

لكن هذا المركب المزدوج "الصلوات الطيبات" سيقودنا إلى احتمالين لا أجد لهما ثالثاً..

إما أن يكون وصف الطيبات هنا زائداً، بمعنى أن كل صلاة لابد أن تكون طيبة.. أو أن هناك نوعاً آخر من الصلاة، هي ليست طيبة.. اسمحوا لي أن أزعجكم قليلاً، أو كثيراً، وأزعج نفسي أيضاً.. فأدعي أن هناك نوعاً

ممارساً على نطاق واسع من الصلاة، لا يمكن أن يسمى، أو أن يدخل ضمن مفهوم "الصلاة الطيبة".. أو المثمرة..

هناك ممارسة للصلاة، لا تجعلها مثمرة، لا تسهم في جعل المصلي الذي يؤديها شخصاً أكثر فاعلية أو إثماراً..

وهذه لا يمكن أن يطلق عليها، صلاة طيبة..



واسمحوا لي أن أزعجكم، ونفسي، أكثر.. فأقول: إن هناك أداءً للصلاة لا يكتفي بعدم الإثمار.. بل يتجاوز ذلك إلى نقيضه الذي لا أريد أن أسميه..

كيف؟..

يحدث ذلك عندما تؤدىٰ الصلاة لمجرد إسقاط الفريضة، تؤدى فقط تكفيراً لما بينها من ذنوب، فتكون سبباً لتراكم الذنوب.. تؤدى لتكون تبريراً للإبقاء على الوضع على ما هو عليه.. بحجة أن فعل "الصلاة" بحد ذاته، أفضل من "لا شيء"..

عندما يكون: "إنني على الأقل، أفضل من غيري، لأنني أصلي"..

عندها ستكف الصلاة عن أداء دورها التدريبي - التحفيزي على إنشاء إنسان أفضل يبني عالماً أفضل..

بل ستكون، على العكس: تقوم بمهمة إبقاء الوضع على ما هو عليه، وهذا لن يكون "طيباً"..

بل العكس!..

وبين حياة لله (مع سبق الإصرار والترصد) وصلوات طيبات هي لله أيضاً، علاقة وطيدة، ذلك أن حياة كهذه يجب أن تكون حتماً، وبالتعريف: "حياة طيبة".. بالمعنى الأصيل للكلمة، وليس بالمعنى الذي تركب في أذهاننا عن حياة مترفة مترعة بالسلع والملذات.. كما تروجها ثقافة الإعلانات التجارية وتزرعها في عقولنا..

"حياة طيبة" هي الحياة التي تملك المعنى والهدف، وتعمل على جعل الحياة أفضل، والأرض وعاءٌ أفضل لحياة طيبة تحياها الأجيال القادمة..

حياة طيبة، الطريق إليها لابد أن يمر بمنظومة الإيمان والعمل الصالح المنسجم مع ثوابت هذا الإيمان وقيمه..

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٩٧]..

الجزاء أخروي بالتأكيد..

أما الحياة الطيبة، - لنتذكر: طبتم - فهي قد تكون هنا، في الأرض.. حياة طيبة: ليست ببطاقة الائتمان الحديثة.. ولا بالسيارة من الطراز الأحدث (وإن كان ذلك لا يتعارض بالضرورة)..

لكن بجعل هذا العالم أفضل.. أقل تناقضاً.. أكثر عدالة..



النور بعد المنعطف

بعد الصلوات الطيبات بالضبط، سيكون هناك منعطف.. منعطف مهم وحاد، وإن كان جزءاً أساسياً من الطريق، وإن فتحت عينيك جيداً، فإن **النور بعد المنعطف سيبهرك ويغمرك حتى نخاعك..**

أما إن كان الصدأ والكلس قد غطى على بصرك وبصيرتك وقلبك وعقلك، فإن النور سيمر أمامك كما لو كان ضوءاً صادراً من أنبوبة نيون باهتة..

بعد المنعطف، بعد التحيات والصلوات، ستكون هناك، وسيكون هو أيضاً هناك..

سينبعث النور، والدفء، من حضوره الكريم..

بعد المنعطف، وفجأة، سيشهق القلب بجذل فرحاً بلقائه هناك.. لا يسأل أحد من هو..

إنه الذي "نسلّم" عليه بعد الصلوات الطيبات..

إنه النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام..



وهو منعطف لأنها ستكون المرة الأولى في الصلاة، التي سيأتي فيها ذكره الكريم بشكل مباشر..

كان هناك في النداء للصلاة، الأذان، الشهادة طبعاً..

لكن ضمن الصلاة نفسها، ومن لحظة تكبيرة الإحرام والدخول فيها ركناً تلو آخر.. لم يكن هناك ذكره

الشريف، بشكل مباشر.. كأن هناك - بالتأكيد - حقيقة أن كل حركة وسكنة وحرف نقوم به، إنما نقوم به اقتداءً به عليه الصلاة والسلام، إطاعةً لقوله ﷺ "صلوا كما رأيتموني أصلي".. لكن التشرف بذكره الكريم لم يحصل، إلى لحظة هذه المنعطف، في جلسة استراحة المجاهد..

لماذا الآن.. لماذا ليس قبلها؟..



لماذا ليس قبلها؟..

لأن كل ما فات من الأركان كان موجهاً إلى الله عز وجل، القيام كان امتثالاً لأمره بأن نقوم له، والركوع كان إعلاناً بخضوع العقل الإنساني لعظمته وإعلانه الاستسلام والكف عن محاولة تجاوز الحدود نحو الكنه الإلهي الذي لا يمكن اقتحامه.. وتوجيه العقل إلى ما يجب توجيهه له، والسجود كان خضوعاً شاملاً، بكل ما هو نحن، باتحاد مع الطبيعة والخليقة، للواحد الأحد الذي ينفرد بالاستحقاق للسجود..

كل هذه الأركان موجهة له عز وجل، وأي ذكر "مبكر" للرسول الكريم كان سيورث خللاً في إطار العلاقة الأساسية بين العبد وربه.. وهو الأمر الذي تمادت فيه بقية الأديان طولاً وعرضاً، ولكن لأنه الدين الخاتم الذي وضع نقطة النهاية على كل الرسالات السماوية، فإن خلطاً كهذا لن يكون له مكان في الصلاة، التي هي عماد الدين.. حدثت أخطاء أخرى في أماكن أخرى، حدث خلط

في مفاهيم أخرى، وانزلق بعض المسلمين إلى غلو في الرسول الكريم كان قد نهى عنه عليه الصلاة والسلام، لأنه أدرك - بمفاتيح الحكمة التي أوتيها - أن منزلق الغلو هو مقتل كامن لفعالية الشخصية التي يحدث فيها هذا الغلو؛ أي تحويلها من "قدوة" تعلم الآخرين وترشدهم وتتفاعل معهم بسيرتها وحكمتها، إلى "أيقونة" مقدسة مؤطرة بإطار يمنع أي تفاعل حقيقي بين القدوة والمقتدي، والعلاقة الوحيدة الممكنة في حالة الغلو هذه هي التقديس والثناء دون إمكانية الاقتداء الفعال..

حدث هذا فعلاً للأسف في بعض عقائد بعض المسلمين، تسرَّب إليها؛ ربما بسبب الجمود وربما بسبب التقليد وربما بسبب العجز عن الفهم الأعمق والأقصى لعقيدة التوحيد.. لكنه حدث..

لكن ليس في الصلاة..

ظلت الصلاة بمنأى عن ذلك الغلو..

ظلت تعبر عن ذلك الحد الفاصل الذي لا يمكن تجاوزه إلا بالخروج من الدين ربما..

ظلت أركان الصلاة الأساسية الثلاثة (القيام، الركوع، السجود) موجهة لله عز وجل.

وسيأتي النور المنبعث من ذكره الشريف، في اللحظة التي يجب أن يأتي هذا النور..

ليس قبل..

وبالتأكيد ليس بعد..

الوضعية الأمثل للقائه..

فلماذا الآن..؟

لأن هذه الوضعية، بفيزيائيتها ومعانيها، تعبر خير تعبير عن العلاقة بيننا وبينه عليه الصلاة والسلام.. كما كانت الأوضاع السابقة، تعبر عن علاقتنا به عز وجل..

تلك الجلسة، التي تشبه استراحة المجاهد، تعبر بالضبط عما يجب أن يكون بيننا وبينه: إنها جلسة التلقي، جلسة التعلم، هكذا كان يجلس الطلاب في جلسات العلم، وهكذا كان يتحلق التلامذة حول أستاذهم، وهكذا نجلس نحن، لنتلقى الحكمة من معلمها الأول..

ليس من انحناءة في هذه الجلسة، ليس من شيء فيها يقارب ذلك، أو يقترب من الركوع أو أي مظهر آخر من مظاهر التعبد والتقديس.. هنا الجلسة جلسة تعلم واحترام.. هنا الجلسة نتعلم فيها منه، ونستشعر أنه جالس معنا، أمامنا، ونحن نتحلق حوله، صفاً تلو صف تلو صف..

وفي جلستنا تلك على الأرض من الحميمية والقرب منه، ما لا يمكن أن يوجد في وضعية أخرى.. إنه الجلوس المشترك على أرض واحدة، نحن وهو، والأرض الواحدة تضمنا معاً، وتكون أكثر من مجرد أرض.. تكون أرضية مشتركة، تكون قاسماً مشتركاً نستخدمه كإرثنا الأغلى، تلك الأرض التي نجلس عليها معاً، تضم الثروة الأغلى من كل مورد خام يمكن أن يوجد في باطن الأرض..

ثروة: أن تكون لديك فرصة للتعلم منه..

وها نحن أولاء نجلس تلك الجلسة، كرمز دائم لإمكانية حدوث ذلك دوماً.. بل لما يجب أن يحدث دوماً..

أن نجلس هناك، في استراحة المجاهد، لنأخذ منه منبع الحكمة وخطوطها، لنتعلم منه ما يجب أن نفعله عندما نكون في ذلك الزلزال، أو تلك العاصفة، لن يقول لنا مباشرة أبداً؛ لأن ذلك قد يفسد الغرض من الجلسة بأكملها.. قد يفسد فحوى التعلم بتحويله إلى تلقين..

لذلك سيكون التعلم دوماً بشكل غير مباشر عبر أخذ المثل من رحلته هو، عليه الصلاة والسلام.

انتهى زمن الأجوبة المباشرة، واستراحة كتلك، ستتجاوز المباشرة والتلقين إلى جوهر التعلم الحقيقي..

وضعية الجلوس تلك هي التي تؤطر ذلك كله؛ تضع النقاط الأساسية في علاقتنا به عليه الصلاة والسلام. بالأحرى: لما يجب أن تكون عليه علاقتنا به..

المعاني مجسدة في إنسان حقيقي

ولماذا الآن..؟

لأن التحيات والصلوات الطيبات قد سبقت ذلك بالضبط، فصار لابد أن تحدد وتربط بوجود إنساني، بشخص جسد ذلك كله.. أي حديث عن الحياة الحقيقية، والصلاة المثمرة، يمكن أن يكون مجرد حديث إنشائي لا أساس له من الصحة، ما لم يثبت بالبرهان القاطع أن إنساناً ما، من كوكب الأرض! قد تمكن من فعلها.. قد

تمكن من إنجاز تلك الحياة التي هي لله؛ وجعل من صلاته وسيلة عبور ناجزة إلى الضفة الأخرى: ليس عبوراً فردياً؛ بل نقل معه مجتمعه وأمته بأسرها..

كل الحديث عن الحياة الطيبة، يكون محض نظرية، مجرد احتمال، مجرد شيء قد يكون وقد لا يكون، ما لم يكن هناك إنسان قد اخترق ونجح في ذلك..

ولأنه وحده قد نجح النجاح الأقصى، من بين كل الأنبياء والرسل، فإن ذكره الشريف، عليه الصلاة والسلام، سيأتي هنا تحديداً لأول مرة..

"السلام عليك"..



كل الاحترام الواجب لكل الأنبياء والرسل أولئك الذين نعرف والذين لا نعرف..

لكن "خاتم النبيين" - لم يكن خاتماً لهم اعتباطاً.. حاشاه، وتنزهت حكمة الله عز وجل عن ذلك..

لكنه صار خاتمهم، وإمامهم، لأنه - وحده - تمكن من ذلك.. من اختراق حاجز الواقع، وإنزال النظرية من الرؤوس، والقلوب.. إلى أرض الواقع..

وحده، عليه الصلاة والسلام، من بين كل الأنبياء، عليهم السلام جميعاً، تمكن ليس من اختزال التجربة النبوية بأسرها فحسب؛ بل من إيصالها إلى هدفها.. إلى تمامها، إلى ذروة نضوجها.. واكتمالها ..متميزاً عن جميع الأنبياء..

من القاع إلى القمة

كل الرسل والأنبياء يمكن تلخيص منجزاتهم وإسهاماتهم بواحدة من اثنتين:

إما أنهم انطلقوا مع أقوامهم من نقطة الصفر، من حيث الكفر، والرفض والصدود، وتمكنوا من كسب بعض المؤمنين، وإخراجهم من مجتمع الصفر والوعيد والانهيار، لكنهم لم يتمكنوا من إنشاء مجتمع آخر بديل.. لم يتمكنوا من تحقيق الهدف الأسمى: هدف البناء.. أو أنهم من جهة أخرى، تمكنوا فعلاً من الوصول إلى هذا الهدف، وحققوا العدالة والحق في مجتمعاتهم، لكن ذلك لم يكن إلا إنجازاً تراكمت خطواته بعضها فوق بعض؛ أي إن المجتمع أصلاً لم يكن في نقطة الصفر، كان مجتمع إيمان في الأصل، ربما احتاج إلى إصلاح، إلى ترميم، إلى تقويم..

إلى الفئة الأولى يمكن أن نضم أنبياء مثل نوح، لوط، هود، صالح، وأسماء أخرى كثيرة ومهمة؛ لكنها لم تصل إلى الهدف، انطلاقاً من نقطة الصفر..

الفئة الثانية أصغر وأقل عدداً، تضم أولئك الذين تمكنوا من قيادة وتزعم مجتمعاتهم مثل: سليمان وداوود، ويوسف..

وحده عليه الصلاة والسلام، جمع بين الأمرين، بين الانطلاق من مجتمع كان في نقطة الصفر، كان في القاع،

كان في عداد العدم، وينشئ مجتمعاً جديداً بديلاً عن مجتمع الصفر ولا يتركه بذرةً، لا يدعه مجردَ جنين.. بل يصل به إلى ذروة اكتماله ونضجه؛ مجتمع حقيقي قوي ومتماسك وفاعل ..**مجتمع يجسّد الحضارة الحقيقية بدلاً من التغني بها..**

وحده، النبي الخاتم، استطاع ذلك.. في رحلة حياته التي لم تتجاوز معدل عمر الإنسان العادي، من الصفر إلى القمة..



نوح، مع قدره ومكانته ودأبه وإصراره، استطاع أن يبني السفينة، لكن ليس المجتمع البديل، كانت سفينته قارب نجاة وصولاً إلى بر الأمان، لكن إنشاء المجتمع الآخر، وتمكينه من تحقيق أهدافه، هو ما لم يدخل ضمن ما حققه نوح..

موسى أيضاً، على الرغم من حجم قصته في القرآن، ومع مواجهته لأعتى طغاة عصره، وتمكنه من إنقاذ قومه من ظلمه واستعباده لهم، إلا أن مجتمع الميعاد لم يتحقق، الخروج تحقق، لكن ليس الدخول إلى أرض الميعاد - مجتمع الميعاد.. مات عليه السلام قبل أن يصل إلى هناك..

السيد المسيح أيضاً، عيسى ابن مريم عليه السلام، ومن باب أولى، كانت مهمته إصلاحية داخلية في طبيعتها، واصطدم فوراً بعقلية الكهنة والفريسيين التي رفضت أن

ترى الروح في غمرة انشغالها بالتفاصيل.. وكان أن أحبطت مهمته مكائدهم وحيلهم.. ورفع عليه السلام دون أن يرى ما جاء لينجزه..

حتى سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، الذي جعله عز وجل "إماماً للناس".. حتى إبراهيم.. وضع حجر الأساس للحضارة الأخرى وللمجتمع البديل..

لكنه لم يرَ البناء قد علا.. ولم يرَ البذرة وقد صارت نباتاً مثمراً..

وحده محمد، عليه الصلاة والسلام، أنجز في حياة واحدة ما يستغرق آخرون عدة أعمار للتخطيط له،فضلاً عن إنجازه..

وحده محمد، جعل من تلك المهمة تصير "غير مستحيلة"، وعمل على "ملكوت الواقع"، وليس على الملكوت الافتراضي، فصار "العالم الجديد ليس ممكناً" فحسب بل حقيقة واقعة، وصار للمعاني بناؤها الفيزيائي الذي يجسده الإنسان وليس يمر فكرة في باله..



والحديث سيكون من باب أولى عن القادة والزعماء، على ما في المقارنة من تجاوز.. فكل من يوصفون بأنهم غيروا التاريخ، لم يتمكنوا أبداً من إحداث ما أحدثه عليه الصلاة والسلام..

هناك منهم من استطاع فعلاً إيصال مجتمعه إلى مراحل متقدمة، لكن ذلك لم يكن قد بدأ من نقطة

الصفر الحضارية التي بدأ منها عليه الصلاة والسلام، وإنما تراكم وإكمال لمسيرة بدأها آخرون..

وحده عليه الصلاة والسلام، انطلق بمجتمعه من القاع وأعاد تكوينه وتركيبه ليصل به إلى القمة..

وربما كان هذا من الأسباب التي جعلته "خاتم النبيين"..

وربما كان هذا كله ما يجعلك لا تكف عن محاولة إخراج مجتمعك من القاع.. مهما بدا ذلك عبثياً للوهلة الأولى والثانية والعاشرة بعد الألف..



وللتوضيح..

فمع أن المسيرة الإبراهيمية لم تكتمل إلا مع وريثها الشرعي الوحيد عليه الصلاة والسلام؛ إلا أن محمداً قد بدأ من الصفر، لأن أي أثر حقيقي، أي تراكم عملي لإبراهيم وإرثه لم يكن قد بقي في المجتمع الجاهلي.. فليس من الممكن اعتبار أنه انطلق من النقطة التي توقف عندها إبراهيم، كما حدث مع إسماعيل وإسحاق ويعقوب مثلاً.. ذلك أن الجاهلية كانت قد محت كل نقطة يمكن مواصلتها..

من القاع.. من الصفر.. إلى القمة..

الثلاثية المتلازمة: السلام- الرحمة- البركات

وعندما يغمرنا ذكره الكريم، بعد ذلك المنعطف، فإن ذلك لا يكون إلا عبر ثلاثية متلازمة، نسيء دوماً فهمها،

ونختار سطحها الأقرب لكي تقف أفهامنا عليه، وننسى أن هناك أعماقاً أخرى قد تحتوي على مناجم وكنوز.. كل ما في الأمر أننا نستصعب الحفر والتنقيب ونستهولهما..

هذه الثلاثية هي السلام ورحمة الله وبركاته.. التي شكلت طريقة التسليم والتحية التقليدية السائدة والمتعارف عليها عندنا.. إنها مرتكزة، أولاً: على السلام، كرأس المثلث وأعلى جزء فيه، ومن ثم على رحمة الله، وبركاته..

فلنتنبه هنا إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام عن الأمر، عندما نهى عن قول "السلام على الله"؛ لأن الله هو السلام..

فالسلام هو اسم من أسماء الله تعالى، ولهذا لم ينسب إليه عز وجل كما حدث مع الرحمة، والبركات.. لأنه متماه معه، ولهذا نهى عنه عليه الصلاة والسلام عن توجيه "السلام" إلى الله، فالسلام لغة يعني "السلام من الآفات والنقائص"، أي الخلو منها، وعندما يستخدم كصيغة دعاء، فإنه دعاء من أجل الخلو من الآفات والنقائص، وهو أمر متناقض مع حقيقة أن الله - جل وعلا - خال ومتعالٍ عن الآفات..

لذا فهو دعاء موجه إلى الإنسان لكي يتخلص من هذه الآفات، وعندما يوجه إليه عليه أفضل الصلاة والسلام، فهو دعاء وخبر في آن واحد..

المهم أن معنى السلام، يدور حول هذا المعنى الذي يتفاعل فيه الإنسان مع ذاته، لغرض التخلص من آفاته

ونقائصه، قد يكون بعضها آفات إنسانية تماماً، موجودة ضمن الطبيعة البشرية وتناقضاتها، لكن الاستسلام لها هو الآفة الأكبر، ولذا فإنها يمكن أن تقتن، ويتحكم بها..

المهم أن السلام له معنى لا يمكن اختزاله بالمعنى السكوني الذي "سكنت" عليه أفهامنا، والذي يختصره البعض بتصويره أنه محض "لا عنف"..

السلام هو التخلص من الآفات، عملية التخلص هذه ليست بالضرورة تأملاً ذهنياً، وجهاداً داخلياً (على أهمية ذلك على المستوى الداخلي النفسي).. لكن الوصول إلى السلام على المستوى الخارجي، مستوى المجتمع والجماعات والأفراد في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً- قد يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك.. قد يتطلب صراعاً بين مؤسسات أو أفراد تمكنت منهم آفاتهم حتى صاروا هم آفات ينبغي استئصالها..

قد يشكل ذلك صراعاً أو صداماً أو تدافعاً..

وقد يكون هناك دم..

من أجل السلام، السلام الحقيقي الذي هو التخلص من النقائص والآفات.. قد يكون هناك بعض الدم، بعض العنف.. إنها طبيعة الأشياء..



ويشبه الأمر، تحضير أرضك للزراعة، لموسم قادم، بتنقيتها من الأعشاب الضارة التي ستعوق نمو النبات الذي تريده..

سيكون هناك قطع واستئصال من الجذر.. سيكون أمراً مؤلماً من وجهة نظر الأعشاب الضارة على الأقل..

لكنه لابد..



هذا هو السلام إذن.. عملية تتفاعل فيها النفس للتخلص من نقائصها، والمجتمع من آفاته..

ليس هناك في لسان العرب أي معنى يشير إلى المعنى "اللا عنفي" الذي يروج له حالياً؛ لكن الوصول إلى هذا المعنى يتطلب، ضمناً، القيام بالتخلص من كل ما سبق.. وكل الإشارات القرآنية إلى السلام، وإلى دار السلام، تندرج ضمن هذا المعنى الواسع الشامل، ربما لفظ "السلم" يقترب من المعنى اللا عنفي، لكن هذا اللفظ (الوارد ٦ مرات) جاء في سياق واضح عن الحرب واللا حرب، أما السلام الذي تجاوز استخدامه القرآني الأربعين مرة، فقد جاء في المعنى الإنساني الواسع، الذي يجعل من السلام عملية متعددة الأبعاد والآفاق، تهدف إلى التخلص من كل ما يعوق هدف هذا الإنسان..



و "رحمة الله" هنا، هي ثاني عنصر في المتلازمة الثلاثية، وهي أبعد ما تكون عن العطف المجرد، فالرحمة الإلهية التي كتبها الله على نفسه، وما كتب على نفسه سواها، هي بمنزلة الحاضنة الواسعة التي تضم البشر جميعاً، وتوفر لهم البيئة والمناخ اللازمين لإنمائهم

ونضوجهم.. طبعاً هناك بعض البشر ممن يرفض تلك الحاضنة، ويرفض الاعتراف بوجودها، لكن ذلك لن يغير من حقيقة وجود الحاضنة. والرحمة الإلهية، التي حاولنا المرور عليها في "الرحمن الرحيم" تغمر كوننا كله بالتوازن والتناسق والانسجام. لماذا لا يستطيع البعض أن يروها؟.. فضلاً عن أن تكون حاضنتهم التي ينمون فيها؟.. لأن "السلام" يأتي قبل الرحمة، وإذا لم تدخل السلام فإنك لن تتمكن من دخول الرحمة أو إدراكها، السلام يستأصل تلك الآفات التي تعزلك عن الوصول إلى الرحمة والدخول فيها..

لذلك كان السلام أولاً؛ كعملية تنقية للبذرة من الشوائب، قبل وضعها في "الرحم"..

حيث ستحمى، وترعى هناك..



وبعد أن توفر الرحمة الإلهية "الرحم" المناسب لحماية تلك البذرة التي نقيت عبر السلام، فإن الخطوة الثالثة، الحتمية والمحتمة، والتي هي المكملة والمتممة لسابقتيها: النماء والزيادة.. وهل هناك لفظ آخر يقتنص هذا المعنى - أكثر من بركات الله؟.. فبركات الله لا تشير إلى أي زيادة أو أي نماء؛ بل إلى زيادة مقتصرة على الخير وإنماء له، وهو الخير الذي نتج من الخطوتين السابقتين: السلام الذي تخلص من الآفات والنقائص، وولج رحمة الله كحاضنة له، ومن ثم.. نما، وزاد، وثبت..

إنها تلك البذرة التي نقتها عملية السلام من عيوبها، وأدخلتها في عالم التوازن والفرص، عالم الرحمة الإلهية التي تحيط بنا كما يحيط رحم الأم بالجنين ويوفر له الحماية والنمو..

ولكن نماءه الأكبر، و "زيادته" نوعاً وكماً ستكون عندما يدخل في الطور اللاحق..

إنها البركات: الضلع الثالث المتمم، التي ستعبر عن الازدهار والنمو المطرد، بل والثبات أيضاً على ذلك، فكلمة "برك" أيضاً تعني المكوث والإقامة والثبات.. وهذا كله، عندما يرتبط بالله، ليصير بركات الله، فإنه سيرتبط بقدرته على جعل هذه العملية كلها مثمرة، ومزدهرة ومستمرة..

إنها بركات الله التي ألقيت على مشروع أنقذ العالم من طوفانه، على نوح وهو يهبط من السفينة ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ١١/٤٨]..

إنه السلام أيضاً، ومن ثم البركات، وبينهما السفينة التي امتطت صهوة الرحمة الإلهية وتوازناتها..

والبركات هنا، عندما تنزلت على المشروع، فإنها انطلقت من الفرد، نوح، لتحل على الأمة بأسرها، الأمة التي تماهت مع المشروع البديل.. مع الرسالة البديلة..



تلك هي الثلاثية المتلازمة التي تشكل سلامنا

التقليدي، وقد فعلنا كل ما في طاقتنا لقتل كل المعاني الموجودة في كل كلمة.. وتسطيحها وتحويلها إلى مجرد معنى رديف لأي "تحية" بلغة أخرى..

السلام، والرحمة، والبركة..

إنها دورة حقيقية في الإنماء، بصيغة عبارة تقولها صباح مساء..

إنها حث على الدخول في ذلك التفاعل المثلث، الذي سيصير بهذا الشكل عملية مستمرة ومتداخلة، عندما تنتبه للمفاهيم المتضمنة فيها، للمعاني العميقة في كل كلمة، فإنك بالتدريج، سواء كان ذلك بوعي أم بلا وعي منك، ستتشكل، أو ستحاول أن تتشكل، حسب هذه الثلاثية المتلازمة..

لو كان هناك هذا الفهم لتلك الكلمات الثلاث لوجدنا أنفسنا دوماً نحاول أن نتخلص من آفاتنا.. ولجعلنا ذلك ندخل في ذلك التفاعل المتسلسل الذي ينتهي بالازدهار والإثمار..



فلنتذكر هنا، أن هذه الثلاثية المتلازمة - في السلام والرحمة والبركات - وجهت له عليه الصلاة والسلام.. وكان هذا هو المنعطف الذي غمرنا فيه بالنور المنبعث من حضوره الكريم.. ودعاء "الثلاثية المتلازمة" هذا، هو دعاء يستخدم مع الجميع، كدعاء لأن يصلوا لنتيجة هذا التفاعل، لكن هذه الثلاثية عندما توجه له عليه أفضل الصلاة والسلام تكون خبراً بصيغة الدعاء.. فهو قد

"جسد" كل ذلك التفاعل، وتمكن من أن يتخلص من آفات ونقائص البشر، ولهذا فقد وصل للمكانة التي وصلها.. ونحن هنا، في هذه الجلسة (الافتراضية) معه، ومع ذكره الشريف، لكي نتعلم منه بالذات كيف نكون جزءاً ولو بسيطاً مما كان عليه (عليه الصلاة والسلام).. من ذلك التخلص من الآفات والنقائص البشرية، الذي يسمونه السلام، والذي سيجعلنا ننمو ونزدهر ونثمر..

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته..



السلام علينا ؟

ثم إنه السلام علينا..

وقد يصلي كل منا منفرداً - في جوف الليل أو جوف العزلة - لكن السلام سيكون بهذه الصيغة التي تكرس (كما في سورة الفاتحة) **حقيقة أنك جزء من جماعة، وأن كونك فرداً يجب ألا يلغي كونك جزءاً من مجتمع..** وصيغة السلام هنا توحي بأن النجاة الفردية مستحيلة، وأن شخصاً ما، مهما كان ومهما بلغ، لا يمكن له أن يتخلص من آفاته ونقائصه إذا بقيت هذه العملية في إطار فردي ضيق، لأن المجتمع من حوله سيتكفل بإعادة الآفات والنقائص فور التعامل الحتمي معه، والصيغة هنا لا تقترح "العزلة الفردية" كحل للحفاظ على السلامة من الآفات، **فالعزلة بحد ذاتها هي آفة ينبغي التخلص منها..** والصيغة

توحي بأن عملية التخلص هذه عندما تكون جماعية، أي عندما تصير هدفاً اجتماعياً منشوداً، يتعاون من أجله الجميع بأساليب وآليات عمل متنوعة، فإن النتيجة ستكون أقرب.. إما التخلص الفردي من الآفات، فهو لن يكون أكثر من "يوغا" نفسية للتأمل وإزالة ضغوط الحياة عن الفرد.. وهذا الهدف، ولو تحقق، فإنه بعيد جداً عن الهدف الأساسي من الصلاة.. ومن السلام.. ومن كل ما سبق من مفاهيم..



ولكن السلام ليس علينا فقط..

ولكنه على "عباد الله الصالحين" أيضاً..

الصيغة لا تنفي أننا منهم، ولا تثبت ذلك أيضاً.. إنها مفتوحة لتجعلك تسعى أن تكون منهم، أو لتحثك على أن تكون منهم، وقد تكون منهم فعلاً، لكن الصيغة المحايدة المفتوحة ستنأى بك عن السقوط في مدح الذات..

لكن من هم عباد الله الصالحون هؤلاء..؟

الصورة غير الصالحة، لعباد الله الصالحين

في أذهاننا صورة مكرسة للعبد الصالح، بعيدة جداً، بل ومناقضة تماماً، للمفهوم القرآني للعبد الصالح..

الصورة المكرسة في أذهاننا، تجعل من العبد الصالح رجلاً زاهداً في الدنيا، متفرغاً للعبادة بمعناها الشعائري، طيب الخلق مع جيرانه وأصحابه.. شبه درويش.. نقطة انتهى..

لكن القرآن الكريم، يستخدم اللفظ لينحت لنا مفهوماً مختلفاً جداً، واسعاً ومفتوحاً على آفاق وأطياف مختلفة..

فمفهوم عباد الله الصالحين قدم في ثلاثة سياقات مختلفة ومترابطة، مرة بصفتهم مجموعة أكبر ضمت - ضمن من ضمت - رسولين من رسل الله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ٦٦/١٠]، والرسولان هما نوح ولوط، اللذان حاولا إنقاذ مجتمعيهما من الانهيار، ليس عبر الشعائر فحسب، بل عبر العمل المجتمعي الذي أسهم بإنقاذ ولو جزء من هذا المجتمع.. أي إنه أنقذ ما أمكن إنقاذه.. ويدلنا السياق أيضاً أن عائلة العبد الصالح لم تكن بالضرورة قد صلحت مثله، وأن الصورة التقليدية للرجل الصالح الذي يحبه الجميع و يتبعون إرشاداته (إن وجدت!) هي صورة مثالية أكثر مما يجب، فالواقع له إفرازاته وإرهاصاته التي تقدم العبد الصالح بصورة أكثر فاعلية وأقل مثالية..

السياق الثاني للعباد الصالحين، جاء مع نبي كان له التمكين في الأرض، استطاع فهم آليات التحاور بين الحيوانات، ومع ذلك، فإن (تمكنه) هذا كان مسخراً من أجل أن يدخل في (العباد الصالحين)؛ أي إن العبد الصالح هنا لم يكن ممثلاً في شخص الدرويش الذي في أذهاننا،

بل النبي المتربع على عرش الملك وعرش العلم بمقاييس زمانه..

ولكن السياق الثالث سيجعل معنى العباد الصالحين يتوضح أكثر، ويطيح تماماً بالصورة التقليدية في أذهاننا..

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥]..

العبد الصالح، في أذهاننا، يمكن أن يتنازل عن حقه الشخصي في الإرث، لأنه لا يحب المشاكل مع هذا أو ذاك، إنه "عبد صالح"، وهو منشغل تماماً بعبادته ولذلك فهو زاهد في "الأرض" وما عليها..

أما القرآن الكريم، فهو يطيح بهذه الصورة المغروسة في أذهاننا، ويقدم صورة بديلة مختلفة تماماً..

فالعباد الصالحون هنا سيكونون من الفعالية والإيجابية والقوة والتصميم والإرادة، ما يجعل الأرض كلها إرثهم الشخصي الذي لا يمكن المساومة عليه، بل الذي تتحدد مكانتهم الأخروية بناء على استحقاقهم له وحيازتهم له.. فهذا الإرث لا يتحقق عبر النسب كما بقية المواريث، بل يتحقق عبر الإيمان والعمل الصالح؛ أي منظومة مشتركة من العقيدة الإيجابية والسلوك الإيجابي الفعال..

ولهذا يجب الانتباه هنا إلى أن ليس كل من علا في الأرض وتمكن فيها قد "ورثها".. ومن ثم ليس كل من علا وتمكن في الأرض هو من العباد الصالحين.. ذلك أن في كل عصر وزمان هناك فرعون ما، وحضارته، يمارسون

علواً في الأرض، وحيازة لها.. مما قد يجعل البعض - بدوافع من عقدة النقص تجاه المنتصر وعقيدته - يعتقد، ويروج لاعتقاده، بأن كل من "يعلو" في الأرض هو من عباد الله الصالحين.. بطريقة ما، ما دام قد تمكن من السنن.. والحقيقة أن العلو غير الإرث والاستخلاف.. رغم تشابههما الظاهري..

والآية تشير إلى أن الإرث، محصور بعباد الله الصالحين، أولئك الذين ينطلقون من عبادتهم ليجعلوها محركاً لصلاح أقوامهم وأمتهم ومن ثم إصلاح الأرض والعالم بأسره..

من أين جئت بهذا؟.. الربط بين العبادة والإرث؟.. ليس من لفظ "عبادي" الصالحين فقط، بل من الآية المباشرة فوراً؛ الآية التي تلي: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥]..

ماذا تقول الآية التي تليها؟..

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٦]..

فالقوم "العابدون" هم المعنيون بهذا البلاغ - أن الأرض إرث حصري لهم.. لكن عليهم أن يجعلوا من عبادتهم أداة صلاح وإصلاح، للأنفس، وللمجتمع.. وللعالم..

ولن يكون مصادفة أن يأتي هذا كله، في أهم عبادة

من عباداتنا؛ في الصلاة، وأن يكون السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين.. فذلك كله يصب في جعل الصلاة أكثر من عبادة مجردة، بل هي عبادة تهيئك وتعدك لتساهم في إصلاح العالم وجعله مكاناً أفضل..

تجعلك ترثه..



وذلك كله ارتبط بالسلام، الذي هو عملية التخلص من النقائض.. ربما للدخول في خانة "عباد الله الصالحين" الذين لا يشبهون الدراويش من قريب أو بعيد..



الفصل الثاني

الرسول والنبي

لكن أمراً ما يجب أن نتنبه له هنا، بعد أن ألقينا السلام على النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين..

الأمر هو أن السلام الذي ألقيناه على النبي عليه الصلاة والسلام، قد صيغ بصيغة خطاب للنبي.. وليس للرسول..

هل هناك من فرق؟.. الرسول هو النبي، عليه الصلاة والسلام، بشخصه ولحمه ودمه وحضوره الكريم، والنور والدفء المنبعثين منه علينا.. هل دفء الرسول أقل - أو أكثر - من دفء النبي؟..

أبداً، إنه هو هو..

لكن هناك ما يجب أن نقف عنده، عند النبي.. وعند الرسول.. صلوات الله وسلامه عليه..



ليس فقط لأن البعض يحاول أن يفصل بينهما، ويقول

إنهما وإن اتحدا في جسد رجل واحد، إلا أن **الطاعة مطلوبة منا - بزعمهم -للرسول فقط** وليس للنبي، مستندين في ذلك إلى أن آيات الطاعة جاءت مرتبطة بالرسول فقط، وليس بالنبي.. وذلك يجعلنا - حسب زعمهم - في حل من الارتباط من الالتزام بأوامر النبي.. لأن الطاعة، حسب زعمهم للرسول فقط.. وهذا الرأي لا يهدف التفريق الاصطلاحي بين الرسول والنبي فحسب، ولكنه يهدف **تفريقنا عن سنة النبي كلها، كل ما كانت عليه حياته عليه الصلاة والسلام..**

والفصل القسري بين الرسول والنبي سيكون مثل الفصل بين توءمين بقلب واحد..

بفارق أن من سيموت، هو نحن!..



لكن، لأن السلام هنا في الصلاة كان على "النبي" فإنه لابد أن يكون لذلك معنى.. معنى لا يفصل بين النبي والرسول، ولكن يكامل بين المصطلحين، **ويفعّل العلاقة بينهما..** ويجعلنا نزداد وعياً وتفاعلاً مع المفهومين..

معه هو، عليه الصلاة والسلام..



فلنحاول أن نعرف من هو الرسول، ومن هو النبي، ليسَ من مفاهيمنا السائدة، ولكن من القرآن الكريم نفسه، فمن هناك ينبغي أن تنبع مفاهيمنا.. من هناك ينبغي أن يبعث تصحيح ما هو سائد..

فلنحاول أن نبحث في الرسل والأنبياء، والتداخل الموجود بينهم في القرآن الكريم، بمعزل عن مفاهيمنا المتوارثة..

❖ ❖ ❖

هناك مجموعة من الرسل في القرآن الكريم، سنبدأ منهم لنفهم الطبيعة الوظيفية للرسل، واختلافها أو عدم اختلافها عن الطبيعة الوظيفية للأنبياء..

يذكر أولاً، في سورة الشعراء، عدداً من الرسل..

نوح ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٠٦-١٠٧].

هود ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٢٤-١٢٥].

صالح ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٤٢-١٤٣].

لوط ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٦١-١٦٢].

شعيب ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٧٧-١٧٨]..

أي إن هؤلاء الخمسة - عليهم السلام أجمعين - ذكروا بوضوح أنهم رسل.. وبحسب مفاهيمنا السائدة فإن كل رسول نبي.. لأن الرسالة أخص من النبوة..

إلا أن ذلك لن يثبت قرآنياً؛ أي إنه لا يوجد أي إشارة إلى أن كلاً من هؤلاء كان نبياً، باستثناء إشارة عامة قد تضع نوحاً في خانة الرسل/ الأنبياء ..﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ٤/١٦٣]..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٨]..

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٧]..

وكذلك لوط أشير إلى أنه من ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٩].. وهكذا يبقى لدينا (٣) رسل فقط لم يقل عنهم أنهم أنبياء..

أما الأسماء المتبقية في قائمة الرسل فلا شيء - قرآنياً - يثبت أنهم أنبياء..

❖ ❖ ❖

أما قائمة الأنبياء فهي أوسع، وتضم يحيى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٩].

عيسى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ١٩/٣٠].

إبراهيم ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ١٩/٤١].

إسحاق ويعقوب ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٩].

موسى ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم: ١٩/٥١].

هارون ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٣].

إسماعيل ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٤].

إدريس ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٦]..

وتضم أيضاً داوود ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٥٥].

سليمان ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٨/٣٠].

يوسف ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٤]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٤٠/٣٤]..

وتضم بشكل غير مباشر اليسع ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٦].

والياس ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٥].

كما أن أيوب قد ذكر فيمن أوحي إليه ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ٤/١٦٣]..

وذكر ذو الكفل بشكل عام مع أنبياء آخرين ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٥]..

ويبقى في هذه القائمة يونس الذي ذكر ضمن أسماء أخرى ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣/٤] ممن أوحي إليهم..



لدينا ثلاثة أنواع من الفئات، عليهم السلام أجمعين..

الفئة الأولى، فئة رسل لم يقل عنهم أنبياء.

الفئة الثانية، فئة رسل وأنبياء..

الفئة الثالثة، فئة أنبياء لم يقل عنهم رسل، ويدخل ضمنهم من لم يذكر بوضوح أنهم أنبياء لكنهم عُدّوا كذلك..

ما الذي يتمخض عن ذلك كله؟..

إن مقولة "كل رسول نبي" - رغم انتشارها -لا تتلاءم مع حقيقة أن هناك رسلاً لم يذكر عنهم أنهم أنبياء..

ولعل عكس هذه المقولة "كل نبي رسول" هو الصحيح، وهو ما يتناسب مع المعطيات القرآنية الآنفة الذكر.. ومع آية أخرى شديدة الوضوح:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤/٧]..

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الزخرف: ٦/٤٣]..

فالنبي هنا "قد أرسل"، وهذا يعني أنه رسول.. والآية تستخدم أسلوب التعميم بطريقة تشمل كل الأنبياء..

كما أن ذلك يتناسق أيضاً مع آية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢/٢٢]..

فلو كان "النبي" متضمناً في الرسول، حسب مفهوم "كل رسول نبي" ما ذكر الوحي الكريم النبي بعد الرسول، فهذا يعني أن كلمة الرسول لم تغط معنى النبي، وأن النفي سيتضمن لاحقاً "النبي" الذي لم يرد معناه ولم يتضمن في كلمة الرسول..

وهذا يعني أن الرسول، عندما يكون غير النبي - فإنه لا يتضمنه..

وأن النبي - عكس الشائع - دوماً رسول..

مفهوم النبوة: المرحلة التالية

أين يضعنا هذا؟ وإلى أين سيأخذنا بالضبط؟..

إنه يأخذنا إلى مفهوم "النبوة" الذي سيبدو هنا أنه مرحلة أعلى من مفهوم الرسالة..

ورد هذا اللفظ عدة مرات في القرآن الكريم.. كان في كل مرة قطعاً يأتي ذكره مع الكتاب..

وفي (٣) مرات من أصل (٥)، سيكون ذكر النبوة، مرتبطاً، بالإضافة إلى الكتاب، مع الحكم..

وهكذا سيكون هناك متلازمة ثلاثية: النبوة - الكتاب - الحكم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/٧٩].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٩].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/١٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: ٥٧/٢٦].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٧]..

الحد بين الرسالة والنبوة

سنضع هذا في بالنا، ونعود خطوة إلى الوراء.. إلى الرسل الذين لم يثبت أنهم أنبياء.. فهناك، "**الحد**" بين **الرسالة فقط**، وبين **النبوة التي تتضمن الرسالة**..

في الفرق بين الرسل والأنبياء.. نجد المعنى الذي يجعلنا نلقي السلام عليه، ونحن نسميه النبي، وليس الرسول، صلوات الله عليه وسلامه بكل أسمائه..

الأسماء الثلاثة للرسل الذين كانوا رسلاً فقط، هي هود وصالح وشعيب.. وقصصهم تشبه قصص غيرهم من الرسل، بالذات تشبه قصة نوح ولوط اللذين خرجا من خانة الرسل فقط، إلى المرتبة التالية..

كانا في قومهما، وكان القوم في حالة بعد عن الله عز وجل، بمختلف معاني البعد، من الكفر والشرك إلى الفاحشة مروراً بالظلم الاجتماعي.. وكانت هناك "رسالة - من الله عز وجل - عبر "الرسل"، مفادها أن العذاب قادم لا محالة، إن لم يحدث تغيير في نمط المفاهيم والسلوك التي يدين بها السواد الأعظم مجتمعياً. وفي الحالات الخمس كلها سيكون هناك العذاب، كما قال الرسل بالضبط.. بأشكاله المتعددة..

ما الذي يجعل نوحاً ولوطاً استثناءً من هذا وقد حل العذاب بقومهما كما حل بقوم صالح وهود وشعيب؟..

المختلف في السياق الخاص بكل منهما، أننا رأيناهما، ولو بشكل جزئي، وهما يكملان المسيرة. يمضيان مع الفئة التي آمنت بالرسالة.. ويبينان، أو على الأقل يحاولان إنشاء مجتمع بديل عن ذاك الذي تركاه..

أين كانت الإشارة إلى ذلك؟..

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨/١١]..

إنه نوح ما بعد الطوفان، هذا الذي سيحل عليه

"السلام" و "البركات"، فالسفينة لم تكن الهدف النهائي، والنجاة لم تكن كل القصة، ولكنه الوصول إلى البر الآمن.. إلى المجتمع البديل..

وأين الإشارة إلى ذلك مع لوط؟..

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٧١]..

لقد انضم إلى إبراهيم.. وساهم معه في إنشاء مجتمع البركات العالمي: بركات للعالمين..



وهذا كله يوضح، بشكل قاطع وحاد، الحد بين مهمة الرسول، ومهمة النبي التي يوسع فيها مهمة الرسول..

فالنبي، لا يتخلى عن مهمة الرسول، إنه يحملها حتماً معه، وهو يظل، رسولاً بالتعريف، ما دام نبياً.. لكن مهمته لا تقتصر على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المجتمع فقط.. بل بناء مجتمع جديد.. المهمة لا تقتصر على إلقاء طوق النجاة، بل على إيجاد البديل.. بالذات على بناء البديل حجراً حجراً..



الرسالة من النظرية إلى التطبيق

مهمة الرسول تركز على "الفكرة" أكثر، تركز على "النظرية"، على فكرة أن الدمار قادم، وعلى فكرة أن الحل

يجب أن يبدأ من الأساس، مهمة النبي لا تنسخ ذلك طبعاً، ولكن تكملها، تتممها.. تحول الأمر إلى الحفر في الأساس ووضع حجر الأساس.. ورفع القواعد..

وبعبارة أخرى، مهمة النبي، تحتوي مهمة الرسول ضمنها، لأنها ستظل تحتوي على الرسالة، وعلى فكرة الرسالة ..لكنها تتجاوزها إلى أفق أبعد، إلى الواقع العملي الذي لا غنى عنه لأي نظرية، مهما كانت متقنة، ولا أي عقيدة، مهما كانت سليمة..

وبعبارة أخرى أشد وضوحاً، مهمة النبي، عملياً، تكمل وتتمم مهمة الرسول، على العكس من مهمة الرسول، التي ستظل بحاجة إلى مهمة النبي لإتمامها..

وبناء على ما سبق، وكنتيجة طبيعية: كان عليه الصلاة والسلام "خاتم النبيين"..

ذلك أن خاتم الأنبياء، هو حتماً، وضمناً، وبالتعريف المشار إليه، هو خاتم الرسل.. باعتبار أن مفهوم "النبي" يتمم مفهوم الرسول ويختمه....

ولذلك، قال الذكر الحكيم عنه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠/٣٣] ..ولم يقل خاتم الرسل.

بهذا المنظور صار الأمر الآن متناسقاً.. ومفهوماً..

❖ ❖ ❖

حقيقة أخرى تتوهج، لتتكامل مع هذه الحقيقة..

إنها حقيقة أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يخاطب قط بـ "النبي" منفرداً عبر القرآن، إلا في العهد المدني، أي في السور المدنية..

قبلها، في القرآن المكي كله، كان يطلق عليه - عليه الصلاة والسلام - "الرسول".. باستثناء مرتين في سياق واحد ذكر أنه "الرسول النبي الأمي" (الأعراف ١٥٧-١٥٨)؛ أي إن ذكر النبي هنا لم يستقل عن ذكر الرسول كما لو أن ذلك كان مرحلة انتقالية بين المرحلتين.

لكن في المرحلة المدنية، ومع بداية مرحلة جديدة من الدعوة أدخلت مفردة جديدة في الخطاب القرآني للرسول الكريم هي النبوة..

ولفظ "نبي" جاء قطعاً في القرآن المكي، ولكن ليس لمخاطبته عليه الصلاة والسلام.. وإنما للإشارة إلى تجارب نبوية سبقت تجربته الرسولية، أما (يا أيها النبي) فلم ترد قطعاً إلا في المرحلة النبوية..

وفي ذلك دلالات واضحة تتفق مع ما توصلنا إليه من الفرق بين مهمة الرسول ومهمة النبي..

ذلك أن المرحلة المدنية كانت مرحلة التطبيق والبناء وتكوين ذلك المجتمع البديل، بل الحضارة البديلة بأسرها..

أما المرحلة المكية، فقد كانت مرحلة النظرية، مرحلة العقيدة والفكرة السابقة على البناء، والضرورية له..

لهذا كان الخطاب في المرحلة المكية مقتصراً على الرسول..

وتوسع في المرحلة المدنية، ليشمل المهمة الإضافية التي اضطلع بها، فصار يخاطب، بالإضافة إلى الرسول، بالنبي..

النبي، الذي ختم سلسلة الأنبياء.. وبالتالي سلسلة الرسل.

نبوة النبي لا تنسخ رسالته

لكن ما ينبغي الانتباه له، أن مصطلح "النبي" لم يلغ مصطلح "الرسول".. وطبعاً نحن نتحدث عن شخص واحد (عليه الصلاة والسلام)، شخص تدرج في حمل المسؤوليات والمهمات ومرَّ بذلك بشكل تطوري ومتتال، إذن لا يمكن إحداث فصل حقيقي بين الرسول، والنبي..

يشبه الأمر أن طبيباً ما، تدرج في دراسته وتخصصه حتى صار جرّاحاً، ثم إنه أنهى تخصصاً دقيقاً في جراحة معينة فصار جراح أعصاب على سبيل المثال.. كونه جراح أعصاب لن يلغي أنه "جراح"، وهذا كله لن يلغي أنه طبيب.. لا يوجد "لقب" إضافي تحصل عليه، ينسخ لقبك السابق، وكذلك مقام النبوة؛ لن ينسخ مقام الرسالة..

"المرحلة المدنية".. مهمته عليه الصلاة والسلام فيها لم تلغ "المرحلة المكية" وجذورها بل ستحتويها..

لذا، سنجد في الآيات المدنية، خطاباً وإشارةً إليه،

عليه الصلاة والسلام، بصفته الرسولية، بالإضافة إلى صفته النبوية، تباركت كل صفاته عليه الصلاة والسلام..

ولذلك التداخل في المرحلة المدنية - بين الرسول والنبي - معنى لابد من الوقوف عنده..

إسقاط معاصر من أجل التطبيق

ذلك أنك عند التطبيق، يجب ألا تنفصل عن النظرية، عند البناء يجب ألا تحذف الخطة.. لذا تتكامل "الرسالة والنبوة" في المرحلة المدنية كما تتكامل النظرية مع التطبيق العملي.. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن التطبيق العملي، وبناء النموذج على أرض الواقع، يجب ألا يبتعد عن القيم الأساسية للنظرية، و "رفع القواعد" يجب ألا يبتعد عن "القواعد" نفسها.. ذلك أن كثيراً من الأفكار والمبادئ (والحديث هنا عن الديني والوضعي منها) تصطدم عند التطبيق، ليس بالواقع وصعوباته، بل بحقيقة أن بعض من يحمل مسؤولية التطبيق، يترك "قيم الرسالة" الأصلية، وخطة البناء والنسبة المقررة لخلطة الإسمنت، بحجة الإسراع بالبناء وبرفعه.. والنتيجة لهذا الأمر أن البناء قد لا يكون مطابقاً للمواصفات القياسية، أو حتى قريباً منها.. الأمر في مخاطبته عليه الصلاة والسلام، في المرحلة المدنية مرة بالرسول ومرة بالنبي، هو التأكيد على الأمرين معاً: النظرية، الفكرة، العقيدة - والتطبيق، البناء، السلوك..

ولقد التحما معاً، في تماه تام، لا مجال لتجزئته أو فصله، في شخص الرسول النبي الكريم..

لِمَ الطاعة للرسول؟

ضمن هذا التطور يمكن فهم لِمَ أن كل الآيات القرآنية، التي تأمر بطاعة الرسول، لم تأت إلا في المرحلة المدنية.. أي بعدما انتقل عليه الصلاة والسلام من مرحلة الدعوة، إلى مرحلة البناء الاجتماعي ومرحلة إعادة بناء العالم بشكل مباشر.. أي بعبارة أخرى، بعد أن حمل معه مرحلة الرسالة إلى مرحلة النبوة..

كل آية وردت فيها "طاعة الرسول" كانت حتماً مدنية، لكنها لم تستخدم المصطلح الجديد الذي استخدم لأول مرة في العهد المدني: النبي.. أي إن السياق ربط بين طاعة الله وطاعة الرسول في أكثر من مرة، لكن لم يذكر السياق طاعة "النبي" وهو الأمر الذي جعل (دعاة التفلت) يعدّونه تحللاً من طاعة "النبي" وأوامره، وليس من كل السنة النبوية فقط، ولكن من كل سياق قرآني ورد فيه لفظ النبي واحتوى على أمر شرعي، بدعوى أن الطاعة للرسول فقط، وليس للنبي..!

وقبل أن نؤكد عدم وجود انفصال حقيقي أو افتراضي بين الرسول والنبي في شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام، نشير إلى أن **الطاعة للرسول، تضم حتماً وطبعاً، الطاعة للنبي**، لسبب بديهي هو أن **النبي مكمل ومتمم** لمهمة الرسول، وإذا كنت مطالباً ومأموراً بالطاعة للرسول، فإنك، ومن باب أولى، مطالب بالطاعة للنبي، الذي هو **المرحلة الأعلى والمتممة للرسول..**

الاتباع أقوى...

الأمر الآخر، الذي لابد من التنبه له هنا، هو أن "الاتباع" الذي اقترن مع "الرسول النبي الأُمي"؛ وهو المركب الذي جمع "الرسول النبي" ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧/٧] **أقوى من الطاعة**، لأن الطاعة انقياد لأمر واضح ومحدد، أما "الاتباع" فهو أن "**تراه فتمضي خلفه**"..

واتباع "الرسول النبي" جاء قبل الطاعة، جاء بالذات في الفترة المكية، **لأن الاتباع مطلوب فيما سيأتي، والاتباع سيكون أساساً للطاعة..**

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١/٣] ستليها فوراً ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢/٣]..

فالاتباع والطاعة هنا مرتبطان معاً بطريقة لا يمكن التمييز بينهما..

كما أن الرسول النبي الأمي، هو واحد..

وطاعته واتباعه واجبان على كل من آمن به..

"رسول" لكنه "النبي"

الأمر الذي يلفت النظر أيضاً أن الرسول الكريم، قد ذكر بوصفِهِ رسولاً - من دون تعريف - في أكثر من مرة في الخطاب القرآني..

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١/٣]..

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧/٢]..

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠١/٢]..

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤/٣]..

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩]..

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤/٣]..

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١/٢]..

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦/١٦]..

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢/٦٢]..

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١٥]..

أي إن السياق القرآني في كل هذه الآيات قد استخدم لفظ "رسول" من دون تعريف، لا بالإضافة ولا بأل التعريف، والسياق كان يشير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.. هو ما يعرف لغوياً: بالتنكير للتفخيم..

لكن هذا الأمر لم يحدث مع لفظ "النبي" أبداً..

لم يحدث أبداً أن جاء الخطاب القرآني، بلفظ "نبي" من دون التعريف، ويكون السياق موجهاً إليه عليه الصلاة والسلام..

ولم يحدث هناك أبداً أن جاء الخطاب القرآني بلفظ "النبي" - بالتعريف - **إلى نبيٍّ آخر**، غيره عليه الصلاة والسلام..

ما الذي يعنيه ذلك؟..

يعني أنه ربما كان هناك أنبياء كثر قبله عليه الصلاة والسلام.. ولكن، كان هناك دوماً نبي واحد فقط سيكون هو النبي بالإطلاق..

و "النبي" - بالإطلاق - تعني أنه **"النبي" المطلق**، الذي سيقوم بالدور الأقصى لنبي، سيقوم بالمهمة التي حاول القيام بها كل الأنبياء من قبل.. لكنه هو وحده، عليه الصلاة والسلام، **سيذهب إلى المدى الأبعد، إلى المدى الذي فيه نهاية الشوط كله..**

الأنبياء كثيرون، لكن "النبي" واحد..

ولقد كان اسمه دوماً "النبي"..

انتظروه دوماً على هذا الأساس.. وكانوا يعرفون أن أنبياء سيأتون وسيرحلون، منهم من سينجح، ومنهم من لم ينجح، ومنهم من سيقتل قبل أن يصل لسفح آماله..

لكن واحداً منهم، واحد فقط، سيختصر تاريخ النبوة، ويقوم بما لم يقم به أحد، واحد فقط، سيتمكن من أن ينطلق من الصفر الاجتماعي، ويصل إلى القمة.. بلا تواصل مع إرث أنبياء آخرين، واحد فقط سيتمكن بمفرده من أن يبني ما لم يبنه سواه.. سيتمكن من أن يثبت أن ذلك ممكن..

ولهذا فهو "النبي"..



وتحفظ لنا ذاكرة التاريخ، موقفاً لابد أن يذهلنا وقد وصلنا لحقيقة أن هذه المفردة لم تستخدم إلا له عليه الصلاة والسلام، ما هو هذا الموقف؟.. وكيف احتفظت به ذاكرة التاريخ؟..

ها هي ذي وثيقة تاريخية، من العهد الجديد "المتداول إلى يومنا هذا والمعترف به كنسياً" (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٩-٢٠) تنقل لنا ذلك الانتظار المسكون بالشغف.. للنبي.. للنبي بالإطلاق..

وإنها شهادة يحيى.. أو يوحنا المعمدان، كما تسميه الأناجيل، حين أرسل اليهود من أورشليم بعض الكهنة

واللاويين يسألونه: ("من أنت؟".. فاعترف ولم ينكر بل أكد قائلاً: "لست أنا المسيح". فسألوه: ماذا إذن؟.. هل أنت إيليا؟.. قال: "لست إياه!..".. "أو أنت النبي؟..".. فأجاب: "لا!"..)

ليس المسيح، ولا إيليا، ولا "النبي"..

إذن المسيح غير النبي!..

كانوا ينتظرون النبي.. كانوا يعرفون أن هناك المسيح.. وأن هناك سواه، من أسموه، من وجدوه مكتوباً عندهم بأنه، ليس مجردَ نبي، كما قد يكون المسيح، أو إيليا..

لكنه "النبي".. بالمطلق..

نبي آخر الزمان ؟

هل يعني هذا أنه نبي آخر الزمان؟..

ربما.. لكن الأصح أنه نبي كل زمان.. النبي الذي ستكون نبوته متجاوزة لأطر الزمان والمكان.. النبوة، التي ستظل دوماً قادرة على أن تؤدي وظيفتها.. حتى بعد زوال الزمان والمكان الذي أنزلت ضمنه تلك النبوة..

إنه "النبي" الذي يظل يمدنا بالإنباء، حتى بعد وفاته..

عليه الصلاة والسلام..

لا تتحد السنن.. تحد نفسك

أمر ينبغي ألا يفوتنا هنا، وهو جدير بالانتباه، إلى أن

مخاطبتنا له عليه الصلاة والسلام ظلت مباشرة، كما لو أنه موجود معنا، بقينا نقول: "السلام عليك أيها النبي"، لم تتغير، بعد وفاته علية الصلاة والسلام، لتصبح بصيغة أخرى.. لم تتغير، حتى في أثناء حياته، عندما كان أصحابه يصلونها بعيداً عنه..

إنها صيغة غير مرتبطة بزمان ومكان محددين بوجوده الشخصي؛ لكنها صيغة تستحضره وتستحضر وجوده والدفء المنبعث من وجوده، صيغة تتحدى الزمان والمكان، وتتحدى حقيقة أنه مات عليه الصلاة والسلام، رغم إقرارنا لها، لكنها صيغة تتحدى أن الموت يمكن أن يطوي كل شيء، فحضوره يتعدى الحضور الجسدي الفيزيائي الذي طواه فعلاً الموت، لكن استحضاره، واستشعار حضوره سيستعاد في تلك الأبعاد غير الجسدية..

سنقول، ونحن نعرف أنه قد مات، "السلام عليك أيها النبي" نقولها.. فهل نحن نحاول التحدث معه وهو في قبره الشريف؟.. هل نحاول أن نتحدى سُنة الموت التي جرت على كل أبناء آدم ومن ضمنهم أشرف خلقه؟..

لا طبعاً، لكن نحاول تحدي أنفسنا ..عبر إحيائه عليه الصلاة والسلام فيها، إذا كان قد مات جسدياً فهذا لا يعني أن دور القدوة، دور الأسوة الحسنة، دور المثل الأعلى، قد مات.. أو حتى أنه معرض للموت.. هذه الصيغة لا نوجهها له في قبره، بل إلى حيث يجب أن يستمر في الحياة.. في أنفسنا، في عقولنا، عملية تفاعل

مستمرة بيننا وبين (دوره) هذا، نكون نحن مسؤولين عن قدح زناد هذا التفاعل، عبر استحضاره في أنفسنا، في جزء خاص لا يمكن تحديده مكانياً أو فيزيائياً.. لكن هذا الجزء الخاص مهم جداً في الوقت نفسه لأنه يمارس دوراً تربوياً في اللا وعي..

الطراز الأصيل

هل هذا الجزء الخاص هو ما يسمى في علم النفس "**الطراز الأصيل**" archetype[(١)] والذي يشبه الحاجة الأصيلة العميقة داخل النفس البشرية إلى دور القدوة/ الأسوة الحسنة؟..

هذه الحاجة الموغلة في القدم إلى بطل ما يعبر عن القيم ويجسدها في شخصه.. وهي الحاجة التي تم ملؤها عبر العصور وفي مختلف الحضارات عبر أبطال الأساطير والحكايات الشعبية، وأيضاً عبر الأنبياء والزعماء الروحيين.. ويتم ملؤه حالياً - عبر وسائل الإعلام - بالنموذج العولمي الهوليودي..

ربما كان الأمر شيئاً كهذا، وربما كان أكثر، لكن هذا المصطلح النفسي - **الطراز الأصيل** - هو أقرب ما أجده شخصياً، لما يمكن أن يملأه عليه الصلاة والسلام في

(١) الطراز الأصيل:archetype مصطلح أسسه عالم النفس السويسري كارل يونغ و يعني به وجود أنماط أساسية وأصيلة داخل النفس البشرية تشترك فيها كل الأمم و تشكل جزءاً أساسياً من العقل الجمعي بحسب يونغ.

داخلنا، وملؤه لا يكون عبر ألفاظ محبة مجردة وشعارات وأناشيد، بل أن يكون موجوداً وحاضراً في ذلك الحيز بشكل فعال، بشكل أن يكون بتعاليمه، بأخلاقياته، بسلوكياته وممارساته، الجزء الذي يتحكم بنا، بسلوكنا منا.. أي أن يكون الجزء الفعال من المركب المعقد من الوعي واللاوعي الذي قد يسمى أحياناً "الضمير"..

فلنتذكر هنا السياق الذي ورد فيه السلام عليه، "السلام عليك أيها النبي، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" كما لو أن هذا التتالي في الذكر (النبي أولاً عليه الصلاة والسلام، ثم نحن، ثم العباد الصالحون) سيؤدي إلى تلك النتيجة: عباد الله الصالحين، كما لو أن التفاعل بين "النبي" - الموجود في ضمائرنا - وبيننا، هو الذي سيؤدي إلى "عباد الله الصالحين".. أي إلى أن نكون نحن منهم..

ولكن ينبغي أن نذكر أن السلام ليس مجرد إلقاء التحية، بل هو عملية التخلص واستئصال الآفات المعيقة للنمو، وعلينا أن نذكر أيضاً أن عباد الله الصالحين ليسوا هم الدراويش، بل هم من يرث الأرض..

هكذا يبدو الأمر منطقياً الآن، فالتواصل معه عليه الصلاة والسلام، عندما يكون موجوداً فينا، واستحضاره، سيساعدنا على التخلص من آفاتنا وأمراضنا، سيكون السلام هنا عملية تفاعل داخلي، سيكرسها وسيقويها استشعارنا أنه موجود بالقرب منا..

إننا نخاطبه بهذه الصيغة لا لكي تصله في قبره

الشريف.. ولكن لكي يتقوى وجوده في ذلك الحيز في أنفسنا..

لكي نستشعر وجوده بقربنا..

كما لو أنه قريب جداً منا..

في الحجرة المجاورة..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٤٩/٤-٥]..

دوماً عوملت هذه الآيات بشكل ضيق، بشكل يخص سبب نزولها المباشر، ولم نعد نرى منها غير سطحها المباشر، وربما العمق الذي يلي ذلك السطح، الذي يركز على أدبيات الحديث وذوقيات التعامل..

لكن هناك، من وراء الآيات، ومن وراء الحجرات، سيأتي ذلك المعنى الذي يتحدى قفص "التاريخية" الذي يحاولون أسْرَ النصوص في داخله.. المعنى الذي يجعل النص مطلقاً مهما بدا متعلقاً بفترة تاريخية مباشرة للوهلة الأولى - يتوهج ليكون خارج كل زمان ومكان..

وها أنت ذا تقرأ النص فإذا بك تقرؤه للمرة الأولى حقاً ..وها هو ذا النبي الكريم يبدو قريباً جداً لدرجة أنك لست مضطراً لرفع صوتك لكي تسمعه..

إنه قريب جداً، ليس هناك ما يحجزك عنه، ولا ما يحجزه عنك..

ولهذا فأنت تقول: السلام عليك أيها النبي..

قد يكون في الحجرة نفسها، أو في الحجرة المجاورة، وسيكون شعورك واستحضارك كما لو أنه سيدخل عليك فجأة.. أو أنه قد دخل فعلاً..

عليه الصلاة والسلام..



ولا بد أيضاً من أن ننتبه إلى أن النبي الكريم لم يخاطبه ربه في القرآن الكريم باسمه المجرد قط.. كما فعل مع أنبياء آخرين، مثل سيدنا موسى، ومع رسل آخرين مثل سيدنا هود..

دوماً كان هناك يا أيها النبي - يا أيها الرسول، لكنه، عليه الصلاة والسلام، **لم يخاطب أبداً بـ (يا محمد)..**

كما أن اسمه الشريف، لم يأت أبداً بمعزل عن تأكيد كونه الرسول، أو الذي بصفته من أنزلت عليه الرسالة..

كما لو أنه لا وجود لشيء شخصي تماماً مما يمكن عزله عن محمد الرسول أو النبي.. كما لو أن كل ما في حياته قد تماهى مع دوري الرسالة والنبوة..

حتى اسمه لم يعد يمكن عزله عن ذلك..

صلوات الله وسلامه عليه..



هنا، في هذه المرحلة بالذات، يأتي التشهد.. لا قبل.. ولا بعد..

لماذا الآن؟.. "الشهادتان" يمكن توقعهما في البداية باعتبارهما المدخل الأساسي[1] للإسلام لكنها تأتي هنا في المنتصف لتوضح ارتباطها بمناحي الحياة المختلفة و التحامهما بها بشكل لا يمكن فصلهما عنها..

لم الشهادة للرسول وليس للنبي؟

لكن لماذا جاءت الشهادة مع "محمد رسول الله" و ليس مع النبوة،لماذا لم تذكر الشهادة الثانية محمداً النبي؟..

ببساطة، لأن الشهادة، كمدخل للإسلام، تتطلب أولاً الإيمان بالرسالة، وبعدها سيكون تطبيق بقية الأركان التي إن طبقت بشكلها ومعناها الاجتماعي فإنها ستعطي معنى التطبيق النبوي الذي هو أصل وجوهر النبوة نفسها، الشهادة هي الإيمان بالنظرية، التي لابد منها للقيام بالتطبيق، لن تستطيع أن تطبق شيئاً، أو حتى أن تفهم هذا التطبيق إن لم تفهم الإطار الفكري العام، وهو الشهادة هنا، والرسالة تحديداً..

كما أن الشهادة هي المدخل، فالمدخل لا يختصر البناء، فإن كونه رسولاً عليه الصلاة والسلام، لن يكفي لوصف دوره، الذي أضيف إليه دوره النبوي المكمل والخاتم..

الشهادة تشير إلى الرسالة فقط..

لكن كل الأركان اللاحقة، وأولها الصلاة، ستكرس

(١) يمكن مراجعة جزء ملكوت الواقع من هذه السلسلة للتذكير بدور الشهادتين.

الفهم الشمولي الحقيقي للإسلام.. فهماً تتكامل فيه ومن خلاله العقيدة والسلوك، والنظرية والتطبيق، ويتكامل فيه أيضاً، محمد الرسول، عليه الصلاة والسلام، صاحب الرسالة، ومحمد النبي، عليه الصلاة والسلام، صاحب التطبيق، الوحيد الذي تمكن من جسر الهوة بين الفكر والسلوك.. فترك لنا إمكانية ذلك متاحة دوماً..

حرك به العالم !

ومع الشهادة يأتي تحريك لأصبع السبابة (أو رفعه).. وهو "تحريك" سيبدو للبعض كما لو أنه بلا معنى ولا مغزى، كما لو أنه عليه الصلاة والسلام، كان سيفعل شيئاً لا تسكنه الحكمة..

نفعل ما يفعله عليه الصلاة والسلام، إن فهمنا المغزى.. سيتوهج الضوء من تطبيقنا.. وإن لم نفهم سنفعل أيضاً على أمل فهم لاحق، على أمل ضوء لاحق..

لكن المعنى يبدو متوهجاً: إنه أصبع واحد من أصل خمسة أصابع.. وهو يرتفع عند نطقنا بالشهادة..

ألا يبدو ذلك واضحاً؟.. إنه الركن الأول.. نرفع أصبعاً واحداً هنا ..بقيت أربعة أصابع وبقيت أيضاً أربعة أركان.. لن نرفع أصابعنا فيها، بل سنعمل بأيدينا، برؤوسنا، بكل ما فينا، من أجل "إقامتها".. السبابة ستتحرك عند التشهد، كرمز يحتوي معنى أن الشهادة ليست لفظاً فحسب، بل هي أيضاً "فعل" - "تحريك" - "حراك".. بل إنها في حقيقتها كل ذلك، لكنها تبدأ كلفظ - على

اللسان - كجزء من طبيعة الأشياء عندما تعلن عن نفسها، لكنها لا تقف عند طرف اللسان، بل تنطلق منه، لتصل إلى كل طرف في هذا العالم، تنطلق منه لتكون حركةً وسلوكاً وفعلاً، وستكون السبابة هنا، هي التي ستتحرك بينما كل أعضاء الجسد الأخرى في حالة سكون تام، وكأن ذلك رمز على أن انطلاق الحركة، انطلاق الفعل، يجب أن يبدأ من الشهادة، وأن هذه الحركة - التي هي صغيرة بحيث إنها تلاحظ بصعوبة - قد تمهد لحركة أكبر، قد تكون نواة لحراك قادم، حراك يرتكز على المعاني العميقة لكل الأركان.. حراك يقوم على هدم ما يجب هدمه.. وبناء ما يجب بناؤه.. من أجل ذلك العالم الجديد الممكن..

لا تستهن أبداً، بحركة صغيرة للسبابة في أثناء التشهد، فحركة صغيرة قد تؤدي إلى أكبر، ومثل قطعة دومينو صغيرة؛ واحدة تسقط، يمكن أن تطلق تفاعلاً متسلسلاً يؤدي إلى تغيير رقعة الدومينو كلها..

حركة صغيرة للسبابة، بهذا المعنى، بهذا الفهم، ستكون رجماً شديداً على الشياطين..

كما قال عليه الصلاة والسلام..



الفصل الثالث

خنادق من أجل "الإنسان"

لا ريب أن الصلاة على النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والسلام، صارت تشكل جزءاً من مظاهر ارتباطنا العاطفي به عليه الصلاة والسلام، بل إنها صارت، عند عموم الناس، لازمة تقليدية يقولونها عند إبدائهم الإعجاب بشيء ما (لا علاقة له أحياناً بالرسول الكريم ولا بأي شيء يتعلق به، بل قد يكون العكس هو الصحيح)، أو يقولونها عندما يحاولون تذكر اسم ما، أو قضية ما، كانت على طرف لسانهم، فيصلون عليه، عليه الصلاة والسلام، كما لو أن ذلك سيعينهم على التذكر، وقد يكون أمراً تافهاً سخيفاً لا معنى له على الإطلاق..

وأضف إلى هذا وذاك، هناك الاستخدام الذي لا يمكن انتقاده في الأناشيد والأشعار، والذي يسهم فعلاً في زيادة تعلقنا به، ولكن ربما ليس بالاتجاه "البنّاء" الذي يجب أن تتجه فيه، بل باتجاه عاطفي يبدأ بالعاطفة وينتهي بها، ولا "يثمر" شيئاً بعد ذلك من زيادة اقتداء وتأسٍّ (على سبيل المثال)..

ولا ريب أن كل هذا قد نتج أصلاً، من ضمن جملة أشياء، عن "فضل" الصلاة على النبي وأجرها، وهو أمر ثابت ولا جدال فيه، لكن المؤكد أيضاً، أن هذا "الأجر" لن يكون كاملاً - هذا إن كان أصلاً - إن لم يوضع العمل الأصلي في سياقِه ومقصده، وإن لم يؤدِّ أساساً إلى الهدف منه..

هل هناك هدف من الصلاة على النبي؟..

قد يستغرب البعض، تعودنا أن نتصور أن مجرد النطق بالأحرف المكونة للصلاة على النبي كفيل بالحصول على الأجر، وهذا وارد طبعاً، أو أنه على الأقل ليس موضع نقاش الآن.. لكن أمرين اثنين يجب أن يشار إليهما هنا:

الأول - أن الله عز وجل لا يأمر عباده بأمر إن لم يكن لحكمة، وحكمة تصب في المصب النهائي لما يريده الله للمشروع الإنساني.

الثاني - أن الصلاة على النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة والسلام - صارت جزءاً من الصلاة نفسها. ولا يوجد جزء من الصلاة لا يرتبط، ويصب أيضاً، في المقصد منها؛ من كونها تلك الفريضة التي ترتقي بالفرد، تدربه على الارتقاء، من كونها ذلك الركن الذي تستند إليه في تكوين شخصيتك وإنمائها، من كونها تلك الدورة التدريبية التي يتعين عليك القيام بها دوماً من أجل أن تجوِّد أداءك في العالم..

و "الصلاة على النبي" ليست مجرد جزء من الصلاة، وأنا هنا لا أقصد الحديث الفقهي عن توصيفها، ولكن أقصد أننا وصلنا بها إلى نهاية الصلاة تقريباً، أي إننا **الآن في قمة الجبل، في ذروة الصلاة، ولا بد أننا سنجد معنى استثنائياً هناك - لا ريب أن في الصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - كنزاً دفيناً من المعاني،** سيتوهج فينا، في أثره فينا، لو أننا استطعنا استثماره بالشكل الصحيح..

"الصلاة على النبي"، قبل نهاية الصلاة، هناك عند الذروة..

لابد أن هناك "ذروة" ما..



تعود الصلاة على النبي، أو ما يعرف بالصلوات الإبراهيمية، إلى الأمر القرآني الواضح بالصلاة والسلام عليه، وهو الأمر الذي مهد له، في الآية ذاتها، بأن الله وملائكته يصلون على النبي، والذي اقترن وتلاحم مع الأمر الإلهي بالصلاة عليه في الآية نفسها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣].. ولهذا مغزى عميق ولا بد.. يجب التنبه له، والبحث عنه..

والحقيقة أن سياق سورة الأحزاب كله، سياق موحٍ، ولا بد من الوقوف عنده..

الأحزاب والحدود والخنادق...

والنظرة الشاملة للسورة، ستعطينا ملاحظتين تصبان في صلب موضوعنا كله:

الملاحظة الأولى، أن السورة تضم مجموعة من الآيات التي ترسم حدود العلاقة بين المؤمنين والنبي. وهي آيات تتدرج من الحديث عن ميثاق النبيين بصورة عامة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧/٣٣] إلى اتخاذ الرسول "أسوة حسنة" ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١/٣٣] إلى أن تصل إلى القمة التي اختص بها عليه الصلاة والسلام حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣]..

الملاحظة الثانية، أن السورة، في الوقت نفسه، تحتوي على تفاصيل تشريعية حياتية، مثل النهي عن جعل الزوجات أمهات، وأن زوجات النبي أمهات المؤمنين، وإنهاء التبني، وعدم الخضوع في القول ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ [الأحزاب: ٣٢/٣٣]، وعدم التبرج تبرج الجاهلية الأولى [الأحزاب: ٣٣/٣٣]

ومشكلة "زيد مع زوجته [الأحزاب: ٣٣/٣٧]، وبيان المحارم [الأحزاب: ٣٣/٥٥]، وذكر آداب الدخول على النبي [الأحزاب: ٣٣/٥٣]، وصولاً إلى فرض لباس المرأة [الأحزاب: ٣٣/٥٩].. وكلها أحكام تشريعية واضحة، لا لبس فيها ولا غموض..

السورة كلها، بسياقيها هذين، تنزلت وأنزلت في خضم أحداث غزوة الأحزاب - غزوة الخندق - كما هو واضح؛ وهي الغزوة التي اختلفت عن سابقاتها بأنها كانت مواجهة ليس مع مشركي مكة فحسب كما في غزوتي بدر وأحد؛ بل إنها كانت مع مشركي مكة ويهود المدينة ومنافقيها أيضاً، كذلك كانت مواجهة مفتوحة مع كل الاحتمالات الكامنة في الطبيعة البشرية المضادة لمهمة النبي..

ما الذي يجعل هذه الأحكام التشريعية التفصيلية، تتنزل في خضم هذه المواجهة؟ وما الذي جعل هذا كله يمتزج بآيات مقام النبوة؟..

ستكون طبعاً هناك نظرة سطحية ومتسرعة تتصور أن السياقات تداخلت بعضها مع بعض بسبب "توقيت النزول" لا أكثر، لكن الأمر حتماً أعمق من مجرد التوقيت؛ ذلك أن هناك شبكة من المعاني الداخلية تربط بين السياقات، وإن كانت تبدو للوهلة الأولى غير مترابطة.

النقاط على الحروف

سنلاحظ في الآيات التشريعية التفصيلية أنها كلها تدور

حول معنى واحد وإن اختلفت تفصيلاتها: معنى وضع النقاط على الحروف، وضع كل شيء في موضعه الذي يجب أن يكون فيه، توضيح الحدود في العلاقات بين الأشخاص والمفاهيم.

فلنأخذ هذا المعنى، ونقرأ آيات الأحكام من جديد، فإذا بكل حكم تشريعي يتوضح أكثر، وإذا به قد أنزل من أجل إلغاء الضبابية والمطاطية التي قد تطرأ على العلاقات والمفاهيم..

فالنهي الواضح عن الاستمرار بالأدعياء "التبني" و "المظاهرة" - أي أن يقسم الرجل أن زوجته عليه كظهر أمه - إنهاء لهذه الحالة الضبابية في العلاقات التي لا أساس بيولوجي لها، بل بمجرد كلمة تقال ومفهوم مطاط يتلبس العلاقات بين الأشخاص، وضعُ النقط على الحروف سيكون مرة أخرى واضحاً في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٨-٢٩]، أي إن الأمر هنا يتطلب الحسم: إما هذا، أو ذاك.. لا منطقة وسطى، لا خيار ثالثاً. والأمر ذاته سينسحب على "عدم الخضوع بالقول"؛ فالأمر هنا لا يخص القول نفسه، بل حتى لهجته ولحنه، لكي تكون الأمور واضحة ولا تترك المجال لباب مفتوح هنا أو نافذة مفتوحة هناك. يجب أن يكون القول "معروفاً" للجميع،

بمنتهى القطع والحسم الذي يمكن لكلمة أن تحمله. الوضوح نفسه الذي يتطلبه حدوث مشكلة بين زوجين (زيد ابن ثابت وزوجه زينب)، نعرف كيف يمكن لمشكلة من هذا النوع أن تقابل بمطاطية وميوعة في التشخيص، ومطاطية وميوعة في العلاج، والنتيجة أن المشكلة ستظل قائمة لأنها لم تواجه بوضوح، لذا جاءت الآية القرآنية **أقصى ما يمكن من وضوح للمشكلة وعلاجها**، وتجاوزت ذلك أن قامت "بنسف" عملي لمفهوم "الأدعياء" عبر تزويجه عليه الصلاة والسلام من زوجة زيد الذي كان ابنه بالتبني..

الوضوح القاطع نفسه سيتحلى في تبيان الطلاق قبل الدخول، وكيف إن كان نكاحاً اسمياً (لم يتحقق بالفعل) لا ينتج عنه "عدّة"، فالوضوح في حدود العلاقة هنا واضح من أجل الوصول إلى حكم شرعي لاحق.

الوضوح نفسه، **ووضع النقط على الحروف، وترسيم الحدود**، - يتجلى في آداب الدخول على بيوت النبي، في سياق يعدُّ تجاوز هذه الحدود وانتهاكها "أذى".. وسيحدد السياق، بوضوح أيضاً، أن علاقة المؤمنين بزوجات النبي ستكون **بضوابط** وحدود، وأنها ستكون من وراء "**حجاب**"، وأنها لن تصل يوماً ما إلى انتهاك هذا الحجاب من بعد الرسول عليه الصلاة والسلام..

الوضوح نفسه في العلاقة سيتجلى في تحديد "المحارم" الذين لا جُناح على المرأة معهن.. وبالتأكيد في "إدناء" الثياب كحد فاصل بين **المعرفة والأذى**..

كل هذه الآيات التشريعية، بتفاصيلها تصب في هذا المصب: توضيح "حدود" العلاقات بين الأفراد، وجعل المفاهيم التي تربطهم بعضهم ببعض واضحة وضوح الشمس.. لا لبس.. لا غموض.. لا ضباب.. لا مطاطية..

فلنتذكر أن هذا كله تنزل في أثناء حفر الخندق.. أي إن الآيات **كانت تحفر الخنادق وتوضح المفاهيم والحدود بينما كان الصحابة يحفرون الخندق على أرض الواقع..** ولنتنبّه هنا أن الخندق أنقذ دولة المدينة كما ستعمل **خنادق الآيات على إنقاذ وحماية المجتمع..**

التمادي الأصيل والكابح الضروري

لكن لماذا كل هذا؟..

ربما لأن الإنسان، بطبيعته، يميل إلى "التمادي"، يتجاوز عندما لا يجد رادعاً أمامه يكبحه، إنه يفعل ذلك كجزء من طبيعته الإنسانية، التي ستحتاج إلى "الكابح" و "الحد" لكي تتمكن من الاتجاه إلى الطريق الصحيح دون أن تتجه إلى طرق جانبية هنا وهناك. ولذلك نرى أن **الكوابح والحدود** - هنا في هذه السورة - تتركز على العلاقات الاجتماعية، العلاقات بين الآباء والأبناء؛ أو أدعيائهم، - بين الأزواج والزوجات، بين الرجل والمرأة عموماً، بين الناس عموماً في علاقاتهم بعضهم ببعض، بالضبط في حدود لا ينبغي تجاوزها في هذه العلاقات..

•

لماذا الحدود التفصيلية في هذا بالذات؟..

لأن هذه العلاقات، وبمختلف أنواعها، يمكن أن تتحول، إن لم تضبط وتقنن، إلى جبهات تستنزف جهود أفراد المجتمع، بل تستنزف حياتهم كلها، وتأخذهم إلى هذه الجهة، أو تلك، بين التمادي وخيبات الأمل والإحباط من جراء ذلك كله..

لذا، من أجل مسيرة أكثر رشاداً، وأكثر قابلية على تصويب الخطأ، وجدت هذه الحدود - الكوابح - لكي تسهل انطلاق الإنسان / المجتمع.. إلى حيث يجب أن ينطلق..

❖ ❖ ❖

لكن ما علاقة هذا النوع من التشريع بالسياق الآخر، السياق الذي يتحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام؟..

العلاقة بين السياقين هي أن الآيات الأخرى تتحدث أيضاً، بطريقة ما، عن تنظيم **علاقة شخصية أخرى..**

علاقة شخصية ليست ككل العلاقات، مع شخصية ليست ككل الشخصيات.. كل من تعرفه في حياتك من أشخاص، بخيرهم وشرهم، سيكونون في كفة، في ميزان، وهذه الشخصية ستكون في كفة أخرى، بل في مقياس آخر تماماً، خارج كل ما هو مشترك مع الآخرين..

إنه الشخص الأهم في حياتك..

بعبارة أخرى: إنه الشخص الذي يمكن أن يكون **كذلك..**

يمكن بمجموعة ضوابط وحدود ترسمها تلك الآيات..
عليه الصلاة والسلام..



يحدث كثيراً، أن نؤمن أن شخصاً ما قد يتمكن من تغيير حياتنا كلها.. أو من تغيير مسارها.. أو من ترك بصمة أو أثر لا يمحى من عليها.. (على الأقل)..

ويحدث هذا بالفعل أحياناً - ولكن نادراً - وغالباً ما نأمل ذلك من أشخاص قابلناهم للتو يتضح لاحقاً أن أثرهم النهائي على حياتك يمكن أن يهمل دون أدنى تأثير على محصلتها..

ولكن، هناك، مع كل ذلك، بعض الأشخاص يتمكنون من إحداث أثرٍ إيجابي مستديم على حياة الآخرين، ربما يكون ذلك عبر ارتباط مستديم متوازن، ارتباط عاطفي كالذي نأمل فيه دوماً، وقد يكون مجرد رفقة تجاوزت شروط الرفقة العادية لتتمكن من جلب الضوء..

وربما يكون ذلك أحياناً بطريقة شديدة الغموض والتعقيد: كلمة أو عبارة قيلت، من وجه تكاد تنسى ملامحه، لكن الكلمة تمكنت من اختراقك.. من زرع شيء في صحرائك، يذهب الوجه والشخص الذي خلفه.. ولكن تبقى الكلمة وقد حددت في داخلك تفاعلاً ما..

ربما من معلم ابتدائية تذكر اسمه فقط، وظل شاباً إلى الأبد في مخيلتك، بينما كبرت أنت وشخت، وظلت كلمته تلك علامة مضيئة على دربك..

ربما من شخص لم تخطط للقائه، ولم يلفت انتباهك يوم قابلته للمرة الأولى، لكن جملة قالها، في موقف ما، جعل الأمر كله يكون أفضل وأكثر إثماراً من ألف ميعاد..

يحدث هذا أحياناً.. ولكن نادراً.. وأغلب الأحيان تتشكل حياتنا وأنماط عيشنا وطرق تفكيرنا وفق قوالب معدة مسبقاً..

لكنه يحدث..

❖ ❖ ❖

من بين كل أولئك الأشخاص هناك استثناء كبير واحد..

هناك استثناء واحد من بين البشر أجمعين، يمكن له أن يكون تلك البصمة التي ستترك أثرها على حياتك..

لا، ليست البصمة.. بل ذلك الأثر المستديم الذي يغمر حياتك كلها.. يمنحها الضوء والهواء والخصب والمعنى..

شخص واحد، من بين المليارات، يمكن أن يكون أثره على حياتك أكبر من تأثير والديك وشريك أو شريكة حياتك، ورئيس عملك عليك.. أكبر حتى من تأثير رئيس بلادك عليك..

شخص واحد فقط، سيتمكن من فعل ذلك بحياتك..

شروط العلاقة مع الشخص الأهم في حياتك

لكن "تمكنه" هذا، وإن كان نهائياً ومحسوماً، فإنه مشروط أيضاً، بأن "تمكنه" أنت من ذلك..

أي إن تأثيره في حياتك، لا ينتج من معادلة هو طرفها الوحيد.. لكن هناك طرف آخر، هو أنت، يجب أن يشارك، كطرف فاعل في المعادلة.. معادلة الأثر والتأثير التي يقودها هذا الشخص تتطلب منك أن تتخلى عن دورك السلبي في الأحداث. كل الأشخاص الذين تتأمل أو تعتقد أنهم سيغيرون حياتك، يمرّون فيها بطريقة قدرية جداً، وتتلقى أنت مرورهم كما لو كان صاعقةً أو حادثاً أو أي شيء آخر لا قدرة لك على منعه أو جلبه.. معه، هو وحده، ولأن المعادلة التي يقودها مختلفة جداً، ولأن أثره لن يكون مجرد بصمة، بل سيدخل في تركيب كل جزيئة وكل ذرة في حياتك، فإنك يجب، من البداية، أن تأخذ دورك، أن "تمكنه" من أن يتمكن من ذلك..

معه، ينتهي دورك كمتلقٍّ سلبي لا يملك من أمره شيئاً.. عليك الآن أن تقوم، من أجل أداء دورك.. من أجل أن يحدث ذلك التفاعل الذي يضع حياتك في السياق الذي يجب أن تكون فيه..

لكن انتبه: ذلك الشخص، لن يدق بابك، لن تلتقيه في العمل أو في الجامعة أو في السوق..

ذلك أنه - من الناحية الفيزيائية - قد توفي منذ أكثر من ألف سنة..

لقد أدى شروط "تفاعله" في المعادلة، على أكمل وجه ومعنى ..بقيت الشروط التي يجب أن تؤديها أنت: كي يحدث التفاعل..

ولأنها يمكن، وفق هذه الشروط، أن تصبح العلاقة الأهم والأكثر إثماراً وإنجازاً في حياتك:

فإن هذه العلاقة، مثل كل العلاقات، يجب أن تكون مشروطة، محفوفة بضوابط.. كي تكون مثمرة.. كي لا تتحول إلى استنزاف، كما كل العلاقات التي رسَّمت حدودها آيات سورة الأحزاب..



ما الذي يعنيه هذا؟..

هل يمكن لعلاقتنا بالرسول الكريم أن تكون مشروطة؟.. يمكن لها أن تخرج عن مسارها الصحيح؟.. نعم، وسورة الأحزاب، التي وضعت حدود العلاقات بين الناس، وضعت أيضاً حدود علاقتنا وماهيتها بمقام النبوة..

بالضبط، لقد وضعت السورة خطين أحمرين يجب عدم تجاوزهما، وحددت في الوقت نفسه، طبيعة العلاقة الأكثر إثماراً وإنجازاً معه عليه الصلاة والسلام.. كيف؟..

لنبدأ بالخط الأحمر الأول..

الخط الأحمر الأول: بشرية الأنبياء

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٧]..

ميثاق غليظ، للنبيين؟..

قيل عن هذا: إنه العهد، والوفاء باليمين، وتعاهد الأنبياء على اتباع بعضهم بعضاً.. وكل هذا لا جدال فيه وفي صوابه.. لكن شيئين اثنين قد يجعلاننا نبحث عن تخصيص أعمق للمعنى:

الأول - أن السياق كله، في سورة الأحزاب، يتحدث عن حدود العلاقات الشخصية، وميثاق النبيين الغليظ يوحي في هذا السياق بوجود علاقة متبادلة بيننا كبشر، وبينهم كأنبياء، لكنه "ميثاق النبيين"؛ لأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام أجمعين - هم من يجب أن يحددوا ويوضحوا أسس هذه العلاقة مع أتباعهم: أن يمدّوها بالكوابح والروادع التي تمنع الأتباع من التجاوز.

الثاني - أن لفظ "الميثاق الغليظ" قد ورد في سياق آخر، يخص العلاقة الزوجية ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٤/٢١] وهي العلاقة التي رسمت حدودها أيضاً في الأحزاب، وهذه إشارة واضحة إلى وجود نوع من العلاقة في لفظ الميثاق الغليظ الذي أخذه الله من النبيين..

فما هو ميثاق النبيين بالضبط؟..

تسلط الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ

لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/٨١] **الضوء على الميثاق**، وهذه الآية تتوافق مع التأويل القائل بأنه عهد الأنبياء على أن يتبع بعضهم بعضاً، ولكن فلننظر إلى السياق الذي تنزلت فيه هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/٧٩-٨٠]..

الآيتان السابقتان لميثاق النبيين توضحان - بما لا مجال فيه للشك - أن الميثاق، يتحدد أولاً بهذا الكابح الرادع الذي على الأنبياء توضيحه وإرساء أسسه: **ألا يتحول الأنبياء أنفسهم إلى "أوثان"**، ألا يتحول الاتباع والاقتداء إلى تقديس مبالغ به وصولاً إلى **التأليه**..

هذا هو **الخط الأحمر الأول**، الذي كثيراً ما تجاوزته البشرية مع أنبيائها ومصلحيها وقادتها، ووضعتهم في الإطار ذاته الذي جاؤوا ليكسروا ويحطموا قوالبه: إطار **تقديس الأشخاص كأشخاص**، لذواتهم الخاصة، إطار يضعهم في مرتبة تفوق إمكانياتهم وتفوق حدودهم، وتجعلهم في مرتبة الألوهية ذاتها؛ سواء كان ذلك عبر افتراض "التماهي" مع الله عز وجل، أو أنه - تعالى شأنه - قد حلَّ فيهم، أو عبر أفكار أكثر سذاجة عن

إمكانات "لا بشرية" تجعلهم يفعلون ويلبون الاحتياجات حتى بعد وفاتهم.. وسواء كان المدخل إلى ذلك هو الميل الخرافي إلى المبالغة في تقديس الأشخاص، أو الميل إلى "التجسيم" باعتباره أكثر وضوحاً من الغيب الإلهي والمطلق الذي قد ينكص العقل الإنساني عن فهمه.. فإن النتيجة عبر المدخلين، هي واحدة: وهي أن هؤلاء الأنبياء والدعاة - وحتى الرجال الصالحون - سيتحولون عبر هاتين الآيتين - من قدوة هدفها الإصلاح، إلى أيقونات وثنية تكرس كل ما جاء هؤلاء لتحطيمه.. والأمر هنا لا يخص السيد المسيح فقط، وإن كان خير مثال عن ذلك الميل البشري إلى تجاوز الخط الأحمر وتأليه الأشخاص، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥/٥]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦/٥]، وما التأكيد القرآني على بشرية الرسل وعبوديتهم وأكلهم الطعام (في دلالة على حاجتهم البيولوجية للبقاء على قيد الحياة) إلا تأكيداً لهذا الخط الأحمر الذي ينبغي عدم تجاوزه، والذي أكده أيضاً عليه الصلاة والسلام، في نهيه المباشر والصريح

عن الغلو في الإطراء، الذي أدرك بحكمته النبوية أنه مع الوقت سيتحول من مجرد إطراء (قد يكون هدفه تكريساً عاطفياً للأتباع).. إلى شيء يقترب من المزالق التي سقطت فيها الأمم الأخرى.. (هل حدث ذلك أم لم يحدث؟..)..

علينا أن ننتبه هنا إلى أن التجارب التاريخية للمسلمين (وليس للإسلام) قد تجاوزت هذا الخط الأحمر وأكدت حقيقة هذا التمادي البشري، ما لم يكن هناك وعي بالرادع وبالخط الأحمر هنا، وهكذا فقد كانت هناك عوامل متعددة دفعت ببعض الفئات إلى التعامل بتمادٍ مع بعض الشخصيات التاريخية، التي كانت نماذجَ إيجابية (للرجال الصالحين) - ضمن إطارها الزمني والاجتماعي، لكن التمادي البشري فرّغها من كل إيجابية عبر تحويلهم إلى أيقونات وثنية تشفي بعد موتها من أمراض (كانت تصاب بها في حياتها!) وتلبي الحاجات من قبرها (حاجات لم تكن قادرة على تلبيتها في حياتها أيضاً!..) ومع أن عوامل متعددة (سياسية، عشائرية، طائفية - وحتى اقتصادية) تعمل على هذا الميل وتضخيمه، إلا أن "عدم الوعي" بهذا الخط الأحمر، والتأكيد القرآني على عدم تجاوزه - على كونه "الميثاق الغليظ" الذي أخذه الله عز وجل من الأنبياء.. عدم الوعي بكل ذلك، يسهل التمادي..

أو على الأقل: لا يكبح جماحه..

الخط الأحمر الثاني: أن لهم مكانتهم

أما الخط الأحمر الثاني، فهو الطرف الآخر من "التأليه".. إنه ما فعله بنو إسرائيل مع موسى، مقابل ما فعله النصارى بالمسيح.. إنه **"الأذى"** بالضد من **"التأليه"..**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦٩]..

الأذى الذي ذكره مرة أخرى في السورة، في الآية التي تلت أعلى مرتبة للنبوة، آية الصلاة على النبي، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٧]..

ونحن نعلم طبعاً أن الأذى بالمعنى الشائع لن يصيبه عز وجل، لا.. ولكن، مع الآية الأخرى، نفهم أن "الأذى" هنا هو الاتهامات الباطلة التي تمثل الخط الأحمر المضاد للتأليه، فبدلاً من ذلك الميل إلى التمادي في التقديس، هناك ميل آخر، بآلية مضادة، يعمل على اتهام الأنبياء، وإيذائهم، بطريقة تجعل من الخط الأحمر الأول شديد اللطف بالمقارنة..

تاريخ بني إسرائيل، كله، هو بالتأكيد تاريخ إيذاء لموسى بالذات، ابتداءً من ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٥/٢٤] - إلى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: ٧/١٣٨] - و ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ٤/١٥٣] مروراً بـ ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ

وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١/٢] - لكن السياق الذي هنا يقصد حتماً أذى آخرَ: أذى فيه تهمة باطلة طالت موسى بشكل مباشر، وليس مجرد "قعود" عن اتباعه.. قد يكون هذا الأذى هو ما كان يتقوله بنو إسرائيل عن موسى، وسبب حيائه من امتلاكه لعيب خلقي في عورته، وهذا ما ورد في التفاسير عموماً، وقد يكون الأمر أكبر من تفصيل صغير كهذا: لكنه حتماً يمس "الحياة الخاصة" لموسى، وللنبيين عموماً؟..

لماذا هذه الحتمية؟.. ليس فقط بسبب التفاسير التي فسرت أذى موسى، ولكن لتوازي ذلك مع أن السورة كلها تنزلت في فترة كان هناك نوع مماثل من الأذى يوجه بسهام المنافقين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأهل بيته.. وهو "أذى" لم ينحصر قط بتلك الفترة التي تنزلت فيها السورة، بل هو أذى سيستمر دوماً ما دام هناك صراع مع النفاق والكفر بأشكاله وأسمائه المتعددة. قد يكون ذلك تحت اسم "الاستشراق"، أو "البحث العلمي".. وقد يكون تحت أسماء وشعارات أخرى أكثر صراحة.. ولكن كلها ستصب في المصب نفسه في النهاية: إلحاق الأذى بخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام..

الهدف: قتل الاقتداء

فلنتنبه هنا أن الخطين الأحمرين، على تناقضهما الظاهري، يشتركان معاً، في نتيجة واحدة. على الأقل: إن تجاوزهما، أو تجاوز أي منهما، يقتل الدور الحقيقي للنبوة؛ يقتل الاقتداء، يقتل الاتباع، يقتل إمكانية أن يكون النبي

"قدوة"، يمكن أن يتمثل أحد من أتباعه به، أن يغير حياته كما فعل، أن يعمل من أجل إصلاح المجتمع كما فعل.

كيف؟.. ببساطة شديدة، لأن إسباغ صفات الألوهية على أي نبي، سيفسر كل ما أنجزه هذا النبي في حياته - من تغيير لحياة الآخرين، للعالم - بناءً على تلك الصفات الإلهية التي فيه.. وذلك ما لا تستطيع أن "تقلده" فيه.. لأنك لا تملك هذا الجزء فيه، وهذا يجهض تماماً دور القدوة، ويحول العلاقة من علاقة اقتداء واتباع (وهو الشكل المثالي للعلاقة) إلى علاقة تقديس وحتى تعبد..

وهكذا يتحوّل "القدوة" إلى "أيقونة"، ربما محاطة بمزيد من الهيبة والقداسة، ولكنها معطلة عن العمل الذي يجب أن يقوم به "النبي".. إنها كافة ومكفوفة لا عمل لها غير تلقي النذور وشفاء المرضى (أي أخذ دور الوثن الذي جاء الأنبياء للإطاحة به)..

الخط الأحمر الثاني يؤدي إلى النتيجة نفسها ولكن المدخل جاء من ناحية أخرى مخالفة تماماً، فالاقتداء والاتباع يقتلان أيضاً عندما يتلطخ "النبي" بالأذى ..لا يمكنك أن تقتدي به، إن كنت في قرارة نفسك قد اقتنعت أن "الأذى" الذي وجه له كان حقيقةً.. لا يمكنك أن تقتدي به، أن تجعله مثلَك.. أن تسير على خطه، حتى مسيرته كلها ستبدو مختلفة، وأقل شأناً وأقل جدارة بالاتباع..

هذا "الأذى" الذي وجهوه يستهدف أتباعه بالدرجة

الأولى، عبر الأزمان، يستهدف دور النبي كقدوة فاعلة ومتفاعلة مع أتباعها والمؤمنين بها..

.. وهكذا.. فإننا نرى أن دور النبي / القدوة، هو المستهدف في الحالتين: **التأليه - والانتقاص..**

والنتيجة واحدة، وإن كان الطريق إليها مختلفاً في كل مرّة..

الصلاة عليه: الضمانة ضد الخطين الأحمرين

أستطيع أن أزعم أن الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، تتضمن "الحصانة" ضد هذين الخطين الأحمرين، هذا إن فهمت طبعاً بشكل صحيح، متجاوزين اعتبارها أكثر من مجرد ألفاظ تقال للحصول على فضل قولها وأجره..

كيف ذلك؟..

بالنسبة إلى الخط الأحمر الثاني (الأذى) فهذا واضح، فمجرد الصلاة عليه، والقول أن "الله وملائكته يصلون عليه" يعني الإقرار بأنه قد نال شرفاً لم ينله أحد من البشر، وهذا ينفي حقيقة "الأذى" المفترى ويستأصله من جذوره..

أما الخط الأحمر الأول، أي ميل البشر إلى التأليه، فإنه يلغى بمجرد التفكر في معنى الصلاة "على النبي"؛ فالصلاة عليه، أي قول: "اللهم صلِّ عليه" تعني أنك تدعو الله عز وجل أن يصلي عليه: والصلاة من الله هنا "الرحمة" أو المغفرة، وأنا لا أناقش معنى "الصلاة على النبي" الآن، ولكني أنبه، أنك عندما تطلب من الله الصلاة

أو الرحمة له عليه الصلاة والسلام، فإن ذلك تلقائياً يضع سيد الخلق، خارج موضوع "التأليه" برمته.. أي إن الصلاة عليه، تحمل في طياتها الضمانة بألا تتحول لتصير الصلاة "له"..

وبعبارة أخرى: إنها تضعه عليه الصلاة والسلام خارج ميل بعض البشر إلى تأليه أنبيائهم، وخارج نية البعض الآخر إيذاءهم..

وهذا كله مجرد مقدمة..

لأن معاني الصلاة عليه تضم ما هو أكثر من ذلك..



فلنتنبه هنا أن المعنى السائد للصلاة عليه، "الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن المؤمنين دعاء" هو معنى واسع جداً. والبحث عن معنى آخر من زاوية أخرى يرتبط وظيفياً بالصلاة ككل، ومن خلال القرآن نفسه لن يشكل خروجاً عن المعنى السائد ولاسيما إذا لم يكن "يتعارض" معه، وإذا لم يكن يتعارض مع معنى قرآني آخر..

تحت المجهر، الصلاة على النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام..



الفصل الرابع

الصلاة على "الإنسان"..

ثلاث آيات تحت المجهر، قد تجعلنا نكتشف مجرات بعيدة، نحلق إليها، ثم نكتشف أنها موجودة في داخلنا..

ثلاث آيات تتحدث عن "الله" عندما يصلي على الإنسان، أو على نوع معين من الإنسان..

الآيات، في سياقها..

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٤-١٥٧]..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

[الأحزاب: ٣٣/٤١-٤٣]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٦]..

ثلاثة سياقات إذن، اثنان منها في سورة الأحزاب، ربما متقارب النزول، وواحد بتوقيت أبكر، في سورة البقرة.. وفي كل منها هناك "صلاة" من الله عز وجل على الإنسان.. لا، ليس على الإنسان بالمطلق، ليست صلاة على النوع الإنساني كله؛ بل على نوع من الإنسان..

فلنتنبه هنا إلى الملاحظات التالية:

١- الأولى: أن صلاة الله موجهة إلى الجماعة المؤمنة؛ إلى المجتمع المؤمن. والفرد الوحيد الذي وجهت إليه - بشكل منفرد - كان النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام. ولذلك معانٍ لا تخفى على الصعيدين: مفهوم الجماعة، ومفهوم الفرد.

٢- الثانية: أن السياقات الثلاثة جاءت كلها في المرحلة المدنية، كأن صلاة الله على المؤمنين جاءت كاستحقاق لمرحلة لاحقة تلتحم فيها الفكرة مع تطبيقها. كأن ذلك لا يمكن أن يكون إلا عندما تنطلق العقيدة من الرؤوس إلى الواقع لتعمل على إعادة صياغته.

٣- الثالثة: أن السياقات التحمت بعضها مع بعض في السياق الثالث، وتوجت بالأمر الذي يربطها جميعاً: الأمر الإلهي للمؤمنين بأن يصلوا على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام..

فلنتفحص السياقات الثلاثة.. لعل تداخلها ينير لنا دربنا.

الصلاة على بناة الحضارة الأوائل

السياق الأول جاء في مرحلة مدنية مبكرة على الأغلب، حيث إن سورة البقرة هي أول ما أنزل من القرآن الكريم في المدينة.. والسياق يوضح صعوبة المرحلة، فالمناخ المحيط بالآية، يؤكد لنا ما نعرفه من صعوبة المرحلة المدنية المبكرة، والجهد الشاق الذي بذله الجيل الأول في إرساء دعائم الحضارة الأولى..

فهناك من "يقتل في سبيل الله"؛ أي يدفع حياته ثمناً لقضية حضارة هي "في سبيل الله"، ولأنه دفعها ثمناً لقضية، فإن أثره لم يزل، مع أنه مات، لكنه ظل حياً - ما دام أثره الاجتماعي ظل قائماً - ما دام موته لم يذهب سدى - بل تراكم مع أفعال الآخرين، وحياتهم وموتهم أيضاً في سبيل الله لينجز "حياة" أفضل، "عالماً" أفضل..

وهناك أيضاً "الخوف" على القضية، على الحضارة الوليدة، و "الجوع" في عالم غير متوازن يزداد فيه الأغنياء شبعاً والفقراء جوعاً، و "نقص من الأموال" التي هي وسيلة مساعدة لتحقيق مشروع إعادة البناء و "الأنفس" التي من دونها ستكون الأموال بلا فائدة و "الثمرات" التي هي الحصيلة النهائية، والتي لم تأتِ بعد لأن العمل لم ينجز بعد.

إنها صورة لوضع متعب بالتأكيد، لكنه ليس محبطاً على الإطلاق. إنه وضع يشبه ولادة متعسرة في ظروف صعبة.. الأم التي تعاني آلام المخاض لا يمكن لها أن تنسحب.

ليس عندها هذا الخيار أصلاً.. عليها أن "تصبر" ذلك الصبر الإيجابي الفعال لكي تنتزع لوليدها الحياة من براثن الواقع الصعب..

وهؤلاء أيضاً، الذين في الصورة التي تقدمها الآيات، لديهم الصبر نفسه، لديهم المخاض نفسه، رجالاً ونساءً، ولذلك تأتيهم البشارة بعد كل ذلك الجهد والمشقة: و "بشر الصابرين"؛ ذلك أن صبرهم لم يكن صبر السكون والموت والجثث الهامدة، بل كان صبر الفاعلين: صبر المصرين على انتزاع معنى جديد للحياة: معنى الحياة الحقيقية..

دربهم ليس معبداً بالورود - هؤلاء الصابرون - لكن من قال: إن الدرب إلى الحياة الحقيقية يكون معبداً بالورود؟.. أبداً، بل لعل الصواب أنه غالباً ما يكون مفروشاً بالأشواك والزجاج المطحون.. ورد فعلهم تجاه هذا لا يكون منطلقاً من إعادة البناء والعمل، لذلك فإنهم عندما تصيبهم مصيبة - في مخاض صعب أصلاً - فإنهم يقولون: "إنا لله وإنا إليه راجعون" ليس كما نقولها طبعاً، أي ليس بالطريقة التقليدية التي تعطي معنى الاستسلام، هنا المعنى يرتبط فوراً بما قاله رائد من رواد تلك الرحلة العريقة، وستكون "إنا لله" هنا، وجهاً آخرَ مما قاله إبراهيم عليه السلام: "إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله"، وهل نحن، في النهاية، غير هذه الأشياء مع بعضها؛ فإما أن تكون لله، أو أن تكون لغيره، وها هم أولاء يقولونها: "إنا لله"، ليس بالمعنى التقليدي الذي

نقصد فيه أن الكل في النهاية سيذهبون إليه (عند الموت!)؛ بل يقصدون "إنهم لله": **إن حياتهم كلها، أعمالهم كلها، جهدهم كله.. له.. لله..** وشتان ما بين المعنيين..

هنا، في خضم المخاض الصعب، يأتي نور ساطع، يحمل البشارة: أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة..

لقد استحقوا الصلوات عليهم من ربهم..



والسائد من التفاسير في تأويل هذه الآية الكريمة، لا يرى أن صلوات الله هنا "رحمة" - كما في السياقين الآخرين - لسبب بسيط وهو أن لفظ الرحمة جاء في السياق.. وهذا يعني أن الصلوات غير الرحمة..

قيل إنها المغفرة من ربهم..

وقيل أيضاً إنها الثناء من ربهم عليهم..

وهم "**يستحقون**" ذلك.. لن يعارض ذلك أنهم قد يستحقون شيئاً آخرَ.. ربما "الصلوات" تتضمن الرحمة والمغفرة والثناء.. وأيضاً شيئاً آخرَ..

الصلاة من أجل الإخراج من الظلمات

في السياق الثاني، يؤكد الفعل الإلهي ويعطف عليه فعل الملائكة، وهو الأمر الذي جعل التأويل يفصل بين صلاة الله على الذين آمنوا وصلاة الملائكة عليهم؛ فإن كانت صلاة الله تعني الرحمة فإن ذلك ليس بمقدور الملائكة؛ ولذا استقر معنى الصلاة على المؤمنين بأنه من الله

الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، أي طلب المغفرة لهم منه عز وجل ومن المؤمنين الدعاء..

لكن في الآية شيئاً آخر يلفت الانتباه، وهو أن الله يصلي على الذين آمنوا **ليخرجهم من الظلمات إلى النور..** أي إن الآية هنا، تجعل من **صلاة الله على المؤمنين سبباً لخروجهم من الظلمات إلى النور..**

وطبعاً للرحمة الإلهية أشكال ومظاهر متعددة، لكنها هنا نوع خاص من الرحمة بالتأكيد.. كل ما في هذا الكون ينتمي لرحمته عز و جل بطريقة أو بأخرى.. لكن الصلاة هنا إن كان معناها رحمة فهي بالتأكيد رحمة يستشعرها المؤمنون بكثافة أكبر، بحيث إنها تخرجهم من الظلمات إلى النور... إنها رحمة، ولا بد بشكل خاص، بحيث إنها **تأخذ أيدي المؤمنين**، وتقود خطواتهم.. خطوة خطوة، من الظلمات إلى النور.



فلنتابع هذا الطريق (خطوة خطوة) من الظلمات إلى النور.. ولنرَ أي نوع من الرحمة هذه هي التي فتحت - قرآنياً - الطريق من الظلمات إلى النور.. فعبر استقراء الخطوات، قد تستطيع أن تفهم كيف صارت صلاة الله، على الذين آمنوا إخراجاً لهم من الظلمات إلى النور..

هناك ست آيات قرآنية كريمة، شهدت على الخروج من الظلمات إلى النور.. اثنتان منها مكيتان، والأربع الباقيات مدنية:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١/١٤]..

﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥/١٤]..

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧/٢]..

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣/٣٣]..

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٩/٥٧]..

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطلاق: ١١/٦٥]..

لنعزل الآن آية سورة الأحزاب لأننا نريد أن نفهمها من خلال الاستقراء العام، ولنحاول أن نحلل بقية الآيات ومفاهيمها..

هناك آية واحدة من الآيات ارتبطت بالكتاب بشكل مباشر [إبراهيم: ١/١٤]، وآيتان ارتبطتا بالآيات البينات أو المبينات (من الكتاب أيضاً) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩﴾ [الحديد: ٩/٥٧] **و** ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ

ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ٦٥/١١]..

أي إن هناك ثلاث آيات ارتبطت بالكتاب، أو بآياته، بشكل مباشر، ورأت أن عملية الخروج من الظلمات إلى النور مرتبطة بالكتاب..

هناك آية واحدة فقط من الآيات الست، تتحدث عن سياق آخر غير سياق الرسول الكريم والذين آمنوا به؛ أي عن رسول آخر، وهو موسى ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١٤/٥]، وهذه الآية على مسافة ثلاث آيات فقط من ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١] كما لو أن المعنى هنا، يعطي للرسول الكريم، وللمؤمنين من بعده، مثالاً عن عملية "خروج" اجتماعي قام بها موسى من الظلمات إلى النور (مع ملاحظة أن موسى قاد خروجاً لقومه، إنما مهمة الرسول الكريم كانت إخراج "الناس" - كل الناس - من الظلمات إلى النور..).

إذن ثنائية الرسالة - الكتاب، متوافرة في هذه الآية أيضاً - فلا يبقى إلا آيتان الآن..

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]..

الله وليهم إذن، وذلك بالتوازي مع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]..

إنه وليهم، والولي هو الناصر في لسان العرب، والولاية لا تكون إلا بتوافر ثلاثة أشياء "التدبير - والقدرة - والفعل"، وعندما يكون الله ولياً للذين آمنوا، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فذلك يعني أنه **ينصرهم؛ يمدهم بالقوة..** في خروجهم ذاك، من الظلمات إلى النور..

لكن عملية "الولاية" هذه، بمعنى النصرة والإمداد بالقوة، لن تكون إلا ضمن سياقها؛ السياق الذي أنزلت هذه الآية ضمنه، فلم تنزل هذه الآية إلا بعد أن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] - وتبيان الرشد من الغي، والعروة الوثقى والاستمساك بها، لا يكون إلا عبر **الرسالة والكتاب والنبوة**، وهو ما يتوضح في متابعة آيات الولاية نفسها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥/٥٥]، وصحيح أن "الولاية" ستكون في معظم الآيات لله، إلا أن سياق تبيان الرشد من الغي والاستمساك بالعروة الوثقى سيحدد اتجاه هذه الولاية وبوصلتها: نحو الرسالة والكتاب والنبي.

وهكذا فإن "الولاية" - التي ستخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور - **تتطلب التبيان والوضوح**

والاستمساك.. وكلها أمور لا توفرها إلا الرسالة والكتاب والنبي الذي جاء بهما.. يقدم عبرها "عروة وثقى" مثل حبل متين، نتمسك به لنخرج عبره من الظلمات.. إلى النور..



عندما تتداخل آيات الخروج من الظلمات إلى النور، سنرى فيها ثابتاً أساسياً، يدور حول الرسالة/ الكتاب، أي حول الرسول أو النبي..

دوماً هناك "رسول" ملازم لعملية الخروج من الظلمات إلى النور، سواء كان ذلك ممثلاً في موسى أو في الرسول الكريم، النبي الخاتم، والكتاب الذي معه، والآيات المبينات التي ميزت الرشد من الغي..

دوماً هناك "الرسول" في ذلك الخروج المبين من الظلمات إلى النور..

تلازمٌ لم ينفك في خمس من الآيات التي تحدثت عن ذلك الخروج..

ولا يمكن إلا أن يكون في الآية السادسة..

لابد أن يكون "الرسول" موجوداً هنا أيضاً..



إذا كانت صلاته عز وجل "على المؤمنين" تعني الرحمة.. فهي رحمته بهم بإرساله الرسول إليهم، بكتابه الذي أنزله معه، بالآيات البينات، بتبيانه الرشد من الغي..

يصلي عليهم، بأن رحمهم.. بأن جعل للنوع الإنساني كله - من بينه - رسولاً يساعدهم في ذلك الخروج من كل تلك الظلمات، إلى كل ذلك النور.. ويتوافق ذلك مع كونه، عليه الصلاة والسلام، لم يرسل إلا رحمةً للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧]..

رحمة نعم.. لكن ليس أي رحمة؛ بل رحمة بهذا المعنى: بمعنى الرسالة، والرسول الخاتم..

الصلاة من أجل إمدادهم بالقوة؟

لكن تداخل هذه الآيات، مع آية البقرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ٢/١٥٧] قد يجعل من المعنى أكثر كثافة وتركيزاً..

فلنتذكر أن السياق هناك كان سياق المجاهدة والبناء، لدرجة دفع الحياة ثمناً من أجل قضية للحياة.. سياق الصبر الفاعل والمتفاعل تأتي البشارة الإلهية تحمل لهم "الصلوات والرحمة"..

هل الاستغفار هو الذي يبرز في سياق كهذا؟..

أم أنه المعنى الذي رأيناه قبل قليل، في واحدة من آيات الخروج، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]..

وليهم وينصرهم، يمدهم بالقوة؟..

ألا يحتاج مشهد البناء والمجاهدة - في تلك اللحظة

المرهقة - إلى الإمداد الإلهي بالقوة؟.. ألا تبدو "الصلوات على المؤمنين" هنا تقوية إلهية لهم؟ إمداداً عاجلاً بالقوة في لحظة يحتاج فيها المؤمنون إلى ذلك؟..

أين دور الرسول في ذلك؟..

أكبر إمداد للقوة هو أن يمدك الله عز وجل بنموذج للقوة.. تمشي على هداه وتسير على خطواته.. خير مثال للقوة، هو أن تتجسد في مثال عملي.. في قدوة إنسانية تتمكن عبر التفاعل والتواصل معها من تقوية نفسك..

ستبدو "الصلوات على المؤمنين" إمداداً إلهياً يمزج بين القوة كقوة، وبين المثل النبوي المجسد لها..

وسيبدو السياق هنا أكثر تناسقاً من الصلوات بمعنى الاستغفار، دون أن يلغيه تماماً.. فالمغفرة الإلهية للمؤمنين تمدهم بالقوة أيضاً.. وتزيدهم إصراراً على المضي في الطريق..

مخاض النور..

والمدد الإلهي بالقوة، حاضرٌ أيضاً في صلاته عز وجل على الذين آمنوا لإخراجهم من الظلمات إلى النور..

ذلك أن خروجاً كهذا احتاج دوماً، وسيظل يحتاج، إلى قوة استثنائية..

البقاء في الظلمات، رغم الظلمات، أسهل من عملية الخروج.. ولو إلى النور..

البقاء في الظلمات، رغم أنها ظلمات، يمكن أن يجعل

المرء يتعود عليها، يتقولب عليها، يألفها، وربما حتى يحبها.. يحبها لأنها عالمه، جذوره فيها، نشأته فيها.. ولهذا فهو يحبها إلى درجة أنه لا يستطيع تركها، ولاسيما إذا أقنعوه أن تلك الظلمات ليست مظلمة حقاً، أقنعته عيونه وأهدابه أن النور كل النور فيها.. وأن كل ما هو خارجها هو الظلام الحقيقي..

سيقتنع الإنسان في تلك الظلمات أنه خفاش لا حياة له خارج تلك الظلمات..

حتى عندما يقتنع، فإن خروجه من تلك الظلمة سيحتاج إلى "قوة" ..إلى مدد إلهي..



والخروج من الظلمات إلى النور هو مثل عملية ولادة، مثل مخاض صعب يخوضه الإنسان ليخرج خلقاً آخرَ..

وإذا كان المخاض الأول الذي نأتي من خلاله إلى العالم يحدث بشكل لا إرادي..؛ فإن هناك مخاضاً آخر إرادياً، وواعياً، نخوضه بأنفسنا، ولا يخوضه أحد بالنيابة عنا، وهو لا يقل ألماً ولا قداسة عن المخاض الأول.. كل طلقة من طلقاته تحتاج إلى "قوة".. كل طلقة من طلقاته تحتاج إلى مدد إلهي يساعدك على تلك الولادة الجديدة.. الولادة الأهم ..ولادتك أنت.. خروجك من الظلمات إلى النور..

❖ ❖ ❖

وهو عز وجل، يصلي عليك.. يمدك بالقوة، يمنحك القوة لتساعدك في ذلك الخروج.. في تلك الولادة..

لقد بعثه لك خصيصاً ليخرجك من ظلماتك إلى نوره..

بعثه إليك، إلي، إلينا جميعاً، كي يكون هناك، يعطينا من قوته، كي نولد على يديه من جديد..

أفضل من أي جرّاح، أكثر مهارة من أي مجموعة تمريض متخصصة: على يديه - من جديد..

عليه الصلاة والسلام..

سراج في الظلمة

خيط رفيع جداً، يفصل أحياناً بين أكثر الأمور تناقضاً..

الفرق بين الحياة والموت جوعاً قد يكون في نصف رغيف خبز.

والفرق بين الحياة والموت عطشاً قد يكون في كأس من الماء..

(مع ذلك يموت الناس في هذا الكوكب عطشاً وجوعاً، يالبخل القلب الإنساني)..

الفرق بين الفجر، والعتمة خيط واحد..

والفرق بين الظلمة والنور.. شمعة واحدة.. شمعة واحدة فقط، يمكن لها أن تفصل بين الظلمة والنور..

أو سراج منير واحد، يمكن له أن يكون الفيصل بين الظلمات كلها والنور كله..

سراج منير..

هذا هو..

إنه السراج المنير، الذي بعثه الله لنا، ليخرجنا من الظلمات إلى النور..

ليست مصادفة - طبعاً - أن يكون وصفه تعالى للرسول الكريم بأنه "سراج منير" قد جاء في سورة الأحزاب.. وهي السورة التي حددت كل ما سبق ..﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٥-٤٦]..

وليس مصادفة أن هاتين الآيتين جاءتا عقب آية الخروج من الظلمات إلى النور، بالذات من أنه عز وجل يصلي علينا لنخرج من هناك إلى النور..

إنه يصلي علينا، بمعنى أنه يرحمنا، **أرسل لنا ذلك الرجل عليه الصلاة والسلام..** ومنحنا القوة التي تلزم لذلك المخاض..

ثم أعطانا السراج المنير، الذي هو الفارق بين الظلمات والنور.. كل ما في صلاة الله على الذين آمنوا، لابد أن يؤدي إليه عليه الصلاة والسلام..

كما لو أنه الخروج من الظلمات إلى النور، لابد، حتماً وطبعاً، **أن يكون من خلاله وعبره وبمعيته..**

عليه الصلاة والسلام..

كل معاني الصلاة في الصلاة عليه

ماذا تعني الصلاة على محمد، عليه الصلاة والسلام، بهذا المفهوم؟..

ماذا يعني أن الله يصلي عليه، عليه أفضل الصلاة والسلام؟..

السائد أنها الرحمة منه تعالى، والثناء والتمجيد له في الملأ الأعلى..

وهذا لا يمنع طبعاً أن يكون هناك معانٍ أخرى، متضمنة في الرحمة الإلهية لسيد الخلق.. معان لها خصوصية تميزها عن صلاة الله على المؤمنين عامة، وتكون مناسبة لمكانته عليه الصلاة والسلام بصفته خاتم النبيين، بصفته الإنسان الذي تمكن من نقل مجتمعه - والعالم من بعده - من ذلك القاع، إلى تلك القمة التي وصلها، في عقود ثلاثة فحسب.. الصلاة والسلام عليه..



نعم الرحمة، ونعم الثناء والتمجيد.. ونعم الإمداد بالقوة والنصرة..

ونعم كل معاني الصلاة، كل معاني البناء، كل معاني النهوض، كل معاني القيام التي تجسدها الصلاة، كل معاني إعادة بناء العالم، كل معاني الإيجابية التي ضمنت في الصلاة؛ ترتبط هنا في الآية والأمر الإلهي، وفي

تنفيذها الذي صار جزءاً ختامياً من الصلاة، كلها، صارت مرتبطة به - عليه الصلاة والسلام - **لأنها لا يمكن أن تتم، أو أن تنجز إن لم تكن على هديه وخطاه عليه الصلاة والسلام..**

كما لو أن صلاة الله عز وجل على "النبي" عليه الصلاة والسلام تعني جعله، عليه الصلاة والسلام، يصل **إلى المستحقات الأرضية التي تجعله مؤهلاً للمرتبة الإنسانية العليا**، هناك عند ربّ العزة..

ما هي المستحقات الأرضية؟.. هي كل ما يجب إنجازه على الأرض في الفترة التي أعطيت لكل منا عليها (أي حياتنا)، **هي كل ما يجب عمله في هذه الأرض، من استخلاف فيها وإقامة للعدل والحق..**

وكل ما جسدته الصلاة عبر هيئاتها ومعانيها، كل ما وظفت الصلاة من أجل تكريسه فينا..

كأن صلاة الله عز وجل على محمد هي أن يمده بالقوة ليجعله كل ذلك، ليجسد فيه، كإنسان، كل معاني الصلاة، كل معاني إقامة الصلاة: إقامة الإنسان، الذي يقيم الحضارة..

وكأننا عندما نصلي عليه، نطلب منه عز وجل أن يجعله كل ذلك.. في كل كلمة قالها وكل فعل فعله.

حتى بعد وفاته أن يجعله يستمر عبر قيامنا نحن بذلك.. بأن يجعله يستمر عبر سيرنا على خطواته..

لماذا الملائكة أيضاً؟..

ربما لأنهم سبق أن أبدوا استدراكاً على النوع الإنساني، يوم أعلن الله عز وجل لهم أنه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠] فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٢/٣٠]..

مرت الأيام، وكان هناك بشر يثبتون دوماً أن الملائكة كانوا على حق، وآخرون كانوا ينحازون حتى لإبليس، فينفذون ما أقسم أنه سيفعله.. ولكن.. جاء وقت، وجاء فيه بشر آخرون استطاعوا فعلاً أن يصلوا إلى المكانة التي أرادها الله لهم؛ مكانة الاستخلاف..

وجاء وقت، ووجد الملائكة أنفسهم، هم الذين وقفوا من الأمر - يوم كان - موقف المتسائل - وجدوا أنفسهم، وهم يصلون على هذا الإنسان، يطلبون من الله أن يمده بالقوة، أن يوصله لمرتبته العليا، أن يسهل له استحقاقاتها..

جاء وقت كهذا..

وسيجيء دوماً، مادام هناك إنسان يسير على خطاه عليه الصلاة والسلام.

معنى البركة: سر الاستمرار

والصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - ارتبطت في الصلاة، بدعاء البركة له.. عليه الصلاة والسلام

"اللهم بارك على محمد..". والبركة هنا هي تأكيد لكل ما سبق، وتثبيت له، إنها دعاء بأن يثبت ما سبق ضد عوامل الزمن والتعرية والمتغيرات..

إنها دعاء بأن يدوم ذلك النماء الذي جسدته الصلاة، أن يستمر، أن يثبت كما يبرك الجمل على أرض ما..

إنها دعاء بثبات كل ما سبق من إيجابية، من إنجاز، من قيم النهوض.. إنها دعاء بأن يستمر كل ذلك، متحدياً قوانين الأفول.. ليسَ عبر محض التحدي الفارغ، بل عبر فهم نقاط القوة واستثمارها، وفهم نقاط الضعف ومحاولة تجنبها..

إنها "البركة" التي قد تكون في أرض مباركة، أرض تمكن من استخلفها من تحقيق استثمار طويل لخيراتها ولظروف إنتاجها.. تمكن من جعلها مستمرة بالإنتاج..

وقد تكون البركة في شخص "مبارك"، لا يقتصر أثره على حضوره الجسدي، بل يبقى أثره الإيجابي حتى بعد أن يمضي، في كلماته، في أفعاله، في الاستمرار بطريقة ما..

وقد يكون في "أهل بيت"، في أسرة تمكنت من أن تكون مثالاً نابضاً بالفعالية والحيوية؛ وليس مجرد أناس يتشاطرون سكناً واحداً وتربطهم علاقات قربى..

وقد يكون في "أمة"، تظل منبعاً للقيم، تظل مصدراً للإشعاع، تظل حضارتها مثالاً يحتذى به..

ويكمن كل ذلك في "الاستمرار"، سر البركة هو في استمرار المعنى وإن تبدلت أشكاله ومظاهره.. أن يتقمص

الجوهر أعراضاً مختلفة لكنه يظل هو هو، في جوهره.. بل يظل يمتد في الزمان والمكان، متوسعاً - متمدداً - ناشراً خيره وقيمه إلى آفاق أبعد من تلك التي ولد فيها..

الدعاء بالبركة هو الدعاء بالخروج من حيز الزمان والمكان المحددين للإنجاز، إلى آفاق أبعد زمانياً ومكانياً.. **إنه دعاء مضاد لكل دعاوى "التاريخية" التي تحاول حصر الإنجاز المحمدي داخل إطار تاريخي وجغرافي ضيق،** وتحولها إلى تجربة "متحفية" غير قابلة لإعادة التطبيق أو حتى الاقتداء..

لكن كيف يمكن أن يتحقق هذا الاستمرار.. هذه البركة..؟

قبل محاولة الجواب عن هذا السؤال، هناك سؤال آخر..

لماذا إبراهيم؟..

لماذا ربطت الصلاة على محمد والبركة على محمد عليه الصلاة والسلام بالصلاة على إبراهيم عبر تشبيهها بالصلاة عليه؟ لماذا إبراهيم تحديداً؟.. ربما يجب أن نتنبه هنا أن صلاته عز وجل - على محمدٍ عليه الصلاة والسلام - جاءت **بالصيغة المستمرة،** بالمضارع المستمر الذي يشير إلى **الزمن الحالي والزمن القادم في آن واحد..** بينما جاءت الصلاة على إبراهيم **بصيغة الفعل الماضي،** كما لو أن الدلالة هنا، أن كل الأنبياء وكل الذين آمنوا بهم، يحصلون على "الصلوات" في زمنهم؛ زمن الدعوة والبناء وبذل الجهد من أجل إقامة العدل وحضارته..

أما "محمد"، النبي الخاتم، عليه الصلاة والسلام، ولأن رسالته هي الخاتمة، فإن الصلاة الإلهية عليه جاءت **بالصيغة المستمرة**، وستظل تحل عليه وعلى المؤمنين به وأتباعه، ممن سيحملون (حقاً) سراجه المنير، ليسيروا على خطاه، ويعبّدوا الطريق، ويبنوا حضارة الغد على نوره..

لكن مرّة أخرى، لماذا إبراهيم تحديداً؟..

القطيعة المستحيلة والتراكم المتباعد

مكانة سيدنا إبراهيم أبعد من أن تختصر الآن وقد حاولنا الدخول فيها أكثر من مرة، لكن الإشارة هنا ربما ترتبط بما بين المسيرتين، وبين السيرتين، من "فجوة" زمنية قد تتجاوز الألف سنة (إن لم يكن أكثر، فلا أحد يعلم على وجه اليقين متى كانت المسيرة الإبراهيمية)..

ونحن ندعو الله أن يصلّيَ على محمد - عليه الصلاة والسلام - كما صلى على إبراهيم، وأن يبارك محمداً كما بارك إبراهيم، ليس بالرغم من هذه الفجوة الزمنية الشاسعة.. بل بسببها بالذات، فهذا الترابط بين المسيرتين - وبينهما أكثر من ألف سنة - سيعطيك الشعور الراسخ بأن المسيرة يمكن أن تتواصل وأن تترابط ولو توقفت لألف سنة..

وهذا الترابط سيشعرك بأن الشعلة قد تخبو لألف سنة، حتى يعتقد من يعتقد أنها قد انطفأت، لكن السراج المنير، وآليات عمله، يمكن لها أن تتغلب على فجوات كهذه

وتواصل، مما سيبدو أنه لا شيء.. لكنه في الحقيقة.. امتداد وجسرٌ لتلك الفجوة التي قد تتعدى القرون..

سيبدو الأمر، كما لو أن الرماد يغطي العالم كله، يحكي قصة ألف سنة من الانطفاء..

ولكن من تحت الرماد، سيأتي النور.. ليحدث ذلك الفرق بين الظلمات والنور..

(النور، لا النار..).



وهذا يعني أن الاستمرار كامن في المسيرة، وإن توقفت، وإن بدا أن الخطا تراجعت، وإن سار الجميع في طريق آخر، طريق مختلف، طريق باتجاه معاكس.. لكن المسيرة، رغم القطيعة، رغم الفجوة، ستنبعث، ستجد من يجعلها حية..

ولو بعد ألف عام..

آليات الاستمرار..

لكن كيف؟ وأين؟ وما الذي يجعل هذا الاستمرار كامناً وممكناً؟.. إنه السؤال نفسه الذي تركناه عن سر البركة.. بطريقة أو بأخرى.. والجواب ليس بعيداً على الإطلاق..

هذه المرة ليس نصف الجواب في السؤال..

بل كله..

إننا نذكر الجواب أصلاً.. حرفاً بحرف..

نذكره فيما يسمى الصلوات الإبراهيمية.. عندما نقول، بالحروف:

وعلى آل محمد..

الجواب عن الاستمرار، عن الكمون، يكمن هناك في "الآل"..

منظومة الصلاة لن" تناقض" نفسها

فلنتذكر أننا قد وصلنا النهاية، وأن تتابع السياق في كل خطوة من خطوات الصلاة قد كان متناسقاً داخل "منظومة" معينة، يمكن أن نسميها "منظومة صلاة"؛ منظومة كل ما فيها يعيد بناء الإنسان وتركيبه على أسس قيم جديدة تنحو نحو الإيجابية والنماء وتحقيق العدالة في الإنسان والمجتمع..

كل ما كان، منذ دعاء الاستفتاح، بل منذ النداء إلى الصلاة، كان يصب في هذا الاتجاه، في تصاعد مستمر، ولا يعقل أن تكون نقطة النهاية، خارجة عن هذه المنظومة.. ولا يعقل أكثر، أن نصل نقطة النهاية، لنجد معنىً معاكساً، لكل ما سبق تكريسه عبر المنظومة نفسها..

ولا يعقل أبداً، أن نصل نقطة النهاية، لنجد معنى كانت قد حاربته واستأصلته المنظومة القرآنية برمتها..



وللأسف، فإن المعنى السائد (في عمومه) للآل، هو

معنى لن يتناسق مع معاني منظومة الصلاة، إن لم يكن سيتعارض ويتناقض معها..

فالمعنى السائد للآل، الذي يفسر الآن بأنه قرابة الدم والنسب، أي المعنى البيولوجي المباشر البحت، هو حائط مسدود في نهاية الطريق سيكون الوصول إليه إحباطاً كبيراً بعد أن كان الطريق واعداً بالنماء والخصوبة..

المعنى البيولوجي للآل، لا معنى له هنا، لا موقع له من الإعراب ضمن منظومة الصلاة، لأنه - ببساطة - سيربط نهايات الأمور برابطة تم نسفها أصلاً عبر الخطاب القرآني..

كانت واحدة من أهم آليات "النسف" قد رسخت في سورة الأحزاب نفسها.. التي حفرت الخنادق ورسّمت الحدود في العلاقات بين الناس..

والعلاقة مع النبي عليه الصلاة والسلام..

رصاصة الرحمة على مفاهيم النسب

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠]..

هذه الآية تلغي تماماً - مرة واحدة وإلى الأبد - **أهمية علاقة قربى الدم بالرسول**.. وتحدد أيضاً طبيعة العلاقة: إنه الرسول وخاتم الأنبياء الذي **علاقتنا به علاقة اتباع**، ولا شيء غير ذلك..

والاستدراك هنا، في الآية، يلغي أي علاقة أخرى محتملة من النوع نفسه.. إنه ليس - ولم يكن - أباً لأي من رجالكم، ولكنه رسول الله الذي ختم النبوة، وأنهى - مرة واحدة وإلى الأبد - كل التعقيدات والمضاعفات التي يمكن أن تنتج عن كون النبي له ذرية....

هذه التعقيدات المحتملة اجتماعية بطبيعتها، وكانت ستجعل لهذه الذرية مكانة معينة، قد لا تكون هذه الذرية مكافئة لها، وهذا قد يؤدي إلى أن يساء استخدام هذه المكانة.. وهذا أمر افتراضي ما دام أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن أباً لأحد.

وهكذا فإن ابن نوح - مثلاً - لم يكن كفؤاً لمكانة والده، ولم يكن أولاد يعقوب كلهم بالمكانة نفسها، وقد استوضح إبراهيم، عندما جعله الله إماماً للناس، بعد أن أتمَّ الكلمات بالعمل والتطبيق فسأل الله إن كانت ذريته ستنال شرف الإمامة أيضاً: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٢٤] - فمجرد كون الذرية مرتبطة بعلاقة قربى مباشرة للنبي - مهما كانت مكانته - لا يمنحها خصوصية وتميزاً إلا إذا قرنت ذلك بالعمل الصالح وباتباع ما كان عليه الآباء..

وهكذا فإن الانتماء بالقربى لنبي، لن يمنح أي أحد بطاقة بيضاء تخوله أن يتصرف بمعزل عن اتباع هذا النبي وأوامره.. وسيكون معيار الاتباع هو معيار تقييم هذه الذرية، وليس معيار "الجينات" التي تحملها وشجرة النسب التي تعتز بها..

وهكذا فإننا سنرى في ذرية النبيين ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ١٩/٥٩]..

وضمن كل هذا، كان الخطأ يحدث في ذرية النبيين، لكن آلية التصحيح كانت تأتي عبر نبي آخر، في الذرية نفسها، يصحح ما بدر من انحراف لذرية النبي السابق.. وقومه..



لكن هذا كله كان يجب أن ينتهي..

كان على العقل الإنساني أن ينضج بما فيه الكفاية ليتجاوز هذا الأمر؛ ليتجاوز مفهوم السلالة المقدسة والدم المقدس التي كانت ستظل تؤخر مسيرته، ستظل تشعره أن هناك دماً أفضل من دمه، وأن هناك من يولد وهو يمتلك شرفاً لم يتعب في الحصول عليه..

وكان لابد لذلك أن يكرس عبر اقترانه بختم النبوة..

أي أن (يحرم) النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام - من أن يكون له عقب من أولاد ذكور..

وهكذا اقترن ختم النبوة، بختم هذا المفهوم، بنسفِه إلى الأبد..

هنا تنتهي خرافة النسب. وأوهام القرابة وإيديولوجيا الانتظار...

هنا نقطة النهاية على ذلك كله...

فلنتنبه هنا إلى النص القرآني يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠].. أي إن النفي هنا يخص الرجال وليس الأطفال، لأنه عليه الصلاة والسلام، كان أباً لأولاد ذكور لم يصلوا الرجولة، بل إن ابنه إبراهيم ولِدَ في مرحلة لاحقة لتاريخ نزول السورة، لكنه كما هو معلوم توفي وهو طفل صغير، إذن شاءت الحكمة الإلهية أن يكون حرمان النبي الكريم من رؤية أولاده الذكور وهم يكبرون، ولكن كان ذلك ثمناً مقبولاً مقابل درس مهم للإنسانية؛ درس الخروج من مفهوم قداسة السلالة المنتمية لشخص ما مقدس..

درس الخروج من عالم **الأشخاص وسلالاتهم، إلى عالم أفكارهم وهو العالم الحقيقي الذي يجب الولوج فيه والاستفادة منه..**

ماذا عن أبوته للنساء؟

لكن لِمَ لم ينف النص القرآني أبوة محمد عليه الصلاة والسلام للنساء أيضاً؟.. بعبارة أخرى، لِمَ شاءت الحكمة الإلهية أن يكون محمداً عليه الصلاة والسلام أباً لنساء؟..

في الحقيقة إن السؤال الذي يجب أن يطرح معاكس تماماً؛ السؤال هو: هل كان يجب عليه أن يكون بلا ذرية تماماً لكي تفهم الإنسانية الدرس؟.. أما كان ذلك سيكون مدخلاً للطعن الشخصي في الرسول الكريم؟.. أما كان

ذلك فتح باب تجاوز الخطين الأحمرين اللذين مرَّ ذكرهما: خط التأليه الذي كان سيفسر عدم الإنجاب على أساسات تفترض أن شخصاً كان (بعض إله) لن يدنس مكانته بالإنجاب.. تعالى الله عن الحلول والاتحاد مع أي كان، حتى لو كان نبيه الخاتم..

من جهة أخرى، في الخط الأحمر الثاني، كان عدم الإنجاب سيفتح باب "الأذى" الشخصي الذي سيفترض وجود خلل ما أو عيب ما، أدى لعدم الإنجاب، وهو عيب ما كان سيعيب أي أحد يصاب به، لكن ألسنة المنافقين كانت ستلوك في ذلك..

لكن الحكمة الإلهية شاءت أن تعطي لنا مثالاً تطبيقياً من كل ما قدمته الآيات: لقد كان رجلاً من لحم ودم، هذا الذي بعثه الله لنا، كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، عليه الصلاة والسلام، مثلنا جميعاً، وكان يتزوج، مثلنا أيضاً، وينجب الذكور أو الإناث.. كما يحدث معنا..

لكن أولاده الذكور توفوا جميعاً، لكي يتكرس درس الآية العظيم ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠]..



لكن بناته بقين وتزوجن.. وواحدة منهن، السيدة فاطمة، أنجبت.. لقد أنجبت ذكرين اثنين هما السبطان الحسن والحسين..

السؤال الذي يجب أن يطرح هنا: هل كان على السيدة فاطمة ألا تنجب أبداً، أو تنجب الإناث فقط، كي تتمكن

البشرية من استيعاب الدرس.. استيعاب أن محمداً ليس - ولم يكن، ولن يكون - أباً لأي من رجالنا؟..

ماذا عن أولاد ابنته؟.. إنهما، عليهما السلام، أولاد أبيهما، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؛ وليسا أولاد النبي عليه الصلاة والسلام، وإن كانا حفيديه لابنته - لكنهما لن ينسبا إلا لأبيهما، هذا ما تقرره سورة الأحزاب أيضاً، في خندق آخر من خنادقها، ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥/٣٣] والآية لا تخص "الأدعياء"، بل هي عامة لأي أحد، ادعوهم لآبائهم ..﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب: ٥/٣٣]، أي إن عدم معرفة الأب، كان سيحل رابطة عامة هي رابطة الدين، بديلاً عن رابطة الدم والعشيرة والدم الافتراضي والقربى الافتراضية..

وهكذا فإن الأمر محسوم تماماً، ولم يذكر في القرآن الكريم أبداً، أن يكون ابن البنت، ابناً للجد بالمعنى الذي تركب وساد لاحقاً؛ بل إن الحالة الاستثنائية الوحيدة لولادة من غير أب - السيد المسيح عليه السلام - لم تنسب لعمران والد مريم؛ بل لمريم نفسها، ولو أن النسب كان يمكن أن يكون للجد والد الأم لكان حدث ذلك فعلاً..



على أننا هنا يجب أن نوضح وجود التباس في المفاهيم، بين مفهوم "الآل"، الذي تم تخليصه تماماً من

مفهوم القرابة، وبين مفهوم "أهل البيت" الذي هو مفهوم أكثر خصوصية، ويتضمن فعلاً القرابة بالنسب والدم: زوجات الرسول وبناته وذرياتهم.. لكننا في الصلاة، في ذروتها تحديداً، لا نصلي على أهل البيت، عليهم السلام جميعاً، بل نصلّي على الآل..

نذكر هذا، لنفك الاشتباك بين المفهومين..



الفصل الخامس

المفهوم المضيء للآل

المفهوم الآخر للآل، ليس جديداً وهو جزء مما كان العرب يدركونه ويفهمونه ويفهمون تنوعه في لسانهم ولغتهم، وكان "الآل" يعني - بالتأكيد ودون جدال - الأهل والقرابة، وهو المعنى الذي ساد لاحقاً..

لكن الآل كانت تعني أيضاً ما هو أكثر من ذلك..

وكان توظيفها القرآني، باستمرار، نحو هذا "الأكثر من ذلك".. نحو الأفق الأوسع للكلمة..

وهذا الأفق الأوسع لا يلغي المعنى السائد طبعاً.. إنه ليس موجهاً بالتأكيد ضد "القرابة" أو ضد ذرية النبي وأحفاده وأحفاد أحفاده، لكن حتى هؤلاء يصيرون خاضعين لمعيار مختلف، هم وغيرهم، وهذا يجعلهم داخلين ضمناً في المعنى الأوسع، إن هم وافقوا تلك المعايير..

مرة أخرى: المعنى الأوسع للآل لا يلغي المعنى السائد، ولكنه يوسع حدوده، ويضع معايير أدق..

لا شيء بالتأكيد ضد قرابة النسب. بحد ذاتها.

لكنها ستستبعد بالتأكيد كمعيار..

الآل قرآنياً...

أوضح مثال على ذلك، هو السياق الأكثر استخداماً لكلمة "آل" في القرآن الكريم..

مفردة "آل" وردت في القرآن الكريم (٢٦) مرة، نصفها بالضبط كانت تخص فرعون، أي آل فرعون..

هل هناك من يتصور أن المقصود من "آل فرعون" قرآنياً هم قرابته المرتبطة بنسب أو مصاهرة؟.. هل هناك من يتصور أن آل فرعون، هم أزواجه وذريته؟ أو على الأقل، هل هناك من يتصور أن المقصود هم أزواجه وذريته حصراً؟..

المعنى بالطبع أوسع، والقرابة لن تخرج بالضبط من المعنى الأوسع كما هو واضح؛ لكن معظم السياقات التي ورد فيها "آل فرعون" كانت تخص ما اتفق عليه المفسرون من "الأتباع".. ومن أهل دين فرعون وأهل مصر في وقته عامة، أو أمته..

وهذا المعنى يتناسق مع عموم السياقات القرآنية بخصوص آل فرعون.. وسيكون منطقياً أكثر أن أتباع فرعون هم "المغرقون" وليس مجرد أقربائه...

لا ينفي هذا أن "الآل " استخدمت في مواضع أخرى بشكل يجعلها قريبة من معنى القرابة، لكن هذا كان دوماً للتغليظ على من يخرج من الأتباع وهو ضمن القرابة: كما في امرأة نوح و امرأة لوط..و يقوي ذلك إخراج ابن نوح

من مفهوم الأهل كلياً ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ﴾ [هود: ١١/٤٦]، فذلك للتغليظ على من يخرج من الآل (الأتباع) رغم قرابته، بل إني أزعم هنا، أن تأكيدات من هذا النوع، ووعيداً لشخص من أقارب الرسول (عمه تحديداً) كان يرسم بالتدريج معنى مختلفاً للآل في أذهان المؤمنين، (ولاسيما في مفهوم آل فرعون) فالآل في الأصل كانت تعني القرابة، لكن المعاني لم تبق كما كانت منذ أن جاء القرآن ليبني عالماً جديداً ممكناً.. كل شيء صار له معنى آخر أكثر قرباً من الجوهر بشكل جديد، لم ينته "الدم" بالضبط، لكن **العلاقات نفخت فيها روحاً جديدة، وصار للآل معنى جديد.**

الأولون والآل

يندر أن نجد تفسيراً من التفاسير لم يتطرق للاختلاف في معنى الآل، مع أن المعنى السائد شعبياً يحصره -فيما يخص آل محمد عليه الصلاة و السلام- في القرابة..

لكن هذا الحسم السائد لم يكن موجوداً، وقد نقلت لنا كتب التراث أقوالاً عديدة لعلماء مهمين، كانت ترى في الآل معنى أوسع من معنى القرابة، وجمعت أحياناً بينهما..

رجح النووي مثلاً أن **الآل هم الأمة جميعاً** (موسوعة الفقه الإسلامي)..

وقال آخرون: إن **الآل هم جميع أمة الإجابة**.. وإليه

مال مالك والأزهري والنووي من الشافعية، والمحققون من الحنفية، وهو القول المقدم عند الحنابلة (الموسوعة الفقهية ١/١٣)..

وعبارة صاحب المغني (ابن قدامة): آل محمد (عليه الصلاة والسلام) هم **أتباعه على دينه** (المغني ٢/٣٣)..

ونقل صاحب غذاء الألباب في شرح منظومة الأدب (١/٣٠) عن ابن القيم عدة أقوال في الآل إلى أن قال: (القول الثالث: آله: **أتباعه إلى يوم القيامة**، حكاه ابن عبد البر، وأقدم من روي عنه هذا القول جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) ذكره البيهقي واختاره بعض الشافعية، وغالب علمائنا المتأخرين في مقام الدعاء خاصة.. والقول الرابع: إن آله هم **الأتقياء من أمته**، حكاه القاضي حسين والراغب وجماعة من العلماء..

ونقل ابن القيم في جلاء الأفهام (١/٢١) عن الذهبي:

آل النبي هم أتباع ملته على الشريعة من عجم ومن عرب
لو لم يكن آله إلا قرابته صلى المصلي على الطاغي أبي لهب

ونقل عن صاحب الإقناع: الآل هم الأتباع على الدين. وجاء في فتح الباري (٨/١٣٧): أنهم كل الأمة، وفي تحفة الأحوذي: الآل أهل الرجل وأتباعه وأولياؤه. وجاء في إعانة الطالبيين (١/١٤): **الأصحاب جميعاً من الآل**، (أي لا داعي لذكر (وعلى صحبه) إلحاقاً في الصلاة على الآل، وهو ما لم يثبت في السنة على أي حال، لكن لأنهم أصلاً متضمنون في الآل)..

وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٤/٥٥): **الآل: أهل الرجل وأتباعه، ولا ينفي هذا الاقتصار على البعض منهم في بعض الحالات..**



بالإضافة إلى كل ذلك فإن المعنى القاموسي للآل يتضمن، ضمن تنوع المعاني الموجودة: الأتباع.. المعنى في ذلك موجود حتى في جذر الفعل آل: رجع، فالمرجع ليس فقط في قرابة الدم، بل هو أوضح وأجلى في قرابة الفكر والعقيدة، وهل من مرجع **لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام إلا محمد نفسه؟..**

ما الذي حدث لمفهوم الآل؟

لكن لماذا ساد معنى القرابة حتى صارت كأنها مترادفة مع الآل؟..

لماذا صرنا نتصور أن آل محمد - عليه الصلاة والسلام - هم أقاربه وذريته وأحفاده إلى يومنا هذا؟..

ألا ينطبق هذا المفهوم على آل إبراهيم بالضرورة، فيجعل من الصلاة على آل إبراهيم - بمعنى القرابة إلى يومنا هذا - تشمل أحفاد بني إسرائيل، الذين نعرف أنهم استحقوا الغضب واللعنة؟..

ما الذي حدث لمفهوم الآل حتى استقر بهذا الشكل، بعد أن كان هناك ذلك المفهوم الآخر؟..



الذي حدث هنا هو من بعض الخلط والاشتباك بين مفهوم "آل البيت" ومفهوم "الآل" كما أسلفنا. ومفهوم "أهل البيت" أخص من الآل، ويحتمل ألا يقصد به غير القرابة ولاسيما أن سياق الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٣] كان الحديث في الآية موجهاً إلى زوجاته عليه الصلاة والسلام، ولكن الآية لم تذكر نون النسوة في "عنكم"؛ لكي لا يحصر معنى أهل البيت في الزوجات فقط، بل يلحق به الذكور من الأقارب أيضاً..

إضافةً إلى ذلك، فإن تحريم الصدقة على "آل محمد" في أحاديث صحيحة معروفة، قد جعل من بعض الفقهاء والمفسرين يحصرون معنى "الآل" فيمن حرمت عليهم الصدقة من بني عبد المطلب، وبني العباس.. إلخ. والحق أن التحريم النبوي للصدقة كان مرتبطاً بهدف تربوي واضح وهو منع استغلال القرابة للنبي للحصول على أموال بلا عمل منتج، وهو هدف يمكن الحسم بأن المقصود فيه بالتدريج كل أتباع محمد الحقيقيين، الذين ركبتهم عقيدتهم وإيمانهم على العمل الصالح المنتج؛ أي على رفض البطالة ورفض قبول الصدقات إلا استثناء..

وبكل الأحوال فإن هذا الأمر، فضلاً عن كونه مرهوناً بمرحلة تاريخية معينة - لا يمكن أن يخصص ١٣ آية قرآنية ورد فيها الآل بمفهوم أبعد من مفهوم القرابة..

وللحقيقة، فإن جزءاً من اللبس والاشتباك بين المفهومين، يعود في جذوره إلى خلافات تاريخية وصراعات سياسية على السلطة، فليس سراً أن بعض أقطاب الصراع، والمطالبين بالسلطة، كانوا يمتلكون صلة نسب تعود لهذا العم أو ذاك من أعمامه عليه الصلاة والسلام، وهو أمر ما كان سيبرر احتكار السلطة بكل الأحوال، لكن تجييش العواطف تجاه "آل محمد" - عليه الصلاة والسلام - وعدّهم أنهم هم "الآل" دوناً عن غيرهم، كان سيعطيهم تلك المكانة المميزة، وسيجعل لهم سطوة وهيبة وحتى قداسة، قد تمنحهم الحصانة (وربما أشياء أخرى معها) في أذهان من التبس عندهم الأمر من عامة الناس..

كل هذا تداخل وتفاعل ليجعل هذا المفهوم الآن سائداً بهذا الشكل؛ ليجعل صلاتنا تنتهي عند ذلك الحائط المسدود، بعد أن كانت كل خطواتها السابقة، تهيئنا للانطلاق.. للتحليق نحو عالم جديد نبنيه بأنفسنا..

المفهوم الحركي الآل..

لكن ماذا عن المفهوم الآخر للآل؟..

كيف يمكن أن يتناسق وينسجم مع كل ما سبق من معاني الصلاة؟.. ولاسيما أن الصلاة ستنتهي هنا، ستنتهي بالآل، ستنتهي "وعلى آل محمد" صلاة ومباركة،مرتبطة بشكل وثيق بما قبلها من الصلاة على إبراهيم، وعلى آله، ومحمد عليهم الصلاة أجمعين..

في الحقيقة إن المفهوم الحقيقي للآل لن ينسجم فقط مع كل منظومة الصلاة بكل تركيباتها، بل إنه سيكون بمنزلة الهدف الأساسي منها.. سيقف مفهوم (آل محمد) في نقطة النهاية كما لو أنه الهدف الذي انطلقنا إليه منذ دعاء الاستفتاح، بل منذ النية، منذ أن لبينا النداء.. نداء الدعوة إلى حياة مبنية على الصلاة..بفارق أنهم هناك ليس لشفاء مريض أو قضاء حاجة من حوائج الناس..

سيقف آل محمد هناك، عليهم الصلاة أجمعين، كما لو أنهم ينتظرونك هناك.. لكنهم لن يكونوا لشفاء مريض أو قضاء حوائج الناس..

لا.. إنهم هناك لسبب آخر تماماً..



المفهوم الحقيقي للآل مفهوم حركي - ديناميكي - مختلف تماماً عن المفهوم الجامد السكوني للآل، الذي سيحيلك إلى القرابة البيولوجية التي لا يمكن التحقق منها بعد القرون المتطاولة، المفهوم الحقيقي للآل يحيلك إلى معنى آخر تماماً، وبدلاً من ذلك الحائط المسدود، يفتح لك نافذة على الآفاق المفتوحة، يعطيك المنصة للانطلاق.. للتحليق، للتحقيق..

لتحقيق ما خلقت من أجله..

الآل.. الآل يفعلون ذلك؟.. نعم.. إنهم يفعلون!

كيف؟..

عندما ينفتح مفهوم الآل ليخرج من أسر القرابة البيولوجية التي نسفها - كمعيار - القرآن الكريم،وهي قرابة حتمية لا إرادية يولد الإنساني فيمتلكها أو لا يمتلكها؛ إلى مفهوم الاتباع الذي يفعله الإنسان بإرادته وبوعيه، ليكون ولادته الجديدة التي يخوض مخاضها (بكل مصاعبها وآلامها) بإرادته هو..

فإن المخاض سيجيئه إلى هنا، إلى الآل..

بالذات في ذروة الصلاة..



عندما يخرج مفهوم الآل من سكونيته إلى منطقته الحرة المفتوحة، فإنه سيتسع ليتضمن إمكانية انضمامك إليه..

لن يكون الأمر سهلاً أو هيناً، لكن لا يوجد شيء خطير في هذا العالم، شيء يستحق الاهتمام، إلا وكان صعباً بل وشاقاً..

نعم، ليس الأمر سهلاً، وهو إضافة إلى ذلك تكليف وليس بالتشريف، وهو لا يشبه الحصول على بطاقة نسب تجعلك تزهو بين الناس..

إنه جهدك، إنه عملك وعرقك وكل ما هو أنت.. كل محياك، كل مماتك، يمكن أن يصب ليكون جزءاً من عملية **انضمامك إلى الآل..**

الانتماء إلى آل محمد

والانتماء إلى الآل عملية معقدة وبسيطة في آن..

بسيطة لأنها لا تشترط على أحد أن يكون من عرق أو لون معين، وليس عليك أن تكون ابناً لفلان أو علّان لقبول طلبك بالانتماء..

يمكن ألا تملك "واسطة" من أحد، وألا يكون عندك معارف على الإطلاق، لا بطاقة توصية مهمة من شخص ما مهم..

ومع ذلك، مع كل ذلك، يمكنك الانضمام..



وهي معقدة، لأن الانضمام إلى الآل ليس عملية دخول "مرة واحدة إلى الأبد.." أو إلى آخر حياتك..

لا، عملية تجديد الانتماء وتقييمه تتم دوماً، ربما كل دقيقة، وكل لحظة من حياتك، لذلك فإن الخروج من الآل، بعد الانضمام المبدئي أمر ممكن ووارد جداً..

لكن العودة إليه ممكنة أيضاً..

إنه مفهوم حركي مرن، يتوسع فيضمك، يتقلص فيخرجك.. وآلية القبض والبسط هذه لا تعود لأمور خارجة عن إرادتك..

إنه أنت من يقرر هذا.. أنت بعملك - بجهدك - من يتحمل مسؤولية انضمامك.. أو خروجك.. بقائك.. أو

عودتك.. وبين خيارات عديدة، ومفترقات طرق عديدة، سيكون هذا القرار، قرار الانضمام؛ البقاء - الخروج، ليس أهم قرار تأخذه في حياتك فحسب..

بل هو القرار الذي يختصر كل القرارات في حياتك.. كل ما ستأخذه من قرارات، كل ما ستحسم أمرك عنده، كل ما سيبدو مجرد أمر شخصي (ولا يخص أحداً سواك) سيرتبط بطريقة ما بذلك القرار.. بالبقاء في الآل.. أو بالخروج منه..



شرط واحد فقط.. سيفرضه عليك الانضمام للآل..

شرط واحد فقط، لكنه شرط قد يستغرق من الفرد حياته كلها، ومن الأمة متطلبات وجودها..

لكن هذا الانتماء بشقيه الفردي والاجتماعي لن يترك الفرد على حاله.. ولا الأمة على حالها..

الفرد يصبح إنساناً آخر..

والأمة لا تكون أصلاً.. إلا عبر هذا الشرط..

إنه شرط الكينونة.. والوجود الحقيقي..



ما هو هذا الشرط الذي لن نكون حتماً (أي كما يجب أن نكون) إلا عبره؟..

الاتباع!..

الاتباع: حقاً..

سيقولون: فسرت، بعد الجهد، الماءَ بالماءِ!..

لكن الأمر ليس كما نتصور؛ فمن بين كل المفاهيم التي اختزلت وقزمت فشوهها وأخل بها الاختزال، **فإن مفهوم "الاتباع" تعرض لتقزيم ربما هو الأكثر تأثيراً** مادام مفهوم "الاتباع" له، بطبيعته، نتائج عملية تطبيقية.. وعندما يتعرض مفهوم سلوكي - تطبيقي، له نتائج عملية مباشرة للاختزال والتقزيم، فإن ذلك، يجر بشكل مباشر أيضاً كل "المفاهيم" الأخرى التي ينبغي تطبيقها..

أي إن مفهوم "الاتباع" هو مفهوم مفتاحي لمفاهيم أخرى، وربما لكل ما يمكن تخيله من "مفاهيم" و "مثل" جسدت مسيرته عليه الصلاة والسلام..

وهكذا فإن الخلل في فهم "الاتباع" قد يؤدي إلى الإحباط والشلل في منظومة "القيم الفاعلة" كلها، أي سلب فاعليتها منها.. ومن ثم تحييدها عن الفعل والتفاعل..



ولأسباب كثيرة، ليس هنا مجال الخوض فيها فإن مفهوم الاتباع تقزم، وأدى ذلك إلى تحويله إلى "**آلية**" **تقليد بعض المظاهر، وبعض الهيئات، وبعض الأذكار، فاعلة تماماً ضمن دائرة القيم الأوسع؛ ولكنها بفاعلية أقل حتماً عندما يتم إخراجها عن سياق القيم..**

بعبارة أخرى: لا أحد يمكنه أن يقلل من دور المظاهر أو الهيئات باعتبارها جزءاً من الهوية الشخصية الحضارية، لكن ذلك يجب أن يكون مرتبطاً بشكل وثيق بالقيم والمكونات التي تؤسس هذه الشخصية، أي بالجوهر الذي يعبر عنه بالمظهر وبالهوية..

تقليل أهمية المظهر تتم في الحقيقة عبر الإصرار على اعتبار أن المظاهر منفصلة عن الجوهر، وأن الهوية هدف منفصل بحد ذاته ومستقل عن أي قيمة أخرى..

تفاعل مستمر دوماً..

اتباعه عليه الصلاة والسلام عملية تفاعل تقوم بها أنت، عملية "تحول" تمر بها بشخصيتك، بنفسيتك، بكل ما هو أنت، بدوافعك، بغاياتك، بآلياتك.. بكل تفصيل من تفاصيلك..

الاتباع هو عملية "تتبلور" فيها أنت من جديد، إنها عملية تعيد فيها تركيب ذاتك، وتعيد فيها تركيب أولوياتك.. وتعيد حتى تركيب جزيئاتك.. وعناصرك.. وذراتك.. تعيد تحريرك من ماضيك، من أغلالك وسلاسلك، وتطلقك نحو دائرة الفعل والفاعلية..

والاتباع - بهذه الطريقة - ليس بالضبط سيراً خلف خطواته عليه الصلاة والسلام في مسيرته النبوية، بل هو استمرارٌ في المسيرة كما لو أنه ما يزال يقودها...

إنه أن يتمثل - عليه الصلاة والسلام - في كل خطوة تخطوها.. إنه أن يكون هنا، يكون هناك، يكون في كل

مكان.. لا بمعنى الحرز والحماية (التي لم يبعث عليه الصلاة والسلام من أجلها على الإطلاق)، ولكن بمعنى أن تسأل نفسك في كل خطوة وكل موقف وكل مفترق طرق: ماذا كان سيفعل هنا عليه الصلاة والسلام؟.. أي طريق كان سيأخذ؟.. وأي شيء سيقول؟..

إنه أن يكون دوماً هناك مصدراً للإرشاد.. سمه "الضمير".. سمه "الذات العليا".. سمه "الطراز الأصيل".. وأضف إلى هذه التسميات ما شئت وما شاء أي أحد.. المهم أنه هناك، في أعماقك، بطريقة ما يقوم بدوره الذي يجعلك تقوم بدورك..

حجر أساس للنهضة: إرث محمد

اتباعه - عليه الصلاة والسلام - لغرض الانتماء إلى الآل أعمق بكثير من مجرد "تقليد" أعمى.. على العكس إنه اتباع مبصر، مستنير بالسراج الذي كانه الرسول عليه الصلاة والسلام..

إنه "اتباع" لخطواته عليه الصلاة والسلام، دون تفريق بين خطوة وأخرى هناك؛ إنه اتباع له بينما هو يزيح الأذى عن الطريق، واتباع له بينما هو يبني مجتمعاً جديداً من اللا شيء.. إنه اتباع له في تفاصيل طهارته الجسدية، واتباع له في نقاء أخلاقه وتهذيبه.. إنه اتباع له في رحمته وفي شدته، في توازنه وعدله، في خطواته الصغيرة، وفي مسيرته كلها..

مسيرة النهضة والنهوض التي جعلت العالم كله يتغير في مخاض استمر ثلاثة عقود فحسب..

إنه استناد إلى إرثه النبوي ليكون حجراً أساساً لنهضة لم تعد ترفاً، فإما هي أو الانقراض..



كل ما في "إقامة الصلاة" كان يعدّك، يمهدك، بالتدريج لتنضم إلى آل محمد..

كل ما في "إقامة الصلاة" من معان وقيم ومثل، ما كان ليتحقق عملياً، لولا أنها جميعاً تجسدت في رجل واحد، هو ذاك الذي نحاول أن ننضم إلى آله، عليه الصلاة والسلام..

كل "معاني إقامة الصلاة" لن تتحقق، إلا عبر اتباعنا له عليه الصلاة والسلام.. لأنها كلها لن تتحقق إلا إذا حاولنا تفعيلها، وتفعليها لن يكون ممكناً إلا عبر التواصل. معنى اتباعه - عليه والسلام - معادلة متصلة ومتواصلة لن تتكامل إلا بتحقيق طرفيها..

الصلاة في نتائجها

كل المعالم التي وجدناها في الصلاة، في أركانها وهيئاتها، في استفتاحها وتكبيرها وفاتحتها وتسبيحها؛ كل المعاني والقيم في ذلك جسدها - عليه الصلاة والسلام - عبر كل حياته.. لا يمكن فهم سيرته الشريفة حقاً دون فهم تلك المعالم في الصلاة، ولا يمكن فهم النقلة

الاجتماعية والنهضة التي شكلها الإسلام دون فهم انعكاس هذه المعاني على المجتمع قيد التكوين..

لقد أعادت الصلاة تشكيل "صورة الذات" في الذهن الوليد فقامت برفع التوقعات عن الذات، وساعد ذلك في تشكيل ذات أخرى: ذات إيجابية، ذات تتوقع من ذاتها كثيراً.. ذات "تقتحم" المغلق، وإن كان العالم كله، كان ذلك منذ البدء، منذ دعاء الاستفتاح، الذي فيه ضمناً طلب للفتح، وقد يكون فتحاً للعالم بأسره.. وفيه أيضاً ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٣] تكريساً لإمكانية أي فرد أن يكون "الأول" في أي مجال.. وكان هناك "الله أكبر" الذي يعني أن كل ما سواه عائق وعقبة أمام الفرد المسلم أو المجتمع المسلم..

وكان هناك "الحمد" سلاح الإيجابية وجناحها المستديم الذي يضع "عدسة" لاصقة على عيون المصلي؛ فإذا بكل المصاعب يمكن أن تزول عبر العمل، وكل ما ينبغي استبداله في العالم، قابل للاستبدال عبر الكفاح من أجل ذلك..

وإذا بالهوية التعريفية لله عز وجل - ثلاثية الأركان - تؤصل في داخلك تواصلاً مع ربّ العالمين، متجاوزاً قومياتهم أو أعراقهم وألوانهم أو ثراءهم أو فقرهم؛ إنه ربهم جميعاً بنقطة انطلاق يتساوى فيها الجميع.. ورحمته التي كتبها على نفسه (ولم يكتب على نفسه شيئاً سواها) مبنية أصلاً على التوازن والنظام الذي بنى العالم عليه -

(وهو التوازن الذي يحاول الإنسان تغييره عبر الظلم والإفساد).. ورحمته فوق ذلك تمتلك هامشاً إضافياً، يتجاوز هذا التوازن..

وسيكون هناك ذلك القيام الشامخ الذي يحمل كل معاني الاستخلاف وفعل ما يجب فعله، وذلك التواصل بين الإبداع المنضوي تحت قواعد القيم الأخلاقية (الممثلة في وضع اليمين على الشمال أثناء القيام).. وذلك السجود الذي يمثل الخضوع الكامل الذي مهَّد له الركوع الذي يمثل خضوع العقل أولاً وتواصل ذلك مع الأرض موضع الاستخلاف الذي يجب أن نعيد تكوينه ليحدث "فرقاً"..

كل تلك المعالم، وسواها، مما مرّ علينا في الأجزاء السابقة، ومما سيمر على آخرين يغوصون وينقبون بحثاً عن المزيد من المعاني؛ كل هذه شكلت "البنية الفوقية" لما حدث لاحقاً على صعيد الفرد والمجتمع والمسلمين..

لا يمكن فهم كل تلك المعالم حقاً إلا عبر تتبع أثرها، عبر تجسدها العملي في ذلك الفرد الذي أصبح أمة..

وأمة الأميين تلك، التي أعادت كتابة التاريخ: "واقتحمت" العالم بروح رسختها فيها الصلاة.. لتعيد تشكيله..



الانتماء إلى آل محمد، يتطلب كل ذلك، أن تستمر المسيرة المحمدية عبر آل محمد، أتباعه من الذين يشكل محمد عليه الصلاة والسلام - وكل ما يجسد من قيم -

سراجاً ينير لهم الدرب الذي يشقونه.. يعبدونه، نحو عالم جديد يبنونه بالسراج نفسه..

ولن يكون سهلاً بالتأكيد، لم يكن سهلاً في يوم من الأيام، كما أنه ليس سهلاً اليوم، فكل ما حولك يقدم لك نماذجَ أخرى وقوالب مغايرة تومئ لك بأن تقلدها وتقتدي بها..

لكن مجرد الوعي بذلك - مجرد التشخيص، قد يخفف (نظرياً على الأقل) من وطأة الأمر..

التحدي والحافز

والتحدي الأساسي في الانضمام إلى آل محمد عليه الصلاة والسلام، هو أنه وصل ذروة ما يمكن أن يصله إنسان.. إنه الإنسان العدل، **الإنسان الأكمل، إنه النموذج الأعلى للإنسانية برمتها..**

وهذا يمكن أن يكون صعوبة عندما يتعلق بالاتباع.. فالوصول إلى مثل كهذا أمر في غاية الصعوبة..

ولكنه من ناحية أخرى، يمكن أن يكون حافزاً لك: رفع مستوى مثالك إلى السقف الأعلى الممكن، سيجعلك تحشد كل طاقتك، لتحاول أقصى ما في وسعك..

لن تصل طبعاً وحتماً لذروته..

ولكن ما رأيك بخطوتين أو ثلاث بعده؟..

هل هذا كثير أيضاً؟.. هل من "التجديف" أن تفكر به مجرد التفكير؟.. ما رأيك لو أنه هو - عليه الصلاة

والسلام - رفع من معنوياتك.. ووضعك في موضع افتراضي، يمكن لك أن تأخذه؛ موضع لا تجرؤ حتى على التفكير في نيله؟..



.. لم يأتوا بعد ؟

أي شيء، في "الآل".. تعتقد أنه الأقرب؟..

مهما تكن توقعاتك..

لقد اختار عليه الصلاة والسلام لنا، أو للذين لم يأتوا بعد، والذين لم يولدوا بعد أيضاً، موقعاً قريباً جداً منه..

موقعاً لا نتوقع عادة أننا نستحقه..

ربما نحن لا نستحقه، لكنه عليه الصلاة والسلام يفسح لنا المجال والموقع.. لكي نعدّ أنفسنا له..

أي موقع؟..

موضع قريب جداً.. بمقاييس الآل..

موقع "الأخوة".. أخوته عليه الصلاة والسلام..

نحن؟.. نحن نأخذ هذا الموقع؟.. كيف؟..



قال عليه الصلاة والسلام، عندما أتى المقبرة : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين. وددت لو أني رأيت إخواني، " قالوا (الصحابة): أولسنا إخوانك يا رسول الله؟..

قال: "أنتم أصحابي.. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد"..

(رواه مسلم، باب استحباب إطالة الغرة ٦٠٧، ومسند أحمد ٩، مسند أبي هريرة، سنن النسائي ١٥١، ١١٠ باب حلية الوضوء)..

❖ ❖ ❖

إخوانه هم أولئك الذين لم يأتوا بعد.. ولأن المسيرة مستمرة فإنهم يكونون أحياناً.. "لم يولدوا بعد".. ثم إنهم يولدون، ويكبرون، ويتلمسون ذلك الطريق عبر ذلك السراج، ويسيرون فيه حثيثاً، خطوة بعد خطوة مسرعين أحياناً، متلكئين أحياناً، ومتعثرين في أحيان أخرى..

لكنهم، بعد كل ذلك، ومع كل ذلك، يصلون، إنهم "يأتون".. ويكون مجيئهم مثل ولادة جديدة لهم..

وينضمون بذلك إلى آل محمد.. برتبة "إخوانه" عليه الصلاة والسلام..

أو كما قال..



وآخرون من بعدهم.. يمرون بالأطوار نفسها، يولدون، ويأتون، ويولدون حقاً من جديد، وينضمون إلى الآل.. بتلك المرتبة العالية.. رغم تطاول القرون، وتباعد المسافات، ورغم كل تصوراتنا المتدنية عن إمكاناتنا..

ولقد ودَّ لو أنه رآهم.. أولئك الذين لم يأتوا بعد..

(هل أستطيع أن أقول لو أنه رآنا.. بدلاً من (رآهم) على أمل أن نكون منهم؟)..

.. الوصول إلى تلك المرتبة العليا في الآل، مرتبة إخوانه عليه الصلاة والسلام، هي بالتأكيد أعلى ذروة يمكن أن يصلها إنسان؛ إنها المرتبة التي تكون أقرب ما يمكن إليه..

قاب قوسين أو أدنى منه.. عليه الصلاة والسلام..

وتلك المكانة، هي ذروتنا، هي منتهى ما يمكن أن نصل إليه.. إنها أعلى شوط يمكن أن نمضي إليه..

إنها "سدرة المنتهى" التي تخصنا..

قاب قوسين أو أدنى منه عليه الصلاة والسلام.. على دربه ومسيرته نحو ذلك العالم الآخر..



وهل سنكون متأكدين من أننا وصلنا هناك؟..

أبداً.. عندما تكون واثقاً من ذلك فكن واثقاً أنك قد خرجت من الآل، وأن عضويتك قد سحبت منك..

قوانين الانتماء إلى هناك تحتم ذلك، أن تظل دوماً تحاول الدخول والمكوث، أن تظل تحاول اقتناص الحدود الزئبقية لتلك السدرة.. سدرة المنتهى التي تخصنا، التي يغشاها ما يغشى..

إبداعك، وفعلك، وفاعليتك، يتطلب ذلك..

اتباعك الحقيقي الذي سيدخلك في آل محمد، سيتطلب منك ألا تكون واثقاً تماماً من أنك قد دخلت..

في الوقت نفسه، ورغم اتباعك الحقيقي يحتم عليك أن تكون واثقاً تماماً أن ذلك يدخل ضمن إمكانياتك..

ولن يكون ذلك يسيراً طبعاً، ولعلك لن تتوقع ذلك.. فلا مخاضَ دون أوجاع وآلام.. والانضمام إلى آل محمد مخاض آخر، مخاض يلدك من جديد شخصاً آخر.. إنساناً فاعلاً.. متجاوزاً حدود فرديته إلى حدود العالم الذي يشارك في بنائه ووضعه على أسس أكثر عدالة وتوازناً..

ولأن الأمر صعب جداً.. أمر الانضمام هذا.. فإن كل المسلمين، يدعون الله أن يصلِّيَ على آل محمد.. أن يقويهم، أن يزيدهم قوة وثباتاً، أن يمدهم بالقوة، وبالرحمة، أن يمدهم بالمزيد من الأفراد المنضمين..

هذا هو، تقريباً، معنى صلِّ وبارك على آل محمد التي نقولها عند سدرة منتهى الصلاة..



وذات يوم سيكف ذلك عن كونه مجرد دعاء نقوله.. سيكف عن كونه مجرد كلام..

وستخرج الكلمات من أسر الأحرف، من أسر الصفحات البيض، ستخرج لتكون فاعلة في العالم..

وسيكون هناك ذلك الانضمام المضيء إلى آل محمد..

ذات يوم، سيحدث ذلك حقاً.. لا أعرف متى، لكنني أعرف دلالة لحدوث ذلك، علامة مميزة له.. إنه أن تنظر للعالم، فإذا به عالم آخر.. عالم آخر غير هذا العالم المروع المليء بالظلم والجوع والقتل و الهجرة و التهجير

و الجثث المرمية في العراء والأيتام الذين ينتظرون عودة من لن يعود..

عندما ينهض ذلك العالم الآخر الجديد، عندما يكف عن كونه "ممكناً" ليصير "واقعاً"..

يكون ذلك قد حدث..



خاتمة، أوبداية: فجر جديد

عما قليل يطلع الفجر..

لكن هذا الفجر الذي سيطلع بعد قليل، هو الفجر الذي يتحدد بوجودي في خط طول أو عرض معين..

لكن، لو خرجنا عن حدودنا الشخصية، وخطوط الطول والعرض التي تخصنا، لأدركنا أن في كل لحظة، في كل ثانية، في هذا العالم، ثمة فجر جديد يشرق على هذا العالم..

كل لحظة يوجد "حيّ على الصلاة".. نداء من أجل حياة أخرى.. حياة مبنية على أسس أخرى: أسس بينتها لنا الصلاة..

إنها حياة "أوكسجينها" الصلاة.. حياة حقيقية، ستبدو كل حياة أخرى سواها مجرد موات مقنع..

مع كل فجر، في كل لحظة، سيكون هناك "الصلاة خير من النوم"؛ ولن يكون ذلك النوم السريري فقط.. بل ذلك النوم التاريخي الذي هو مرادف للموت السريري.. بفارق أن أصحابه يسيرون في نومهم، ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويتزوجون وينجبون أطفالاً يعلمونهم كيف يستمرون في النوم خلال ذلك كله..



وستود لو أن كلمات الأذان تتجاوز آذان الناس إلى رؤوسهم؛ تصعقهم، توقظهم، بطريقة ما.. ولو بصفعهم...

ستود أنك تعرف "كلمة سر" تقولها فتغيرهم إلى الأبد،

ستود أن هناك كلمة أو مجموعة كلمات تقولها فتقدح في أنفسهم شرارة التحول، شرارة التغيير..

تتمنى ذلك، وأنت تعرف أن الأمر أعقد من ذلك وأنه محكوم بسنن وقوانين تحاول أن تكون جزءاً منها، ثم يأتي من يحاول أن يحبطك ويقول لك: إن محاولات التغيير تلك لن تكون أحسن حظاً من محاولات الكيميائيين الأوائل، يوم كانت كل محاولاتهم و تجاربهم تنصب على المستحيل بعينه: تغيير المعادن الرخيصة إلى الذهب..



.. وطويلاً بحث أولئك الكيميائيون عن "حجر الفلاسفة" ذاك، الذي لم يكن سوى أسطورة تخيلوا أنهم عبره سيتمكنون من فك شيفرة العناصر، وتحويل العناصر (التي كانوا يسمونها الخسيسة) إلى معادن ثمينة..

لكن لا..!

أنت لا تبحث عن "حجر الفلاسفة"..

لأنك واثق تماماً من نبل معادن هؤلاء الناس الذين يجب أن يتغيروا ..معادنهم ليست خسيسة كي تحاول تغييرها.. حتى لو بدت أنها كذلك للوهلة الأولى، كل ما في الأمر أنهم لا يعرفون نبلها لأن الصدأ تراكم عليها و غطى على كل صفاتها وفعاليتها..

كل ما تريده هو أن تجلو الصدأ الذي ران على حقائقهم..

لا تريد "حجر الفلاسفة" وأوهامه وطلاسمه وألغازه التي تفترض أن تحول معدناً إلى آخر..

بل تريد إرث محمد عليه الصلاة والسلام، تريد "حجر النهضة" الذي يعيد الإنسان إلى حقيقته ويجلو ما تراكم عليه.. ويجليه إلى موقعه الأصلي ومكانته الأولى..



وإذا كانت محاولات البحث عن "حجر الفلاسفة" قد فشلت، لكنها ساهمت في تعبيد الطريق إلى علم الكيمياء الحديث، فإن الطريق إلى "حجر النهضة" لا بد أن يمر" بكيمياء الصلاة"..

وحدها كيمياء الصلاة ستتمكن من الوصول إلى ذلك التغيير، وحدها ستتمكن من إعادة المعدن الإنساني إلى جوهره..

سيبدأ الأمر بكهارب تسري في عروق ناس عاديين.. ثم تجتمع الكهارب لتصير شرارة..

ثم إن الشرارة ستقدح الزناد..

وعندها سيحدث ما "سيحمد عقباه"...

ريثما يحدث ذلك، ومن أجل أن يحدث ذلك: حيّ على الصلاة...

(انتهى.. مع كل الأسف، انتهى

ولكن لعله ابتدأ الآن فقط)

دمشق فجر يوم ٣١/ ٣/ ٢٠٠٨م-

الموافق ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٩هـ



مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني - عبر الصلاة - فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

الحلقة الخامسة من السلسلة تتألف من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وتسلط الضوء على المعاني المحتواة في جلسة التحيات الأخيرة في الصلاة، التي تنتظم هنا لتمسك بكل المعاني في منظومة النهضة التي مثلتها الصلاة. ففي جلسة التحيات تنتظم علاقتنا بالرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، ومن خلال علاقتنا به، سنحدد دورنا في عملية النهضة، التي بدأها هو، صلى الله عليه وسلم.

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Episode Five of this series consists of an introduction, five chapters and a conclusion. It highlights the meanings included in the sitting for saying the final *tahiyyat* in prayer. These meanings appear in order and in a way that they involve all the senses found in the syndrome of revival that prayer represents. This is because while sitting for saying *tahiyyat*, our relation with the Messenger (pbuh) gets regulated, and through our relation with him we will determine our role in the process of revival which he (pbuh) started.

Lote Tree of the Utmost Boundary
Sidrat al-Muntaha
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

كيمياء الصلاة ٥
سدرة المنتهى

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

في الحلقة الخامسة والأخيرة نصل إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه في هذا العالم. وإذا كانت كل هيئات الصلاة تمحورت حول العلاقة مع الله عز وجل؛ فإن جلستنا الأخيرة ستكون حول علاقتنا بالإنسان الأهم في حياة كل منا؛ الإنسان الذي تمكن فعلاً من تجسيد معاني النهوض والبناء كلها، ذاك الذي لولاه لكانت هذه المعاني مجرد أفكار هائمة، بينما تمكن **هو** من بنائها على أرض الواقع، **صلى الله عليه وسلم**، علاقتنا به، خطوطها وخنادقها، ستكون (حجراً للنهضة).. حجرٌ هو في حقيقته ***منصة الانطلاق***.


ISBN -9953-511-70-5

تصميم الغلاف: يمان بطيخ